

رواية

الغرفة الزهراء

«إذا كان لا بد أن أموت

فلا بد أن تعيش أنت

لتروي حكايتي»

«الشاعر رفعت العرعير رحمه الله»

وليد الهودلي

الغرفة الزهراء

رواية

* وليد ابراهيم الهودلي

* الطبعة الاولى : 2025

* جميع الحقوق محفوظة.

* تدقيق لغوي : د. عبد المجيد حامد

* رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية (Ps-2025-85)

* دار يافا للنشر والتوزيع - رام الله - هاتف : 059-818-0087

جميع حقوق الطبع محفوظة ، لا يسمح باعادة اصدار هذا الكتاب او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله او استنساخه باي شكل من الاشكال من دون اذن خطي مسبق من الناشر.

الإهداء

لأهل غزّة الكرام

وأسرانا العظام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رواية

الغرفة الزهراء

«إذا كان لا بد أن أموت

فلا بد أن تعيش أنت

لتروي حكايتي»

«الشاعر رفعت العرعير رحمه الله»

وليد الهودلي

الغرفة الزهراء

(أ) توَحَّش القمعه في السجون

في صبيحة السابع من أكتوبر لعام ألفين وثلاثة وعشرين ميلادية عاد المعتقل نائل النوراني (ابن الأربعة والأربعين عاماً قضاها في سجونهم السوداء) من ساحة الرياضة في سجن نضحة إلى زنزانتة التي كان يطلق عليها الزنزانة الزهراء (سنعرف فيما بعد لماذا أخذت هذا الاسم)، عاد من رياضته ليوقف صديقه الكفيف علاء الصقر (ابن الأربعين عاماً في السجن) وهو يغط في نومه، على غير عادته هز علاء من قدمه، وبصوت عالٍ يريد منه أن يسمعه ويُسمع كل النيام في الزنزانة:

- «يا نائم، راحت عليك الغنائم، نائم على ذاك والدنيا قايمة قاعدة.»

«تململ علاء، ووضع نظارته السوداء على عينيه وهتف:

- يا شباب هناك أمر جلل، حركات نائل هذا الصباح لا يمكن إلا أن تأتي بنبأ عظيم.»

«تململ بعض الشباب، هتف أحدهم:»

- وماذا ستكون، الإفراج عن أسرى وفاء الأحرار، مثلاً؟

رد نائل بزهو وانتشاء:

- الأمر أعظم من هذا بكثير، بكثيرٍ بكثيرٍ يا شباب، ولا في الأحلام.

«هتف علاء بصوت مشدود يحاول مغالبة النعاس الذي ما زال يجرد ذبوله بصعوبة:»

- احكي يا ابن الحلال، إمّا أن نقول لك ألهدنا أزعجتنا وطيرت النوم من عيوننا أو ...

- ألك عينان حتى يطير النوم منهما. «قالها نائل وهو يقبض على ريموت التلفاز.

ثم أردف:

- لن أخبركم بشيء، اسمعوا مباشرة من التلفاز.



الغرفة الزهراء

«الأخبار تترى الواحد تلو الآخر، نجاح قوات القسام في عبور الحدود الفاصلة لقطاع غزة والسيطرة على مستوطنات ما يسمّى بغلاف غزة، انهيار الفرقة العسكرية المكلفة بحماية تلك المستوطنات، سيطرة كتائب القسام على مواقع عسكرية بالصوت والصورة، جرّ كثير من الأسرى الإسرائيليين إلى

هتف علاء:»

- والله يا جماعة الخير كأننا في حلم.

- لكنّها رؤية صالحة. «ردّ عليه نائل»

«وانطلقت التحليلات في الغرفة من كل صوب وحذب، دبّت الحياة والحركة فيها، أصبحت كأن الحرب قائمة فيها وكأنّها بالفعل ساحة حرب.

«هتف علاء والفرح يشعّ في وجهه:»

- والله أخوكم نائل غاب وجاب يا جماعة الخير.

- «هيك ناشفة، خبر من هذا النوع يلزمه فكّ رقبة. «ردّ عليه نائل»

- والله إذا روّحنا يا نائل إلا غير أكبر رقبة.

«هتف عبد الناصر (ابن الثلاثة والثلاثين عاماً في السجن) بحماس:»

- مع هذا الخبر، أنا أرى الترويجة صارت على الباب يا شباب.

«تابع رائد (ابن العشرين عاماً في السجن) بذات الحماس:»

- روّحت يا شباب.

«وأردف نضال (ابن الثلاثة والثلاثين عاماً في السجن):»

- والله الشباب في غزة كانوا ساكتين على غشّ.

- شغل نوعي، احتراي، غير مسبوق.

- والله كفتت ووفيت يا أبو إبراهيم. (يقصد يحيى السنوار).

- ما روّح في صفقة وفاء الأحرار وحطّ رأسه ونام، روّح يعمل ويبدع، بل ويُبهر.

- نحن أدرى الناس بأبي إبراهيم، عاشق للقدس وفلسطين ويؤمن إيماناً يقينياً بقدرتنا على تحريرها من النهر إلى البحر، صاحب إرادة حرّة وعزيمة تناطح الجبال.



الغرفة الزهراء

- ولا تنسَ بأنه يتمتع بقدرات وخبرات أمنية بلغت ما بلغت، وهذا من تجلياتها، ما هذا التفوق على الأمن الإسرائيلي، ومفاجأتهم بهذه المعركة المذهلة؟

- ولا تنسوا إذا أضفنا هذا إلى قدرات الشيخ صالح العاروري في العلاقات العامة التي صنعها خارج فلسطين، وتنسيق الجهود مع محور المقاومة والاستثمار في وحدة الأمة وتسخير قدراتها في دعم قضيتها المركزية فلسطين.

- هو لا شك فريق عمل متكامل، ولكن للرجلين ثقلهما في هذا الفريق.

- كذلك لا تنسوا فضل هذه الزنزانة الزهراء؛ فكم من العقول مرّت بها وأزهرت.

« هتف نضال: »

- وهذا من فقه الابتلاء، ظاهر الأمر عذاب، وباطنه صناعة الرجال.

- أعتقد يا سيدي نضال بأنه سيُزاد لنا في البلاء هذه الأيام، كي يُزاد لنا في الجزاء. «هتف نائل»

- ولا جزاء ولا بلاء، جهزوا حالكم يا شباب، أبراشكم على الباب.

- المهم، المقاومة كسرت هيبتهم وضربت غطرستهم وجابتها بالأرض.

- أعتقد أننا في هذه الزنزانة أكثر الناس معرفة بقيادة الطوفان، كلهم عشنا معهم في هذه السجون، خاصة أبا إبراهيم والشيخ صالح والبقية التي أضحت بين ثائر وحكيم، وهذا يعطينا القدرة على تقدير الخطوات المقبلة. « هتف عبد الناصر بعد أن خرج من ذهوله. »

- ولكن هل كنت تتوقع هذا الطوفان؟

- لقد فاجأنا السنوار. «أجت على الوزن».

- مفاجأة ولا في الأحلام.

« هتف عبد الناصر: »

- منذ أن تحرر أبو إبراهيم وأنا لا شعر أبداً بأنه بعيد عني، روحه تلامس روحي، أصلا هو بداخلي لما ترك من أثر فكري وروحي في بناء شخصيتي منذ التقيته بداية التسعينيات.

وهتف رائد:

- وأنا مثلك، بالإضافة للشيخ صالح.

« وعلق نضال وهو منشرح الوجه والصدر: »



الغرفة الزهراء

- تغادر أجساد هؤلاء الربانيين، لكن تبقى أرواحهم ترفرف حيث ما حلوا أو ارتحلوا.

- وهل من الممكن أن يخرج من قلوبنا مثلاً الشيخ نضال؟ « تابع رائد.»

- بارك الله فيكما: هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف»

عدل علاء ظهره بعد سيل هذه التصريحات، وهتف بصوته الهادئ الرزين:

- اسمعوا يا شباب: أمامنا بحر من الدماء، أعداؤنا لن يستسلموا لهذا الطوفان بسهولة، أمامنا أيام صعبة وقاسية، ستقوم حرب طاحنة، وسيُخرج أعداؤنا كل شرهم وأحقادهم في هذه الحرب.

- لازم ينقع الغراب. « رد عليه نائل مازحاً»

- غراب وإلا بوم، أنا إنسان موضوعي، بعيد عن العاطفة أمام انتصار المقاومة المدوّي هذا، لا يمكن للاحتلال إلا أن يفتح حرباً ضروساً مُدمّرة. أنا أزعم أنني أعرف عقليتهم المجرمة جيداً.

- الله يكفيننا شرك وشر تحليلاتك.

بالفعل في اليوم التالي أعلنوا الحرب على غزة، وفي الوقت ذاته فتحوا حرباً ثانية في السجون، صبوا جاماً أحقادهم هنا وهناك، ولم يرقبوا في المعتقلين إلا ولا ذمة، تحوّلت السجون بين عشية وضحاها من مكان للاضطهاد (لنقل) المعقول، نسبة لما حدث بعد ذلك، أصبح الاضطهاد مجنوناً وتحوّلت السجون إلى جهنم بكل ما تعنيه الكلمة.

صبيحة اليوم الثالث للحرب وصلت فرق القمع إلى السجون (عُرف منها ماز ومتسادا ونحشون وكيتر: أسماء لذات المجرم السادي) كوحوش مفترسة ليس أمامها إلا الانتقام، وكأنه قد قيل لهم: «اذهبوا وانتقموا لما جرى لكم في غزة، استخدموا أبشع ما لديكم من قدرات على التوحش وسوم الأسرى أسوأ ما يتوقعونه من ويلات العذاب، للجيش في غزة أن يدمر ويقتل ولكم هنا أن تعذبوا وتقتلوا فيهم روحهم وكرامتهم وكل مكونات إنسانيتهم، أصلاً هؤلاء ليسوا من جنس البشر، تعاملوا معهم على أنهم حشرات وأفاعٍ وصراصير، اذهبوا وانتقموا.

نعتت مكبرات الصوت بطريقة استعراضية مستفزّة بعد نضير مكبرات الصوت الذي يفصح عن حالة الاستنفار والطوارئ:

- جاءكم «النحشون» يا حيوانات، مضى عهد الرفاه وجاء عهد الحزم والجِد، أخرجوا كل الأجهزة،



الغرفة الزهراء

تلفزيون، راديو، بلاطة كهرباء، ولو سلكاً أو وصلة، سنضرب بيد من حديد كل من يخالف التعليمات، مفهوم يا حيوانات؟؟». « مع مدّ كلمة حيوانات.

وكان هذا الصوت مترافقاً مع احتمال أعداد هائلة من القوّة التي تسمّى « نحشون»، ثم يسبق أن دخلت أعداد بهذا الشكل من ذي قبل، وهي مزوّدة بكل أدوات القمع، جرار الغاز وهي أشدّها قسوة على نفوس المعتقلين لأنها تشلّ حركتهم وتملأ صدورهم من الغازات السامة التي تُفقدهم توازنهم وتضيق عليهم أنفاسهم، ومزوّدين بالعصي الحديدية والكهربائية والقيود الحديدية والبلاستيكية والبنادق التي ترمي بالرصاص المطوّري الذي يضرب العظم ويشلّ العضل. ومعهم مجموعة كلاب ضخمة مدربة تتحرّك بأمرهم، قد ألبسوا وجوهها قوالب من شبك الحديد، تبرطم وتفتلت كأنها تنشد ضائلة قد وجدتها في المعتقلين، وفوق هذه الأسلحة ما سلّحت بها قلوبهم من حقد لا يرى الفلسطينيين إلا أنّهم محلّ لغطرتهم وعنصريتهم السوداء.

يحتوي القسم على ست غرف طابق أرضي، ومثلها طابق أول، تُشرف الغرف على ساحة تمتدّ على طولها بعمق ستة أمتار تقريباً، من يرم ببصره من المعتقلين داخل الغرف يرتدّ بصور الساحة على هذه المسافة القصيرة التي تقصّر أفق النظر والتفكير، يراد منها أن تجعله ضيقاً وقصيراً، ومن أحد طريقي الساحة يقف باب القسم متحرّزاً مع غرفة الحراسة والأمن المتربّص بكل حركة صغيرها وكبيرها والضابط لإيقاعها، الكترونياً من خلال شاشة متصلة بمجموعة كاميرات وكهربائيات تتحكّم بفتح وإغلاق بوابة القسم وبوابات الغرف، وهناك أيضاً تحكّم بصري من خلال نافذة عريضة كاشفة للقسم.

تحلّق الخمسة كأنهم في اجتماع طارئ، بدا القلق والتوتر واضحين في وجوههم، بدت عاصفة تسبق عاصفة غير معروفة الملامح، ولكنّها من الواضح أنها ستكون مريعة، رائد زار قائلاً:

- نحن لهم، وما في أحلى من الشهادة في سبيل الله.

« ردّ علاء محاولاً المحافظة على هدوئه بصعوبة فائقة:

- اسمع يا رائد، اسمعوا يا شباب، هؤلاء اليوم كالذئب الجريح، يجب أن نتحلّى بضبط النفس.

- أيّ ضبط نفس هذا، ألم تسمع ما قالوا؟

- سمعته جيداً، يجب أن لا نعطيهم ما يبرّر إنفاذ أحقادهم فينا.

« وأكد ذلك نائل أيضاً:»

- بالفعل يجب أن نتحلّى بضبط النفس ما استطعنا لذلك سبيلاً.

« تابع عبد الناصر:»

- واضح أنّهم قد أبطنوا نيّة سيئة، هذه هي السياسة العنصرية الحاكمة للكلب ابن غفير (وزير ما يسمّى



الغرفة الزهراء

الأمّن القومي، وهو من أشدهم تطرفاً وعنصرية) وقد جاءتهم الفرصة لتنفيذها.

وقف علاء وشدّ أوتار صوته هاتفاً:

- أقترح يا شباب أن نعمّم على الشباب أن يتحلّوا بضبط النفس.

«ردّ عليه رائد:»

- هذا انبطاح قبل أن تبدأ المعركة.

«ردّ عليه علاء:»

- يا رجل، أنت تسمّي هذه معركة؟ ماذا بوسعنا أن نفعل، مع رشّة الغاز الأولى نرتمي أرضاً، هيا يا شباب لا تضيّعوا الوقت، نادوا على القسم واطلبوا من الشباب أن يتحلّوا بضبط النفس. ولو كان السّنوار معنا لما فعل غير هذا.

قال نائل مازحاً:

- هذا الشباب، أمّا أنت أيها الكهل فعليك أن تقاوم.

- أنا خلفك أيها الرجل الحرّ.

«وقف عبد الناصر وصاح بأعلى صوته:»

- يا شباب تحلّوا بضبط النفس، لا تعطوهم أيّ مبرّر، هذا قرار من التنظيم.

«هرعت قوّة كبيرة من هذا الحشد المستشرس إلى حيث صدر الصوت، توثّبوا خلف ضابط يقودهم، سأل الضابط متتمّراً:»

- من منكم رفع صوته.

....

- حسناً.

هرّأسه السمين وأشار لحامل جرّة غاز، وضع خرطومها في طاقة الباب التي عادة ما يدخلون منها الطعام، ثم فتح الغاز لتتحوّل الغرفة في ثوان معدودة إلى غيمة سوداء ترمي بثقلها على صدور من في الغرفة، هالتهم سرعة ضخّ الغاز فألقوا بأجسادهم أرضاً وهي منهكة قد اجتاحتها الغاز القاتل ليعمي الأبصار ويثقل هواء الصدور، عطس شديد ودوار وإنهاك، علّ هذه الغمامة السوداء تنقشع قليلاً بارتفاعها أعلى الغرفة، كلّ من في هذه الغرفة له خبرة مديدة في هذا الغاز الذي يفتّح به القمع ومهاجمة المعتقلين، لدى كلّ منهم سجل حافل وتجربة مريرة مع هذا الغاز، ضخّه في غرفة مغلقة يختلف كثيراً عن إلقاء



الغرفة الزهراء

قنابل الغاز في الشوارع على المظاهرات، سرعان ما تذرّوه الرياح في الخارج بينما في غرفة السجن يطيب له البقاء طويلاً، وتتشرّبه الأغصية والبطاطين والجدران الرطبة، ليبقى أياماً طويلة، كلما تحرّكت أخرجت من مدّخراتها بودة هذا الغاز القاتل.

ثم إنهم فتحوا الباب وهجم كلّ اثنين منهم على أسير بكامل قوّتهم ليقيدوا اليدين إلى الخلف والقدمين بقيد آخر، أصبح المعتقلون - خلال ثوان معدودة وقد أقعدهم الغاز ثم جاء هذا القيد ليحكم الوثاق بشكل كامل - أصبحوا بين الحياة والموت والألم يضرب صدورهم ومكان القيد من أيديهم وأرجلهم، ثمّ سحلّوهم إلى ساحة القسم ليبدأ الضرب بالعصي الحديدية على رؤوسهم وأيمنما وقعت العصي على أجسادهم المنهكة، وكانت صرخات الألم المخنوقة مع صوت العصي وهممة الكلاب تُحدث رعباً لا حدود له، الكلاب أجرت من ناحيتها بضرب رؤوسها المشبّكة بالحديد برؤوس الأسرى، سالت الدماء غزيرة من الرؤوس وانتشرت أوجاع ما كُسر من أضلاعهم انتشار النار في الهشيم.

علاء هجموا عليه دون أن يأبهوا برأسه الذي اشتعل شيباً ولا بكونه ضريراً، سحلّوه بكلّ ضراوة وأشبعوه ضرباً، وكانت سياط الألم النفسي أشدّ وطأة من آلامه الجسدية، « بعد أربعين سنة في السجن يجري التنكيل بنا على هذا الوجه المهين، بسبب أو دون سبب، من أنتم ولماذا؟ أعلم أن ضربة المقاومة لكم كانت قاسية ولكن هذه حرب كرّ وفرّ، يستبعدون على العقل الفلسطيني أن يتغلّب على العقل الصهيوني، هذه الغلبة في هذه الجولة قلبت في رؤوسهم الموازين، هناك إمكانية لأن يُهزّموا وأن يكون الانتصار حليف من يعتبرونهم حيوانات ولم يصلوا ولن يصلوا أبداً إلى درجة الإنسان التي يتمتّعون بها.

هناك فارق جيني كبير، هذا اعتقاد ديني حاسم، كيف إذا تفوّقوا علينا، مجرد التفكير في مبارزتنا هو الجريمة عينها، هؤلاء فكروا وخططوا وحافظوا على السرية التامة على عملية كبيرة شارك فيها على أقلّ التقديرات ألف وخمسمائة رجل، تخطيط محكم بسرية بالغة وتنفيذ بارع، أيّ عقل هذا الذي تعاملوا معه أنه دونهم، فإذا به يقلب المعادلة؟ هذا هو مصابهم الجلل، ماذا عساهم أن يصلحوا في هذا الخلل، هل يتصوّرون إصلاحه بهذا البطش والانتقام؟ »

نائل من جانبه كان يلتحف آلامه بحديث مع نفسه عمّا جرى لهم في ذلك اليوم المشهود: « فليفعلوا ما يحلو لهم، لقد انتصرت المقاومة، انتصر الكفّ على المخرز، وانتصر الدم على السيف، لقد أكلوها في اليوم السابع من أكتوبر، ذاقوا بأس قوم مؤمنين، تجلّت الذات الثورية في نفوس عرفت من أين تؤكل الكتف، بناء عقائدي عظيم على موائد القرآن، صنع رجالاً يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، تجلّت في أرواحهم أعلى درجات التضحية والفداء، فداثيون بكل ما تعني الكلمة، لا تعرف قلوبهم الوهن والخوف والجبن بل ملئت شجاعة ونخوة وكرامة وعشقاً للشهادة، تشرّبت نفوسهم عزيمة الانتصار وتبخر منها كل شيء يدعوهم للجبن والخور والتراجع، هذا هو انتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر، ولكلّ رجاله، لقد سطّروا بفعلهم العظيم هذا أعظم معاني الإيمان الثوري، الإيمان القادر على



الغرفة الزهراء

تحقيق الانتصار، ليعذبونا كما يحلو لهم، ولنمُت ألف مرّة فلن يُذهب هذا منّا حلاوة الانتصار. »

بقية غرف القسم شرعت بالتكبير والضرب على الأبواب كما تعودت السجون بمثل هذه الحالة، أن تعبر عن احتجاجها بهذه الطريقة، تناولتهم خراطيم الغاز غرفة غرفة، يعلو أزيز العطس في الصدور وتتحشج صيحات «الله أكبر» ثم يهدم ويلوذ بصمت مرّ، يستحوذ عليهم إنهاك وألم وغضب وقهر.

شباب الغرفة في الساحة تتبدّل عليهم بين الحين والآخر مجموعات القمع لتضرب بعصيهم الحديدية فترتدّ صرخات الألم والقهر بلا حدود، منهم من أغمي عليه وأفاق دون أن يحاول أحد إخراجهم من هذا الغياب، أخرجته الضربات المتعاقبة على جسده.

بعد ساعتين من هذا الضرب المتوحّش (طبعاً المعتقلون رأوها دهرأ من الزمن) نصبوا علم الاحتلال في طريق العودة الميمونة من ساحة الجلد والعذاب، إلى غرفة ضُخّ فيها ما يكفي عشر غرف من الغاز، فرقة الشرطة اللعينة تملأ الساحة بكامل عدة العذاب، منهم من يمسك بحبل من طرف وطرفه الثاني يتلمّظ ويتفلّت كلب ضخم متوحّش على الأجساد التي أنهكها الألم، تارة يرخي الحبل للكلب ليضرب برأسه المشبك بالحديد رأس أحد الأسرى، واضح أنهم يريدون كذف كميات هائلة من الرعب في قلوب الأسرى، أو لنقل في هذه المرحلة لا يلوح في أفقهم الضيق إلا الانتقام، وتفريغ ما لديهم من سادية أنتها الفرصة المناسبة.

نعق أحد ضباطهم:

- على كل أسير أن يحبوا اتجاه علم إسرائيل العظيم، فيؤدّي له التحية، ويُقبله ثم يعود إلى غرفته.

« زمجر ثم زعق: »

- هيا يا حيوانات، هيا يا كلاب، أعتذر لكلاينا العظيمة، فالواحد منكم لا يساوي أظفر كلب من كلاينا الجميلة. هيا، هيا تحية للعلم ثم قبلة له جميلة ثم إلى الغرفة.

أفاق نضال من الحالة البلائية التي كان يستغرق فيها متجاوزاً لآلامه مع كلمة «أحد أحد» الخالدة، « أنت الحبيب وكل عذاب في طلب المحبوب هو هين، ما يصيبنا من هؤلاء زيادة في القرب وتجلّ من تجليات حبنّا لك، هذا حبنّا لك فما بالنا بحبك لنا فأنت سبحانك القائل: «يحبهم ويحبونه».. «الحبيب هو الله وحدها كافية لبسمة كلّ هذه الجراح، هذا الحبّ هو الحزن الرؤوف الودود اللطيف، يفيض علينا من هذه النعم ما لا يستطيع له البشر وصفاً» وهؤلاء يريدون منّا تقبيل علمهم المنحطّ الدنيء، ويا ما أحلى الموت في سبيل المحبوب.

« رفع رأسه المخضّب بالدماء عن الأرض، وحاول أن يرفع جذعه وبأعلى صوته صرخ: »

- أنتم تحلمون، تستطيعون ضربنا وتعديننا كما يحلو لكم، تستطيعون قتلنا، افعلوا بأجسادنا ما بدا لكم،



الغرفة الزهراء

لكن لن نسمح لكم أن تمسخوا أرواحنا.

« بإشارة من كبيرهم هجمت مجموعة لتضرب بعصيها نضال ويكل ما أوتيت من قوة، وهجمت فرقة الكلاب على البقية، نضال ومن معه أغمي عليهم، سحلوهم نحو غرفتهم وألقوهم بها كما تلقى بضاعة مزجاة، كل ما في الغرفة تمت مصادرتة، التلفاز والراديوهات الصغيرة والملابس والأغطية وبعض ما يؤكل من مشتريات « الكنتين»، أصبحت جرداء سوى من صدى أصواتهم المكبوتة عندما يبوح أحدهم بشيء مما يعتمل في صدره».

وقف أحد الغربان أمام الغرفة ونطق بتعاليم السجن الجديدة:

- لقد تغير كل شيء ما بعد هجوم حماس الهمجي، لم يعد شيء من التفاهات والاتفاقات السابقة قائماً، اسمعوا التعليمات الجديدة والويل لمن يخالفها، ليس له إلا ما شاهدتم وهذه بداية الطريق فقط.

ممنوع الاحتجاج، ممنوع رفع الصوت، ممنوع الصلاة جماعة، ممنوع الخروج للفورة حتى إشعار آخر، ما في كهرباء إلا وقت ما نريد، والماء ساعة في اليوم تشربون فيها وتأخذون حماماً، ممنوع تلفزيون، راديو، وأي جهاز كهربائي، ممنوع زيارة، ممنوع المحامي، العدد وأنت على ركبك ورأسك للأرض، ممنوع تمثيل اعتقالي، ما في تنظيمات، كل واحد يمثل حاله، لما يحكي معك شرطي تقول له: حاضر سيدي.

صرخ رائد خامس الخمسة من داخل غرفته بأعلى صوته ومن قحف صدره:

- أنتم ما زلتم لا تعلمون من هو الفلسطيني، هذه تعليمات ابن غفير الحاقدة، احكوا له «ينقعها ويشرب ميتها».

طبعا فتحوا الباب وشحطوا رائد والعصي تنهال على رأسه وبدنه من كل جانب، هم نضال أن يتحرك من تحت ركام آلامه فمسك به نائل وهمس في أذنه:

- دخيلك الوضع لا يحتمل. حياتنا اليوم تغيظهم أكثر من مامانا.

هتف علاء بصوته الهامس قسراً:

- يا جماعة، فعلاً الشجاعة هذه المرحلة في ضبط النفس.

رد نائل بصوت ما بين الهمس والجهر مازحاً:

- ما تخيلت إنه الصقر يتحوّل إلى نعامة.

- وإذا لزم الأمر يتحوّل إلى دجاجة. التهوّر ليس من الشجاعة في شيء. « تابع علاء»

هتف نضال من أعماقه:



الغرفة الزهراء

- بالله عليكم اتركوني أمت في سبيل الله.

« بحسم قاطع مانع همس علاء: »

- سنتركك ولكن عندما يكون هناك مقابل، أما أن تموت مجاناً فلا.

- نعم.. فما الجدوى السياسية من معركة غير متكافئة، والخسارة المحتملة للطرف الضعيف؟

« صرّح عبد الناصر بعد صمته المعروف بطولته دوماً. »

تبسّم نائل وهتف:

- أخيراً صرّح السياسي المخضرم.

- دراسة الجدوى لأية معركة من ضرورات العمل الناجح، وحتى لا تصبّ جهودنا وتضحياتنا في صالح أعدائنا.

« اعترض نضال: »

- هذا في الوضع الطبيعي، أما عندما يتمّ المساس بكرامتنا فالأمر مختلف.

« ردّ علاء: »

- في السجون منذ زمن طويل أتقنا العمل بروح الجماعة والفريق الواحد، عليك الالتزام شيخ نضال بما تقرّره الجماعة، نحن في هذه الغرفة نشكّل مصنع القرار والسجن يلتزم بما يخرج من هذه الغرفة، أرواح الشباب أمانة بأيدينا، سنسأل عنها يوم القيامة، أعداؤنا اليوم أعلنوا حالة حرب وطوارئ وبالتالي الصدام معهم لن يجدي نفعاً في ظلّ مجازر يرتكبونها في غزّة، صورتهم دمّرت يوم السابع من أكتوبر وما زالت تزداد سوءاً، لذلك سحب الذريعة التي تدفعهم للمزيد من الجرائم هو المطلوب ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

- وأنا مع هذا الرأي تماماً. « عقّب نائل »

- وأنا مع. فلا جدوى من أية مواجهة في ظلّ هذه الظروف القاسية. « همس عبد الناصر بصوت خبير يسبر أعماق السياسة فيقرأ باطنها قبل ظاهرها، هو بالمناسبة أكمل الثلاثين سنة في السجن جلّها في العلوم السياسية، أكمل تعليمه في الجامعة العبرية ومن ثم نال شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة الزيتونة »

- أنا ألتزم بما تقرّره الجماعة ولكن أبدي تحفّظي، إذ إن هؤلاء القوم كلّما انحنينا أمام عاصفتهم فإن أوارها يشتدّ ويزداد توحّشاً فينا وضراوة.



الغرفة الزهراء

« وهمس علاء حيث اعتاد تذكر السنوار في المواقف الصعبة وعند القرارات الحاسمة:

- أتصوّر أبو إبراهيم السنوار معنا، مع قوّة شكيّمته وشدّته عليهم، إلا أنّ حكّمته لن تسمح له بالتهوّر، سيقف هذا الموقف، اطمئنوا يا شباب.

وكانت أصوات العذاب وصرخات الأسرى تُخبر بأنّ ما فعلوه في هذه الغرفة يجري على قدم وساق مع الغرف المجاورة، وجبة غاز توهن طاقتهم، ثم تكبيل ثم ضرب بعصي الحديد وإفلات الكلاب عليهم، ثم سحل للخارج وهناك حفلة تقبيل العلم، الأسرى يرفضون بالطبع ويتلقون المزيد من الضرب، لم يعد أمام الأسرى أية حيلة إلا الصبر وإغاظتهم بنظراتهم الحادة التي لا يرى فيها الضعف والهوان أو الانكسار.

مرّت ثلاثة أيام والغرف جرداء من كلّ شيء، لا فرشاة ولا أغطية ولا ملابس ولا أية أجهزة كهربائية ولا كهرباء ولا ماء إلا ساعة يفتحونها للشرب من الحنفية دون توفر أيّ إناء لحفظ بعض مياه الشرب، وكذلك لم يحضروا أيّ طعام، فعلى الذين يفكرون بإعلان الإضراب عن الطعام - كما كان العهد سابقاً - لم يعد بالإمكان استخدام هذا السلاح، هم يشهرونه علينا: سلاح التجويع، وغني عن القول أيضاً، فقد توقّف الدواء، لم يشرف « الحوفيش » أي الممرض القسم، إذ إن توفير الدواء في مثل هذا الوضع يعد ترفاً وترفيهاً، وزيرهم المأفون ابن غضير قال عندما تقلّد منصب ما يسمّى وزير الأمن القومي: السجون تعيش في رفاهية. إذن هو الآن يسحب كل ما يعتبره رفاهية، لدينا من يأخذ الأنسولين لأنه مريض سكّري فحرم منه، ماذا لو ارتفع أو انخفض السكري، لا يوجد في الغرفة سكر ولا ملح، هناك من يأخذ دواء للضغط فتوقّف إلى إشعار آخر.

- إنّها حرب ضروس وجبهة موازية لجبهة غزّة، أو قل: جهات متعدّدة فتحوها فيها حروبهم: غزّة، والضفة، والسجون. واضح أنّهم غيروا قواعد الاشتباك.

- بل قلبوها رأساً على عقب.

- وهذا يتطلّب منا الوقوف على ملامح المرحلة المقبلة وأن نغيّر كما غيروا.

- أنا متفائل دوماً بأنّ من نتائج السابع من أكتوبر تبييض السجون. ما يقارب مائتي أسير لدى المقاومة في غزّة، مقابل أسير واحد «شاليط»، أفرجت المقاومة عن ألف ومائة، اليوم الغلّة كبيرة يا شباب، تضاءلوا بالخير تجدوه.

- أملنا بالله كبير.

- اسمع يا سيدي، هذه معركة بدأت بتوفيق إلهي التقى مع إبداع المقاومة، ولن يفارقها التوفيق الإلهي بإذن الله حتى النهاية.



الغرفة الزهراء

- والنهائية طبعاً حسب هذا العصف الذهني هو الفكاك من هذه السجون.

- خاصة وأنها أصبحت لا تطاق.

« تنهد نضال عميقاً وهتف: »

- ليس لها من دون الله كاشفة.

والجنة لها رجالها: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين آمنوا منكم ويعلم الصابرين».

« وهتف علاء: »

- الله يسهّل عليك يا أبا إبراهيم، صاحب الطموح الكبير، كان يستذكر دائماً حياة اللجوء في المخيم، كانت تسكن روحه بكل تفاصيلها، يعشقها وفي الوقت ذاته يعشق العودة إلى الديار وردّ الصاع على هؤلاء المتوحّشين الذين طردونا من بلادنا، طموحه الكبير يقوده إلى التفكير الدائم بأن يكون له دور عظيم في التحرّر والخلّاص من النكبة وكلّ تداعياتها.

« همس نائل: »

- «اطمئن، ها هو خبص الدنيا، خربش الأوراق، كانوا على وشك يطلعوا فيها «هند»، خرب عليهم اللعبة.»

« همس عبد الناصر: »

- هو يلعب الشطرنج ولا يلعب الشدّة سيدي. حوّل طموحه إلى واقع، نفسي أعرف التفاصيل، ماذا فعل من يوم ما أفرج عنه إلى يومنا هذا؟

« تابع علاء بهمس: »

- أكيد لم يجلس في بيته ينتظر الراتب آخر الشهر، خرج ليكدّ ويجتهد في أشرف الميادين، كم من الأسرى وعدونا العمل من أجل تحريرنا ثم إن الدنيا أخذتهم في أحضانها، ها هو السنوار يركب السحاب والمستحيل ليصير من الغيوم حريتنا.

« وهمس نضال: »

- ولا تنسَ الفريق، أنا ضدّ تحميل النجاح لشخص واحد كما اعتادت العرب، تذكرون كتاب (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) حيث أثبت أن النصر لجيل وليس لشخص مهما كانت قدراته القيادية.

- أتفق معك ولكن هناك شخصيات قيادية لها وزن متميّز ومختلف عن بقية الفريق، وكلّ دوره من غير أن ننكر حقّ أحد. الشيخ صالح مثلاً لا يقلّ دوره عن السنوار أبداً، السنوار في ميدان المعركة والشيخ في ميدان السياسة.

- حفظهم المولى جميعاً وفتح عليهم ما يسهم في فتح أبواب هذه السجون قاتلها الله وقبّح وجهها. «ختم نائل»



(٢) رومانسيات رغم أنف السجان

« في الهجع الأخير من الليل كان لعلاء ما يرخي سجايا روحه المتعبة إليه، الابتهاال العميق لمولاه في لحظة أدناه من كل أحبابه، وشعر بقرب روحه من روح محبوبته، قصّ عليها وباح بكل آلام صدره، وكأنّهما على اتصال بالموعد ذاته الذي كان يصل فيه حبل وداده أيام كانت الاتصالات المهرّبة «حبطرش» (متاحة بكثرة)، وكان للأرواح لغتها التي تنسجم وتنصهر فيها روح علاء وروح زوجته. وكأنّ الروحين متقابلتان على سرر موضونة من الوداد والوصال. وجسدّ بخياله توارداً للمشاعر والأفكار كنهز دافق يُبقي القلوب مترعة مبحرة في قارب جمع بينهما رغم أنف العاصفة: »

- أرايت محبوبتي ما فعل الأوغاد بنا؟ لقد عجبوا علينا، نفثوا كلّ سموهم، أخرجوا كلّ أضغانهم وضربونا بكلّ أحقادهم.

دفنت رأسه في صدرها ومسّدتة ثم طبعت قبلة على رأسه وهمست:

- لن يضرّوكم إلا أذى، الله حافظك وسيكفّ شرّهم عنك بإذن الله، أفديك بروحي وحياتي يا قلبي الجميل، يا نبض حياتي، سينجيك الله وتتنفّس حرّيتك من جديد.

- أنت بعد الله أملي، وبناتي منك فروع حياتي الجميلة، سنعيدها سيرتها الأولى رغم أنوفهم.

- حياتي معك هي الحياة التي تسمو عالياً بما أنت عليه نقيضاً لهؤلاء شرّ خلق الله.

- الله الله عندما أسمع هذا الطرب الجميل وهذا اللحن السعيد!

« وتستمرّ هذه الغزليات حتى يغفو علاء على ضفافها، يمتشق سعادة من ركام هذا البؤس والشقاء.»

صبيحة اليوم التالي وعند عدد الصباح نعى أحدهم عبر مكبرات الصوت بصوت كأنه صوت الشياطين، وكان يمدّ آخر الكلمات إمعاناً في السخرية والتبكي:

- تفتيش، تفتيش، تفتيش يا حيوانات. اخلعوا ملابسكم وانتظروا التفتيش، كلّ واحد مثل ما ولدته إمّه يا حيوانات.

« دخلت فرقة «جيتز» حسب ما قالوا، بماذا تختلف عن نحشون، متسادا، لّاز، أسماء يتفنّون في أسمائها وأفعالها، أحدثوا جلبة عالية توحى كأنّهم جيش هولوكو، وهم يضربون بأقدامهم الأرض كأنّهم حيوان مفترس يوشك الانقراض على فريسته. وجوه الأسرى عابسة ومقطّبة تقطّيباً يدلّ على ما يعتمل في صدورهم، الغضب يغلي في الصدور كالمرجل، قصة اخلعوا ملابسكم هذه لم تُبقِ أيّ مجال للتعاطي معها، وضعت الأسرى في حالة من الذهول، نضال هتف من قحف صدره:

- بلغ السيل الزبي، أن أخلع جسدي عن روحي أهون عليّ من خلع ملابسي بيدي.



الغرفة الزهراء

- هذا غير وارد للنقاش أبداً. «ردّ علاء»
- «مش معقول». «هتف نائل»
- ما المغزى السياسي من كل هذا الجحيم، ما هو حصادهم السياسي؟ «تساءل عبد الناصر»
- «الكشل» معروف. «ثم تابع مازحاً:
- حساباتهم السياسيّة تغيّرت، اصحى يا سيدي عبد الناصر من سباتك السياسي القديم، كل المعادلات تغيّرت.
- المهم القرار الآن: «لن نخلع ملابسنا أبداً» ما حدا يلومني. «بنبرة حاسمة قال نضال»
- أكيد، هذا قرار بالإجماع.
- هتف عبد الناصر بعنف خافت: «
- أذكر مرّة طلبوا منا التفتيش العاري وكان أبو ابراهيم حينها ممثلاً للحوار مع إدارة السجن فكان ردّه في العمق: كيف تصل بكم عقولكم للتفكير بمثل هذا الطلب، كيف تقبلون على أنفسكم القيام بهذه المهمّة المشينة؟ بالنسبة لنا نجوم السماء أقرب إليكم وأعلى ما في خيلكم اركبوا.
- كان على رأس هذا الحشد الكبير من فرقة القمع هذه مدير السجن المعروف باسم «خنيفس» وهو من أصول عربية درزية، مع العلم أنّ انتماءه لوظيفته الإسرائيليّة أقوى من كلّ الانتماءات والولاءات، هو كائن حيوي جمع بين أسوأ ما في الجنسين: الدروز واليهود، وفي ذات الوقت يريد أن يثبت أنّه الأحرص والمتفاني في تنفيذ ما يطلب منه وعلى أفضل مما يريدون، ملكي أكثر من الملك، هم الآن يريدون الانتقام، فلينتقم لهم بكلّ إبداعاته وعبقريته الساديّة في هذا الميدان.
- هذه الزنزانة الزهراء يعتبرونها زنزانة القيادة فبدأوا بها، أطلّ عليهم «خنيفس» من طاقة الباب مزهواً كطاووس ضاعت منه ألوانه البهيّة، زعق مُظهراً للاستنكار:
- ألم تسمعوا الأوامر؟ ألم تسمعوا: اخلعوا ملابسكم، تفتيش.
- ردّ عليه علاء بعد أن وقف على قدميه بصعوبة: «
- أنت تعلم أنك تتعامل مع أسرى قضية وحرية، يعني خلع أرواحنا أهون علينا من خلع ملابسنا.
- هذا كان زمان، اليوم كل شيء تغير يا أعمى.
- أنا أعمى ولكنّي أبصر الأمور أكثر منك، هل ترضى ثقافة بني معروف «وصف يطلق على الطائفة الدرزية» التعامل مع الأسرى بهذا الشكل المهين؟



الغرفة الزهراء

« ارتبك قليلاً وكأن السؤال فاجأه: »

- دعك من بني معروف، أنت الآن تحت حكم بني إسرائيل وليس بني معروف.

- ولكنك من بني معروف.

- أنا اليوم أمثل إسرائيل.

- إذن، تتسلخ من جلدك؟

- ما في داعي لكثرة الحكي يا أعمى، تخلعوا ملابسكم وإلا عينكم ما تشوف إلا النور؟

- أنت لك تجربة طويلة معنا، هل تعتقد أن هناك احتمالاً للاستجابة لمثل هذه المطالب؟

- إذن أنتم اخترتم الحرب.

- سبحان الله! المنطق ذاته. « يقصد منطقتي كيانهما كلما قاموا بالعدوان. »

أشاح بوجهه عابساً ثم توجه إلى ضباط الفرقة المتوتبة للانتقام، وقال بعد أن رسم على وجهه ابتسامة صفراء:

- افعلوا ما بدا لكم، الملعب لكم والكرة بين أيديكم.

وبدأت حفلة الجحيم، خرطوم الغاز هذا الذي ينفث سمومه في الصدور فتصيب الأبصار غشاوة بعد أن يعجز الصدر عن العطس، ثم تربيط اليدين وشد وثاقها للخلف، وربط القدمين ببعضهما بعضاً، ثم تخرج الهراوات لتمارس لعبتها المفضلة على رؤوس وأجساد الأسرى، ولا ننس الكلاب ورطم أفواهها المشبكة بالحديد فتضرب بها رؤوس الأسرى، وهذه المرة كان هناك إصرار على تعريتهم من كل ملابسهم، عدا عن زراعة الألم في كل خلية من خلايا أجسامهم، كان المقصود وبدرجة أولى هو إهانتهم وإشعارهم بأنهم بلا وزن ولا قيمة، صرح بذلك «خنيفس» لضباط الأمن ورتب الأمور في أعماق نفسه اللثيمة:

« أنت الآن سيد الموقف، أنت السيد لتمارس سيادتك، أثبت لأولياء نعمتك بأنك خير من يؤتمن على ما يريدون، هم الآن لا هم لهم سوى الانتقام، حقق لهم رغبتهم وأظهر لهم بطشك وجبروتك، أثبت لهم أنك وإياهم في صف واحد، نحمل ذات الهم ونحقق ذات الهدف، هدفهم في المعركة في غزوة تحقيق النصر الكامل وهذا لا يتم إلا بسحق ما يسمّى بالمقاومة الفلسطينية، أنت الآن بين يديك من قادتهم وكوادهم، اسحقهم سحقاً يذوقونه بكل ألوان السحق، الجسدي والنفسي، تذكر يحيى السنوار الذي يقودهم الآن في غزوة قد كان سجيناً عندك، واليوم انظر ماذا فعل بنا؟ هؤلاء مصيرهم مثله إلا إذا سحقناهم.

ستصل يا «خنيفس» أعلى درجة وصل لها ضابط من الدروز، وكأنك ما زلت درزياً أو عربياً، أنت بحكم ولائك ووظيفتك قد بت إسرائيلياً، فليكن، المهم سأكون عظيماً وسأرد بذلك على الذين استحقروني في طفولتي وألصقوا بي هذا الاسم الحقيير: «خنيفس» سيصبح معنى هذه الكلمة من بعدك: الرجل العظيم



الغرفة الزهراء

ولا صلة لها بأصلها كتصغير لمخلوق مهين هو خنفساء، الويل لهم حتى أنهم استخسروا بي خنفساء فأخذوا تصغيره رغم أنه صغير وحقير، يا للعرب من قوم تكدين حتى باختيارهم الألقاب لأطفالهم، ظل هذا الاسم محل سخرية واستهزاء.

في اجتماع في مصلحة السجون ضمّ مديرها ومديري السجون وكبار ضباط الاستخبارات فيها، وضعت الخطة الجديدة لتنفيذ قرارات ما يسمّى وزير الأمن القومي العنصري المتطرّف ابن غفير، كان محورها الأساس إنهاء ما أطلق عليه الوزير حالة الرفاه التي يعيشها الأسرى الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية، وقد اعتمدت إلغاء كل التفاهات والاتفاقات القديمة التي أبرمت بين مصلحة السجون والأسرى، واعتمدت مرحلة جديدة قوامها تحويل السجون إلى جحيم بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يجب أن تتحوّل السجون إلى مكان للتعذيب بأسوأ درجات التعذيب، وعلى كل من يدخل السجون أن يخرج منها (إن كتب له الخروج حياً) مردوعاً مرعوباً مهاناً ممسوخاً كالذي يتخبّطه الشيطان من القهر والمقت وفقدان الشعور بالذات الانسانية. وفصلوا في خطتهم تفصيلاً كبيراً بخصوص الأكل والسكن والعلاج والتفتيش والقمع وضرب كل تفصيلات حياتهم بما يقوّضها ويحوّلها إلى مدفن للأحياء، دون الأخذ بأي اعتبار قانوني أو إنساني.

قادة السجون يعلمون تماماً الخلفية التي جاء منها هذا الوزير والحزب الذي يمثله، بل هم متخصصون بدراسة تفاصيل عدوّهم بحكم متابعتهم الحثيثة على مدار الساعة ومنذ عقود هي عمر حبسة كل واحد منهم، كانت بداية هذا الوزير تلميذاً للمتطرّف العنصري المقيت «مائير كاهانا» المعروف بدعوته الدائمة للموت للعرب والوقوف أمام تفجيرات وعمليات تفجيرية لإبادة العرب، وقد عرف «ابن غفير» بنشاطه مع «فتية التلال» وهم عصابة متطرفة متميّزة بالسيطرة على الأراضي الفلسطينية وإحالتها للاستيطان، ثم شكّل حزباً ودخل الانتخابات، وضمن توليفة حكومية دخل انتلافها واختاروه ليكون وزيراً للأمن القومي، فهم أمام عقلية استيطانية في أقصى درجات العنصرية والعدوانية والتطرّف، وجدوا أنفسهم أمام عدوّ يناصبهم أسوأ درجات العداوة، وهو بصلاحيات كاملة ليعمل ما يحلو له وما تمليه عليه عقليته المريضة وجنونه المريع.

وهكذا التقت شخصية «ابن غفير» مع شخصية «خنيفس» لتصب جام حقدّها وعقدّها النفسية المريضة على رؤوس الأسرى، وجاءتهم الفرصة المناسبة وهي حماة روح الانتقام التي اجتاحت القيادة الإسرائيلية وشعبها وإعلامها في عملية تحريضية غير مسبوقة، مع انشغال الإعلام والاهتمام العالمي بالحرب في غزة دون إعطاء جبهة السجون حقّها وما يجري فيها من جرائم.

في اليوم الثالث للحرب ومع اشتداد آلام الخمسة التي لم تترك مكاناً في لحم أو عظم إلا وزرعت فيه ألماً، كان أشدّ الآلام حالة التعتيم الإعلامي التي خيّم عليهم فلم يعودوا يعلمون شيئاً عما يجري في غزة، وما هي تداعيات معركة طوفان الأقصى، وأين وصلت الأمور. علاء همس لهم بصوت عالٍ آخر تطوّرات الأمور عصر اليوم الثالث، زوّدهم بأخبار متتالية: الاحتلال شكّل حكومة حرب وأعلن الحرب على غزة، انطلاق القصف الجوي بكل أشكاله العنيفة على غزة، المعارك على أشدها في مستوطنات ما عرف بغلاف غزة، هناك عدد كبير من الأسرى مع المقاومة في غزة، خطاب لمحمد ضيف قائد كتائب عز الدين القسام



الغرفة الزهراء

التابعة لحماس يحدّد فيه معالم معركة طوفان الأقصى ويحدّد الأهداف ويدعو للتكاتف وتفعيل كلّ الجبهات في هذه المعركة الفاصلة. رئيس الحكومة الإسرائيلية «النتن ياهو» يحدّد أهداف المعركة في القضاء على المقاومة وتحرير أسراهم.

وختم علاء: هذه تحليلات وتوقّعات وكالة صقر للأخبار.

ردّ نائل النوراني ضاحكاً بمرارة:

- هذا وأنت أعمى؟ كيف لو أنك مفتّح؟

- الأعمى أعمى البصيرة سيدي نائل.

- ولكن لا أعتقد أنهم سيخاطرون بأسراهم بدخولهم هذه الحرب. «همس نضال بصوت موجوع»

- بالعكس أعتقد أنهم سيمضون طويلاً في هذه الحرب، لن يسلموا بهزيمتهم بهذه السهولة سيخرجون كلّ الشرّ المكنون في أحشائهم، الآن مشروعهم تخلص من جذوره وسيخوضون معركة إعادة الاعتبار لهذا المشروع، هذا من صميم فهمي لطبيعة هذا المشروع الكولنيالي الإحلالي. كذلك لن تتخلّى عنه أمريكا والغرب بسهولة على أنه مشروع وظيفي يقوم بخدمة المصالح الغربية في المنطقة، هذا ما أكّدته موسوعة عبد الوهاب المسيري عن الصهيونية. «همس عبد الناصر من معين ما عنده»

«تساءل نائل:»

- المهم يا جماعة، الأخبار التي أوردتها لكم وكالة صقر للأخبار، اسمع يا علاء من الآخر، أُنّى لك هذا؟

«بهمس خافت ترتّم علاء:»

- من الآخر، أنت نسيت إنه عندي «ترانزستر»، نجا من تفتيشهم، ها هي السّماعَة في أذني، والجزيرة اليوم فتحت بتّ اف ام مباشر، يعني الأخبار عندي أول بأول، الحرب كشفت عن ساقها، لا تقلقوا كل يوم أوافيكم بها بالتفصيل. أنا عينكم على الخارج لا تقلقوا.

رفع نضال صوته قليلاً:

- الله أكبر ولله الحمد.

«وصل الشرطي ونعق من الطاقة:»

- من زعق؟

.....

- إمّا أن تقولوا من؟ أو تعاقبوا جميعاً.



الغرفة الزهراء

« رفع نضال رأسه وقال: »

- أنا الذي رفع صوته.

همّ كل من في الغرفة أن يتبنى الموضوع، وفق حسابات سريعة لن يعفي هذا نضال من تلقي عقابه فاضطروا للتراجع، فتحوا الباب وخرج لهم نضال طواعية، تناولته «كلبشاتهم» أولاً كي لا يتمكن من أية مقاومة، ثم انهالوا عليه بعصيهم، التزم الصمت دون أن يصرخ للألم سوى بعض الأئمين المدفون في أعماقه فيخرج قسراً، سحبوه إلى الزنازين الانفرادية مخضّباً بدمه حيث العزل، والعزل هذه الأيام مختلف، نضال عانى كثيراً من عقوبة العزل، قضى عدة سنوات في العزل من حيسته التي تجاوزت الثلاثين سنة، ترك العزل على روحه حالة من العمق الروحي وقدرة ذهنية على النفاذ إلى جوهر الأفكار وسبر أغوارها بطريقة تأملية فريدة.

في اليوم الرابع دون أي طعام مع شرب الماء مرّة واحدة كل أربع وعشرين ساعة، هوت الأجساد على عروشها المتهالكة، تحرك صداع الرأس وعلا على أوجاع الضرب، واستجابت له صرخات الجوع التي لم يكن لها حساب أمام الأوجاع الكبيرة، ولكنها في اليوم الرابع فرضت أجندتها على الجميع، علا صوتها ولا مجال لأن يستجيب اللسان لشكواها فيفصح عنها لأن في ذلك إضعافاً للمعنويات، ومع هذا كان لا بد من أن يعلّق أحدهم الجرس في هذا الموضوع فكان ذلك لعلاء:

- قمع وتجويع هذا عمره ما صار، يا جماعة شاعرين بالجوع؟

- يكاد يقتلنا الجوع، طبعاً سيدي، وهل فقدنا الإحساس بالجوع؟ «ردّ نائل»

- الألم والجوع والعطش والبرد. «تابع عبد الناصر»

- المهم أن لا تتضعض المعنويات.

- هذه بعون الله حديد.

- يا سيدي نائل، أنا لا أهمل هم معنوياتك هذه فولاذ من زمان زمان، لكن الشباب أمام هجمة من هذا النوع، المسألة ليست سهلة.

- أنا معك، المسألة ليست سهلة ولكن نفوس المؤمنين تتحمّل، ولا تنس الأمل الكبير بالتحريير بعد العدد الكبير الذي أسرته المقاومة.

- وما العمل مع هذا الجوع، أنبقى صامتين؟ «سأل عبد الناصر»

- لازم نتحرّك.

- ساق الله أيام الإضرابات المفتوحة عن الطعام!



الغرفة الزهراء

- لم تكن مصحوبة بقمع عشر درجات مقياس رختر. « ردّ نائل»

- وما العمل؟ « سأل عبد الناصر»

- علينا أن نطالب ولا تنسوا الدواء.

وصل عدد الظهر كالموت القادم إلى القسم، وكانوا يترنّمون بطريقة استفزازية وكأنهم يقيمون حفلة موسيقية:

- عدد عدد، عدد يا حيوانات عدد، عدد يا أخوات ال..... عدد، على ركبتيك، راسك لتحت، على أيّ غرفة التكسير اليوم ..

قرار تفويت الفرصة من قبل الأسرى سرى في الأقسام طبعاً قدر المستطاع، تستجيب الغرف إلى هذه النزعات السادية وتحاول تمرير هذه العاصفة بأقلّ الخسائر الممكنة لأنهم يدركون هدفهم، وعليهم ألا يسهموا في إيصالهم إلى هذه الأهداف الشاذة، وقف علاء بصعوبة بعد أن فرغوا من العدد وهتف:

- إذا سمحت، سؤال للضابط، ماذا مع علاجنا أنا معي سكري وضغط ووضعي الصحي لا يحتمل، وماذا عن الأكل؟

« صرخ الضابط في وجهه بطريقة مرعبة:»

- من سمح لك بالكلام، أنت تمثّل من؟

- أمثّل نفسي فقط.

- الكلام ممنوع مفهوم. قل: أمرك سيدي.

-

- لا تريد القول أمرك سيدي؟

-

- دشدشوه يا شباب فقط لأنه أعمى.

« فتحوا الباب، سحبوا علاء وانهالوا عليه بعصيهم الحديدية، ثم دفعوه داخل الغرفة، أغلقوها وانصرفوا..»

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- «وجبة سريعة، شكله السكرى عندك نازل.» « همس نائل مازحاً»



(٣) العزل: موت داخل الموت.

العزل حيث رائد ثم نضال وآخرون كثير، عبارة عن زنازين أعدت للعقاب، ضيقة بالكاد تتسع الواحدة لفرد، سرير من حديد مثبت على طول جدارها، نهايته واجهة نصف متر تقريباً، تعلتها نافذة ضيقة أو قُل طاقة مقطّعة بالحديد يتسلل منها بعض الهواء بصعوبة، ليس لك إلا أن تدخلها وتجلس فلا مجال للحركة البتّة، موحشة لا أنيس فيها من إنس ولا جانّ ولا حسّ ولا خبر ولا حتى أشياء تناجها وتناجيك، زنازين كثيرة تستقرّ في إحداها وتلوذ بقلبك وإيمانك لا تملك سواهما أي شيء.

نضال اعتادها قديماً، وبين الحين والآخر كان يشقّاق إليها فيأتيها بعد مخالفة لقوانينهم، فيمكث فيها فترة عقوبة يحدّدونها له، شهر شهرين إلى ستة شهور، اعتاد أن يبحر في عالمه الخاص بعلاقة حميمية مع مولا، يغرف من الأذكار ما يسعفه ويتحف قلبه ويرتقي بمشاعره الإيمانية حباً وأنساً وعشفاً وولهاً، هو يعتقد بأن محبة الله كنوز وأسرار وتجليات لا حدود لها، يطلب المزيد فيجده ويسافر بعيداً سفر الروح التي لا تعباً بالجسد ومتطلباته كثيراً، تشفّ الروح وتضيق ثقلة الجسد بعيداً عن هذا العالم الرهيف الشفاف المنير.

نضال غارق في شكر الله على البلاء، عجباً يشكرون دائماً على السراء ويصبرون على البلاء، ولكنه يشكر على البلاء لأنه أخذ بيده إلى هذا السفر الجميل في رحلة مجيدة قوامها محبة الله، علمه البلاء أنه كلما عظم عظمت المحبة وزاد القرب والأنس وصار حبل الوداد مداً للقلب والروح، فتهم في عيائها منعمة مكرمة ومقرّبة، تصبح في نعيم أخروي رغم أن الجسد ما زال يعدّب في الدنيا فيطغى النعيم على العذاب، ويهون هذا الأخير في سبيل المحبوب أقصى مبتغاه.

في هذه المنايا التي تسمى العزل يتعمّدون قتل الروح وطمس معالم الجسد وتوجيه كل أشكال المهانة، الشتائم الفاحشة التي يقذفها زبانية هذا العزل، يعتدون بالضرب كلما تحرّكت ساديتهم في نفوسهم المريضة، وهناك زنازين خاصة لأسرى غزّة جاءوا بهم تبعاً ليسوموهم سوء العذاب بكل صورته البشعة، تسربت من هناك أخبار تقشعر لها الأبدان، تجدهم عراة مربوطين كما تربط الدواب، المرباط البلاستيكية على أيديهم وأرجلهم لأيام طويلة أوصلتها إلى مرض «الغرغرينا» ما أدى إلى عمليات بتر للأطراف، هناك عدد من الشهداء الذين استشهدوا نتيجة هذا التعذيب القاتل لا يعلمه إلا زبانية العذاب. هناك أوامر بالقتل وجرائم يجري التسرّ عليها على قدم وساق.

نضال نصب شرّاعه المعتاد في هذه الزنازين، وأبحر في عالمه الروحاني الذي اعتاده كلما دقت ساعة العزل، رائد كان يعاني من كسر في ريش صدره فأرهبه الألم كثيراً لأنه أذهب النوم عن عينيه ولم يتوقّر حتى الأكمول الذي كان الأسرى يتندرون به كعلاج يوصف لكل الأمراض، أصبح اليوم عملة نادرة، هل لك أن تتصوّر عظاماً مكسورة في الصدر ولا تجد ما يسكن آلامها أو يهدئ من روعها، يلوذ إلى الدعاء ويبث أهات صدره إلى مولا، وكان يهتف من أعماقه: «يا رب ليس لها سواك، ليس لها من دون الله كاشفة،



الغرفة الزهراء

أراف بنا رافة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها، ويمخر عباب الدعاء طويلاً تحت مطارق الألم الذي كانت أمواجه عاتية وصاخبة وكاسرة.»

صبيحة يومه الخامس حاول رائد كما جرت العادة في هذه المناسبات من الزنازين أن يعرف جاره، ضرب بقدمه حائطها رغم أن هذا التصرف المتهور قد قض مضاجع أمه في عظام صدره، ولكن كانت فرحته كبيرة عندما رد عليه نضال بروحه الجميلة التي كانت كشمس دافئة في يوم شتوي قارس بارد.

هتف رائد من تحت باب زنزانته بعد أن انبطح أرضاً:

- أهلاً وسهلاً سيدي نضال في هذه الديار العامرة.

- كيف حالك، كيف آلامك؟

- على ما هي، الحمد لله، أتوا بك كيف، لماذا؟

- مثلك تماماً.

« اقتربت أرجل غليظة، ضربت بعنف شديد بوابتي الزنزانتين ثم نعت: »

- هون، ممنوع الكلام، أنتما معاقبان.

« ثم زعق، فجاءت مجموعة من الزبانية، فتحو الباب على رائد وانهاوا عليه بعصيهم مع الشتم والبصق. أغلقوا عليه وفتحوا على نضال وفعلاوا الشيء ذاته. »

لاذت الزنازين بصمت كصمت القبور، لا تسمع إلا أصوات إدارة السجن تستخدم مكبرات الصوت في نيقها الذي لا يتوقف، الألم يملأ أجساد الأسرى في الزنازين دون أن تسمع لهم ركزاً، وفوق ما زرعه الضرب من آلام كان ألم الجوع والعطش الذي جعل من الرأس مخزناً لصداع لا ينتهي، ومن الجسد مأوى للإرهاك والضنك.

وكان لنضال جولات مع محبوباته الأربع، زوجته وبناته الثلاث، تزوج وخلف بنتين بين الحبستين ثم حرر نطفة في حبسته الأخيرة ليكون لبنتيه أخاً، ولكن القدر كتبها له بنتاً، يتوقف طويلاً في دعائه معهن، وفي ثنايا الدعاء تخرج الذكريات والأشواق والحوارات المتخيلة والمتوقعة، تماماً كعلاء ونائل وكل الأسرى الذين يلوذون لأحبتهم بما يتسع إليه خيالهم العاشق، يناجي ويسأل ويحجب ويحاوّر ويسر ويضحك ويغيب عما هو فيه من بلاء عندما تعانق روحه أرواحهم، ويحلقا معاً في فضاء فسيحة أوسع من السجن وفضائه الضيق المكروب.

نضال - كما قلنا - غارق في ابتهالات الحب مع المحبوب الأعظم، وكان مع هذا الحب يشعر بحالة من الارتقاء والتحليق عالياً، وعاش في هيامه هذا مع سيرة رسول الله، وكانت تستوقفه كثيراً في هذه المحنة قصة رسول الله مع أهل الطائف عندما طارده صبيتهم بالحجارة فأدموه وطرده شر طردة، حتى إذا احتفى بحائط في أرض لشيبة وعتبة فأرسل له قطفاً من العنب مع عبد لهما اسمه عداس، عندما أراد



الغرفة الزهراء

أن يأكل رسول الله قال: بسم الله، فسأل مستغرباً: هذا ليس من كلام الناس هنا؟ أخبره رسول الله بأنه نبي، وسأله رسول الله: من أي البلاد أنت؟ فقال: من نينوى، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « بلد أخي يونس بن متى ». فأسلم عدّاس. فكانت هذه الحادثة تطميناً لرسول الله بعد ما أصابه في الطائف.

يستذكر نضال هذه الحادثة، ويقبّب وجهه في السماء راجياً المولى بعد هذه المحنة الشديدة والقاسية أن ييسر للأسرى من ينصرهم ويغيثهم. لفظة ربّانية كريمة تهبط في قلوبهم وترفع منسوب معنوياتهم.

في النزاع الأخير من الليل، هدأت الأصوات، ولم يعد هناك ما يعكّر صفوه، سوى الآلام النفسانية والجسدية التي أجادوا زرعها، أغلقت الآفاق وضائق السبل ولم يعد في اليد حيلة، أو على الأقل هكذا بدت الأمور. ولكن للمولى قدر يسري وحكمة هو مجليها لوقتها وهو الذي يجعل مع العسر يسراً.

فتحة طاقة الباب التي هنا في هذه الأبواب تأتي أسفله، تدلّي كيس فيه أشياء، ارتسمت علامات استفهام كثيرة على وجه نضال، سأل بصوت خافت:

- ما هذا؟

- أنا شاويش آدم، نسيّتي؟

- أبداً لم أنسك، ولكن ما الذي أتى بك هنا؟

- الذي أتى بي؟ أنا مناوب هنا الليلة، لكن أصدقك القول، سألت عنك في القسم، فقالوا لي إنك معاقب هنا، بدلت مع زميل لي لأسهر معك، ألا يسرك هذا؟

- طبعاً يسرنّي، ولكن العيون هذه الأيام مستنفرة.

- لا عليك، المهم بدايةً أسكت جوعك، وكُل ما في الكيس ثم أعود إليك.

- ما هذا؟

- « سنكرز»، فأنت منذ أربعة أيام لم تأكل، لعنة الله عليهم. « بهمس شديد »

- أنت تعرفني جيداً، لا يمكن أن آكل وحدي، وبقية الزنازين؟

- أعدك أنني في كل يوم سأحضر لواحد.

- بداية وزع هذه.

- أنت تريد فضح الأمر، الأمر سرّ بيني وبينك.

- أعط كل واحد واحد، ثم عد لي بواحدة، ما في حلّ.

- حاضر، ولا يهّمك.



« قبل أن يغادر همس بأذن نضال: »

- أطمئنك، السنوار على ما يرام، كامل الاستعدادات لحرب طويلة جداً، عملوا لها كل حساباتها.

- يا سلام هذا الخبر أحلى على القلب من هذا «السنكرز على وجع الجوع».

« سبحانك ربّي ما أعظم لطفك وكرمك ورافتك، هذا عدّاس جديد يأتيني وأنا في هذه الحالة من العذاب المهين، هذا شرطي شركسي مسلم، أذكر عندما ضربتني صحبة قديمة معه إثر نقاش كان عابراً عندما رافقني إلى زيارة المحامي ثمّ تطوّر ليصبح حوارات طويلة أثرت به كثيراً، حوّلت تفكيره إلى جانب من أهم جوانب الدين وهو أن الدين يحرّر ولاءات المؤمن فلا يعقل أن يوجّه قلبه في الصلاة لله ثم في واقع حياته يوجّه قلبه وفعله لأعداء الله، بداية كان يفهم الدين على أنه مشاعر قلبية تنتظم بعلاقة جميلة مع الله، وقد أعجب بروحانيّتي ووجد فيها قاسماً مشتركاً بيني وبينه، ثم شجّعته نحو خطوة إضافية للأمام وهي أن الله لا يقبل لهذا القلب الجميل أن يكون مع الظالمين. كنّا نقضي ساعات في نقاش هادئ كانت نهايته رائعة، تعاون معنا كثيراً، هرب لنا مرّات عديدة أجهزة خلويّة وبقي موضوعه سرّاً ليومنا هذا، هذا عدّاس الذي يرزقنا الله به عند اشتداد الكربات. »

التهم نضال قطعة «السنكرز» وشعر بحلاوتها قويّة عميقة خاصّة وهو يستشعر وقعها في حلوق جيرانه البؤساء، شكر الله ساجداً على هذه النعمة العظيمة، ودعا الله لصديقه الشرطي الذي وجّه بوصلة ولاءه بطريقة صحيحة إلى حدّ ما، هو أراد أن يتخلّص من وظيفته لكن نضال طلب منه البقاء ليقدم من خلالها ما يقدر عليه نصرة للمظلومين وتكفيراً عن أعماله التي وقف فيها مع الظالمين إلى أن يأذن الله بالخلاص الكامل.

بعد الفجر مباشرة أطلّ على نضال الشرطي الشركسي آدم برأسه، ناوله هاتفه الخلوي وهتف:

- احكي مع الحجة، هي على الخط. فقط معك دقيقة.

- والشباب، كيف يعني أنا أحكي من دونهم؟

- يا رجل أمك على الخط، احكي الآن وبعدها فرج.

« ارتجفت يد نضال قبل قلبه الذي بلغ حنجرته، وضع سماعة الهاتف على أذنه فإذا به بصوت أمه، بروحها ودمها ونبضها الودود:

- كيف حالك حبيبي نضال؟

- الحمد لله إمي روحي وقلبي وحياتي.

- طمّني، الأمانة تحكي الصح كيف حالكم.

- حالنا أحسن كثير من حال غيرنا.



الغرفة الزهراء

- لا تعرّض في الكلام، أنا بعرف لك، احكي «الدّعري»؟

- نحن بخير ونعمة وعافية وستر.

- أنا بحسّ فيك، أنا أمك، كلامك فيه ما فيه من الأثم. على كل خذ زوجتك وبناتك معك.

الشرطي همس:

- نضال انتهت دقيقتك، هذا إذا أردت أن نعطي الشباب.

قطع نضال مكالمته بكلمة: نحن بخير وأنا مشتاق لكم كثيراً، ستفرج قريباً بإذن الله.

وألقى الهاتف في راحة يد الشرطي آدم.

- كيف بقدر أشكرك؟ هذا معروف كبير.

- فقط ادعي الله لي بالخلاص من القوم المجرمين.

- لا نريد لك الخلاص؛ فأنت نافذتنا للخارج وسندنا في الداخل.

- اسأل الله أن يكفّر عني فقد كنت مجرماً مثلهم، أنا لا أنسى فضلك شيخ نضال.

- هذا فضل الله، وكان فضل الله عليك عظيماً. «تنهّد بعمق ثم همس: «ممكن أكون طمّاع ولو مرّة واحدة في حياتي».

- اطلب عيني أفلعهما وأقدمها لك.

- دقيقة مكالمة مع السنوار.

- فعلاً الحبّ يعمي ويصمّ، هل جنت، ما بعد الحرب هناك احتياطات أمنية لا تسمح بأيّ اتصال، هذا رأسه مطلوب رقم واحد، لا أعتقد أنه يستخدم هذه الأجهزة إطلاقاً.

- بالفعل كلامك في الصميم، غاب عني الحسّ الأمني.

وغطّ نضال في حالة من الهيام، كأنه امتطى صهوة غيمة حلّقت به في سماء عالية، حلّ حروف الكلمات التي سمعها كأنها واحات جميلة في صحارى قاحلة، عزفت فرقة في قلبه على حروف زوجته السريعة التي وصلت روحه بشقّ الأنفس، لم يجد النوم لعينيه سبيلاً حتى لاح الصباح وعانقته صلاة الفجر، لتأخذ بيد قلبه إلى بحر الحب الذي لا حدود لروغته.



(٤) الزنزانة الزهراء تشارك في المعركة؟!

أصبح علاء الصقر ونائل النوراني وعبد الناصر الطيراوي ثلاثة في الزنزانة الزهراء يتناجون بصوت خافت كأن على رؤوسهم الطير، توافق الثلاثة على تفويت أية فرصة للمزيد من القمع والتنكيل ما استطاعوا لذلك سبيلاً، علاء يسترق السمع عبر «ترانزستره» الصغير ثم يعيد بث الأخبار بطريقته لصاحبي السجن، وأصبح مع كل دقيقة تمرّ خبر جديد إن لم يكن أكثر من ذلك.

- سلاح الطيران المجرم يقصف بلا هوادة، يقتل ويدمر، أغلب الضحايا من النساء والأطفال.

- هذا متوقع أمام الهزيمة النكراء يوم السابع من أكتوبر. «علق عبد الناصر»

- تدمير أبراج سكنية على رؤوس أصحابها.

- المقاومة تردّ بإطلاق عشرات الصواريخ على عدة مدن إسرائيلية منها تل أبيب.

- رئيس العصابة الصهيونية «نتن ياهو» يحدّد أهداف الحرب بالقضاء على المقاومة الفلسطينية وإعادة أسراهم.

- اللهم لا تحقّق لهم غاية. «دعا نائل من أعماق قلبه»

- ستكون حرباً غير مسبوقة. وستكون طويلة ومؤلمة جداً للطرفين.

- نحن أكثر منهم جلدأً في تحمل الألم، ثم: «إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون»

- المهم يا شباب، نحن ما هو دورنا في هذه الملحمة العظيمة، ألا نستطيع أن نفعل شيئاً؟

«همس علاء»

- «والله هالأعمى بطلع بيده، ما تخافوا إلا من العميان»

- أعمى ببصيرة خير من بصير لا يملك ببصيرة، أو كما قال الشاعر.

- كنا قبل الحرب في الأبحاث والتحليل السياسية والترجمة على قدم وساق، اليوم ما عسانا نفعل وقد تقصّعت بنا كل سبل التواصل؟ «همس عبد الناصر»

- هذا السؤال المهم: ماذا نفعل؟ الاستسلام لواقع الصعب مرفوض. هتف علاء بحرارة وعمق.

- «على الرغم إنه مش قادرين نحمي رؤوسنا من عصيهم.»



الغرفة الزهراء

- « دشرك من هذه «على الرغم» وشوف ما أحلى: «رغم أنوفهم» «ردّ علاء على نائل»

- يا سيدي رغم أنوفهم وأنوف أسيادهم، هات من عبقريتك.

- لغاية الآن لم يتفتّق عن عبقريتي أي شيء - حفظها الله وتولّى أمرها.

- وقدّس سرّها.

- الشيخ أحمد ياسين كان مقعداً لا يملك سوى عقل ولسان، كلّ ما نراه اليوم يظهر فيه أثر الشيخ. «
همس عبد الناصر»

- لو كان السنوار معنا لفضل العجائب، انظروا ماذا فعل هناك، هل تتخيّلون الجهود التي بذلها في الاستعداد للحظة الانتصار التي تحققت على الأخطبوط الأمني الصهيوني، لقد ضلّهم وأوهمهم أنّ حماس مردوعة وقد استكانت للدعم القطري وآثرت حياة السلطة والراحة والاستجمام، تذكرون الجهاد الإسلامي خاضوا حربين ولم تتدخّل حماس إلا من طرف خفيّ، كانوا في مرحلة إعداد في غاية السرية، أكاد لا أصدّق ما فعلوه، والمهم أن هذا الفعل وهم تحت حصار خانق، كيف لو لم يكن حصار وكانت الحدود مفتوحة عليهم؟

« تزلزلت الغرفة أثر ضربة بسطار عنيفة من قبل أحد الشرطة لبابها، ونعق:»

- ولا نفس، الكلام ممنوع، مفهوم، وإلا طابت رؤوسكم واشتاقت لجولة جديدة، لكم منّي وصلة غنائية، طبعاً لكل القسم، جهزوا حالكم يا حيوانات. « مع مطّأ آخر كلمة حيوانات، وأتبعها بسيلٍ من الشتائم البدئية ذات الخيال الواسع في البذاءة.

«همس نائل:»

- يا الله، استعد يا أبو الأفكار الخلاقة.

- نحن قوم لا نتخلّى عن العصف الذهني يا أبا العرب.

- ستعصف عصيهم على رؤوسنا يا أبا العرب.

- في سبيل الله يا سيدي نائل.

« همس عبد الناصر كما جرت عادته أن يعقب باقتضاب على جدليات الشيخين، الثنائي علاء ونائل:»

- فقط ناقصكم السنوار؟

- هو الغائب الحاضر.

« بالفعل دخلت أعداد هائلة من فرقة قالوا عن اسمها :«كيتر» مزوّدة بكل أدوات القمع التي عهدناها،



الغرفة الزهراء

جرار الغاز والعصي الحديدية والكهربائية والمدفع الذي يطلق الرصاص المغلف بالمطاط، يكسر العظم ويحدث في الجسم حفاً عميقة، الأسرى كلهم باعتبارهم جرحى من جولات العذاب السابقة، كلهم يعانون آلامها عدا آلام الجوع وحالة الإنهاك التي تتن تحت وطأتها أجسادهم، تقرأ في الوجوه تداول ما يجول في النفوس من هلع ومقاومة شرسة له من قبل جحافل الإيمان واليقين بقضاء الله وعدالة القضية التي سُجنوا من أجلها، تتقاسمهم الرغبة الغامرة بالشهادة في سبيل الله، وفي الوقت ذاته لا يريد أحدهم هذه الشهادة بعد عشرات السنين في السجن دون أن يحل عينيه برؤية من ينتظرونه طيلة هذا العمر المديد، أغلبهم قد بنى نفسه ليكون صاحب دور كبير في حياة أمته الثقافية والمعرفية، وقد أعد لذلك كثيراً من الدراسة والبحث، فأن يأتي أرعن ليقته بدم بارد ويقطع عليه مسيرته الطويلة في هذا الميدان الهام، فلا؛ هم يُعدون أنفسهم للعب دور كبير، يحقق الشهادة على الناس قبل أن يكون شهيداً عند الله.»

نعقت مكبرات الصوت بعبارات نازية غير مسبقة لم تعتدها السجنون من قبل:

- « جاءكم الموت يا أخوات ال يا حيوانات يا صراصير، أيتها الحشرات السامة سنسحقكم تحت أقدامنا يا ... يا احذروا الخروج عن التعليمات العسكرية: كل غرفة لما ييجي دورها، خروج على الفور وأنتم عراة دون أي شيء حتى «البوكسر»، الخروج على أربع ورأسك على الأرض، ممنوع تصيح وأنت توكل عصي، ممنوع أي صوت، كل صوت احنا ابنفهمه إنك بدك المزيد واحنا جاهزين، مفهوم يا أولاد ال »

اجتاحوا القسم بغوغائية كعاصفة مدمرة لقتف الرعب في النفوس، بدأوا بغرفتنا محور الحدث، صاحوا عندما رأوهم بملابسهم وأدركوا أن تعليماتهم التي أتعبوا أنفسهم فيها لا يمكن للأسرى أن يقبلوها، هذا زادهم شراسة، ربطوهم من الأيدي للخلف طبعاً والأقدام، وشرعوا بضربهم وهم يصرخون: « رأسك لتحت، رأسك لتحت يا أخو، وصوت العصي تهوي على الأجساد الخاوية، وصرخات الأسرى تخرج مقهورة مكبوتة تخبر عن حجم هذا القهر، أجساد الأسرى تمشي زحفاً، لم يفعلوا ما طلب منهم، فسحلوهم زحفاً إلى الفورة وهناك كان بيد أحدهم قلم عريق ليرسم علامة على الجبين والرقبة من الخلف، يعيدون سيرة النازية بكل حذاقها، وكانت حفلة العلم، عليك أن تقبل العلم الإسرائيلي وترفع له التحية، الأغلبية رفضت فأكلت من الضرب المرعب ما يكفي لهدم جبال، وكان الألم مضاعفاً عندما تأتي الضربة على موضع قد أصابته سابقاً، ينتشر الألم انتشار أمواج البحر الهادر، هنا بصمت يذوي في أعماق النفوس. وحتى الذين أخذوا بالرخصة، «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» نالهم من الدفع والرفس ما نالهم.

وامتلأت الساحة بالأسرى المذبذبين، بعد أن أخرجوهم غرفة غرفة، أفلتوا الكلاب تدوسهم بمخالبها وتدق رؤوسها المشبكة بالحديد برؤوسهم، الجنود والمجنّات وعناصر التوحش يطلقون ضحكهم وقهقهاتهم كأنهم في حفلة طرب أو حفلة رقص مجنون، ثم جاءت المجنّات بمشارط تقص بقايا اللباس المخضب بالدماء وتعزي أجساد الأسرى، فرداً فرداً، حتى إذا صار كما ولدته أمه ظهر الذل والقهر بكل ألوانه على وجهه، وضربت نوازع الأفكار عقل نضال:



الغرفة الزهراء

« ما هذا النوع من البشر الذي لا يعرف إلا إذلال الآخرين بكل هذه الخسّة والحقارة، وعلى من؟ على أسرى لهم عشرات السنين في السجون، على مُسنّين ومرضى وقبل كل شيء أسرى، هل فقدوا كل الإحساس البشري وصاروا بشكل كامل ذئاباً مفترسة، حتى الذئاب لا تفعل ما يفعلون، لا بدّ أن نصرخ بكلّ أعماقنا أننا بشر، أننا لنا وزن، لنا ماضٍ وحاضر ومستقبل، يشعرونك بدرجة هذا التوحّش أنك مجرد كائن خلقت لتكون محطّ ساديتهم المُفترطة، ما خلقت إلا أن تكون تسليّة بسيطة لنازيّتهم المتوحّشة وكأنهم بذلك يطهّرون أنفسهم من الشعور بالضحية والمظلومية، ويتأهلون لدخول نادي النازية العنصرية الفاشية وهي في أعلى درجاتها، كيف وسع خيالهم لهذا الكمّ من قهر الناس وامتهان كرامتهم؟ »

« نائل ضربت مشاعر التحديّ صدره: »

« افعلوا ما شئتم يا شدّاذ البشر، سنبقى بفضل الله الأعلى منكم أخلاقاً وقيماً، إنسانيتنا أبداً لم تفارقنا في يوم من الأيام، ولن تفارقنا كما فعلت بكم إنسانيتكم فطغى عليها طوفان أحقادكم السوداء، تكفيننا شهادة ربنا: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، نحن الأعلى بإيماننا بقيم الحياة والإنسانية، وأنتم الأسفل بإيمانكم المطلق بعنصريّكم السوداء. »

علاء بدوره - وتحت مطارق الألم - نجح في تهريب مشاعره خارج السجن، أمّل نفسه في متابعة مسيرة الحياة مع حبيبة قلبه وطفلتيه اللتين أنجبهما في فترة استراحة مجاهد كما يحلو له أن يسمّيها، بعد إطلاق سراحه وانعاقه من المؤبد بعد ثلاثين سنة قضاها خلف القضبان الصهيونية، تزوج وأنجب بنته الأولى ثمّ الثانية، مضت سنتان وبضع الثالثة لينقّصوا عليه ويعيدوه إلى السجن من جديد، ها هو يتجاوز العشر سنين غير تلك الثلاثين، سيتعرّف على بنتيه وهو يحبّ التفاصيل، كيف سيعيش تفاصيل حياتهم فيدخلها بخفة وحلاوة، إن لم يتقن ذلك فسيغدو عجوزاً صعباً تعجز بنتاه عن فهمه، وسيكون عبئاً عليهما لا سبباً للمسرّة والسعادة والاندماج الطيب في حياتهما، المسألة فيها تحدّد صعب، فهل سيتجاوزه كما تجاوز تحديات كثيرة؟ تنهد من أعماقه وخرجت من فمه كلمات سمعها من كان بقربه، ولكن لحسن حظّه لم يسمعها أعداء البشرية:

- هذا إن خرجنا من هنا سالمين.

الليلة أحبّ أن يحيي سهرته مع بنتيه ولو باستعادة مكالمة من الأرشيف، محاولة لكسر فارق الأجيال وتجاوز خطّ الألم إلى حيث استراحة الأمل، ريم بنت العاشرة ونور بنت الثامنة، سأل مسابقة السرعة: عاصمة فلسطين؟

- القدس. «أجاب نور»

- السؤال لنور: في أيّ سنة احتل اليهود المسجد الأقصى؟

« تلعثمت نور »



الغرفة الزهراء

- أعطيك خيارات: سنة ثمان وأربعين؟ أم سبع وستين؟ أم سبع وثمانين؟
- « همسة غشّ من أمّها، مرّرها يا علاء، أجابت: »
- سبع وستين.
- صح. وعلامة لنور.
- السؤال لريم: مدينة فلسطينية تسمّى عروس البحر؟
- أجابت دون خيارات: يافا.
- صحيح وعلامة لريم.
- حبيبة قلبي نور: أين يقع الحبّ؟ ضحكت أمّها. طلبت خيارات،
- في الرأس، أم في القلب أم في المعدة؟
- طبعاً أجابت: في القلب. وأخذت علامة.
- السؤال لريم: ما هي وظيفة الرئتين في الجسم؟ ضح الدم أم توفير الأكسجين أم هضم الطعام؟
- أجابت: الأكسجين. وأخذت علامة.
- السؤال الأخير لنور: كم ركعة صلاة المغرب؟
- أجابت: ثلاث.
- السؤال لريم: هاجر رسول الله من مكة إلى...؟ طلبت خيارات
- الطائف، القاهرة، المدينة.
- أجابت: المدينة.
- أنهت المسابقة بفوز الالنتين وجائزة لكل منهما عشرون ديناراً من أمينة الصندوق العام السيدة الوالدة. كان ذلك في أحد الاتصالات أيام الاتصالات - رحمها الله رحمة واسعة وأعادها الله لتضيء قلوبنا بأحبابنا من جديد.

نائل رحل عقله ومشاعره في المستقبل الآتي ومآلات هذا العدوان، وما هو المطلوب منه بعد الخروج من السجن، هل سينسى ما فعلونه بهم؟ كيف سيكون الردّ، الانتقام ضرورة للرد على مثل هذا الجنس من البشر، كما تفعل فرامل السيارة، تصب قسوتها على العجلات فتوقف اندفاعها المجنّح، هكذا هي سيّارة البشرية هناك من عليه أن يقوم بدور الكوايح على الذين يحرفونها ويريدون أن يبدّلوا قيمها ويذهبوا



الغرفة الزهراء

بها إلى هاوية الجريمة، من سيوقف هؤلاء في جريمة لم يسبقهم إليها أحد، عائلات بأكملها تمسح من السجل المدني، يهاجمون كل المحرّمات في غزة: المشايخ والمدارس والمساجد والكنائس وكل مقومات الحياة، وهنا في السجون يتصرفون كالكلاب المسعورة التي تنقض على بغير أجرب، تنهد أيضاً وهتف مجارياً الجملة التي قالها علاء قبل قليل:

- هذا إن خرجنا من هنا سالمين.

وكانت فترة ما بين الحبستين الفترة الذهبية التي حاولت روح نائل الاشتعال مع لهيب مشاعر الحب التي انبعثت من عمق وجدانه كبركان هائل، الحبسة الأولى قوامها أربع وثلاثون سنة والثانية ها هي قد ناهزت العشر سنوات، وما بينهما ثلاث سنوات منقوصة قليلاً، تزوج معشوقته التي ارتج لها قلبه، وسارا معاً، روحها تسري في روحه وروحه تسري في روحها، حلّقاً عالياً كطائرين قد تجاوزا مدى التحليق المعتاد إلى سماء دونها أيّ سماء تحلّق بها أرواح العاشقين، كانا إلى الحلم والخيال أقرب منهما إلى الواقع وتضاريسه القاسية، يريدان أن ينهلا من عبير حرية أوسع قليلاً من داخل السجون، التي سرقت من حياته أربعاً وثلاثين سنة دفعة واحدة ومن حياتها عشر سنوات، أتى لهما تعويض هذه المساحة المرعبة، مجرّد مرور ذكري يسيرة منها يحدث عاصفة هوجاء، لولا أنه يقين قد وقر في قلبيهما أنها من الباقيات الصالحات التي لا تضيع عند الله.

معشوقة نائل ومع انقطاع الاتصالات المهرّبة لا تغادر قلبه، يبوح لها بصمته الطويل، ويجدها تهدد روحه وتمنحه مساحة ينيخ راحلته المتعبة فيها، يبرع في إدارة الحوار المضمع بالرومانسيات الجميلة مما هو مركز في الذاكرة أو مكتنز بما تجود به مشاعر قلبه، يقضي وقتاً منعشاً يخفّف من آلام الجسد وآلام النفس المقهورة الموجوعة، ويسافر معها بعيداً عن هذه الأدغال المرعبة.

عبد الناصر جلّ أحلامه في الخروج من السجن متابعة ما بدأه في سجنه وهو مركز أبحاث متخصص في الفكر الفلسطيني والشؤون الإسرائيلية، وهو حصيلة دراسات على مدار ثلاثين سنة قضاها في البحث والدراسة، حاز على شهادة الدكتوراه، عدا عشرات الأبحاث التي قام بها، متقد العقل، غزير الإنتاج، اعتقل بعد مسيرة حافلة في العمل الجهادي المميّز في بداية تسعينيات القرن الماضي، في السجن يمثل شعلة متقدّة في النشاط الثقافي، دائماً يأخذ منصب رئاسة اللجنة الثقافية أينما حلّ أو ارتحل، يجيش حنينه أكثر وأكثر كلما تقدّمت به الحبسة إلى أن يكون له أسرة، زوجة وأطفال، قلبه يتفطر وتعصف به مشاعر جميلة وحزينة، رخوة لينة يخرّ لها قلبه وهو يتوق إلى هذا البيت الدافئ الجميل، حتماً سيعوّضه عما ذاقه في بيت السجن القاسي البليد القاهر المميت. تنهد وهو يجول في مستقبله التليد وغرف من معين قلبه:

- هذا إن خرجنا من هنا سالمين. « مؤكداً ما قاله صاحباها قبل دقائق معدودة.»

مع انتصاف الشمس لقبّة السماء بعد أن أكل لهيبها جروحهم، نعتت أبواقهم:



الغرفة الزهراء

- إلى الغرف يا حيوانات، ممنوع صوت، ممنوع صلاة، ممنوع طلبات، ممنوع دواء، ممنوع ترفع راسك، ممنوع كل شيء، نحن هنا من يقرّر لكم كل شيء، لا تتنفسون إلا بأمرنا، أرواحكم، طعامكم، مسكنكم، كل حياتكم: تحت نعالنا، مفهوم يا حيوانات يا أخوات ال..... يا أولاد ال..... وسيل طويل من الشتائم.

« نائر أبو عصب شاب محكوم حكماً عادياً، لم يحتمل قلبه هذا الوزن الثقيل من الشتائم فرفع عقيرته بكلمات مؤدبة جداً، ولكنهم شَمُوا فيها رائحة الاعتراض. قال:»

- إلى متى ستستمرّ هذه الحال؟

استنثوه من بين الأسرى، حيث دخل الجميع غرفهم سواه، ثم انهالوا عليه بعصيهم بطريقة جنونية، كانوا كأنهم جوقة موسيقية تعزف لحن الموت بصورة عنيفة، رفعوا عصيهم عنه بعد أن أصبح جثة هامدة، انقطع نفسه وهمدت صرخاته وهي تودّع هذا السجن الأسود، شرع القسم بالتكبير والضرب على الأبواب، جاءوا بخراطيم الغاز وضخوا من سموهم ما حوّل ساكني الغرف إلى أجساد نخل خاوية، هوت أجسادهم بين مغمى عليه وبين لافظ لصرعات صدره لا يدري أهو أقرب إلى الموت؟ أم أنه ما زال له في الحياة نصيب؟

ارتقى نائر أبو عصب شهيداً، شاب كالبدن سطعت به سماء النقب، سحبوا جثمانه ليحتفظوا به في ثلاثة الموتى وليبقى حسرة على أهله وشعبه إلى حين مواراته ثرى الشهداء عزيزاً مكرماً في بلده، لحق بمن سبقه من شهداء الحركة الأسيرة وكوكبة من قُتل في السجون بالطريقة ذاتها بعد معركة الساع من أكتوبر، هجع السجن وخيمت على أرواح الأسرى سحب ثقيلة من الكمد والغيط والقهر عدا سحب الغاز القاتل، أصبحت حياتهم شديدة السواد حالكة قاتمة يحاول المرء منهم رؤية بصيص نور نهاية هذا النفق، أو بريق أمل يخرجهم ممّا أضحو فيه ، لجأوا بحرقة عميقة وكسرة قلب لم يمرّوا فيها من قبل إلى جناب الله في دعاء يخفّف عن القلب ما فيه من بلاء عظيم.

مع غروب شمس اليوم الخامس للحرب جاءهم الطعام، لكل غرفة عدّة شرحات من الخبز لا تكفي لواحد بينما في الغرف ما يزيد عن عشرة أسرى، وكان لكل غرفة كمية قليلة من شوربة العدس، أو قل منقوع العدس لأنه ما زال يحافظ على يبسه، فكانت المحصلة كوباً من منقوع العدس مع شرحة خبز لكل أسير، واضح أنهم قد قرّروا سياسة التجويع وتحويل الأسرى إلى هياكل عظمية، مع ما يشوب ذلك من السخرية والامتهان.

تردّد الشباب رغم جوعهم في استلامها ولكنهم قبلوها لعدم الموت جوعاً، وجدوا أنفسهم أمام عنصرية متطرفة وعاصفة لا قبل لهم بها إذ لا بدّ من الانحناء في وجهها حتى تمرّ عليهم بأخف الأضرار الممكنة. فكرة أن يخرج المعتقل من السجن سالماً لأهله تسيطر على نفوس الأسرى، يشعر أنه من باب العرفان والوفاء لأهله الذين ينتظرونه على أحرّ من الجمر ويتشوّقون ليوم اللقاء أن عليه أن لا يخذلهم ويبرهم، فلا أقلّ من أن يخرج لهم حياً وسالماً من أية عاهة قد تصيبه من عنادات السجن المهينة.



الغرفة الزهراء

وكانت شهادة نائر أبو عصب علامة فارقة في سجلهم الحافل بالتعذيب غير المسبوق في تاريخ سجونهم السوداء، أثارَت شهادته في الخارج عاصفة إعلامية قوية واحتجاجات لكثير من المؤسسات القانونية، خفت قليلاً على إثرها حدة الضرب والتكسير بشكلها الجماعي، وأصبحت تتناول الأسرى فرادى حينما تستفرد بأحدهم كالأهداف لمقابلة محام، أو من يطلبونه لمقابلة «الشباك» المخبرات، في الذهاب والإياب يتلقى وجبات دسمة من الضرب والتكبير، أصبحت رحلة المحامي رحلة الموت والعذاب الأليم.

نائِل بدوره همس لصاحبيه عندما رأى ما وصلهم من طعام:

- أرى أن نعلن الإضراب المفتوح عن الطعام، « ما برد على الرطل إلا رطلين».

- وهل ترى أن الوضع في الخارج يحتمل هذا الإضراب، الحرب في غزة طغت على كل شيء. « همس علاء معترضاً وعقب عبد الناصر:»

- الوضع السياسي غير مهياً لهذا الإضراب هذه الأيام. سيبدو الإضراب حدثاً صغيراً أمام ما يجري في غزة.

- وما العمل؟ هل نقبل بهذا الهوان ونبقى هكذا مكتوفي الأيدي والأرجل؟

« رد علاء بالغا كل جهده أن يبقى هادئاً بعيداً عن حالة الكرب الضاغطة على عقله:»

- اسمع يا صديقي، لأن الأمر خارج المألوف، فإنه يحتاج إلى تفكير خارج الصندوق، هم غيروا قواعد الاشتباك فلا يجوز أن نبقى على القواعد القديمة.

- هات يا سيدي من خارج الصندوق، ماذا يوجد لديك؟

- نحتاج إلى وسيلة اتصال في الخارج، حراك شارعنا الفلسطيني هو الرئة التي نتنفس منها كما تعلمون.

- هذا داخل الصندوق، لا جديد في الموضوع، ثم من أين لنا وسيلة اتصال، لو قلنا زيارة محام، التواصل بالمحامي عند زيارته مراقب، بعدين ينفوك إلى أبو زعبل في أسفل سافلين.

- أنت مصر على أن تغلقها في وجوهنا، لماذا؟ لا أدري؟

- يا أخي قرّ واعترف، الأمور أُغلقت وضائق علينا حلقاتها.

- أنا أو من أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، لا بد وأن هناك ثغرة يمكن الولوج منها، لن نعدم الوسيلة مهما ضاقت.

- على رسلكما أيها الشيخان، اتركوا الأمر قليلاً للشباب، لنبحث عن وسيلة اتصال أولاً؟ طيب على فرض وجدنا ذلك، فما هي الخطوة التالية؟ ثم لا تنس سيدي نائل: كيف تمت عملية الهرب من سجن كنفار



الغرفة الزهراء

يونا عام ١٩٩٦ ونجحت فكرة حضر النفق. ثم قبل عامين في سجن جلبوع رأينا كيف تمت عملية الهروب الكبير.

- فكرك فكرة الحفر والنفق ممكنة في مثل هذه الظروف؟

- بالتأكيد غير ممكنة، ولكنني ضربتها مثلاً للتفكير خارج الصندوق.

- المهم دعونا نعصر أدمغتنا ولا نفقد الحيلة. مهما أغلقت في وجوهنا لا بد أن يجعل الله لنا مخرجاً.

- اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً.

في منتصف الليل حيث خيم السكون وهدأت الأوجاع قليلاً، أو قل: لاذت كمداً في صدور أصحابها، همس صوت ينادي:

- علاء يا علاء، تعال للباب.

« هبّ علاء نشطاً وتلمّس حديد برشه وزحف ناحية الطاقة التي أتى منها الصوت: »

- أهلاً بالشاويش آدم.

- جئتم من عند نضال، يسلم عليكم، لا تقلقوا هو ورائد بخير، أكلوا نصيبهم ولكنهم ما زالوا يتنفسون رغم هذه الحملة المسعورة.

- إلى متى؟

- بعد استشهاد نائر أبو عصب صدرت تعليمات تخفيف التنكيل قليلاً، بحيث ألا يؤدي إلى الموت.

- تعرف شاويش آدم: جئت في الوقت المناسب، نفكر بوسيلة اتصال، لا بد من عمل شيء يخفف عما نحن فيه من كرب شديد.

- تعلم أنني في الخدمة. وما أبقاني أصلاً في هذه الوظيفة المجرمة إلا خدمتكم.

- بارك الله فيك، دعنا نفكر إذن ماذا علينا أن نفعّل طالما أننا وجدنا وسيلة الاتصال.

- بالأمس سرّبت صور من قُطعت أطرافهم من أسرى غزّة نتيجة القيود التي لا تنفكّ منها أيديهم وأقداهم، عذابكم هنا لا يذكر أمام عذاب أسرى غزّة، هناك مسلخ على مدار الأربع وعشرين ساعة، عراة مربوطين في الأبراش من أيديهم وأرجلهم، والأدهى والأمر أنهم يصنّفونهم مقاتل غير شرعي ليذيقوهم أشد أنواع العذاب، ومن يموت منهم تلقى جثته هناك في شوارع غزّة كأنه مات في الحرب، والويل كل الويل لمن يصنّف أنه من نخبة القسام، وهناك جرحى لا يعالجون وجروحهم مفتوحة لكل الآلام،



الغرفة الزهراء

مشاهد لا يطيقها أي إنسان مهما بلغت قساوة قلبه، وهناك تحرش جنسي، وسمعت عن اغتصاب امرأتين من غزّة بصورة وحشية يندى لها الجبين. المهم هنا ماذا أنتم فاعلون؟ أنا في خدمتكم، ممكن أوفر لكم وسيلة اتصال.

- ما هذا الذي أصابهم، فقدوا عقولهم؟

- هؤلاء الآن لا تحركهم إلا أحقادهم وغرائزهم، وكيف ينتقمون منكم.

- خذ الهاتف، طمّنوا أهلكم دقيقة على الدائر.

- طول عمرك أصيل يا آدم.

علاء بدوره أعطى الهاتف لنائل، أخذ نائل الهاتف وأعطاه لعبد الناصر، أقسم عبد الناصر ألا يتكلم إلا آخرهم، أخذ نائل موقعه في زاوية الغرفة وضرب الرقم، ردّت زوجته بوابل من الأسئلة:

- حبيبي كيف أنتم، ماذا يفعلون بكم؟ صحتك ووزنك ضغطك معنوياتك؟

- على مهلك، أنا بخير ولله الحمد، ما معنا وقت، فقط نريد أن نطمئنكم، يا الله سلّمي على الجميع.

وهكذا فعل علاء ثم عبد الناصر.

عاد الشاويش آدم، وسأل: أي خدمة أنا جاهز.

همس علاء:

- ورقة شفاف وقلم وقداحة ولا عليك أمر.

- حاضر على طول.

- ربنا يحفظك ويكرمك.

دقائق كانت عندهم عدّة الثورة، سهروا ثلاثتهم على بلورة فكرة ثورة السجون وكتبوا بياناً قوياً بروح عالية يدعون فيه إلى تشكيل كتبية بعنوان: كتبية البواسل وشعارها ثورة حتى تحرير الأسرى كافة، وتدعو إلى سلوك كل الطرق الممكنة من أجل تحقيق كسر القيد عن الأسرى، وتصف حجم الأثم والعذاب الذي يتجرّعه الأسرى في سجون الاحتلال خاصة بعد السابع من أكتوبر، وتحدّد موعد الانطلاق لهذه الكتبية.

ثم بخط صغير كتب البيان رقم ١ على ورقة الشفاف، وتم لفّ الورقة على شكل كبسولة دواء وتسييح ورقة بلاستيك عليها.

مرّ آخر الليل الشاويش آدم، جاءه نائل على الطاقة وسلّمه الكبسولة، دون أن ينبس ببنت شفة، واضح أنه



الغرفة الزهراء

خط مضمون منذ سنوات بين قيادة الأسرى في السجن وقيادتهم في الخارج.

مع صيحات العدد الصباحية ومع الاستفزازات المهينة التي يطلقونها بصوتهم الممجوج، استعد علاء ونائل وعبد الناصر للعدد على غير العادة، كانت وجوههم مشرقة، فرحة كأنها قد تلقت خبر الفكك من قيودهم، مضى العدد وجلس الثلاثة يتهايمسون، كيف انبثق لهم هذا الشعاع من عمق العتمة، تفكير خارج الصندوق وتوفيق إلهي واضح البيان، همس علاء:

- أرايتم يا شباب كيف تتجلّى: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا).

- إنه قول الله تعالى: (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

- بالفعل الله مولانا وهم لا مولى لهم.

تلا علاء نشرة الأخبار من ملخص نفث سماعة الترانزيستير في أذنه همساً، إلقاء القبض عليه يعني وقوع الغرفة في براثن عقوبة لها أول وليس لها آخر، ويمكن معاقبة القسم، علاء يجيد إخفائه كأنه يرى بعينيه ما لا يراه المبصرون، الأخبار تحوي المزيد من التدمير والقتل والخراب في قطاع غزة مع المزيد من إيقاع الخسائر في جنود الاحتلال والمزيد من صواريخ المقاومة على مدن ومستوطنات الاحتلال، وبدأت ملامح حرب برية تلوح في أفق هذا العدوان، يحشدون آلاف الدبابات وعدة فرق وألوية على مشارف غزة، والمقاومة الفلسطينية تجهز نفسها لحرب ضروس، ننتيا هو رئيس ما يسمّى دولة الاحتلال حدد هدف الحرب وهو القضاء على المقاومة الفلسطينية وتحرير أسراهم منها، مع هدف غير معلن وهو تهجير سكان القطاع باتجاه سيناء.

بدأ ليل صحراء هذا السجن ينث برده خاصة بعد سحبهم للأغطية والملابس من الأسرى وتركهم بغير واحد، إن استمر الوضع هكذا مع شتاء نضحة ستكون كارثة ما بعدها كارثة، ومع النقص الحاد في الوزن المرافق لسوء التغذية سيكون البرد قارساً وغير مسبوق، اعتادوا وجبة واحدة، شرحتا خبز مع قليل من الأرز أو العدس أقرب إلى المنقوع أو غير مكتمل السلق، أحضروا علبة حمص صغيرة لكل غرفة كل يومين أو ثلاثة، واضح أنهم فقط يريدون لك أن تعيش على حافة الموت.

التحليل لتداعيات الحرب على قدم وساق همساً، بين الحين والآخر يسمع مداهمة غرفة ومعاقبتها بالتفتيش المريع والضرب بحجة أنها خالفت تعاليم إدارة السجن المقدسة، باقي سكان الغرف تقع العصي على قلوبهم وهم لا يملكون حيلة للتخفيف عن إخوانهم، وأخبار المجازر والدماء الغزيرة في غزة تقص مضاجعهم وتلفهم بالغضب والألم والقهر.

تدور دائرة التحاليل السياسية طويلاً لتعود إلى محور هام وهو قدرة المقاومة على الاحتفاظ بالأسرى الصهاينة مع اشتداد ضراوة الحرب، وكيف ستؤول الأمور إلى حيث تبييض السجون وانعتاق جميع الأسرى الفلسطينيين والعرب منها، هل سنجد النور نهاية النفق؟ القلوب تحرك الألسنة لتلهج بالأدعية



الغرفة الزهراء

الخالصة من عميق عميق قلوبهم، ويذكرون كثيراً قدرات المقاومة واستعدادها الطويل للاحتفاظ بالأسرى عبر شبكة طويلة من الأنفاق، وخبرتها السابقة؛ حيث احتفظت بالأسير المدعو «شاليط» ما يزيد عن خمس سنوات حتى أجريت صفقة تبادل أطلق بموجبها ألف ومائة أسير، وهناك أيضاً مجموعة منذ ما يزيد عن ثماني سنوات، الأيدي على القلوب والدعاء لا يتوقف. هل تنجح المقاومة بتجاوز هذه الحرب المدمرة الساحقة مع الاحتفاظ بأسراها؟ أم - لا سمح الله - يصل الأعداء إلى أسراهم فيقتلونهم بالقصف، أو يصلون إلى هدفهم المعلن في تحريرهم. هذا تحد كبير وميدان نقاش لا يتوقف عند الأسرى الذين ينتظرون لحظة الفرج على أحر من الجمر.

بعد قضاء أسبوعين من العقاب في العزل عاد رائد ونضال إلى الزنزانة الزهراء، في الطريق تم الاعتداء عليهما بالهراوات مع الشتائم والبصق وهما مكبلًا الأيدي والأرجل، يدخلونه الغرفة بعد فك قيد الأرجل، ثم يدخل ويخرج يديه من طاقة الباب فيفك شرطي قيده من الخارج، وبهذا يتحرر ولكن داخل قيد الزنزانة، رميا بثقليهما على برشييهما كالعائد من سفر طويل مُرهق، تبادلًا الابتسامات مع علاء ونائل وعبد الناصر.

نائل هتف بهمس:

- تعيشان وتأكلان غيرها.

- نسأل الله القبول.

- صدقوا أو لا تصدقوا: كانت لي رحلة روحية في غاية الروعة والجمال. « همس نضال »

- يا شيخ أنت تعرف من أين تؤكل الكتف، تبحر في بحر المحبة. « عقب علاء »

- ما زلت على الشاطئ، ليتني أبحر كما تقول. أهم ما فتح الله علينا جميعاً الذي تعلمونه، رأيتم محبة الله لنا وعظيم لطفه وحسن رعايته.

« هتف نائل مازحاً: »

- هذا في عالم الأسباب، فماذا عن القلوب المعلقة بالله، أين وصلت بك في هذه الخلوة: « يحبهم ويحبونه »

- أم هي أسرار قدس الله سرّك شيخ نضال.

- أنا على يقين بأن الله معنا وهو ناصرنا بإذن الله، سيغرق جيش الاحتلال في رمال غزة. « ثم ابتسم ابتسامة مشرقة وهمس على استحياء: »

- هل تصدقونني لو قلت لكم أنني زرت الأهل.

« ضحك نائل وهتف: »



الغرفة الزهراء

- أفلامك محروقة، في المنام صحيح؟

«هز رأسه بعد انكشاف الأمر قبل أن يبدأ:»

- صحيح حلم.

- اللهم اجعله خيرا، خير ..

- حسناً، «رفع حاجبيه قليلاً وتابع:»

تعلمون أن بنتي هبة بلغت التاسعة من عمرها، سبحان الله من نطفة محررة أخرجتها قبل عقد من الزمن تقريبا، والحمد لله نجحت زراعتها في رحم أمها ثم ولدت فارسة من فرسان الحرية، اليوم تقف أمامي تسأل وأجيب:

هبة: بابا حكوا لنا إنه الأسرى صاروا هياكل عظمية وأنا شايفك اليوم زي ما حكوا لنا هيك عظمي؟

نضال: هذا رُجيم، أخف وأحسن صحياً، احنا بخير ما تقلقي يا بابا، كيفك انت؟

هبة: حكوا لنا يا بابا انه ضربوكم كثير.

نضال: احنا بخير يا بابا كيفك انت؟

هبة: حكوا لنا يا بابا انه استشهد كثير من الاسرى وبعد ما استشهدوا كمان حطوهم في الثلجة وما سلموهم لأهلهم.

نضال: احنا بخير يا بابا كيفك انت؟

هبة: حكوا لنا يا بابا انه سحبوا من عندكم التلفزيون والراديو وكل إيشي، طب في عندكم نت؟

نضال: احنا بخير يا بابا، انت؟ ما في نت صحيح، بس انت احكي لي عنك، كيفك انت؟

هبة: حكوا لنا يا بابا انه الغرفة اللي بتسع عشرة بدبوا فيها عشرين، وانه ما في دوا ولا فورة ولا حرامات وفي صقعة كثير كثير.

نضال: احنا بخير يا بابا ، بس احكي لي كيفك انت؟

هبة: وحكوا لنا يا بابا كمان انه قاعدين بنتقموا منكم.

نضال: قلتلك يا بابا احنا بخير، كثير حابب تحكي عن حالك، القصص اللي بتحبها، الألعاب اللي بتلعب فيها.



الغرفة الزهراء

هبة: بابا بدي احكي لك، أهل غزة بخير صابرين وصامدين والمقاومة بخير وأنا وأمي وتيتا واخواتي بخير.

- ابتسمت من أعماقي ابتسامة واسعة مضيئة لوددت أن أحترق الزجاج وأرفعها عالياً وأطير فيها ولكن.
- انتهت الزيارة.. «أكمل علاء»

- بالك ابن غفير شكله رايح يحوّل غرفة الزيارة إلى أحلامنا. «علق عبد الناصر»

- عموما مبروك الزيارة سيدي نضال.

- الله يبارك فيك، الصراحة كأنها زيارة وزيادة.

رائد بدوره شارك بعد صمت طويل مُخرجاً الموضوع عن سياقه:

- ستكون الحرب البرية حرب عصابات شرسة وستكون خسائرهم عظيمة بإذن الله. هذا إذا صمّموا على دخول الحرب البرية وأنا أستبعد ذلك، الضربات الجوية لا يوجد فيها خسائر بشرية، هم لا يحتملون ذلك.

- ما رأيك عبد الناصر بصفتك متخصصاً وخبيراً في الشؤون الإسرائيلية؟ «سأل علاء»

«تنحنح عبد الناصر وشرع في التحليل:»

- أشكرك سيدي علاء، ما يجري اليوم على الساحة الإسرائيلية لا يقارن بما مضى، اليوم هناك روح انتقامية عنصرية عالية تنتاب الكل الإسرائيلي، هناك شعور بالخوف في موضوع البقاء للمشروع الصهيوني وأنه في السابع من أكتوبر قد تعرّض لهزيمة تهدّد وجوده واستمرارية بقائه، وقد تمّ التحريض وحشد الوعي بهذا الاتجاه وتضافرت جهودهم وانضمّ إعلامهم بكل ضراوة في التحريض وإثارة شهوة الانتقام، وإعادة الاعتبار واسترجاع حالة الردع التي انهارت في هذا اليوم، ووقوف المشروع الصهيوني على أقدامه من جديد والقدرة على تحقيق الانتصار، أتوقع أنّهم سوف يتوحّشون بكامل قدراتهم على الجريمة والقتل والإبادة الجماعية، فكما فعلوا سنة ثمان وأربعين من مجازر وقتل ودمار سيفعلون هذه الأيام.

«همس نائل مازحاً:»

- الله يبشرك بالخير. يمّ مثل غراب البين.

- هذا واقعهم الأسود لا بدّ من تحديد معاملة بتوصيف موضوعي حتى نفهمه جيداً.

- يا جماعة لا تنسوا أنّ: «الله غالب على أمره»، «ولينصرنّ الله من ينصره» هذه معركة بدأت بتوفيق إلهي لن يتخلّى الله عنها أبداً. «هتف نضال»



الغرفة الزهراء

- كالعادة نقع بين قراءة عبد الناصر السببية وقراءة نضال الغيبية.
- هما قراءتان لا تبغي إحداهما على الأخرى، قراءتان في قراءة واحدة. « همس علاء »
- ولكن القراءة السببية هي المطلوبة أكثر كي نصل إلى المطلوب العملي: « أوّماً أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتُم أنّي هذا قل هو من عند أنفسكم » كي نبحت في الأسباب الموضوعية السببية. « ردّ عبد الناصر »
- لكن لا تنس الآية التي تليها: « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله » « تابع نضال »
- يا جماعة الخير: الأمور واضحة جداً، كم ناقشنا هذا الموضوع، تلك للبعد المادي وهذه للبعد المعنوي، والأمران مطلوبان.
- « ختم عبد الناصر: »
- مقولة السنوار هما قراءتان في قراءة واحدة، والمطلوب أن نكثف جهدنا على ما هو مطلوب منا، وأن نعطي الأمر حقه في ميدان القراءة الموضوعية السببية بكل ما أوتينا من قوّة.
- وقد ترجم ذلك عملياً -رضي الله عنه- « هتف علاء »
- « ضربهم ضربة صوحهم فيها » « صرّح نائل مع ابتسامه صافية »
- لخصّ علاء ما سمع من أخبار طيلة الليل: القصف الجوّي يزداد ضراوة على قطاع غزة، مئات الشهداء والجرحى، تدمير أبراج سكنية، حزب الله في الشمال يقصف أهدافاً إسرائيلية في شمال فلسطين، الطيران الإسرائيلي يردّ، شوارع العواصم العربية تشتعل بالمظاهرات الاحتجاجية على الجرائم الإسرائيلية، وأشدّها اشتعالاً المدن اليمنية التي خرجت فيها مظاهرات مليونية، وأعلنت جماعة أنصار الله في اليمن وقوفها التام مع كتائب المقاومة الفلسطينية من خلال منع السفن التي تنقل بضائع إلى الموانئ الإسرائيلية. وضرب مدينة إيلات بصواريخ بالستية وطائرات مسيرة، وقامت قواعد عسكرية أمريكية بإسقاط بعضها قبل أن تصل، كذلك فعلت فصائل مقاومة عراقية دعماً للمقاومة الفلسطينية بضرب قواعد أمريكية واستهدافها بصواريخها وطائراتها المسيّرة.
- بالفعل عطّلت التجارة الإسرائيلية عبر مضيق باب المندب، ففتحت لها دولة الإمارات العربية موانئها وليفتتح خط بديل للتجارة الإسرائيلية عبر الإمارات والسعودية والأردن... للأسف الشديد.
- أمريكا ودول الغرب: بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا تعلن الوقوف التام مع دولة الاحتلال وحقّها المشروع في الدفاع عن نفسها، وتستعد لتقديم كلّ أشكال الدعم المطلوبة. واضح أن قوى الشرّ في العالم تقف صفاً واحداً في مواجهة مشروع التحرّر الفلسطيني، ولأول مرّة تقف بهذا الشكل السافر. شعرت بأن مشروع هيمنتها الاستعمارية في المنطقة قد أصبح على مهبّ ريح الطوفان.



الغرفة الزهراء

« بغضب يوشك أن يخرجك عن همسه هتف علاء: »

- هذه معركة كاشفة فاضحة، اليوم ينقسم العرب عربين، عرب الخيانة والردة، وعرب المقاومة والتحرير.

« ردّ نائل: »

- هون عليك يا صديقي، طول عمرها فلسطين تفرز الناس. تفرز المتخاذلين المتأمرين عن الداعمين الصادقين.

« تساءل رائد بنبرة عالية: »

- هذا مفهوم ولكن: أين محور المقاومة، حزب الله ليس مسانداً، يجب أن ينخرط في المعركة بشكل كامل.

« ردّ علاء مهدئاً لرائد: »

- الله يخليك حافظ على هدوئك، هناك في العزل لا تجد من تناقشه.

عقب نضال:

- الإسناد من حزب الله جيد لكنه غير كافٍ، لأنه شريك في محور المقاومة.

« همس نائل بعمق: »

- هذا يعود إلى التنسيق المسبق لمعركة السابع من أكتوبر، إن كان الأمر منسقاً ومتفقاً عليه، فهذا خذلان. وإن لم يكن فالإسناد جيد، ولنطالب بالانخراط الكامل لأنهم يقاتلوننا كافة، فينبغي على الأقل محور المقاومة أن يقاتل كافة، لأن الأمة واضح أنها لن تقاتل معنا طالما أن عليها هؤلاء الحكام ال..... المحترمين

- هذه بحاجة إلى تحليل شافٍ كافٍ، أو لنقل تقدير موقف سياسي، ليس لها إلا عبد الناصر. « همس

علاء»

« ردّ عبد الناصر: »

- قرار دخول الحرب مسألة تحتاج إلى دراسة كل المعطيات المتاحة واستشراق سيناريوهات الدخول أو عدم الدخول، وماذا يترتب على ذلك. وهذا للراسخين في العلم والقيادات الفذة. المسألة لا تحتمل المغامرة فأرواح الناس مسئولية وأمانة تحتاج إلى حسابات دقيقة. فانخرط الجبهة اللبنانية لها حساباتها التي قد تختلف في بعض الجوانب عن الحسابات الفلسطينية. تاريخياً دفعت لبنان أثماناً باهظة، بعد حرب عام ٢٠٠٦ والدمار الذي لحق الجنوب اللبناني أصبحت الحسابات ليست سهلة.

انفعل رائد من جديد وهتف:

- بما أن المعركة قد وقعت فلا بد من انخراط حزب الله بالكامل والسير معاً نحو التحرير، توزيع الأمور



الغرفة الزهراء

على موازين من ذهب يقتل فينا النخوة ويضعف محور المقاومة ووحدة الساحات التي نتغنى بها، الآية تقول: «وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر» هذا إذا تحدثنا عن حلف واحد تجمعته فكرة المقاومة وتحرير القدس.

«رد علاء:»

- هدي هدي يا رجل، هذا يعتمد على تقدير الأمر: هل هذه المعركة جولة أم هي معركة التحرير؟ أتفق معك إذا كانت التقديرات أنها معركة التحرير، لكني لا أظن ذلك، هي فقط جولة على طريق التحرير.

- ولم لا تكون هي معركة التحرير؟ خاصة بعد النصر الحاسم والعظيم الذي تم وبعد أن ثبت أنهم أوهن من بيت العنكبوت.

«رد علاء:»

- أحيل السؤال إلى الخبير الاستراتيجي عبد الناصر:

ابتسم عبد الناصر وانتظمت مشاعر قلبه كفرقة موسيقية تستعد لعزف لحن جميل:

- هذه يا سيدي لا تخضع لشعار أو اندفاع عاطفية أو حتى حسابات محلية، هذه لها أبعاد كثيرة تبدأ بحساب الإمكانيات والقدرات والظروف المواتية محلياً وإقليمياً ودولياً وتنتهي بالقدرة على إدارة المعركة والاستعدادات اللازمة لها بكل تفاصيل متطلباتها ومتطلبات الصمود مهما طال زمن المعركة.

وأعتقد أن السنوار ومن معه قد خالصوا إلى السير في هذا الدرب، معركة الاستنزاف الطويلة لهذه الغدة السرطانية. لا يمكن لهذا الوجود المدعوم بأمريكا والغرب الصليبي كله أن ينتهي بضربة قاضية، وحزب الله يسير تصاعدياً في هذا الطريق، حتى إذا أنك جيشهم في غزة وسار إلى لبنان وجد هناك فرقة الرضوان التابعة لحزب الله بانتظاره على أحر من الجمر.

قطع النقاش مكبرات القسم تنعق بأقذع الشتائم والمسبات:

- «خنيض» معكم يا أخوات ال..... جعائين يا أولاد الق.... كيف صار السجن؟ خمس نجوم؟ والله لتشوفوا نجوم الظهر، السجن من اليوم وطالع هو مكان للموت البطيء، هو الجحيم، جهنم الحمراء، لازم تنسوا إنكم بشر، أنتم دون الحيوانات كثير كثير، الحيوانات أحسن منكم. اليوم بدّي أحضركم فيلم من الآخر، إنه الآن يدخل الفورة بإمكانكم مشاهدته..

« في طابور مدلّ دفعوا بقوة على الفورة «الساحة» من بوابة القسم مجموعة من قياديي المقاومة الأسرى، كانوا عراة دون أي لباس كما ولدتهم أمهاتهم، أثر التعذيب بدا على أجسادهم، وحالة من القهر والمهانة قد كست وجوههم، مكبلي الأيدي للخلف وسلاسل الحديد تقيد حركة أرجلهم، كانوا كأنما يساقون إلى منصة الإعدام، عيونهم منكسة على الأرض، وكأنهم أرادوا بذلك إهانة كل الرموز الاعتبارية



الغرفة الزهراء

للفلسطينيين، واضح أنهم يريدون إذلالنا وعلى أسوأ درجات الإذلال.

بصوت جهوري كاسح صدع أحد الأسرى من فوهة باب غرفته: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وانطلقت صيحات التكبير من كل الغرف، وعلى الفور هرع عشرات المدججين بأدوات القمع، وشرعت حسب طقوسهم المعروفة خراطيم الغاز تضحّ سمومها غرفة غرفة، فتقطع الأصوات بعد أن تملأ الفضاء عطساً ومنازعة للحياة من قلب هذا الضباب الثقيل القاتل الأسود، وراحوا يفتحون الغرف فتنال رؤوس الأسرى من عصيهم ما يدميها ويحوّل أرضية الغرف إلى برك من الدماء، ساعة من الضرب وسحق العظام والرؤوس ليهجع بعد ذلك ويغرق في آلامه.

علاء التقط أنفاسه بعد هذه الوجبة الدسمة، همس:

- يا جماعة الخير، عمّموا على الشباب كلمتين: قواعد الاشتباك تغيّرت.

رائد من حمأة حافة الموت التي وصل إليها نجح في القول:

- « بلا قواعد اشتباك بلا بطيخ، هم ضاربين ضاربين، سكتنا وإلا صرّخنا ضاربين.»

«هتف نائل:»

- يا عمّ رائد، قدر المستطاع علينا ألا نعطيهم أيّ مبرّر لقمعنا حتى تضع الحرب أوزارها، بعد ذلك لكلّ حادثة حديث.

- كيف نستطيع أن نمرّر ذلاً بهذه الدرجة الفظيعة، مشايخنا يُعزّون أماننا ونبقى صامتين؟

« همس علاء:»

- من قال لك إنّنا صامتون، لن نعدم الحيلة وسيكون الردّ موجعاً وفوق ما يتصوّر، المجاهد صمته جمر تحت الرماد، لا تقلق سيدي رائد.

- اصمتوا كما يحلو لكم، أنا لا أستطيع هذا الصمت الاستراتيجي، مثل صمت إيران، أنا لا أفهم هذا الصمت أبداً.

« وقف نائل وهتف مازحاً:»

- ولو كان الصمت قراراً تنظيمياً لتجنّب المجموع التهور الفردي للمتهورين أمثالك، كما ترى هناك كبار في السن لا يتحمّلون ما تتحمّله الجحاش مثلك يعني عدم المؤاخذه.

تبسّم الجميع سوى علاء الذي امتلأ فمه ضحكاً وقال:

- الشجاعة فن لا يجيده المتهورون ولا الجبناء طبعاً.



(0) البوسطة رحلة على حافة الموت

اكتملت دائرة العذاب زيادة على الضرب المفرط وقلة الغذاء وسوءه بالإمساك الذي مسك البطون مسكته السيئة، أصبح الكل يشكو من سوء الإخراج، لا يوجد في طعامهم شوربات ولا ألياف ولا خضروات عدا عن قلته فأنتى لهم الإخراج، يضطر الواحد منهم دخول الغائط دون نتيجة، ويمكث طويلاً أو قصيراً دون جدوى، وقد نال هذا الموضوع من حديثهم ما نال، عندما يخرج أحدهم من الخارب ينظرون في وجهه ليروا عبوسة تؤكد على أن الأمر على ما هو عليه، أم أن هناك انفراجة وتهلل أسارير الوجه تنبئ بخير. على الغالب يخرج على أسوأ مما دخل.

خطرت فكرة على بال نائل فنزلها على التطبيق مباشرة: «أليس من أعراض التسمم الإسهال؟ إذن علي بالتسمم، هذه بسيطة» جاء لكل اثنين بيضة في إحدى الوجبات الدسمة في اليوم الخامس عشر للحرب، أخذ نصفه ووضعها على النافذة كي تضربها الشمس، انتظرها ثلاثة أيام حتى إذا فسدت وخرجت رائحتها بشكل واضح، بلعها وشرب ماء كثيراً بعدها، علاء لا ينفك يرميه بالجنون.

«علاء بهمس حاد»

- ماذا لو كان التسمم أكثر من اللازم؟

- لا تقلق مررتها على المختبر، «فكرك نصف بيضة مخمجة رائحة تقضي على نائل»

- الله يصلح حالك.

- صلاح الحال بالخلاص من الإمساك، هل تدري أن هذا الإمساك اللعين قد شلّ عقلي، لم يعد يعمل بشكل جيد.

- محسوبك والأمور سالكة تأتيني أحلى الأفكار. «هتف علاء مازحاً»

المهم نجحت فكرة نائل، دخل الحمام عابساً وخرج وقد تهللت أسارير وجهه وانزاحت الغمة عن عقله وقلبه.

سألوا كل بطريقته كأن السؤال عن مولود طال انتظاره، علاء هتف:

- أنا لو سألت معذور، لأنني لا أرى وجهه، أما أنتم فاقرؤوا المكتوب من عنوانه.

«ردّ نائل وهو في غاية السرور»

- اسمعوا يا شباب، من الآخر، عليكم بنصف بيضة فاسدة مع حفظ حقوق الطبع وبراعة الاختراع.



الغرفة الزهراء

نعتت مكبرات الصوت على مجموعة أسماء للبوسطة فوراً، من بينهم من الغرفة الزهراء: رائد، البوسطة بقيادة فرقة أسمها: «نحشون» وهي من أشد فرق السجن توحشاً وشراسة، أصبح الذاهب لبوسطة كالذاهب إلى الجحيم بما يناله من صنوف العذاب والتنكيل.

لنرافق رائد في رحلته هذه ثم نعود للزنزانة الزهراء في سجن نضحة الصحراوي العتيد، يأتيه جنديان يخرج يديه من طاقة الباب فيضعان القيد فيهما ثم يفتح الباب بعد تجمّع مجموعة من شرطة السجن المجهزة بكل أجهزة القمع بالطبع، يخرج رائد يوضع قيداً آخر يربط بين قدميه مع جنزير، ثم يجرّ كما تجرّ الدابة، يتعاملون معه كبضاعة مادية لا مشاعر لها، عليهم نقلها، ليتهم كذلك بل هي بضاعة يجب امتهان كرامتها والتفنّن في طرق التنكيل والعذاب.

يتدافعونه مع سيل من الشتائم، على بوابة القسم يتمّ تشخيص الاسم والصورة ثم يدفع بعنف مع بعض الركلات والصفعات، يتلذذون ويجدون متعتهم في إيقاع الألم والمهانة على بضاعتهم، ثم قريباً من بوابة السجن الخارجية يدفع إل قفص يجمّع فيه مع بقية الأسرى الذين وقع عليهم قولهم بهذا السفر وهذه «البوسطة».

في هذا القفص ومع تباشير الصباح الباردة، يريدون أن يوصلوا لك رسالة بأنك حيوان ولست إنساناً البتّة، إياك أن تعتبر نفسك إنساناً بأي شكل من الأشكال، وفي هذا القفص ما فيه، تلتقي قصص العذاب، يجد كل معتقل صورة البؤساء في وجوه من يراهم قد سبقوه للقفص، ويجد صورته في وجوه الآخرين، فعلاً المؤمن امرأة أخيه خاصة عند فقدان المرأة فما عليه إلا أن ينظر في وجوه إخوانه، لا تجد أن هناك داعياً للحديث عما فعلوه بك وما زرعه في أضلاعك من ألم وما قذفه في قلبك من قهر وفي صدرك من غل، فألم القلب أشدّ من آلام الجسد. ما تريد أن تحدث عنه قد وقع فيه من حولك، كل ذاق وعرف فلم الحديث عما أصابك؟

ومع ذلك تجد في قفص القهر هذا من بيتسم، تجد من يطلق النكتة ويضحك، يا إلهي، ما هذه النفوس الجبارة، قادرة على صنع الابتسامة رغم الركام الهائل من الألم والضغط النفسي الفظيع، يتحدثون عن الذي أطلق عقيرته بعد أن ضحوا غازهم المميت في الغرفة فقال: «نموت واقفين ولن نركع»، ثم أخذ الأرض راكعاً لأن الغاز يصعد لأعلى ويبقى المكان الأقل غازاً هو أرضية الغرفة.

وهناك من القصص المأساوية يتناقلونها، كيف بال الجندي علي معتقل واستنجد برأسه، والجندي الذي قال لصاحبه، انظر كيف سأحرم هذا البغل من الخلفة مشيراً إلى معتقل مكبل اليدين والرجلين، باعد بين ساقيه وركله بكل ما فيه من قوّة على خصيتيه، صرخ المعتقل صرخة اهترت لها جدران السجن. وقصص تعرية الأسرى والسخرية منهم وإجبارهم على أن يرددوا خلف مجنّدة تنشد نشيدهم الاحتلالي المقيت. أخرجوا كل ما لديهم من فنون سادية في التعذيب والتنكيل. وقصة من جاء بالماء المغلي وسكبه في ظهر أحد الأسرى على حين غرة، ثم جاءه آخر ليبرد عليه بسكب ماء بارد، مكث أسبوعان يتقلب من الألم ولا يعرف النوم طريفاً إلى جفنيه. وطبعاً لا علاج ولا مسكن.



الغرفة الزهراء

بعد ساعتين وصلت البوسطة، قفز منها جنودها، يتم انتقاؤهم على أن يكونوا مفتولي العضلات وأصحاب أجسام ضخمة، يتم استلام ملصقات البضاعة الحيوانية، ثم ينادي عليهم اسما اسما، وعندما تسمع اسمك فالمطلوب أن تخفض رأسك وأن تقول حاضر سيدي، من يخالف أو يتلصأ أو يتردد بسرعة البرق تلعب عصيهم على رأسه، ما في مجال، عليك أن تتعظ بغيرك، وإلا اتعظت بدماغك وعظامك وسوء المنقلب وإلى نهاية قد تكون القاضية.

طبعاً البوسطة هي نفسها المقاعد الحديدية والنوافذ المغلقة سوى بعض الثقوب، حارة جداً في الصيف وباردة جداً في الشتاء، وسائق عفرية، يخضك مع كل غيار ويسرع ثم يضرب فرامل ليضرب المعتقلين بجدرانها الحديدية، والويل لمن يرفع رأسه أو يحاول معرفة أين هو ذاهب أو ما هو سبب هذا السفر المميت.

سارت برائد البوسطة قرابة الساعة والنصف ثم كأنه بدا لهم أن يستريحوا قليلاً، ركنوها جانباً على قارعة طريق سريع بعد ان ابتعدوا عدة أمتار عن الشارع، ثم تجمع رجال «النحشون» من سيارات الحراسة المرافقة، بعد قليل فتحوا بابنا، نعق أحدهم:

- يا شباب هسة حابين نعمل حفلة، مين يعرف يغني؟

« خيم على من في البوسطة صمت مطبق، حالة من الذهول لم تمكث طويلاً، أشار على أحد المعتقلين.»

- أنت، تعال، بسرعة تعال.

« هبط به إلى حيث الحفلة، دائرة من الجنود المتحفزين للسخرية والتكيل، دفعه وسط الدائرة وطلب منه الغناء لأم كلثوم، الشاب وقف واجماً فانهاوا عليه بالصفع والركل، »

- غني يا ابن ال.... غني يا حيوان يا كلب يا حقير يا يا ..

- ما بتعرف تغني، طيب عوي مثل الكلب، هذه أكيد تعرفها....

« أمام هجماتهم وضربهم اضطر أن يعوي لهم فتعالت ضحكاتهم وقهقهاتهم ..»

ثم جاء ثانية وأخذ معتقلاً آخر وآخر حتى جاء دور رائد، رائد رد على الهجوم بهجوم، ورفض أن يخضع لهم؛ مما أثارهم فأشبعوه ضرباً.

- غني يا ابن ال...

- لا أريد أن أغني لكم لأنني إنسان أحترم نفسي وابن ناس محترمين.

- انت ابن

- ولا مرة، أنا معتقل سياسي لأنني أرفض الاحتلال، أنتم احتلال ظالم.



الغرفة الزهراء

« قهقهوا عالياً، النتيجة واحدة أشبعوه ضرباً وداسوا عليه تحت أقدامهم، بصقوا في وجهه، ثم أنهوا به حفلتهم وانطلقوا. »

من نضحة جنوباً توقفت البوسطة ساعتين في بئر السبع، ثم انطلقت إلى عسقلان توقفت للتحميل والتنزيل قرابة ساعتين، تعجب كأن الوقت لا يعرفون له حساباً، أو أن شغلهم وحياتهم أن يتلذذوا في عذابات الآخرين، كم هو الانتظار مرّاً وقاس، تنتظر حتى تفقع مرارتك وتجد مرارتها في حلقك، ثم انطلقت وقد خفت حرارتها قليلاً، تشعر بأن الشمس في مخيلتك أو شكت أن تقع في البحر فأنت في مكان لا شمس فيه ولا نهار، كأنك تسير في منطقة ضبابية لا مكان فيها ولا زمان.

ثم وصلت ما يسمّى: «معبار الرملة» ولغاية الآن لا يعرف رائد أين هو ذاهب ولماذا هذه السفرة اللعينة؟ أهي للمحكمة أم لمرکز تحقيق أم هي نقل إلى سجن آخر؟ أضاعوا فوانيس داخل هذا الصندوق الحديدي ما يؤشر على أن الشمس قد استسلمت ورمت نفسها في أحضان البحر، هكذا كان يتخيلها رائد وهو محشور في هذا الصندوق فيطلق خياله بعيداً مع الشمس ومغيبها، لقد أدركه المبيت هنا في هذه المحطة دون طعام ولا شراب، طبعاً مثانته توشك على الانفجار، معروف أنهم لا يتوقضون لمثل هذا الترف أن يقضي المسافر في هذه البوسطة المجيدة حاجته، لا داعي لهذه الحاجة، عليه أن يتصبر حتى يصل المحطة الأخيرة أو يعملها تحته فتقتله الرائحة وتقتل من معه، تحدث أحياناً خاصة مع المصابين بالسكري مع عدم قدرتهم على تحمّل ضغط المثانة لساعات طويلة.

أنزلوهم من البوسطة إلى هذا السجن الذي أدركهم فيه المبيت، أنزلوهم فرداً فرداً لتلقف كل منهم مجموعة من العصي الكهربائية المتطورة الجاهزة للتعذيب المترافق مع ضربها المؤلم، ولا بد من التفطيش العاري، لا يدري المعتقل عن أي الأشياء يبحثون، السجنون التي أتوا منها باتت جرداء لا شيء فيها، فماذا تراهم يحملون؟ ثم أدخلوا إلى الغرف، كل مجموعة في غرفة، وكان الإفراج العظيم أن يتمكن الواحد من تفريغ مثانته، وكان الأكل علبه لبنة صغيرة مع رغيف خبز مقطع لكل غرفة، لا تكاد تغني أو تسمن من جوع أبداً. الحمد لله كان هناك حنفية ماء ليغيب عنها المرء ما يملأ بطنه.

سنعود إلى رائد وقصته مع هذه البوسطة اللعينة، ولكننا اشتقنا إلى اخبار الغرفة الزهراء في سجن نضحة، صاروا يقطعون عليهم الكهرباء ليلاً، والماء طبعاً يأتي ساعة كل أربع وعشرين ساعة فقط، لك أن تشرب في هذه الساعة، ولك أن تستحم بالماء البارد طبعاً، هذا بعد أسبوعين من الحرب، في الليل من أراد الغائط فإنه يدخل مكرهة صحية لعدم وجود الماء للتصريف أولاً بأول، فمن أراد الثقيل من الغائط واستطاع أن يؤجلها لساعة إتاحة الماء فليفلع، وإلا فإنه سيتسبب بكارثة من الروائح القاسية إلى أن يأتي الماء فيتنفّس من في الغرفة الصعداء.

ماذا عن عداسهم، أقصد الشاويش آدم؟ جاءهم ليلة أمس وأحضر معه رسالة مفادها أن فكرة كتيبة البواسل لاقت استحساناً كبيراً في الخارج، وسيعمل على تشكيلها وعمل التعبئة اللازمة لإنجاحها، وطلبوا من خبراء الشأن الإسرائيلي في السجن أن يشتغلوا على تقدير الموقف السياسي ويزودوا به



الغرفة الزهراء

القيادة في الخارج، وهذا عمل عظيم وفي غاية الأهمية ويساعد دوائر صنع القرار بشكل نوعي. وتؤكد الرسالة بأن أكثر الناس إحاطة ودراية في الشأن الإسرائيلي هم الأسرى الذين اشتغلوا جيداً على هذا الموضوع واستفادوا من فترة وجودهم في السجن بشكل مميز، لذلك لا بد من الاستفادة من هذه الخبرات في التحليل وتقدير المواقف المرتكزة على هذه المعرفة أولاً بأول، والحمد لله أن توفرت وسيلة اتصال لتزودونا بخلاصة خبراتكم ومتابعتم لتطورات الأمور في عمق المشهد الإسرائيلي السياسي والإعلامي والأمني والعسكري.

«هتف نائل بعد قراءته للرسالة:»

- هذه الرسالة تضعنا أمام مسؤولياتنا في هذه الحرب، إنها غرفة عمليات، بحث وتحليل وتقدير موقف، وأشعر أن لغتها هي لغة السنوار يا جماعة.

- الشعور نفسه لدي، عموماً نحن لها، ولكن يتطلب الأمر سماع النشرات العبرية أولاً بأول. «ردّ عبد الناصر»

- البطاريات آخر شحنة، أبشروا. «همس علاء»

- هذه بسيطة، آدم يوفرها لا تقلقوا. «ردّ نائل»

«همس نضال من أعماقه»

- هذه من نعم الله العظيمة، انظروا إلى رعاية الله ولطفه، حتى في أحلك الظروف يفتح الله لنا باباً للجهاد في سبيله، سبحانه ربّي ما أعظمك! بالفعل (إنّ مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً) لاحظوا كلمة مع وليس بعد، ثم إنّ الله سبحانه أكدها مرتين، إنّهُ لطفه الذي لا ينفك عن قدره كما ذكر ذلك ابن عطاء.

«عزّز الفكرة علاء:»

- ولاية الله لعباده الصالحين لا تغيب شمسها أبداً: «إنّ وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين».

عقب نائل مازحاً:

- «والله بلزم أتملّس منك سيدي علاء، بركاتك يا مولانا.»

«همس ناصر:»

- يلزمني الراديو ساعة يومياً أتابع فيها المحطّات العبرية.

«همس نائل:»



الغرفة الزهراء

- «وبهذا نوقف السياسات الاحتكارية، لا للهيمنة الإعلامية.

- مرحباً بك سيدي ناصر، كل الماكينة الإعلامية بين يديك، الراديو وصاحبه.

وهكذا تحوّلت الزنزانة الزهراء إلى خلية نحل تسمع وتحلل وتناقش ثم تقدّر الموقف ثم ترسله عبر الشاويش آدم إلى القيادة في الخارج. بهذا شعروا أن ما يواجهونه من تنكيل وعذاب لا يُذكر أمام المهام التي يقومون بها، أصبح حالهم هذا التوصيف: «نصبر على هذه الأوضاع الحقيرة مقابل ما نقوم به من أعمال جلية.»

تحوّلت الزنزانة الزهراء إلى مركز أبحاث مهمته الأساسية دراسة المشهد السياسي الإسرائيلي، والخروج بتقدير موقف لكل تطوّرات هذه الحرب وتزويدها للقيادة السياسية للمقاومة في الخارج، تصوّر أن يجري هذا تحت مطارق التنكيل وسياط الجلاّد التي تذيب المعتقلين سوء العذاب؟

«همس علاء:»

أقترح أن نقدّر الموقف السياسي حول الوقوف الأمريكي المطلق مع بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا لدولة الاحتلال وتداعيات ذلك على المعركة: (العدوان السداسي).

« نائل: »

- هذا موضوع مركزي ومهم، أمريكا ليس فقط مؤيدة، بل هي مشاركة مشاركة فعلية بكل التفاصيل المادية والسياسية والإدارية، الرئيس الأمريكي «بايدن» ووزير خارجيته «بليكنين» شاركا في اجتماعات لمجلس الحرب، «بليكنين» قدّم نفسه على أنه يهودي وبايدن وصف نفسه بالصهيوئي، وقال: لو لم تكن إسرائيل قائمة لعملت على إقامتها. ودوافع ذلك معروفة من طبيعة العلاقة العضوية القومية القائمة بينهم، عدا عن المصالح.

« أكّد عبد الناصر:»

- معروف حسب موسوعة عبد الوهاب المسيري عن الصهيونية حيث خلص إلى أن هذه الدولة تقوم بدور وظيفي وهو رعاية وحماية مصالح الغرب في المنطقة.

- بل هي كلب حراسة كما وصفها المؤرخ الإسرائيلي «ايلان بيبه». « علق علاء»

واستمرّ النقاش، ثم تم تقديم ملخص مفاده أن هذه المعركة ستكون مع معسكر الشرّ الغربي كله وستضع أمريكا كل إمكاناتها تحت تصرّف العدو الإسرائيلي، وهذا كما هو قوّة للاحتلال إلا أنه مؤشّر ضعف، إذ إن صورة هذه الدولة التي انتصرت على ثلاثة جيوش عربية في حرب حزيران للعام ١٩٦٧ بما عرف حرب الأيام الستة، هي اليوم غير قادرة بمفردها على الانتصار على المقاومة الفلسطينية، وهي الدولة الوظيفية التي تحمي المصالح الغربية اليوم باتت بحاجة إلى أن تحميها الدول الغربية وعلى رأسها



الغرفة الزهراء

أمريكا من بأس حماس والجهاد الإسلامي وبقية فصائل المقاومة الفلسطينية. ماذا لو اشتعل محور المقاومة وقد بدأت بالإسناد في لبنان واليمن والعراق.

وعقب نضال:

- ويجب ألا يغيب عن بالنا لحظة أن الله معنا وهو ناصرنا بإذن الله: (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)، أمريكا معهم صحيح، ولكن الله معنا بإذن الله.

.....

لنعد لرائد الذي تركناه هناك في «مبار» الرملة حيث وصلوا منهكين، مكسرين وفي غاية الشعور بالذل والضعف والهوان، ناموا ليلة كلها كوابيس، رائد حدّث عن كابوسه عندما اضطر النائم بجواره أن يوقظه عندما ارتفع صوته المكروب:

- « يا جماعة رأيت أنني في بيت مع كثير من الناس، ضربنا صاروخ فطير الناس من حولي وجعلهم أشلاء، رؤوس وأيدي تتطاير وتقع حولي، أخذت أتحمس أعضاء جسمي لأرى هل هي كاملة أم طار منها كما طار من الناس، الحمد لله أنها رؤيا غير صالحة، كابوس.»

« أسقوه ماء وقالوا له هذه أضغاث أحلام وانعكاس العقل الباطن على ما فيه من أخبار غزّة.»

كابوس ثان يفصل ما بينه وبين الأول بضع ساعة، هي التي كابد نفسه فيها ليعيدها إلى حظيرة النوم، رأى أنهم يسرون به في نعش وهو مسجى يشعر بهم وهم لا يشعرون به ويشعرون به ويشعرون به إلى مقبرة البلد، يحاول إخبارهم أنه حيّ وهم يصرّون على سوقه إلى المقبرة، أمه وأبوه رأهما في هذا المنام أنهما على قيد الحياة، كلما اقترب منهما ليعانقهما ابتعدا عنه، ويتملكه شعور كيف سيكون مصيره وهو يدفن حياً؟ يهزه الشباب مرّة ثانية وينقدونه من كابوسه.»

في الصباح الباكر جاءتهم زبانية السجن، ينادون:

- عدد عدد يا حيوانات، عدد يا بقر، عدد يا زبالة، عدد يا أخوات ال ... يا يا

كيف لإدارة بشرية أن تسمح لموظفيها استخدام هذه اللغة المنحطة، ألا تخشى أن ينعكس ذلك الانحطاط على نفسياتهم وعلى أخلاقهم وعلى روحهم؟ لقد وصلوا إلى حالة من العمى ولبسوا نظارات سوداء لا يرون من خلالها البشر إلا كائنات خلقت فقط من أجل خدمتهم وتلقي لسعات سياطهم، ومحلاً لتفريغ ساديتهم المضرة.

وصلت فرقة البوسطة «النحشون»، سحبوا مسافريها من بينهم صاحبنا رائد بين الركل والدفع والصنع وأقذع أنواع الشتم على الأقباص البشرية، محطة الانتظار عندهم أقافص تماماً كتلك التي في حديقة



الغرفة الزهراء

الحيوانات، الناظر إليها يتذكر فوراً حديقة الحيوانات، إلا أنه يرى فيها بشراً، ثم سحبوهم بعد ساعة أقفاص إلى حيث الراحة العجيبة التي تسمى بوسطة، امتطوا صهوتها لينتظروا الساعة تقريباً حتى تكتمل الإجراءات، انطلقت قرابة الساعة السابعة صباحاً ونصف تقريباً لأنهم قد جردونا من الساعات نسيت أن أقولها لكم، ويا لها من معاناة، فرق شاسع بين حبسة بساعة وحبسة دون ساعة، تقدر لمواقيت الصلاة تقديراً لا حساب فيه، لأنك لا ترى فيها شمساً ولا ظلاً ولا ساعة تسترشد بها.

انطلقت البوسطة شمالاً إلى سجن يسمّى هشارون ثم تلموند ثم هديريم، وعلى بوابة كل سجن يحلو لها المكوث طويلاً حتى تبدو لك أنك ستبيت هناك، ثم ما تلبث أن تنطلق بعد التحميل والتنزيل من البضاعة البشرية، وصاحبنا لا يدري وجهته فهو مُسير في سيارتهم رغم أنفه، ما أصعب سفراً أنت مغرم عليه، السفر بطبيعته كما يقولون قطعة من العذاب، فكيف إذا كان بمثل هذا: بوسطة ورفقة زبانيتهما الأشاوس! ولا تعرف إلى أين ولا تستطيع السؤال.

ومع وقت الظهيرة اشتد لهيب صفيحها، انتقلنا من بردها صباحاً إلى لهيبتها ظهراً، ثم وصلنا إلى محطة سريعة محكمة تسمى سالم في الشمال الفلسطيني، خطر في بال رائد أنه من الممكن أن يعرض على المحكمة، ولكنه محكوم منذ سنوات طويلة، فما حاجة المحكمة له الآن؟

حملوا منها عدداً من الأسرى، ثم انطلقت إلى سجن مجدو القابع في الشمال الفلسطيني، ساعة هناك نزلت عدداً منها مع إجراءات الاستلام والتسليم، ثم مخرت عباب ما تبقى من وقت هذا النهار إلى سجن جلبوع شمالاً ثم الدامون، كل الأسرى نزلوا ما عدا حضرة رائد، وكان الدامون آخر محطة، لم يتبق في البوسطة سواه، نظروا في وجهه بغضب وكأنه قد ارتكب خطأ عظيماً، هز كبيرهم رأسه، اقلوا الباب وعادت به وحده قرابة الساعة ونصف حيث استقرت روحها الشرسة على بوابة «معبار الرملة» وتم تسليم البضاعة وعادوا به صباحاً في بوسطة ثانية الطريق ذاته جنوباً، ولكن بالعكس إلى عسقلان ثم السبع ثم النقب ثم نضحة، استقبلته زبانية نضحة استقبالاً جميلاً بالركل والشتم والبصق، وكأنه لعنة جاءت لتحل عليهم. طبعاً لم يدرك لماذا هذه الرحلة الجميلة! هل هو من باب الخطأ الفني؟ أم أرادوا تمريره بماكينه العذاب المسماة بوسطة؟ والأغلب الثانية.

وصل مع مغيب الشمس ليتدثر لحاف الإخوة الدافئ ويشكو همهم لهم، ولا بد من التفريغ النفسي ولو كان ذلك همساً.

- كفاكم الله شر البوسطات.

- اعتقدنا أنك منقول، وبين راحوا فيك؟

« وقصّ عليهم قصة دورانه رأس الرجاء الصالح، تفقد أوضاع السجون وعاد بخفي حنين.



الغرفة الزهراء

توالت الأخبار عبر أثير وكالة صقر، القصف والمجازر على قدم وساق، استهداف المستشفيات والمساجد والكنائس، والأبراج السكنية تُدمر فوق رؤوس ساكنيها، مشاهد مروّعة، مئات الشهداء والجرحى والمفقودين يومياً، حشود هائلة لفرق مدرّعة وآلاف الدبابات على حدود قطاع غزة الشمالية والشرقية استعداداً للحرب البرية، بالمقابل المقاومة الفلسطينية تمطر المستوطنات والمدن الإسرائيلية مما يسمى غلاف غزة إلى تل أبيب مئات الصواريخ، سكّان المستوطنات الجنوبية والمتاخمة لقطاع غزة يرحلون إلى الوسط، سكان المناطق المستهدفة بالصواريخ ينزلون على الملاجئ، أصوات إنذارات التحذير بالخطر لا تتوقف، وجبهة الشمال تفتتحها المقاومة الإسلامية اللبنانية (حزب الله) بضربات مركّزة على نقاط عسكرية للتجسس على الحدود ومزارع شبعاً اللبنانية، انضمت لهذا الجهد فصائل فلسطينية، وأنصار الله في اليمن يعلنون استهداف السفن المتجهة إلى دولة الاحتلال عبر طريق باب المندب.

«همس نائل:»

- مع كل هذه الأخبار الدسمة لا بد من جلسة تقدير موقف: ما هو أفق هذا العدوان؟ وهل بالفعل يقدمون على حرب برية في غزة؟ حسب متابعتنا لتركيبه العقل السياسي لديهم وتفاصيل من يتخذون القرار، هل هم ذاهبون إلى حرب برية؟ المايكرفون عندك سيدي علاء.

هتف علاء محاولاً الاختصار قدر الإمكان:

- هو الأولى خبيرنا عبد الناصر، لكن بما أنك رميتني بالميكرفون فلا بأس، تريد من الآخر؟ أم التفاصيل ثم النتيجة؟

- مثلما تريد.

- الذهاب إلى الحرب البرية واقع لا محالة، إذ إن من المعروف أن الحروب لا يحسمها سلاح الجو، كذلك حسب الأهداف التي أعلنها رئيس حكومتهم «النتن ياهو» فإنها لا يمكن أن تتحقق أو يتحقق بعضها إلا بالحرب البرية. إليك عبد الناصر..

أخذ نفساً عميقاً على عادته وهتف:

- كذلك حجم التحشيد الإعلامي بعد ما أصابهم يوم العبور العظيم في السابع من تشرين يدل بوضوح أنهم ذاهبون في هذه الحرب حتى النهاية، وكذلك الهدف المعلن إنقاذ أسراهم وعدم الرضوخ للمقاومة عبر صفقة تبادل يتطلّب أن يدخلوا غزة، قادتهم السياسية والعسكرية تهيئ الجمهور عندهم لخسائر كبيرة، كل ذلك منوط بالحرب البرية التي يتوقعون فيها حرب الشوارع والمدن وهذه مكلفة بشرياً.

- وهل لديهم الاستعداد لهذه الخسائر البشرية؟ «سأل رائد»

- أمام ما جرى لهم لا بد من خوض غمار حرب برية، ولا ننسى أنّ عليهم أن يرمّموا صورة الردع التي



الغرفة الزهراء

تهافت في هذا اليوم «السابع من أكتوبر» الذي كان أسود في تاريخهم، سيسعون لتحقيق نصر حاسم كبير يخفف من وقع ذلك اليوم الذي دمّرهم نفسياً وضرب مشروعاتهم في مقتل. «أجاب نائل»

«عقب نائل محاولاً إجمال الموقف:»

- نتفق على ذلك، الأمور واضحة، الشارع الإسرائيلي مشتعل، الإعلام مُجمع على التحريض والقتل، فقد كل مهنيته الإعلامية التي كان يدعيها، وأصبح نافخاً لنار الحرب، الزعامة يمينية عنصرية متطرفة جداً، بل الأكثر تطرفاً، «ابن غزير وسموتريتش» هم من يمسك برسن الحكومة، الآن الكل فقد صوابه، ولا يفكر إلا بالانتقام، ولا يحسب لصورتهم أمام العالم أي حساب.

- وماذا عن المقاومة واستعداداتها؟ «سأل رائد:»

- وكأني بأبي إبراهيم يقول: لا تقلقوا يا شباب، إن من خاض غمار هذه المعركة العظيمة واستعد لها هذا الاستعداد الطويل فإنه قد أكمل طريق الاستعداد لحرب طويلة، هذا التفوق الاستخباراتي والتقني والسيبراني وقدراته الهائلة على اختراق كل تفاصيل الفرقة الخامسة من الجيش الإسرائيلي وهي المكلفة بحماية مستوطناتهم قد تم اختراقها والسيطرة عليها بهذه السرعة الخاطفة، كل هذا يدل معرفتنا بطبيعة عدونا والعقلية التي يتصرف بها، أتوقع أن استعدادنا لما بعد هذا الإنجاز أفضل من استعدادنا للإنجاز نفسه، أقصد الذي حققناه في السابع من تشرين.

- «الذي أفهمه منكم أن «الترويحة» ما زالت بعيدة». سأل رائد مع ابتسامة باهتة وهزة للرأس.

«تنهد علاء وهتف:»

- «دخول الحمام مش مثل الخروج منه»

- الله يقطع هالحمام قديش دهاليزه طويلة، من زمان زمان؟ صاحي أول مرة حكيت لي هالمثل؟ «رد نائل مازحاً»

- لم نسمع رأي الشيخ نضال يا جماعة، رايعين على الحرب البرية سيدي؟ (علاء)

بصوت منخفض متواضع همس:

- أنا أستمع، أجد نفسي أمام خبراء في الشأن الإسرائيلي.

- لمساتك الروحية تشفي القلوب سيدي نضال. «هتف مقاطعاً بين قوسين»

- نعم نعم، ضروري إخواني أن نرى التوفيق الإلهي، ما جرى في السابع من تشرين واضح ما فيه من إبداع وإتقان ونجاح بل وتميز بشري فريد، وهو مصحوب تماماً بالتوفيق الإلهي ولله الحمد، لذلك أرى أن هذا التوفيق أبداً لن يتخلى عن هؤلاء الصادقين الذين وصلوا الليل بالنهار كدأً وتعباً، أضف لذلك



الغرفة الزهراء

أن الطبيعة البشرية تريد دائماً غير ذات الشوكة أو النتيجة السهلة والسريعة للمعركة كما كان ذلك مع صحابة رسول الله في بدر: أرادوا القافلة وما فيها من غنائم ولكن الله أراد لهم كسر شوكة الأعداء فكانت بدر، ما أدرانا أن الله يستدرجهم لرمال غزّة حتى يغرقوا ويغرق مشروعهم فيها، أنا معكم الأمور تتجه للحرب البرية إلى ذات الشوكة الغزّابية والله ناصرهم بعونه وتأييده ولطفه الذي لا ينفك عن قدره أبداً.

- الله الله سيدي نضال، والله إنك شرحت صدري. «عقب علاء»

- «يعني كلامنا السياسي كاين مسكّر على صدرك» «عقب نائل مازحاً»

- أجمل تقدير الموقف هذا، خبيرنا عبد الناصر لنرسله للخارج، الشاويش آدم سيأتي اليوم مساءً ومعه بطاريات لوكالة صقر الإعلامية.

.....

صبيحة هذا اليوم ضرب السجن زلزال فظيع، قوات كبيرة لأكثر من فرقة اقتحمت القسم، وقد دفعوا بين يديها مجموعة كبيرة من المعتقلين الجدد، ما يزيد عن مائة معتقل أدخلوهم مرة واحدة مكبلين من الأيدي والأرجل بأصفاة بلاستيكية، هذا المربط الذي كنا نشتره من محلات مواد البناء لربط الأشياء الثقيلة والصعبة وإتقان شدّها، وهو كلما أردت الخلاص أو تخفيف شدّه على معصميك زادك شداً وإحكاماً، هذا علامة أنه معتقل جديد لأنه لم يعد لديهم أصفاة كافية لكثرة الاعتقالات، هجموا على الضفة الغربية وعلى فلسطينيي الداخل بطريقة وحشية وصارت الاعتقالات على قدم وساق ولأتفه الأسباب، صارت صفة (أسير سابق) كافية للاعتقال، أي مشاركة على مواقع التواصل أو تسجيل إعجاب تهممة كافية للاعتقال، «انهوسوا» الجماعة ووقعوا في فوبيا السابع من تشرين لها أول وليس لها آخر.

المعتقلون الجدد كان الواحد منهم كالناجي من الموت، مضروب على رأسه وآلام الضرب وتنكيل الطريق قد ارتسمت على وجهه بوضوح، البؤس كله ينزل دفعة واحدة في ساحة هذا القسم، فمع الاعتقالات الكثيرة التي نزلت ساحة الضفة الغربية واغتالت ليلها الساكن بالانقضاء على بيوتها أنتجت هذه الأعداد الكبيرة، تناوولوهم فرداً فرداً يأخذ وجبة من العصي على مناطق متعددة من جسده، ولا بد أن تصيب إحداها رأسه ليسيل الدم منه ثم يدفع إلى إحدى الغرف، من في الغرف يسمعون ما يجري ولا يملكون إلا الحسبة والدعاء، لا فائدة من أي شكل من أشكال التضامن أو التفاعل مع الحدث لأن هذا يعني مباشرة انضمام كل القسم إلى هذه الحفلة ومزيد من الآلام والدماء، الصمت المريع القاتم الحزين يخيم على الغرف وكانت الغرفة تستقبل ضيفها لتضمّد جراحه وتحاول أن تخفّف عنه ولو نفسياً.



الغرفة الزهراء

معركة مفتوحة: طرف يملك كل أسباب القوّة ومعبأ بأعلى درجات الحقد والكراهية ويده مطلقة بلا حسيب ولا رقيب، وطرف لا يملك شيئاً من وسائل الدفاع عن النفس ويملك أعلى درجات الإحساس بالكرامة وعزة النفس والتوق للحرية وتنفس عبيرها ولو لبرهة يسيرة من الزمن فيما تبقى من العمر. يلتقي الضريقان في ملعب الحقد والكراهية الذي يسمّى (سجون)، أماكن ضيقة خانقة قاحلة واليوم أصبحت جرداء خالية من أبسط مقومات الحياة كشجرة داهمها الخريف وأسقط كل أوراقها.

لا يمكن للأسرى أن ينسوا اليوم الأوّل لشنّ الحرب عليهم بعد ثلاثة أيام من شنّ الحرب على غزّة، وأكثر ما ألمهم ليس تجريدهم من متاعهم من مأكّل وملبس ولكن كان تجريدهم من المصاحف والكتب وكراسات الذكريات ومؤلفات من يكتب منهم وألبومات الصور التي جمعها كل منهم على مدار حبسته، صور أطفالهم على امتداد فترات عمرهم، منهم من كان طفلاً حتى صار عريساً مروراً بالمدسة والجامعة، هربت طفولة ابنه منه أو ابنته وهرب ريعان شبابه، وهو الآن يأمل أن يلحق بطفولة أحفاده، المصاحف والكتب والدفاتر والذكريات كلّها قذفت في الحاوية، ذهبت هناك وتركت الماء وحسرة لا يعلم حجمها وقوّة ضغطها على قلوب الأسرى إلا الله. لم تصادر على أمل أن يطالبوا باستردادها بعد أن تهدأ العاصفة، لقد ذهبت بلا رجعة، وأسفاه، واحسرتها! ألقاها في حاويات الزباله من مآلهم مزبلة التاريخ بإذن الله؟

ضاقت الزنازين على ساكنيها، كتل من الألم مكدّسة وكلّ منها يحتاج إلى رعاية طبيّة خاصّة، ومنهم من يحتاج إلى رعاية نفسية عدا عمّا في جسده من مصائب، بعض المعنويات قويّة وشامخة وبعضها أصبح كسرهما واضحاً، ومنها ما هو على وشك الانهيار، أصبحت المهام الملقاة على الجسم التنظيمي الذي ضرب بعرق هذه الأيام وتقطعت به سبل التواصل، كبيرة جداً ولا يستطيع منها إلا القليل جداً وهمساً بصورة خافتة لا ترقى أبداً إلى مستوى التأثير وتضميد الجراح المطلوب أبداً، أصبحت كشمعة صغيرة مطلوب منها أن تبدّد جحافل الظلام.

كان قاطنو الغرفة الزهراء خمسة عرفناهم جيّداً، الآن أضافوا إليهم ثلاثة، ليفترشوا الأرض دون فراش، هل لنا أن نتصوّر كيف ستكون الحركة في الزنزانة إلى الحمام مثلاً، وكيف سينتظر دوره، هذا الحمام أفندي قصة في الوضع الطبيعي فكيف الآن؟ كيف به وهو دون ماء إلا في ساعة واحدة في اليوم، يعني لن تدفع مخرجاتهم الكريهة إلا عندما تشرف ساعة الماء، رائحة المخرجات التي تعفنت طويلاً في أحشائهم بسبب الإمساك الذي تحدثنا عنه، عندما تتراكم في هذه الزاوية المشرفة بكلّ روائحها على الزنزانة، هذا عذاب ما بعده عذاب، وكأنك تسكن في مكرهة صحيّة وتعب من رائحتها على مدار السّاعة دون توقّف، ومع رائحة بودة الغاز القاتلة التي لا تخرج أبداً من ثنايا الغرفة، رائحة الغرفة حبسة ثانية، الاكتظاظ حبسة ثالثة، التنكيل وتعمد الشتم والإهانة حبسة رابعة، والأكل الذي لا يقيم أوداً ولا يسعف جوعاً حبسة خامسة، والهرج الهامس الذي لا يتوقّف من أفواه ثمانية في هذا السجين، عدة حبسات في حبسة واحدة، الله وكيلك.



الغرفة الزهراء

وكانَّ القدامى في الغرفة الزهراء قد وزَّعوا أدوارهم مع هذا الوضع الجديد الذي لا يحتمل، علاء للخبر والفكرة، ونائل للنكتة، ونضال للروح ورفع المعنويات، عبد الناصر للموقف السياسي، رائد للثورة ورفع منسوبها في قلوب ضيوفهم الكرام. وكان لا بدَّ من احتياطات أمنية لتواصلهم الخاص كي لا يذهبوا في حوض نعنح بوشاية أحد العملاء المحتملين فيشتتوهم بين أطراف سجونهم النائية من أقصى شمال فلسطين إلى أقصى جنوبها.

تعارفوا همسا، حيث جرى التقليد أن يعرف المعتقل باسمه ومكان سكنه ومجموع ما قضى في السجون سابقاً، أغلب الجدد معتقلون سابقون لكن من ذوي الأحكام الخفيفة، منهم من قضى سنة أو سنتين أو ثلاثاً أو مجرد أشهر، فلما جاء الدور للسكان القدامى في الغرفة، عرف علاء باسمه وقال عن فترة سجنه أربع وأربعون - كعادته - على أن تفهم وكأنها أربع وأربعون شهراً، ومشيت الأمور على نائل أربع وأربعون، ونضال اثنان وثلاثون وعبد الناصر ثلاثون ورائد اثنان وعشرون، إلى أن سأل أحدهم سنة أم شهراً؟ حاول أن يتحايل عليه نائل وأجاب:

- اعتبرها شهراً.

« التقطها الشاب وفهمها جيداً »

- إذن هي سنة، أعانكم الله، كيف قضيتم كل هذه السنين؟

- هذه قصة طويلة بل هي رواية لم تنته فصولها بعد.

تعزيراً لا اقتراح علاء أن يسهم نضال في إطلاق صفحة أدبية لوكالة صقر للإعلام، استعد أن يقدم فيها بين الحين والآخر قصة قصيرة من وحي المعركة، تكون بمثابة استراحة للأسبوع وكانت هذه القصة الأولى بعنوان :

« لقي الله من نقطة صفر. »

قرأها نضال بهمس وهدوء وعمق:

بعد أن تمكنا منه وأصابوه برصاصة في صدره وهو مقبل غير مدبر، مرَّ شريط سيرته الجهادية في جزء من ثانية، أول الشريط كان يوم تخرَّجه من دورة حفظ القرآن وسرده له في جلسة واحدة، ثم قال الشيخ: لقد أتممت الحفظ بقي الفهم والعمل وهذا لا يصح إلا في الميدان، وقرأ علينا الآية الكريمة: « فلولاً نضر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين.. لماذا: نضر ولم تكن كلمة ثانية؟ لأن الأمر متعلق بالجهاد في سبيل الله.

ومرَّ عليه في شريطه السريع يوم عُيِّن إماماً في اليوم ذاته الذي أتته ترقية في كتائب القسام ليتولَّى قيادة كتيبة، قشعريرة سرت سريعاً وانتشرت من أعماق قلبه إلى عموم جسده كما تنتشر أمواج بحيرة بإلقاء



الغرفة الزهراء

حجر كبير في حضنها، يا للروعة أن تجمع بين قيادة مسجد لتنتج ثورة في صدور العباد في العلن، بينما في السر تكون قائد كتيبة.

وتجلّت على صفحة قلبه ذكرى أول مرة قاد فيها خلية تسللت خلف خطوط العدو، تجاوزت السياج المنيع وضربت عمق معسكر هناك ثم عادت إلى قواعدها سالمة، وتجلّت بسرعة العمليات الناجحة التي كان يصوّب بنفسه ويوجّه غيره عند اصطلياد دباباتهم وآلياتهم في هذه الحرب التي اندلعت بعد عملية طوفان الأقصى العظيم، كانت أول مرة قبل أن يتمكّن من إصابة الهدف ناراً تشتعل في صدره، كانت خوفاً وقلقاً من ألا ينجح رميه، ثم تحولت نار صدره برداً وسلاماً وهو يرى هدفه يحترق ويتلظى ناراً وسعيراً.

ومرّت تجليات العمليات التي كانت من مسافة صفر، يرصدون ثم يضعون الخطة ويتسلّلون بكل خفة ورشاقة كالموت الآتي والمُخيم على رؤوس من قد انتهى أجلهم، زنين الطائرات المسيّرة والمستشعرة لكل حركة وسكنة، هدير الدبابات وضربات القصف التي لا تتوقّف، ومفاجآت طائرات الجو التي تمحق وتسحق كل مساحة تتوجّه لها صواريخها اللعينة، من وسط كل هذا الركام الهائل على الأرض كالعصف المأكول وفي السماء ضجيج كضجيج الموت الزؤام، كان المقاومون يتسلّلون كالشعرة من العجين، يصيبون هدفهم بكل دقّة واحتراف، ويعرفون كيف ينسحبون بعد إنجاز هدفهم وإتمام المهمة.

في هذه اللحظات الأخيرة بعد أن أدرك إصابته القاتلة، استحوذت عليه فكرة المسافة صفر، ومرّ في خلدته حديث حبيبه المصطفى: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» : «فلا عليك إذن أيها الامام القدوة إلا أن تلقى الله من مسافة صفر» ..

ثم سجد ليسلم الروح وهو على أقرب مسافة من ربه.

التقط الصورة جيش الاحتلال ليسجّل إنجازاً ولم يدرك أن الله سخّره بهذه الصورة لتكون ماركّة فلسطينية مسجّلة لهذا النوع الفريد من الرجال.

استقبل عناصر الزنزانة هذه القصة الواقعية بالحفاوة والتشجيع، طالبوا نضال بالمزيد من القصص، قرّر مدير عام وكالة صقر الإعلامية علاء الصقر تعيين نضال مسؤولاً عن الدائرة الأدبية في الوكالة، وأن يرفع درجته الوظيفية.

علاء قبل أن يلوذ إلى نومه لا بدّ وأن يلتقي ببنتيه وزوجته معشوقته في عالمه الافتراضي الجميل، علّه ينفّس قليلاً من كربات صدره ويبوح بما فيه من شوق وحنين، وعلّه يسهم في رؤيا صالحة يراهم فيها بسعادة وهناء، يدير حواراً ويفترض أسئلة، يستمع ويحجب ويحاور ويمازح ويلطف ويفاجئ أحياناً.

- أولاً، هل لك يا فاطمتي أن تصفي لي إشراقه قبة الصخرة من حارة السعدية المقدسية في هذا اليوم؟

- ما زلت تذكر وقفتنا الصباحية وأنت تنظر لي ببصيرتك وتكشف ما فيها من خبايا نورانية لا تراها نحن معاشر المبصرين بأأم أعيننا.



الغرفة الزهراء

- وهل أنسى مقدار طرفة عين من تلك الساعة العظيمة في جمالها وروعة شهودك الجميل؟
- لقد علمتني يا روح حياتي كيف أقرأ الصخرة المشرفة كل يوم قراءة مختلفة، تبهرنا كل يوم من جديد.
- هات ما قرأت اليوم؟
- لا أستطيع، فالشهد مكتنز يكاد ينفجر من كثرة ما في أحشائه؟
- حاولي.
- إنها بالغة الحزن، تنظر بعين لما يجري في غرة فتذرف نهراً من الدموع، وعين ثانية تنظر بها إلى أمة متخاذلة تصمت صمت القبور على ما يجري هناك، فيرجع لها بصرها بالخيبة والأسى والمزيد من الحزن والغضب.
- بالتأكيد تعيش الحدث وتنفض نبضها المطلوب مع أحرار شعبها.
- المهم نبضك الجميل يا علائي؟
- في الحفظ والصون والاشتعال الدائم معك على طول الخط يا روح حياتي.
- نادي لي صغيرتي لأكحل بها عيون قلبي.
- يا ريم الجميلة ويا نور الأريية.
- « سألت ريم بلهفة: »
- هذه الجميلة فهمناها فما تعني الأريية.
- تعني الذكيّة يا شاطرة. « ردّت نور »
- ولم اختار تلك الكلمة المريية؟
- أسأليه حضرة جنابك.
- « طبعاً علاء يستمع ويستمتع أيما استمتاع، يحاول اقتناص اللحظة المزهرة وتخزينها في أعماق قلبه، وليسهل عليه استخراجها من هذا المخزون الجميل من لحظات سعاده بابنتيه. »
- في اللغة لا تطابق بين معاني الكلمات، كل كلمة لها مدلولاتها المختلفة عن مرادفاتها..
- « تدخّل الحب الكبير كسيارة إسعاف عاجلة: »
- إلى أين؟ على رسلك، لا تذهب بعيداً.



الغرفة الزهراء

« امتعضت ريم: »

- قصدك ينزل على قدر عقولنا الصغيرة؟

« ابتسم علاء من أعماقه: »

- بالعكس، أنا أحاول الارتفاع لعلي أصل إلى مستواهما.

- جيل اليوم جيل واسع الثقافة والمعرفة.

« قالت نور »

- عظيم جداً.

- عندي سؤال بابا؟

- تفضلي يا نور قلبي.

- متى ستنتهي هذه الحرب؟

- علمها عند الله، المهم نحن على الحق وهم على الباطل لا شك في ذلك أبداً، شهداؤنا في الجنة وقتلاهم في النار، سيزول ليل الظالمين مهما طال، هذه سنة الله مع كل الظالمين على مر التاريخ، من الصليبيين والتتار وكل أشكال الاستعمار، أخذتم في دروس التاريخ عن هذا.

- أخذنا عن معركة بدر معركة الفرقان. « أجابت ريم »

« ينسى نفسه وينسى حالة الانسحاب من وسط معرّية عميق وغزير إلى مخاطبة أطفال ما زالوا في بداية الطريق، يحاول جهده، وكلما صُدم تراجع خطوات للخلف. »

« ويستمر الحديث الدافئ المفترض الذي يرسم له السيناريو الذي يريد مستمتعاً بذلك ومؤملاً أن يكون لقاؤه بهم قريباً، المهم يأخذ لروحه مساحة جميلة يرتع فيها رغم أنف سجّانه. »

علاء همس بالأخبار صباحاً: بدء الحرب البرية في قطاع غزة بهجوم من عدة محاور، القطاع تحت القصف الجوي والبري والبحري، المقاومة بدورها تتصدى وتدور رحى حرب شرسة، كتائب القسام تستخدم قذائف الياسين ١٠٥ والتي تنجح في اختراق حصون الدبابة الإسرائيلية المعروفة «بالمركفاه»، كذلك كتائب سرايا القدس في قذائفها الآر بي جي، والمقاومة بدورها تخرج لهم من مسافة صفر وتبث صور عملياتها، من المقاومين من يلصق عبوة ناسفة في دبابة مباشرة ثم يقوم بتفجيرها. جيش الاحتلال يبدع في قتل المدنيين من النساء والأطفال وتدمير المباني والابراج السكنية، والمقاومة تبتدع في ضرب جنوده وآلياته.



الغرفة الزهراء

واشتعل النقاش، افتتحه نائل فهمس مازحاً:

- في غزّة رايحين يعملوهم ساندويتشات مع رشّة فلفل غزاوي من الآخر.

- أسراهم الآن في غزّة، رايحين يهلكوهم فلفل، فطور، غداء، عشاء. «ردّ علاء»

«خلق قليلاً عبد الناصر»

- كل التحليلات تشير إلى أن الجيش النظامي إذا خاض معركة في المدن والأماكن المكتظة سكانياً مع تنظيمات تتخذ من حرب العصابات أسلوباً لمواجهة فإن الخسارة ستكون حليفه هذا الجيش، هم يتفوقون بأدوات المعركة وقدراتهم الهائلة على التدمير بينما المقاومة تتفوق بأنها هي صاحبة أرض المعركة وهي تجيد ضرب نقاط ضعفه بنقاط قوتها، وهي تحت الأرض تضرب وتهرب، بينما عدوها أهدافه مكشوفة لها، يعرفون كيف يتحيفون له الفرص ويوقعونه في فخاخهم.

- يعني - بالصلاة على النبي - سيغرقون في رمال غزّة؟ «همس نائل»

«من جانبه أدلى نضال بدلوه:»

- ولا تنسوا إخواني أن الله معنا، هذه معادلة بين الحق والباطل، (ذلك بأن الله لا يصلح عمل المفسدين) ولا يوجد في الحياة مفسدة أكثر من الاحتلال.

«سأل أحد المعتقلين الجدد (نعيم) ابن الخمس وعشرين، ظهر كأنه يفلت من عقاب أورامه وأوجاعه، وكأنها صخرة بلال رضي الله عنه على صدره:»

- طالما أن الله هو الحق ولا يصلح عمل المفسدين، لم لا يخلصنا منهم، وهو على كل شيء قدير؟

- لا بدّ من بذل ما بوسعنا لتحقيق أهدافنا، لو كان الأمر من عند الله دون العمل لبتنا أمة ضعيفة عاجزة، ولكن حكمة الله قائمة على الأسباب وعمل المطلوب لتحقيق الأهداف، يقول تعالى: (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض).

هتف آخر (سليم):

- وكان نصيبنا من الابتلاء شرّ خلق الله، سبحانه ربّي!

«همس نائل:»

- الابتلاء مثل المضاد الحيوي للجسم، يستفز القوى الكامنة للقضاء على الجراثيم التي تسللت إلى الجسم. هذا الابتلاء بالاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والقدس هو بمثابة المضاد الحيوي لجسم الأمتين العربية والإسلامية.



الغرفة الزهراء

« همس (نعيم) من جديد: »

- فكركم تبادل الأسرى قريب، أنا شايفها قرّبت يا شباب.

« ردّ سليم: »

- طوّل بالك يا رجل، والله الأسرى القدامى أصحاب المؤبدات ما قالوها؟

« تبسّم علاء ونائل ونضال وعبد الناصر، همس نائل: »

- «طوّل سروالك شويّة. على الاقلّ لما يغلى إبريق الشاي.»

- عمّو، أسألك سؤال. كيف قضيت هذا العمر في السجن.

- «أولاً عمّ الدّيب، أنا أخوك مش عمّك، شو شايفني ختيار؟ احنا سنوات السجن ما بنحسبها من العمر فاهم؟ ثانياً: قصة كيف قضيت الحبسة قصّة طويلة، هذه مسلسل طويل من القمع والتنكيل والتفتيش والإضرابات المفتوحة عن الطعام والصبر والمصابرة والقراءة والرياضة والنشاط. للأسف بعد هذه الحرب أوقفوا كلّ شيء، صارت حياتنا بين تنكيل وتنكيل، من عذاب إلى عذاب والحمد لله، نحن من الصابرين ولعدونا قاهرين، والمثل يقول: « ما بظلّ في الوادي إلا حجارته ». نحن أصحاب الأرض الأصليين وهم محتلون عابرون.»

صارت الأخبار يتم تداولها سرّاً، وصار تقدير الموقف بالتشاور الهامس، ثم يقوم بكتابته عبد الناصر، يأتي الشاويش آدم في الهزاع الأخير من الليل ليتناوله سرّاً ويمضي، وطلبت قيادة الحركة أيضاً المشاركة في الرأي والمشورة؛ كون السجن دائرة هامّة من دوائر الشورى في الحركة، ورغم صعوبة التواصل مع بقية السجن إلا أنه حيث تيسّر مثل هذا السجن فإنه تكون قد وجبت الشورى.

صدّرت الزنزانة الزهراء في خاتمة الشهر الأوّل للحرب تقدير موقف مفاده أن تركيبة الحكومة الإسرائيلية يبدو أنّها مستعدة لهدنة يجري فيها تبادل للأسرى على مراحل، لكن هناك إجماع على مواصلة الحرب ولا يوجد هناك توجه لوقف القتال وفقاً دائماً، أهالي الأسرى المحتجزين عند المقاومة يضغطون باتجاه عمل صفقة تبادل شاملة، أمريكا لا تضغط بهذا الاتجاه، هناك تراجع كبير في سردية الاحتلال حول معركة السابع من تشرين والعبور العظيم، وهناك تضديد للدعاية الإسرائيلية بأن المقاومة قد ارتكبت مذابح بحق المدنيين، هناك تسريبات بأن من قصف عدة أماكن تواجد فيها عناصر من المقاومة مع رهاثن إسرائيليين هو دبابت الجيش الإسرائيلي ومروحياته. هناك تحوّل كبير في الشارع الغربي وكثير من مواقف الدول في العالم. هناك انقسامات حادة في مجلس قيادة الحرب الإسرائيلي ومواقف وزراء الائتلاف الحكومي على أمور تكتيكية وليست جوهرية.



الغرفة الزهراء

الساعة ثانية ليلاً ولا يوجد هناك هدوء في القسم، أبواب تطرق، موسيقى نشأة كيان الاحتلال تصدح وتصدع رؤوس من في القسم، التنكيل ترك جروحاً على سطحها وهذه تدق الجروح من أعماقها، ما في نوم، التوتّر سيد الموقف والهلع يملأ العيون خاصة المعتقلين الجدد، دائماً تتوقع الأسوأ وتأتيك هواجس سوداء ترخي بظلالها في أعماق الصدور، آخر الليل يحلو لهم مهاجمة القسم، نعتت مكبرات الصوت بصوت هسّ مربع:

- تفتيش يا حيوانات، تفتيش يا أخوات ال.....، تفتيش يا

ولم يتركوا كلمة فاحشة كالعادة مع جديد قاموسهم القذر إلا وقذفوا بها.

اقتحموا الغرف، كل غرفة يكبلون من فيها من الايدي والأرجل، ثم يفتشونه بتمرير أيديهم على جسمه ثم يدفعونهم بقسوة إلى الساحة مع ما يتناوشونه به المتربصون في الطريق ما بين الغرفة والفورة من الصفع والركل وبعض العصي، كل ونصيبه، كان الجو بارداً، دفاء الغرفة الناتج عن حالة الاكتظاظ كعلبة سردين سرعان ما تبدد في الساحة وتحوّل إلى برد قارس، وكان الآلام يطغى كبيرها على صغيرها، فألم الضرب يخفي ألم البرد، وألم القهر يطغى على كل الآلام.

وجاءونا بما هو أشدّ وأنكى، هل هناك ما هو أشدّ؟

وحيث كنا نغرق في آلامنا، نفترش الأرض الباردة جلسة القرفصاء حسب ما أمروا جاءوا برجل من قادة الحركة الأسيرة (ساتحفظ عن ذكر اسمه) وهو عار تماماً، يدها مكبلتان للخلف ومكبّل من قدميه، يجروونه بسلسلة تطبق على رقبته، فقط مجرد رؤية هذا الرجل صاحب المقام العالي من حيث تاريخه الجهادي وما قدّم من تضحيات وأعمال فدائية نوعية، وتاريخه الحافل في السجون، رجل على قدر كبير من الجهاد والثورة والثقافة والفكر والقيادة والمبادرة، صاحب الشخصية الكاريزمية المميّزة يسوقونه هكذا عارياً كما تساق الدابة، ولم يكتفوا بهذا، سحبوه إلى وسط الساحة بين الأسرى المعذبين، ثم أحضروا كلباً وأفلتوه عليه، انقضّ عليه الكلب لينشب مخالبه بوجهه وكل أنحاء جسده.

هنا صرخ أحد الاسرى هاتفاً بأعلى صوته: الله أكبر، فصدع بها بقية الأسرى، فانهالت العصي على رؤوسهم من كل صوب وحذب، تحوّلت الساحة إلى عاصفة هوجاء وكأنها قاعة رقص لآكلي لحوم البشر، رقصوا على ما يحلو لهم، أشعلوا مكبرات الصوت على نشيدهم المقوت، ساعة من الرقص تبعثها ساعة من إدخال الأسرى إلى غرفهم، منهكين، مقهورين، في غاية الحزن والالام والانكسار.

استقرّ بنا المقام في مهاجعنا بعد قرابة ثلاث ساعات هي وقت تفتيش غرف لا شيء فيها ولا متاع، ولكنه الإمعان بالتنكيل والتسلية بنا. يحاول نائل صناعة النكتة دون أن تتوفّر لها المواد الخام، ودون أن تتوفّر مناخات النكتة، يعتقد أنّ من واجبه أن يكون مخفضاً للآلام وملطفاً للأجواء، همس موجهاً كلامه لعلاء:



الغرفة الزهراء

- تعيش وتوكل غيرها سيدي علاء. والله عشنا وشفنا وذقنا خير السنة.

- في كفة حسناك، هذه العلة وزنها كبير. «رد علاء»

تحمس نضال وفتحت شهيته للوعظ رغم القهر والغيط اللذين يملآن صدره:

- والله يا شباب ليجزينا الله مقابل ما يصيبنا أضعافاً مضاعفة، حتى الشوكة التي يشاها المسلم في سبيل الله، فما بالننا بهذا العذاب، (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيط الكفار ولا ينادون من عدوئنا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين، الله يبتلينا لأنه يحبنا ويريد لنا الاضطفاء والارتقاء إلى درجات المجاهدين في سبيل الله الذين لا يخافون لومة لائم ولا يذنون لاحتلال ظالم: (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) هذه هي طريق الجنة والحرية والنصر والتحرير بإذن الله.

هتف نعيم من قحف صدره :

- يا شيخ، والله هذا ابتلاء عظيم فوق طاقتنا.

وهمس سليم:

- والله الواحد ما قادر يتحمل. هذا مش معقول.

رد نضال بروحانيته العالية:

- يا شباب، الرجولة تظهر في المواقف الصعبة. يكفي علمنا أن الله معنا وهو الذي يبتلينا، وله حكمة بالغة في الابتلاء لأنه يصنع الرجال ويقوي العزائم ويرفع الهمم.

«وأكمل علاء:»

- «الوطن والدين يا شباب مش رحلة أو شمة هوا، هو جهاد وصبر وثبات الأبطال، بعدين معقول أن أهل الباطل أكثر صبراً وجلداً من أهل الحق. الوطن يا شباب يريد الرجال، وأنتم رجاله.»

«هتف نائل مازحاً:»

- كان يحكي لنا زمان الشيخ نضال: «ضرب الحبيب زبيب» ولما الابتلاء يكون من ربنا سبحانه، وهو الحبيب الأعظم، لازم نشوفه زبيب». ضرب الحبيب إيش يا شباب؟

تمتم بعضهم: زبيب.

همس أحد الشباب «سليم:»

- والله يا شيخ من يوم ما اعتقلوني وأنا في دوامة من الأسئلة، بصراحة، أنا لا أرغب بإغضابكم، حاب



الغرفة الزهراء

أسأل وفي الوقت نفسه لا أُرغب بإزعاجكم، لماذا بيتلينا الله مع شرّ خلقه هؤلاء الصهاينة الملاحين؟ لماذا نحن من بقية العرب والمسلمين؟ وبالأصل لماذا الابتلاء؟ لماذا؟ والله يريد لنا السعادة ولا يريد لنا الشقاء كما ورد في سورة طه: « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»، كيف ستتحقق السعادة والاحتلال معاً؟ وليس أي احتلال، بل هذا الاحتلال المجرم النازي المتوحش؟

«همس نضال:»

- رضي الله عنكم أجمعين، للإجابة عن سؤالك لا بدّ من العودة إلى أصول مهمّة في ديننا، أهم هذه الأصول أن الله سبحانه جعل الدنيا دار ابتلاء، وفي هذا يقول تعالى: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً»، من خلال الابتلاء يرتقي الإنسان ليظهر أحسن عمله ويتنافس الناس في ميادين الإحسان، وبالتالي تتحقّق الحياة السعيدة، الآن ما من مصيبة تصيبنا إلا من أنفسنا، بخلل أو تقصير، أصابتنا نكبة ثمانية وأربعين وهذه هزيمة وهي نتيجة لضعفنا وتراجعتنا، لذلك لا بدّ من الابتلاء للعودة إلى الأخذ بأسباب القوّة والانتصار، ولولا ذلك لبقى الضعيف ضعيفاً والمتخلف متخلفاً والمهزوم مهزوماً، الابتلاء يغيّرنا من حالة الهزيمة وقبولها إلى حالة الانتصار وتحقيقه في حياتنا. أودّ أن أخبركم بخبر عظيم، هل تعلمون أنّ من هذه الزنزارة من هذا الابتلاء، تخرّج السنّوار والشيخ صالح العاروري ومن قبل ذلك كثيرون.

«قاطعه نائل:»

- وما زال خط إنتاجها شغّال من هذا اليورانيوم المجاهد، من فقه الابتلاء إلى فقه الجهاد، (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه).

«همس علاء:»

- لذلك هبّ السنّوار ومن معه من عمق هذه الزنزارة لتصحيح البوصلة، وكان السابع من تشرين، هذه معارك مهمّة على طريق النصر والتحرير بإذن الله.

«وتابع نائل مازحاً:»

- وإن لم تكن أسداً أكلتكَ الضباع، إن لم تكن مجاهداً أكلتكَ الخنازير. قولوا الله أكبر لكن قراءة صامتة يا شباب، غداً وقریباً سنصدع بها في ساحات المسجد الأقصى.

«هتف عبد الناصر:»

- حابب أسال سؤال يا شباب، فكركم عربدتهم علينا بهذا الشكل علامة قوّة أم علامة ضعف؟

«رد نعيم بسرعة ودون تردّد:»

- أكيد علامة قوّة، هم الآن أقوى منا.



الغرفة الزهراء

- طيب، لو نحن مكانهم هل تعاملهم بالطريقة ذاتها؟

- سأنتقم منهم وسأرد لهم الصاع صاعين، سأريهم نجوم الظهر، اللهم مكنا منهم يا الله.

«رد سليم»

«لكن هل يسمح ديننا بذلك؟ لنسأل الشيخ نضال؟»

«تنحنح نضال وهمس:»

- بالتأكيد ديننا يلزمنا بالتعامل بأخلاق عالية خاصة مع الأسرى، مثلاً في القرآن: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً» معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم للأسرى كانت بالسماحة والعضو والإحسان، كيف عامل رسول الله أسرى بدر ويوم فتح مكة مثلاً، قال لهم رسول الله: اذهبوا فأنتم الطلقاء. والتاريخ الإسلامي حافل، ماذا فعلوا بأسرانا وماذا فعلنا بأسرهم، ويوم فتح صلاح الدين القدس كان التسامح بينما هم عندما احتلوا غاصت خيولهم في دماء المسلمين، والأمثلة على سماحة المسلمين عبر التاريخ لا تعد ولا تحصى. ما أردت الوصول إليه أن القوي المنتصر صاحب القيم العالية لا يمكن أن يعامل أسراه إلا بالإحسان، لذلك فإن تعاملهم معنا هكذا هو دليل على أنهم مهزومون في عالم القيم، وهي علامة ضعف وهزيمة وأبعد ما تكون عن كونها علامة قوة وانتصار.

سرب علاء من وكالة صقر للأنباء (ترانزستر علاء) أخباراً ساخنة «نار حمراء» للمجموعة الأصلية في الزنزانة الزهراء، مفاوضات تصل مراحلها النهائية لإجراء صفقة تبادل للحالات الإنسانية كمرحلة أولى، مع هدنة لمدة ثلاثة أسابيع يتوقف فيها القتال وتحليق الطيران في سماء قطاع غزة، انتشت النفوس وتوردت الوجوه وحلقت الأرواح خارج جدران السجون، وكان حياة جديدة قد ضخت في أرواحهم، صارت الأجساد فقط داخل السجن بينما غادرت الأرواح بعيداً حيث الأهل والولد وسماء الحرية الفسيح. لم يتوقف الهمس بين الخمسة القدامى، كأن الطير على رؤوسهم، البقية الباقية لم تصلهم الأخبار، وبقوا في جروحهم وآلامهم، وكثرت التحليلات. علاء حلل وهمس:

- لا أظن أن نصيب المؤبدات سيكون في المرحلة الأولى للتبادل.

- «لماذا يا سيدي؟ سبحانك ربي مثل غراب البين.» «رد نائل»

- بشكل موضوعي طالما أنهم قالوا المرحلة الأولى للحالات الإنسانية، فواضح أنها لن تصيبنا، نحن نحسب على أصحاب الأحكام العالية، يعني الإرهابيين الكبار يا إرهابي!

عبد الناصر كان رأيه وقلبه يكاد يسبقه خارج هذه الأسوار البليدة:



الغرفة الزهراء

- «لما يبجي الصبي بنصلي على النبي»، «بسيح الثلج وبيان المرج».

- هذا اللي طلع بيدك؟ يا خبيرنا في الشأن الإسرائيلي. «همس نائل»

رائد من ناحيته عبّر عن مشاعره:

- والله قلبي يريد القفز خارج صدري، أرى أن الفرج صار أقرب من جبل الوريد.

- طول بالك يا ابن الحلال. «عقب علاء»

- دائماً تكسر مجاديف الشباب، قلت لك مثل غراب البين. «همس نائل»

- يا سيدي أنا لا أريد أن نتفاعل كثيراً ثم إن لم يتحقق الأمر نغرق في الإحباط. «رد علاء»

- تفاعلووا بالخير تجدوه. «هتف رائد»

«رقل نضال بهدوء»:

- (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۗ كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابٍ لَا يُعْجَلُ وَلَا يُؤَخَّرُ.

توالت الأخبار في اليوم التاسع والأربعين لطوفان الأقصى عن صفقة التبادل وأنه قد بدأ التنفيذ على دفعات، كانت لحالات إنسانية من الأطفال والمسنين والمرضى من الأسرى الإسرائيليين مقابل النساء والأطفال من الأسرى الفلسطينيين، على أن يُفرج عن ثلاثة فلسطينيين مقابل كل أسير إسرائيلي، واشتعلت وسائل الإعلام في تقاريرها، وكان من اللافت الحالة الصحية الجيدة لأسراهم بينما كانت الأوضاع الصحية في حالة كرب شديد للأسرى الفلسطينيين، وكان من الحالات اللافتة الفتاة الإسرائيلية التي سمح المقاومون لها بالاحتفاظ بكلبها فترة وجودها في الأسر وأطلق سراحها معه، وكالات الإعلام اهتمت كثيراً بهذه الصورة، وقد عكست الفرق الأخلاقي الهائل في معاملة الأسرى بيننا وبينهم. كذلك تسربت بعض المقابلات من مسنة تحدثت فيها عن المعاملة الحسنة رغم التعقيم الإعلامي الذي فرضوه على أسراهم الذين أطلق سراحهم.

انهارت الهدنة ولم تستمر عملية التبادل لتصل أصحاب الأحكام العالية والمؤبدات، ولم تصل عتبة الزنزانة الزهراء ومثيلاتها، ثبت للمقاومة أن الهدف الإسرائيلي هو إطلاق سراح أسراهم ثم المضي في الحرب بعد أن تفقد المقاومة الورقة القوية التي بيدها، لذلك أرادت أن تفرض شروطها التي أهمها وقف العدوان، لم يرق ذلك لهم فانهارت وتوقفت الإفراجات ولم تصل إلى أصحاب المؤبدات، بقي الحال



الغرفة الزهراء

كثيباً قاسياً، واستعرت الحرب من جديد، توخّش جيش الاحتلال كثيراً في قطاع غزة، كثّف من هجماته الهمجية، صارت المجازر يومية، صواريخهم تستهدف المشايخ والمساجد والمدارس والجامعات وكلّ مقومات الحياة بحجة القضاء على المقاومة، ضربوا المستشفى المعمداني وأوقعوا قرابة الخمسمائة شهيد وجريح دفعة واحدة، قامت قيامتهم في مظاهرات عارمة عمّت الضفة والعواصم العربية.

تلعثمت الرواية الإسرائيلية بداية الأمر باتهام فصيل فلسطيني، وأنّ السبب صاروخ من هذا الفصيل، أمام معطيات الحدث سقطت روايتهم وبنات دمويّتهم وظهر توخّشهم المريع.

التهبت مشاعر الغضب بين عناصر هذه الزنزانة على مجزرة مستشفى المعمداني، نائل صال وجال وصبّ جام غضبه على هذه الحضارة الغربية التي تحتضن هذا المشروع الفاشي:

- هذه حضارة قامت على التوحّش، وما في توخّش في هذا التاريخ المعاصر إلا من صناعة أيديهم، تذكرون داعش كيف صنعوها ثم شيطنوها كي يضربوا بها حركات التحرّر والخلاص من ربيعة الأنظمة التابعة لهم، ما الذي يختلف عن هذا الكيان الذي صنع ليقوم بكل هذا التوحّش وليرتكب كل هذه المجازر؟ في داعش وظّفوا الدين الإسلامي ومع الحركة الصهيونية وظّفوا الدين اليهودي، أمريكا وهذه الدول الغربية المستكبرة بريطانيا وفرنسا وألمانيا هي راعية هذا الإرهاب. بريطانيا بنت الحرام علاوة على أنّها سبب مأساتنا وصاحبة وعد بلفور ومع هذا ما زالت تصرّ على هذا التماهي في دعمها اللامحدود.

« أردف علاء بالغضب المشتعل ذاته: »

- أصلاً نحن نعرف مدى التقاطع بين الفكر الصليبي المتوحّش والفكر الصهيوني، وكيف اتفقوا علينا بتداخل عقائدي ديني خاصة ما أدخلوه من اعتقادات على المذهب البروتستانت المنتشر في أمريكا والذي أهمّه أن المسيح لن يعود إلا بإعادة بناء هيكل سليمان في القدس، بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية الاستعمارية، لذلك عندما تعرّضت «إسرائيل» للخطر في يوم العبور العظيم السابع من أكتوبر تداخوا مسرعين لإسنادها ودعمها بكل أشكال الدعم، لا أتوقّع أبداً أن تنفك سياساتهم استراتيجياً عن الدعم التام لهذا الكيان.

« عبد الناصر من ناحيته أخذ نفساً عميقاً كأنه يريد أن يستخلص زبدة ما لديه من دراسات مطوّلة في الفكر والسياسة: »

- تعرفوا يا شباب كم سنة وأنا أحاول الدخول في العقل الصهيوني للوقوف على تضاريسه بكل دقّة



الغرفة الزهراء

وتفصيل، هو يعاني من عدة عقد متداخلة كلها تنتج عنصرية حاقدة وعلى أعلى درجاتها، عقدة الضحية والشعور بالظلمية، عقدة أنهم شعب الله المختار وعقدة أنهم الأرقى جينياً من بقية البشر، عقدة الشعور بالظلم التاريخي وأنهم مهددون ومشروعهم في فلسطين محاط ببحر من الأعداء.. الخ. هذا يدفعهم للاستبداد واستخدام القوة المفرطة وهم يحسبون بذلك أنهم يثبتون قواعد بنيانهم ويديم بقاءهم.

« نضال كعادته يضيئ مسة روحية رغم قسوة المشهد: »

- الحمد لله الذي جعلنا من أهل الحق وأتباعه، الرسالات السماوية جاءت لترتقي بالإنسان وتجعل حياته قائمة على القسط والعدل والإحسان، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين بعث لئتمم مكارم الأخلاق، عندما يرتكس الإنسان إلى هذا الحضيض في الانحطاط الأخلاقي ويسهل عليه التوحش والقتل فإنه بذلك يحكم على نفسه بزوال ملكه وتراجع دوره في الحياة الإنسانية، وهذه هي سنة التدافع التي قال عنها سبحانه: « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » الإمام الغزالي يقول: « أساس الملك العدل فإن زال العدل زال الملك. »

« وكان لا بد من مسك الختام بذكريات عبد الناصر الحاضرة مع السنوار: »

- من أكثر الناس الذين عرفتهم فهماً للعقل الصهيوني هو أبو إبراهيم السنوار، طبعاً بعد أن أتقن اللغة العبرية: لم يدع شاردة ولا واردة كانت تصل إليها يدها إلا وقرأهما بنهم، يقرأ ويحلل ويناقش ثم فيما بعد صار يدرّس المشهد الصهيوني السياسي والاقتصادي والعسكري والأمني والاجتماعي والتاريخي والديني بكل تفاصيل اختلافاته وتناقضاته وأبعاده العميقة مع تطبيقاته في واقع اليوم، هو ومن معه يعرفون لغة عدونا معرفة واسعة.

- وكان المقصود معرفة لغة العدو معرفة كل شيء عنه؟ « سأله نعيم: »

- نعم صحيح.

الجدد يستمعون بشغف ويشعرون أنهم ليسوا في زنزانة سجن، وإنما في أكاديمية عريقة وقد جاءتهم فرصة ليتعلموا من هذه الكفاءات العالية في الفكر والسياسة. وعلى المحك تماماً في المقعد المتقدم لهذه المعركة.

نهاية الأسبوع أخرج لهم نضال استراحة الاسبوع مع قصة من وحي المعركة:

« مذكرات حارس أسيرة يهودية .. قصة قصيرة من رحم المعركة... »

يبدو أن النقاش قد وصل إلى طريق مسدود بين الأسر الطيب والمأسورة الجميلة حول شرعية خطفها من حفل موسيقي في غاية المتعة والتجليات الوجدانية، إلى حيث نفق في غرة لا يعدو عن وصفه ببحر



الغرفة الزهراء

ضَبَّ، أتى لهذا المجاهد بكل ما أوتي من دماثة وخفة دم أن يقنع هذه التي جُرِدَتْ فجأة من كل أسباب الحياة الرغيدة اللذيذة؟

هذا المجاهد الذي يأخذ لقباً حركياً باسم القعقاع تيمناً بذاك الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو معروف بين إخوانه المجاهدين بروح الدعاية والنكته، رغم ظروفهم الجهادية القاسية وسيرهم على حدّ السيف الفاصل بين الحياة والموت، القعقاع على عكس اسمه الذي يوحي بضخامة الجسم وفخامة الحركة والكلم، بل هو نحيف رفيع، ناعم وهادئ الصوت، بينما الأسيرة اليهودية ساحرة الجمال، ذات عينين واسعتين وفم صغير وبياض وجه وقوام رشيق، وكان له هذا الاختبار الكبير أن يكون مسؤولاً عن حراسة هذه المحروسة مع مجاهدين تقومان على حراستها وخدمتها.

- أنتم أناس تجيدون التمثيل، فطور لذيذ وكلام طيب وابتسامات واسعة، كيف لكم أن تجيدوا التمثيل وأنتم تحت القصف والدمار؟ « قالت ببرود أعصاب ولسان رخو: »

- نجيده لأنه ليس تمثيلاً.

- لا، أنتم خاطفون متوحشون، لا يمكن أن أصدّق بأن الفلسطينيين إنسان لطيف كما رأيتم هذه الأيام، لو أنكم كذلك لما قمتم بخطفنا من ديارنا. « بحدّة وغضب »

- يا بنت الحلال والله إننا حيوانات أليفة! نحن قطة «كيوت»! وليس كما وصفنا وزير الحرب عندكم: «حيوانات بشرية»، نحن مضطرون للخطف كي نطلق سراح أسرانا. هل سمعت بأن هناك أسرى لنا مخطوفين عندكم منذ أربعين سنة. « يهدوء ومحاولة مني أن أحافظ على توازني »

- هؤلاء مخربون. « بحدّة وكشرة بدت واضحة في وجهها »

- تعبنا من هذه الأسطوانة، أنتم تقولون عنهم مخربين ونحن نقول عنهم فدائيين، ارجعي إلى أصل المشكلة، أنت مُصرّة على بداية القصة من حيث أراد الذئب أن يأكل الحمل لأنه عكّر النهر بشره منه.

- أنتم الذئب الذي خطفنا أثناء شربنا.

- كانت حفلة جميلة؟

- فوق الريح، لولا الذئاب التي اعتدت علينا.

- عندكم حاخامات يعتبروننا حشرات وصراصير وأفاعي.

- صحيح، لكني أنا علمانية ولا أوّمن بهذا.

- جيشكم يؤمن بهذا، صحيح؟

- ليس كله. « أردفت بشيء من الامتعاض »



الغرفة الزهراء

- لست مرتاحاً مع هذا النقاش، بالأمس كان نقاشنا أجمل. سلسبيل لا تحبّ السياسة.
- « سلسبيل اسمها الجديد في غزة، سمّوها إياه وارتاحت له »
- آه، تريدين لعبة شطرنج؟
- بشرط بعيد عن السياسة، أنت تدخل السياسة في كلّ شيء.
- « بسطت لها رقعة الشطرنج، ربّنا الحجارة كلّ في مكانه .. »
- نحن تجري السياسة منا مجرى الدم. أصلاً الشطرنج لعبة سياسية. ملك ووزير وجيش وحركات سياسية.
- انا لا أحبّ السياسة. السياسة غابة متوحّشة.
- هل تسمعين صوت القصف والطائرات التي تغطّي سماءنا وتدمّر حياتنا، هذه جرائم. سياسة مجرمين، صحيح؟
- هذه بسبب ما فعلتم بنا يوم السابع من أكتوبر.
- كأنها هذه السابع من أكتوبر، «كشّ ملك». ممكن ترجعي خطوة للوراء، لماذا تحاصروننا منذ ستة عشر عاماً.
- أطلقتم علينا صواريخ.
- لماذا؟ رأينا في المنام حلماً وصَبَحْنَا من الباب للطاقة نضرب صواريخ؟ هكذا تأبّط شراً.
- رغم أنّي لم أفهمها هذه «تأبّط شراً»، هل هي مثل عندكم؟
- لا، هذه اسم طبخة. وتستخدم أحياناً كمصطلح سياسي.
- طبيعتكم المتوحّشة دفعتكم لضرب الصواريخ.
- اسمعي لأحكي لك بصدق، القصة بدأت منذ جاءت عصابات متوحّشة قبل سنة ثمان وأربعين واحتلت فلسطين. الحركة الصهيونية ورطّطكم باحتلال أرض ليست أرضكم.
- لا يا حبيب أمّك، تريد الرجوع للخلف؟ التاريخ لا يعود بنا للوراء، هي الفيل أكل حصانك، تستطيع إعادته للعبة؟
- جميل وهذه قلعتي أكلت فيلك، وما في عودة للوراء. طيّب لماذا تصرّون على العودة إلى ما جرى في السابع من أكتوبر؟ إمّا أن نعود إلى نقطة احتلال عصاباتكم لفلسطين، أو نصفّي حساباتنا مع هذه



الغرفة الزهراء

العصابة التي تسمونها دولة إسرائيل.

- وزيرك راح يا معلّم وأنت مشغول في السياسة.

- حكومتكم كلها راحت وهي مشغولة في الانتقام وقتل النساء والأطفال.

- أين راحت حكومتنا؟

- إلى مزابل التاريخ، خمسة آلاف طفل قتلوا لغاية اليوم.

- شيء فظيع، أنا صدقاً لا أؤيدهم في هذا القتل، أنتم مثلنا تماماً تستحقون الحياة.

- لكل طفل منا حكاية، له طموحه وآماله، له مواهبه وألعابه، له فريق كرة القدم المفضل وله أم وأب يحبونه ويحبهم، مثل أطفالكم تماماً.

«وفتحت لها على الشاشة الصغيرة بعض مشاهد الأطفال الذين قتلوا، فتحت على الطفل الجريح الباقي من العائلة التي قتل جميع أفرادها، ظهر الألم على وجهها، تنهّدت وهتفت:»

- ليت السلام يحلّ بين الشعبين.

- كيف؟

- يلعب نتنياهو والسنوار لعبة شطرنج ويحلونها.

- نتنياهو لا يجيد اللعب مع مجلس الحرب عندهم: جالنت، وجانتس يتأمر عليهم ويتأمرون عليه، هل تراه يجيد اللعب مع السنوار؟ لا يجيد اللعب إلا مع الجريمة والدمّ.

أيام طويلة مرّت من النقاش السياسي والاجتماعي الساخن أحياناً والفاقر أحياناً أخرى.

بعد عشاء بما تيسّر من حبة بندورة وصحن من اللبنة وزيت الزيتون وحبّات تمر، لاحظت أننا لم نأكل وعرفت بعد ذلك انه كان لقلة الزاد فأثرناها على أنفسنا فباتت شبعانة وبتنا جائعين، في ليلة اشتدّ القصف فاحتمت بنا وكنا مستعدّين لتلقّي أي شظايا أو دمار قد يلحق بنا دون أن يلحق بها ما استطعنا لذلك سبيلاً، طمّناها وقلنا أننا نموت دونها. حدّثتها عن فتاة مأسورة عندنا جاءت مع كلبها، ورغم خطورة الأمر في نباح هذا الكلب المفاجئ إلا أننا وفرنا راحة لها وله، وهذا من النوع الذي يأكل طعاماً خاصاً فعودناه على طعام كلاب غزّة شيئاً فشيئاً جعلناه يتخوشن قليلاً في طعامه، وحدّثتها ما مرّ عليّ في سجنهم كيف كانوا يحولون بيننا وبين قطة اعتادت أن تأتي إلينا في سجن «هدريم»، وعن عرق نعنق نبت في ساحة سجن السبع ففرح له الأسرى وتعاهدوه بالرّي والرعاية والحنان حتى إذا انتبه لذلك سجّان جاء وسحقه تحت قدمه، وحدّثتها عن نخلة سجن عسقلان التي كان الأسرى يستأنسون بها فجاءت إدارة السجن ونشرتها من أسفل جذعها. بينما نحن نرعى هذه الفتاة الأسيرة مع كلبها ونراعي



الغرفة الزهراء

مشاعرها ومشاعر كلبها بكل رقة وحنان.

- أنتم تلزمون المرأة بلباس يقيدنها ويمنعها من ممارسة حياتها كما يحلو لها.

- المرأة عندنا هي التي تختار هذا اللباس بناء على تعاليم دينها، وأكدت لها المجاهدات حارساتها ذلك، وهذا اللباس يحيط جمالها بالهيبة والجلال، وهو رفعة وقيمة عالية تعتز بها المرأة المسلمة.

« وكان السؤال الأكثر إلحاحاً: »

- متى ستطلقون سراحنا؟

- عندما تطلقون سراح أسيراتنا، نحن لا يوجد في أهدافنا أن نعدّبكم أو أن ننتقم منكم، أنتم فقط وسيلة اضطرننا لها من أجل تحرير نساءنا، هل سمعت بقصة إسرائ جعابيص؟ هذه المرأة الفلسطينية المقدسية التي احترقت في سيارتها فظنت قوات الاحتلال أنها ذات نوايا فدائية فحكمت عليها المحكمة عشر سنوات سجناً، زجتها في السجن وقد شوّهتها الحروق من غير علاج وحرمتها من أهلها وأبنائها بكل قسوة ووحشية فظيعة، عن ماذا أحدثك، حكاية آلامنا كثيرة.

- لطفكم ومعاملتكم الطيبة شجعتني أن أطلب أمرين، هل تسمح لي؟

- لن أتردد بالاستجابة لأي أمر أقدر عليه، فكما قلت لك ليس هدفنا أبداً أن نضيق عليك أو نعدّبك بأي حال من الأحوال كما تفعلون أنتم في سجونكم، مطالبنا كانت دائماً مرفوضة فنضطر لخوض إضرابات مفتوحة عن الطعام من أجل الوصول إليها.

- لي مطلبان: راديو، وأن أمارس الرياضة.

- هذه تحتاج إلى أن ترفع إلى مصلحة السجون لاتخاذ قرار فيها، والأغلب أنهم يرفضون مثل هذه الطلبات.

- لديكم مثلنا مصلحة السجون؟

- انا أمزح معك، مصلحة السجون عندكم كانت تمررنا قبل أن تردّ على طلباتنا، أنا أقول لك إن طلبك قد وافقت عليه فوراً، اليوم أحضر لك الراديو وبإمكانك ممارسة الرياضة، إذا أحببت أن تخرجي من هنا إلى شاطئ البحر ذهاباً وإياباً مع الحارستين، ولكن الخطر كبير في الخارج، القصف يطال كل من يسير فوق الأرض.

- بل أمارس رياضة خفيفة هنا. لا أريد أن أموت.

- بالفعل لم يعد هناك مكان آمن في قطاع غزة بفضل قيادتكم الحكيمة نتياهو، ومن معه.

« ردّت بعصبية مفاجئة »



الغرفة الزهراء

- ولكنني أعجب من شعوركم بالأمان، وكأنه ليس هناك حرب.
- نحن نوقن أن الموت والحياة بيد الله، وإن متنا كانت شهادة وهي أمر نتمناه لأن الشهداء في ديننا لا يموتون بل هم أحياء عند الله يرزقون.
- ونحن نؤمن بالله أيضاً، المتديّنون منّا يعتبرون اليهود شعب الله المختار وبالتالي فهم لا يُعذبون بل هم محظوظون عند الله.
- تعالي نتفق أن الله عادل. صحيح؟
- طبعاً صحيح.
- وهو مع الحق.
- صحيح، إلى أين تريد أن تصل؟
- إلى أن الله لا يمكن أن يقف مع من يقتل الأطفال مع سبق الإصرار والتعمد، هذه البيوت التي تُقصف فوق رؤوس قاطنيها بطريقة عشوائية، لقد اعترفوا أنهم ألقوا قرابة مائة ألف قنبلة مدمّرة منها ما يزن طناً محت عن الأرض مريعات سكنية، لأن سيدتي ألقوا ما يعادل قنبلتين نوويتين، والحبل على الجرار، هل هؤلاء مع الله أو أن الله معهم؟؟
- ولكنكم أيضاً في السابع من أكتوبر قتلتم أبرياء؟
- كم وكيف؟ أنت تعلمين أن الاشتباك كان مع فرقة غلاف غزة، وهذا الاحتفال لم يكن بالحسبان، وأننا أخذناهم رهائن فجاءت طائرات الأباتشي الإسرائيلية فقصفت الراهن والمرهون، أنت ممن نجوا من نيران الأباتشي الإسرائيلية، صحيح؟
- للأسف هذا الذي جرى.
- ثم اتخذتنيها هو هذا الأمر ذريعة للعدوان على غزة بكل وحشية مدمّرة، هم يتخذون قرار القتل والموت لغزة ثم يطلقون طائراتهم، لقد حرّضوا على القتل وهناك وزير البيئة دعا لضرب قنبلة نووية على غزة.
- حجتك قوية، والآن كش ملك.
- « فاجأتني وأنا في حمى النقاش أنها نجحت بالفوز الساحق، لا بأس »
- مبروك، أعتزُّ بفوزك.
- كل الاحترام .



الغرفة الزهراء

بعد شهر من المعركة تم الاتفاق على هدنة لتبادل أسرى، وكانت البداية مع النساء والأطفال، تم اطلاق سراح قرابة ثلاثمائة من الفلسطينيين ومائة من الإسرائيليين، وكان الوداع حاراً، همست لها:

- لا تسكني منطقة غلاف غزّة. « سألت بدهشة:»

- وهل ستعودون بعد كل هذا الدمار؟

- بكل تأكيد، الفلسطينيون كالعنقاء يخرجون من تحت الدمار.

كان وداعاً حاراً رآه الناس على شاشة التلفاز، ما هو السرّ وراء الأكمة ما وراءها، لقد اكتشفت أناساً يحملون السلاح بأيديهم، ويحملون قلوباً جميلة في صدورهم.

حتى نضال السطر الأخير بتؤدة وهدوء ليعلن بذلك انتهاء القصة، الغرفة في غاية الانسجام والمتعة، وكأن وقت القصة هو استراحة المجاهد من وعثاء السفر في هذه السجون المريعة.

إلا أن نائل لا بد وأن يعلق:

- خيالك يا أديبنا واسع وجميل، خفت تنهيتها بزغرودة وزواج على عادة الأفلام المصرية.

- القصة واقعية تماماً. الخيال فيها محدود جداً.

- المهم تجمع بين المتعة والهدف الصحيح.

- بارك الله في قلمك كاتبنا الأسمّ.

- «خلص بكفي مدح شوية رأسه ينفجر» «ختم نائل» .

نقق مكبر الصوت بصوت هادئ ومن غير سب أو شتم على غير العادة:

- علاء الصقر، حضّر حالك.

« كان مستلقياً على ظهره فنهض وأسند ظهره على جدار «البرش»، فتحت في رأسه علامات استفهام كثيرة: «نقل إلى سجن آخر، نقل إلى العزل، عقوبة وتنكيل، زيارة مُحام، زيارة صليب أحمر) هذه توقفت مع توقّف الحرب».

«همس نائل:»

- قد ينقلونك، وداعاً وإلى اللقاء، هكذا تجمعنا السجون وتفرّقنا.

- هذه الدنيا أحب من شئت فإنك مفارقه. «هتف نضال»



الغرفة الزهراء

- سنشتاق إليك سيدي علاء.

« جاءت الزبانية وأخذت معها علاء بلطف، مع استغراب ودهشة الجميع، ليست هذه عوائدهم منذ السابع من تشرين، ولا يرقبون في ذلك لا صغيراً ولا كبيراً، ماذا جرى؟ »

سار علاء برفقة شرطي، لم يجره كما تجر الدابة وكما هو عهدهم، سار بمحاذاته، علاء يسأل نفسه: « ما الذي جرى؟ لا بد وأن حدثاً عظيماً قد وقع ولم يصل بعد إلى وكالة صقر، هكذا أسير بلا قيود في قدمي، فقط قيّدوا يدي، معقول أنا في اليقظة أم في المنام، لا، الأصوات كلها تدل أنني ما زلت على قيد اليقظة، أسير دون لكلمات ولا صفعات ولا شتم ولا مسبات، الحسّ الأمني يتحرّك بقوة في داخلي، هناك شيء غير معقول يحدث، أنا صحيح لا أرى ولكن الله منحي حاسة سادسة أقوى من كل الحواس، هذه الطلعة بهذا الشكل ليست طبيعية، فيها أمر خارج الصندوق »

أفكاره التي أخذته بعيداً لم تشعره بتفاصيل الطريق، وجد نفسه في مكان ما قد يكون غرفة مكتب من مكاتب الإدارة، أو مدير السجن، سمع صوت مدير السجن «خنيفس» ما غيره، قال له بأدب وشيء من الاحترام:

- تفضّل، اجلس.

« الجلوس كان على أريكة واسعة مريحة، لم يجد جنبه ليناً مثل هذا اللين، هبط عميقاً ووجد نفسه قد اتكأ متكأ لا يوجد مثله في السجون أبداً، سمع صوتاً باللغة العربيّة يهتف بهدوء ويظهر أنه يجلس مقابلاً له: »

- سيّد علاء، أنا مدير السجن، ومعني فريق من التلفزيون الإسرائيلي يريد أن يجري حواراً معك، هم يريدون أن يقابلوا رجلاً عاش في السجن مع يحيى السنوار، فقط من أجل أن نتعرّف على طريقة تفكير السنوار، وأنتم أيضاً بالتأكيد ترغبون في إيصال رسالة السنوار للجمهور الإسرائيلي، يعني في مصلحة مشتركة فما رأيك؟ حابّين نجري معك حوار، إنت عشت عدة سنوات في السجن مع يحيى السنوار، في مجال تجيب على أسئلتنا؟

- طبعاً لا، لماذا أجيبيكم مثلاً؟

- لك أن تجيب على السؤال الذي تريد وتعتذر عن الذي لا تريده.

- قد تُقصصون الذي تريدون إيصاله وتحذفون الذي لا تريدون، هذه عادتكم في الإعلام من أجل أن تحافظوا على سرديتكم وتقنعوا جمهوركم بها.

- كم سنة عشت مع السنوار؟

- ليس أقل من عشر سنوات في غرفة واحدة.



الغرفة الزهراء

- إذن تعرفه جيداً؟
- «لأ شوية» معرفة سطحية. «مع تنهيدة وضحكة خفيفة»
- كيف يفكر هذا السنوار؟
- تريد الإجابة مجاناً؟ «مازحاً»
- ندفع لك ما تريد. «فكر، الأمر في غاية الجد»
- ما نريده الآن هو إعادة السجن على ما كانت عليه قبل هذه الحرب.
- قد نعيدها بعد وقف الحرب.
- ما الضمان على ذلك؟
- ما في ضمانات.
- إذن ما في حوار.
- «رد مصطنعاً الهدوء وكابتاً لمشاعره وأحقاد السوءاء:»
- اسمع سيد علاء، هذا اللقاء مع التلفزيون مفيد جداً لكم، ومفيد لنا لا أنكر ذلك؟
- على كل لست أنا الذي يقرر، لا بد أن نتشاور ونأخذ قراراً تنظيمياً في الموضوع.
- «وشد على كلمة تنظيمي قاصداً إغاثتهم»
- لك ذلك، نعيدك للقسم وتشاوروا على راحتكم، لكن اسمع نصيحتي سيد علاء، فائدتكم أكثر من فائدتنا، ولو الأمر عليّ لما قبلت، ولكن مصلحة السجن وافقت لهذا الطاقم التلفزيوني على إجراء هذه المقابلة. ارجع وتشاور مع من تريد... معك ساعتان.
- «أعادوه إلى الزنزانة الزهراء، على غير العادة يعود دون ضرب أو إهانة، عاد معزراً مكرماً كما كانت حال ممثل المعتقل، يتنقل بين الغرف والأقسام، فتحوا له الباب وكان برفقته ضابط، هتف باحترام:
- تفضل سيد علاء.
- «فوراً التفت حوله الأصحاب في دائرة ضيقة، وحولها الدائرة الأوسع بقية عناصر الزنزانة، تحولوا جميعاً إلى آذان صاغية، قص عليهم ما حدث ثم طلب رأيهم:
- «هتف نائل:»



الغرفة الزهراء

- مقابلة الإعلام العبري تطبيع، لا يجوز أبداً، وسوف يأخذون منك مقاطع يوظفونها وفق أهدافهم، لا تسمح لهم بأن يستخدموك.

« عبد الناصر خالفه الرأي: »

- هذا في الوضع الطبيعي، لكننا في وضع استثنائي، لم لا نحاول إيصال رسالتنا ولو بشيء يسير منها، لم لا نسهم في إعطاء الصورة التي نريدها ولو باليسير مقابل الطمس التام لها من قبل إعلامهم الأسود. أي مساحة إعلامية نتاح لنا في ظل مشهدهم الحالك هو إنجاز. تخيلوا الجزيرة مثلاً عندما تعطيهم مساحة على شاشتهم لا يوفرونها مهما كانت، لكن مع الحذر في أن نقع في دعايتهم، قدر المستطاع نصدر ما نريد.

ردّ نائل مع احمرار وجهه الأشقر والضغط على قسماته بشيء من الحدة:

- لا تقارن هذه الحسنات مقابل سيئات وقبائح التطبيع الإعلامي المقيت.

« نضال من جانبه هتف: »

- جيد إسماع صوتنا ولو بالقليل في ظل هذا القمع الاستثنائي غير المسبوق، وفي ظل هذه المجازر وحرب الإبادة الجماعية التي تمارس على شعبنا. « الريحة ولا العدم »

« رائد شدّ مع نائل قال كلمتين وأقفلهما بنقطة: »

- التعاطي مع إعلامهم تطبيع ونقطة آخر السطر.

« صاروا اثنين مع واثنين ضدّ، بقية الشباب الجدد انقسموا على الرأيين، طمّنهم علاء بأن قرار الأغلبية هو الملزم، وقال: »

- سأطلب منهم أن يأخذوني على بقية الأقسام للتشاور، فرصة ولاحت.

« بالفعل طلب من ضابط القسم فتنقل بين عدّة أقسام ونقل بذلك الأخبار وعمّم ما وصلت إليه الزنزانة الزهراء من اجتهادات وتقدير مواقف سياسية حول آخر المستجدات، واستمزج آراءهم حول المسائل المصرية في السجون، وأنه لا بد من التحضير لانتفاضة في الخارج مع الأسرى لتعاد الأمور إلى نصابها الصحيح، ثم بلغ الضابط بموافقته على المقابلة، فرافقه إلى حيث الطاقم التلفزيوني بالانتظار.»

كانت الكاميرات جاهزة وتقف لعلاء بالمرصاد، جلس قبالة الإعلامي الذي يدير الحوار وهو بالمناسبة من الإعلاميين البارزين في الإعلام الإسرائيلي، (قصير مع بدانة، أبيض الوجه مع تقاطيع ناعمة في عقده الخامس) تجربة صوت ثم بدأت الأسئلة تنهال على علاء:

- كم مكثت مع يحيى السنوار في غرفة واحدة، أو كنتم معاً في القسم ذاته؟



الغرفة الزهراء

- ما يزيد عن عشر سنوات.
- السنوار اجتماعي منفتح؟ والا كان انطوائي على ذاته.
- اجتماعي فوق التصور، كان قلباً كبيراً يسع الجميع، علاقات مفتوحة ومميّزة مع كل الأسرى.
- يتقن العبرية؟
- كالعربية تماماً.
- قارئ مثقف؟
- بشكل كبير جداً، كان لا يترك ثانية دون الاستفادة منها.
- هل لك أن تحدثنا عن أنشطته التي كان يمارسها في السجن؟
- يمارس الأنشطة الثقافية بهمة عالية، قراءة وترجمة وتأليفًا، وإدارة شؤون الأسرى والحوار مع إدارة السجن.
- ماذا عن نشاطه الأمني؟ « بخبث وتغابٍ دفع بهذا السؤال فأجابته علاء: »
- لا أريد الإجابة عن هذا السؤال.
- حسنًا، ماذا عن اتصالاته التنظيمية مع الخارج؟
- لا أعرف عن هذا الموضوع.
- قيادي في السجون ولم يكن له اتصال مع التنظيم في الخارج؟
- قلت لك لا أعلم، وعندنا من قال «لا أعلم فقد أفتى».
- له كاريزما مميّزة وقدرة عالية في التأثير على الآخرين؟
- هذه لا تحتاج إلى كلام، ليست عالية بل عالية جداً.
- تستطيع القول إنّه حاقد على اليهود؟ « سؤال ملغوم بهدوء مصطنع »
- ليس عنده أية مشكلة مع اليهود، هو عادة ما كان يقول عداؤنا مع الاحتلال، بصرف النظر عن دينه وعرقه ولغته، مشكلتنا في فلسطين مع الحركة الصهيونية التي استخدمت الدين اليهودي وخذعت كثيراً من اليهود للقيام باحتلال فلسطين، أمّا اليهود الذين لم يحاربونا ولم يحتلوا أرضنا فليس بيننا وبينهم أي عدا، وهذا بالمناسبة قد نصّ عليه القرآن: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين



الغرفة الزهراء

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم» فهذا من تعاليم ديننا الحاسمة والقاطعة، ويحیی من أحرص الناس على الالتزام بالنصوص القرآنية.

- طیب، ما الذي دفعه لقتل اليهود في السابع من أكتوبر؟

- لا بد من تصحيح السؤال، قتل الصهاينة المحتلّين وليس اليهود. ثمّ الذي جرى هو حلقة في سلسلة طويلة لم تبدأ في السابع من أكتوبر، بل قد بدأت من لحظة احتلالكم لفلسطين وتطهيرها عرقياً وطرد أهلها منها، تم طرد الفلسطينيين من ثلاثمائة وستين مدينة وقرية كانت زاهرة بالحياة. وبنيتم دولتكم على أنقاض وطننا فلسطين، لقد كذبوا عندما قالوا لكم: فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. لقد ثبت العكس تماماً فلسطين لها شعبها وناسها. ويحيى السنوار من هذه القرى المهجرة التي طردتم سكانها منها وحللتهم مكانهم، هو من قرية مجدل عسقلان في الأصل.

- حسب معرفتك العميقة وعن قرب بشخصية السنوار، ما هو سرّ القوّة في هذه الشخصية الفريدة؟

- الإيمان بالله.

- كثيرون يؤمنون بالله وليسوا بعشر عشر قوّة؟

« فرصتك يا علاء لحرب نفسية: »

- الإيمان بالله عنده صخرة تتحطّم عليها كل المعاول التي تريد كسرها أو تفتيتها، غير قابل للضعف أو الاستكانة أو الخنوع أو الاستسلام أو التراجع أو الانحناء لغير الله مهما بلغت قوّة أعدائه. الإيمان بالله عنده مصدر طاقة ينتج قوّة وعنفاً لا يسبقه إليها أحد.

- هل تتوقّع أن يسلم نفسه في هذه الحرب؟

- هذا الرجل إما أن ينتصر أو يستشهد، لا تحلموا بأيّ شيء ثالث.

- ماذا تتوقّع أنت؟ هل ينتصر أم يستشهد؟

- ينتصر بإذن الله وإن اختاره الله شهيدا فهو بذلك منتصر.

« ملم الطاقم التلفازي عدّته ورحل، بقي اخنيفس وعلاء وحدهما، فجأة زعق اخنيفس: »

- الذي فهمته أيها القدر أنك تؤيد ما جرى في السابع من أكتوبر؟

.....

- أجب، ما لك بلعت لسانك؟

- اسمع أحكي لك، أنا وأنت من أصل واحد، نحن عرب، أنت درزي من طائفة بني معروف وأنا متأكد أن



الغرفة الزهراء

كثيراً منكم يؤيدون ما جرى في السابع من أكتوبر، أنت بحكم وظيفتك تنحاز إليهم، أنصحك أن تنظر بعيون متجردة بعيداً عن تحيزك لوظيفتك أو حتى بعيداً عن تحيزك لأصلك العربي؟ ما ذنب الأطفال والنساء والمدنيين الذين يقتلون الآن في غزة؟

- ذنبهم أنهم يؤيدون المذبحة، وقفوا مع المذبحة التي قامت بها زعامتكم.

- لم تقرأ أو تسمع تقرير هارتس، المدنيون الذين قتلوا والقصف الذي دمر الأبنية والسيارات التي احترقت كلها على حد تعبيرهم بنيران صديقة، من طائرات الأباتشي ومدفعية الدبابات الإسرائيلية. فكّر بشكل موضوعي وحاول أن تجد الحقيقة.

- أنا هنا أقوم بوظيفتي بعيداً عن السياسة، أنا أنفذ سياسات.

- تنفذ دون أي مشاعر إنسانية، دون أي اعتبارات أخلاقية؟

« بنبرة أعلى وأكثر حدة »

- نحن في الأمن ما عندنا قلوب. خاصة عندما نتعامل مع إرهابيين أمثالكم.

- نحن وأنت معاً أصحاب قضية واحدة، قضية فلسطين التي احتلها بنو صهيون. الإرهابيون هم الاحتلال، ونحن وقع علينا ظلم هذا الاحتلال. ألم يحتل الصهاينة بلدك، قراكم يا بني معروف مثلنا تماماً محتلة، أنتم جزء لا يتجزأ من فلسطين المحتلة.

« انضعل بشكل مفاجئ وكأن كهرباء عالية قد ضربته في أعماقه، ضرب يده على الطاولة وزعق: »

- اسمع انت واحد ابليس، خلص ولا كلمة زيادة، هنا مطلوب أن تحترموا تعليماتنا نقطة آخر السطر.

« وأشار إلى الشرطة لإعادته للقسم.. »

وفي طريق العودة كان درب الآلام «ويا عينك ما تشوف إلا النور» بين كلّ علقة وعلقة علقة، شبعوا به ضرباً، أربعة يصبون جام أحقادهم على أسير ضريح مسن، الصفع واللكم والشتم والبصق، لا يعتبرون من يقف أمامهم إنساناً، وحتى لو كان حيواناً لا ينكلون به بهذا الشكل أبداً، انتابتهم روح سادية وأصبحوا يتلذذون في عذاب الأسرى وكأنهم يمارسون طقوساً تريح وتطمئن أحقادهم الساكنة في قلوبهم، فخير سبيل لهذه الأحقاد أن تسكت جوعها بالمزيد من الألم الذي تزرعه في من تحقد عليهم.

وصل الزنزانة الزهراء في حالة هو فيها إلى الموت أقرب منه إلى الحياة، ولكنه كما يقول عنه نائل بسبع أرواح، حياته كلها هكذا على حافة الموت، نجا من عدة عمليات عسكرية قام بتنفيذها وهو في ريعان شبابه، انفجرت في وجهه عبوة ناسفة أخذت في طريقها عينيه وحولته ضريراً وأسكنته الظلام طيلة حياته، أفرج عنه في صفقة تبادل العام ١٩٨٥ بعد قضاء ثماني سنوات في السجن، ثم ما لبث عاماً خارج السجن حتى عاد الكرة في تنظيم خلية فدائية، اعتقل من جديد وحكم بالمؤبد مرة ثانية، أطلق سراحه في تبادل أسرى



الغرفة الزهراء

العام ٢٠١٢ ثم أعيد اعتقاله قبل قرابة عشر سنين، هو بسبع أرواح، يقف دوماً على حافة الموت، ثم يعود أدراجه ليتابع المسير المرّ.

التفّ حوله الأصدقاء القدامى والجدد، وقصّ عليهم ما جرى معه بالتفصيل المريح، علّق نائل:

- «مثل شاهد الزور مكرم في الرّوحة ومبهدل في الرّجعة»

« وهتف رائد بشيء من الحدة:»

- ولو قدّر لك أن ترى تقريرهم سترى القصّ والحذف، سينشرون المقاطع التي تخدمهم.

«عبد الناصر هتف مخالفاً:»

- لقد غطّيت مساحة لا بدّ وأن تصل منها بعض الكلمات، وكذلك فيها ما فيها من الحرب النفسية. ليعرفوا من يقاتلون.

.....

أصبح واضحاً أن في الزنزانة الزهراء جيلين، هناك تفاوت ثقافي ونفسي وتربوي، نائل مولع بالتعرّف على ملامح هذا الجيل، ونضال شعر بأنهم بحاجة إلى نقلة معنوية وأن يصعد بهم الجبل لتقوى أنفسهم على استيعاب هذا الابتلاء العظيم، عبد الناصر من ناحيته أخذ على عاتقه موضوع التوعية السياسية بجرعات خفيفة تمدّمهم برؤية سياسية متقدّمة نوعاً ما.

أحد الشباب المعتقلين الجدد (سليم) تظهر عليه علامات الذكاء، وذو ملامح جدية ونظرات ثاقبة، يدرس الهندسة في سنتها الرابعة، أراد معرفة أصحاب الخبرة والفهم السياسي العميق فتقدّم بهذا السؤال الطويل جاعلاً منه سؤالاً مفتوحاً للجميع:

- بعد انقضاء الشهر الأوّل من هذه الحرب الضروس أصبح هناك علامة استفهام تظهر أحياناً ببراءة وأحياناً أخرى تجد من يغذيها ويحاول استثمارها لإشاعة الإحباط ووضع اللوم على المقاومة وإعفاء الاحتلال منها، هل قدرّت المقاومة هذه النتائج الفظيعة التي يرتكبها الاحتلال في غزّة؟ لو كانت تعلم ذلك لفعلت ما فعلت في اليوم السابع من أكتوبر؟

- لا يُفتى وعبد الناصر في المدينة، هذا لك السؤال سيّدي. (هتف علاء)

- أنا تلميذكم الصغير.

- « دشرك من هالتواضع وهات ما عندك» «علّق نائل همساً»



الغرفة الزهراء

- حاضر سيدي، يعني الموضوع يحتاج إلى أن نرى الحصاد شاملاً، صحيح أن القتل للأطفال والنساء والمدنيين والتدمير للحياة الفلسطينية بكل مكوناتها شيء مؤلم وهم يريدون بذلك تحقيق الردع للمقاومة وللحاضنة الشعبية للمقاومة، وكذلك إشباع غريزة الانتقام، وهناك أهداف مخفية وهي أصبحت واضحة في محاولة تهجير الفلسطينيين من قطاع غزة، بينما المعلن هو القضاء على المقاومة وتحرير أسراهم، صحيح القطاع يخسر من دماؤه وبنائه بشكل فظيع، ولكن بالمقابل انظر ماذا يخسرون هم، ماذا يحدث لهم من استنزاف لجيشهم والخسائر البشرية الكبيرة التي توقعها المقاومة في صفوفهم.

وكذلك يخسرون كثيراً على صعيد عالمي، تحولوا من ضحية (وكانت هذه مصدر استعطاف عالمي لهم) إلى مرتكب لحرب الإبادة الجماعية وهذه لها تداعيات خطيرة تضر كثيراً بمشروعهم، ولا ننس فعل جبهات المساندة، ففي الجبهة اللبنانية نجح حزب الله في تهجير مستوطنات الشمال وشل حياتهم الاقتصادية والزراعية والسياحية هناك، خسائرهم يومية وبشكل تصاعدي مرتبطة بتصعيدهم في غزة. والجبهة اليمنية تشل تجارتهم البحرية وكذلك المقاومة العراقية وما تشكله من تهديد، تنامي الفعل المساند من هذه الجبهات سيغير من مسار المعركة لصالحنا بإذن الله، نسيت أن أتحديث عن جبهتهم الداخلية السياسة المتناحرة أتركها لفرصة لاحقة لأنني أظلت عليكم.

«هتف نائل:»

- يعني تقرير ولا في الجزيرة في مثله، شاي في واي.

- لكن كما قلت التفصيل في الوضع الإسرائيلي الداخلي مهم، إذ إنهم هذه المرة ذهبوا للحرب بروح انتقامية بعيداً عن الأهداف الواقعية والتخطيط الاستراتيجي، تركيبة الحكومة عندهم متطرفة جداً وذات نزعة عنصرية دينية بعيدة كل البعد عن التفكير السياسي الصحيح، مجموعة من المتطرفين يزاودون على بعضهم بعضاً، ويصوبون نظرهم إلى الانتخابات ورصيدهم فيها، أكثر من نظرهم إلى الأهداف الممكنة القادرين على تحقيقها. (تابع علاء)

« وأدلى الشيخ نضال بدلوه:»

في معركة الفرقان بدر أراد المسلمون غير ذات الشوكة وهي القافلة، ولكن الله أراد لهم أن يكسروا شوكة عدوهم فأراد لهم الحرب وذات الشوكة، (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلمته ويقطع دابر الكافرين).

في هذه المعركة ينكشف العالم المستكبر، تنهار منظومة القيم لهذا العالم الذي يقف متماهياً مع المجرم ويدعمه بكل أسلحة الدمار، ستنهار السردية الصهيونية على أرض فلسطين، وستصدر غزة للعالم أجمع القيم الإنسانية ورسالة السماء لأهل الأرض أجمعين.



الغرفة الزهراء

- فبالمشهد المتكامل محلياً وإقليمياً ودولياً تتضح الصورة، المشروع الصهيوني في مأزق كبير، والحق الفلسطيني مطروح بقوة، هم يحتلون ويدمرون، فلسطين احتلت قلوب العالم وهم دمّروا صورتهم عالمياً إلى أبد الأبدين.

« تابع علاء »

« هتف سليم بلووعة وحزن شديدين : »

- الثمن كبير، نهر من الدماء، أطفال يخرجونهم من تحت الأنقاض محطّمين، عائلات بأسرها شطبت من الملف المدني، أنتم لم تشاهدوا ما شاهدنا. ما في عندكم تلفزيون، الجزيرة مثلاً تبت أول بأول، لو رأيتم الأبراج السكنية وهي تنهار، مربعات سكنية تضرب بقنابل تزن ألفي رطل من المتفجرات، أشلاء الأطفال والنساء والمجازر التي يروح ضحيتها عشرات ومئات في اليوم الواحد. لقد أمعنوا فينا قتلاً وتدميراً. أبلغ ما سمعت من رجل نجا من حالة دمار شاملة للحي الذي يسكنه، فقال: رأينا ما يشبه أهوال يوم القيامة.

ردّ نائل من معين خبراته ودراساته في التاريخ:

- يا سيّدي، ما في شعب تحرّر من نير الاستعمار إلا ودفع أثماناً باهظة من دمائه.

عبد الناصر ذهب إلى رأس الهرم في اتخاذ القرار السياسي:

- يا جماعة الخير هناك سؤال مهم: من يتخذ قرار المعركة أو يشارك في القرار؟ حسب علمي بخصوص المقاومة الإسلامية لا بد وأن يكون من الراسخين في العلم، لا بد من أن يجمع بين العلم الشرعي الديني والعلوم السياسية المعاصرة كي يستطيع تقدير المصلحة بكل صدق وإخلاص وأمانة، ترجيح المصلحة المتحققة وجدوى المعركة ومآلاتها وتحقيق الانتصار فيها في غاية الأهمية، نحن لسنا مشاريع شهادة فحسب وإنما أيضاً يجب أن نحقق الانتصار، انظروا مثلاً: غزوات رسول الله كانت ناجحة وفق الاعتبارات السياسية والعسكرية بكل الأبعاد المحلية والاستراتيجية، ووفق فعل تراكمي يصل إلى المشروع الحضاري والتمكين في الأرض.

« علق نائل: »

- « والا هو كايين القرار اعتباطي والا عاطفي انفعالي والا فزعة عرب، القصة ليست طبخة مقلوبة رأسمالها تلزق في قاع الطنجرة، »

« هتف علاء: »

- والله الجماعة أعدوا لهذه المعركة عدتها وجهّزوا أنفسهم لكل سيناريوهاتها، سنوات طويلة من الإعداد المتقن، انهارت أمامهم المنظومة الأمنية العسكرية الإسرائيلية بطريقة مذهلة.

نعقت مكبرات الصوت بصوت يحاول أن يحمل كلماته المزيد من الرعب والهلع بتضخيم الحروف



الغرفة الزهراء

وحشوها بالصدى القاتل:

- تفتيش، تفتيش يا حيوانات، وحفلة اليوم اسمها حفلة بوس العلم، بدنا كلنا نحبي العلم الإسرائيلي الشامخ، الخروج من الغرف عراة نقبله من أعماق قلوبنا ثم نعود «ويا دار ما دخلك شر». «مش هيك بالمثل العربي بتقولوا يا أخوات ال.....»

« ثارت عاصفة في الزنزانة الزهراء عندما هتف علاء:»

- حتى نخرج بأقل الخسائر، أنتم الشباب بوسوا علمهم حتى نفوت الفرصة عليهم ونخرج بأقل الخسائر.

- وأنتم الشيوخ؟

- نحن في مقام قدوة لا يمكن أن نحني رؤوسنا أبداً.

- ونحن الشباب أحمل منكم، لن نقبل بهذه المهانة أبداً، الموت ولا المذلة.

هتف الشيخ نضال:

- أنا أفتيها لكم، يقول تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» نقبله وقلوبنا تلعنه ما في مشكلة لدفع أذى أكبر.

« وتابع علاء:»

- يا شباب، قبل قليل كنا نتحدث عن الذين يتخذون القرار ويزنون الأمور بميزان الحكمة وحسن النظر.

« أردف نائل:»

- فقط لأننا نحن في مقام قدوة لا يجوز لنا أن نأخذ بالرخصة.

وصلت القوات المدرعة بالكلاب والغاز وكل أجهزة القمع، زنزانة رقم واحد وصلوها وما وجدوهم ما زالوا في لباسهم، فتحوا عليهم الغاز، ثم سحبوهم وعروهم بالقوة ثم قيدوا الأيدي والأرجل وسحلوهم للساحة تحت ضرب العصي والركل والشتم، في الأصل ونتيجة شهر كامل من التجويع كانت الأجسام منهكة لا تقوى على مثل هذا القمع الهمجي، كانوا كالدباب الضارية التي تتمكن من فريستها، في الساحة هناك من اجتهد وحاول تجاوز هذه الهجمة بأخف الأضرار فقبل العلم، إلا أنه مع ذلك لم يسلم من بعض الركلات والصفعات، القدامى وشيوخ الأسرى رفضوا فُضربوا ضرباً مبرحاً، تكسرت النظارة السوداء التي تغطي عورة عيني علاء اللتين لا يرى بهما فكان لا يدري من أي اتجاه تصب العصي جام غضبها على رأسه. استمرت هذه الحفلة قرابة الساعتين لينتقلوا ويعيدوا هذا الإخراج السيئ لفيلم لا يمت للبشرية بأية صلة في الأقسام الأخرى.



الغرفة الزهراء

من عمق الألم الفادح الذي أصاب كل مكوناتهم، تعريتهم من لباسهم الساتر لعوراتهم بشكل كامل كم هو مؤلم ومؤذٍ، يخجل الواحد من النظر إلى عورة أخيه، ومع ذلك تجد النكتة سبيلها للسان نائل:

- إنت يا علاء لأنك أعمى لا ترى عوراتنا، لكن إحنا شايفينك من ساسك لراسك.

« ردّ عليه علاء: »

- أراك ببصيرتي وأتخيلك كما أشاء.

هتف سليم - وألم شديد ينتشر في كل خلايا جسمه اللحمية والعظمية:-

- يا جماعة الخير، عمري ما صدقت أن هناك بشراً يبلغون مثل هذه الدرجة من التوحّش؟ معقول هذا الذي يجري معنا؟ ماذا يريدون؟

- ماذا تقول عبد الناصر؟ (هتف علاء)

- تريد جواباً تفصيلياً أم سريعاً؟

- شباب اليوم يحبّون السريع.

- المجتمع الإسرائيلي منذ سنوات طويلة وهو يسير نحو المزيد من التطرف العنصري، هناك تراجع كبير للعلمانيين واليساريين، هؤلاء مسكون في داخلهم من الموروث الديني أنهم شعب الله المختار، وأن غير اليهود هم الأغيار وأن الأغيار قد سخرهم الله لخدمة اليهود، وهم أقلّ منهم جينياً، أيّ جيناتهم تختلف عن جينات اليهود، وبالتالي يجيزون لأنفسهم استباحة دمائهم، وأن يفعلوا بهم ما يشاؤون، وضميرهم مرتاح لا يتحرّك قيد أنملة. وهذه الأفكار هي معتقدات توراتية دينية تدخل في سياساتهم ولها علاقة بكلّ تصرفاتهم، تقلبهم إلى وحوش لا ترقب فينا إلاّ ولا ذمة.

« تابع نائل: »

- ثمة شعورهم بأنهم ضحية للنازية فيما يسمّى كارثة «الهولوكوست» يجيدون بذلك تجسيد حالة الاستعطف العالمي، وعلى ذلك بنوا دولتهم وكيانهم في فلسطين، وعندما يملكون القوّة سرعان ما يتحوّل هذا الشعور بالاستضعاف والذلّة والمسكنة إلى الاستكبار والتحوّل من مظلوم إلى ظالم ومن مستضعف إلى مستكبر يتقن ممارسة كل أشكال الاستبداد وقهر العباد.

« علق سليم: »

- وكأننا نحن الفلسطينيين الذين أحرقناهم في «الهولوكوست»؟

- هذه عقيدتهم في تحويل نقتهم علينا نيابة عن النازيين الألمان.



« تابع عبد الناصر: »

- كذلك يجب أن لا ننسى علاقة أمريكا ودول الغرب الاستعمارية بإنشاء هذا الكيان، هناك ارتباط عميق لأنه صنيعتهم كي يقوم بوظيفة حفظ مصالحه في المنطقة، وقد أكد ذلك الدكتور عبد الوهّاب المسيري في موسوعته عن الصهيونية، لذلك نجد الدعم اللامتناهي السياسي والعسكري والاقتصادي، «إيلان بابيه» مؤرخ ومفكر إسرائيلي قال: نحن كلب حراسة للغرب. هذا الدعم جعلهم يستلهمون من ميكافيلية هذه الدول في ممارساتها الاستعمارية (أقصد مبدأ الغاية تبرّر الوسيلة) ومن جذورها الصليبية المتوحّشة، فدخل هذا الميراث إلى الصهيونية لتجمع بين التوحّش الصهيوني والتوحّش الصليبي، لذلك أنا أودّ أن أجتهد وأطلق عليهم هذا المصطلح: «الصهيونازية».

- مصطلح يجمع بين شرّ خلق الله في التوحّش، أصلاً هناك أدلة دامغة على تعاون الحركة الصهيونية مع النازيين في الحرب العالمية الثانية على قتل اليهود في ألمانيا لدفعهم للهجرة إلى فلسطين. «تابع علاء»
« نضال من ناحيته، بسط وجهه رافعاً لحاجبيه مع هزة خفيفة أشعر بها الحاضرين أنه يريد أن يدلّو بدلوّه، في مثل هذه الإيماءات يستعد القدامى لنفحة روحية من نضحاته الجميلة، ويحاول الجدد «سليم وعلي وبراء» استكشاف عميق هذا الرجل الذي يبذو عليه قادمًا من زمن مختلف:

- تعلمون أخوتي أن القرآن قد فضّل طويلاً عن بني إسرائيل وكثيراً ما حاولنا معرفة ملامح هذه الشخصية لبني إسرائيل من خلال الوصف القرآني لهم، اليوم سأفاجئ الجميع بما وصلت إليه، بنو إسرائيل اليوم يختلفون عن بني إسرائيل زمان، اليوم باتوا أسوأ بكثير من السابقين، مثلاً في القرآن «أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم» اليوم كلهم ينقضون المواثيق والاتفاقات وليس فريق منهم، انظروا ماذا فعلوا باتفاقية أوسلو؟ «خردقوها ونخلوها من الآخر»، قصة البقرة بجولاتها التفاوضية بين موسى عليه السلام وقومه وهو الذي أنجاهم من فرعون وأراهم المعجزات ثم تمادوا عليه بطريقة وقحة، اليوم أبسط الأمور بحاجة إلى عشرات الجولات التفاوضية، وهكذا باختصار اليوم لم يعد في صدورهم أي أثر لدين أو بقايا حكمة نبوية تشدّب قليلاً من طبيعة خبثهم وأرواحهم الشريرة، باتوا كتلاً بشرية من الخبث المطلق والشرّ الأسود.

سليم بشغف وحب:

- حبذا سيدي الشيخ لو نعقد دورة في هذا الموضوع: «اليهود في القرآن الكريم» .

- إن شاء الله بعد أن تضع الحرب أوزارها.



(٦) وكالة صقر الإعلامية

« هتف علاء: »

وكالة صقر معكم يا شباب، أخبار دسمة من الآخر. شتان بين محطة الجزيرة على الأف أم والمحطات الإسرائيلية، الأخبار التي نسمعها من المحطات الاسرائيلية مزيفة وكاذبة، كلها خاضعة لرقابة الأمن الإسرائيلي، لا يسمحون بما يضعف من معنوياتهم ومعنويات جيشهم، رغم أنوفهم تصل الأخبار عبر وكالة صقر.

« ردّ نائل مازحاً: »

- تقول عن هالوكالة وكالة رويتر والا الإسيوشيتيدبرس؟

- فشروا، طيب اسمع هالأخبار الصباحية، لا تجدها إلا في صقر للإعلام ومن مراسليها المنتشرين في كل مكان.

- آه صحيح، منتشرون في الزنازين وسجون اللئام.

« قطع نقاشهم عبد الناصر: »

- يا نائل دعنا نسمع الأخبار، ثم تكملون نقاشكم على راحتكم.

- فقط من أجلك وأجل الأجاويد، أخبارنا دسمة، المقاومة تدمر عدة دبابات من نوع «مركبة» وجرافة «دي ناين» وناقلة جند من مسافة صفر في محور الاشتباك شمال غزة، قناصة المقاومة تقنص ثلاثة جنود، تقرير إسرائيلي لهيئة البث التلفزيوني تقول إن الجيش الإسرائيلي يغرق في رمال غزة، وأن جنوده صاروا كالبط أهدافاً للصيد، المقاومة تنشر صوراً لتدمير الدبابات بقذيفة الياسين ٥٠١ وهي نسخة مطورة عن قذيفة الآر بي جي. المقاومة تقول إن هذه بداية والقادم أعظم. والزعامة الإسرائيلية تصرّ على تحقيق أهدافها: تدمير المقاومة الفلسطينية، وإنقاذ أسراه من غزة.

- لا يدرون من أين ولا كيف يخرج لهم المقاوم، فجأة تنشق الأرض فتخرج فوهة القذيفة ثم يظهر حاملها، يصوب على الدبابة ويضرب مع صيحة الله أكبر، ثم تظهر صورة الدبابة وهي تحترق. تواصل سلاح الجو الإسرائيلي مع زوارق البحر ودبابته المتوغلة في القطاع قصف الأحياء السكنية ويتواصل ارتفاع عداد الشهداء الذي بلغ الثمانية آلاف وقرابة العشرين الألف جريح معظمهم من النساء والأطفال.

- تراجع مؤيدي السردية الإسرائيلية الملفقة من يوم السابع من تشرين بشكل كبير، مظاهرات كثيرة في عواصم عربية وأوروبية مؤيدة للقضية الفلسطينية تنتشر انتشار النار في الهشيم.



- معكم وكالة صقر العالمية للأخبار.

« علق نائل مباشرة: »

- وصارت عالمية وهي لم تتجاوز البرش، قول البرشية خَلينا نصدّق.

- أخبار عظيمة لكن لم تذكر ما يجري على صعيد المشهد السياسي الإسرائيلي.

« هتف عبد الناصر: »

« ردّ علاء: »

- هذا عليك سيدي فأنت خبير السياسة الإسرائيلية، استلم المحطة ونقل كما يحلو لك على موجات البثّ الإسرائيلية كي تلخّص لنا معطياتها.

« همس سليم بوجل: »

- كذلك نشرتك لم تتطرق إلى تفاعلات منصات التواصل الاجتماعي: الفيس بوك والتويتر والانستغرام والتلغرام والتيك توك والوتس أب و....

« تساءل علاء: »

- ما هذه الأسماء، الأسماء التي تلوتها، وكالات إعلامية جديدة لم نسمع بها؟

- أكيد أنت تفكرها واقفة على وكالة صقر البرشية. « علق نائل »

- أرجوك لا تستهن بوكالة صقر، ستري عندما تنتسّم عبير الحرية مستقبل هذه الوكالة العظيمة. ستصبح بإذن الله أقوى من هذه الأسماء التي عدّها سليم. ماذا تعني هذه: تيك تاك، وفيس باك، والتلغرام شكلها هذه متخصصة في الغراميات.

« سليم والجدد من المعتقلين يتبسمون.... »

فض الاشتباك عبد الناصر:

- ما رأيكم دام فضلكم أن نسمع فكرة من سليم عن هذه الأسماء، أنتم لكم قرن في السجون ما أدراكم بها؟

صمت سليم قليلاً مع ابتسامة خفيفة مشفقة ثم انطلق:

- هذه ساداتي تحتاج إلى دورة لكن باختصار، أكيد سمعتم عن شبكة الإنترنت.

« أجاب عبد الناصر: »



الغرفة الزهراء

- هذه نعرفها جيداً، سمعنا عنها كثيراً، أنا لي بريد الكتروني، كنت أوصل من خلاله الأبحاث التي تقوم بها في السجن عبر النت الذي كان موجوداً على الخليوي المهرب قبل هذه الحرب.

- حسناً على شبكة النت وفي هذا الفضاء الالكتروني الذي شكل نهضة عالمية في ميدان الاتصالات والتواصل بين الناس ظهرت هناك منصات للتواصل كل منها تمتاز بصفات معينة تستهوي جمهوراً معيناً يتفاعلون معها ويتواصلون فيما بينهم من خلال هذه المنصة. يتبادلون الأفكار والصور ومقاطع الأفلام والأخبار والنكات والنهفات والآراء السياسة والاجتماعية وكل شيء.

« سأل نضال : »

- رغم أنني لم أفهم تماماً .. حابب أسأل: ماذا أنتجت في حياة الناس؟ أفادت أم أضرت؟

- حسب استخدامها، أول ما ظهر التلفزيون في جيلكم، ممكن الناس سألت الأسئلة نفسها، ثم فرض نفسه في واقع الناس، حسب استخدامها، هناك ما هو مفيد وقد فتحت آفاقاً واسعة للتبادل المعرفي والانفتاح الفكري والتواصل السهل والسريع ما أتاح مساحة واسعة للتأثير، كل وشطارته، وهناك من يستغلونها لإشاعة الباطل والتأثير السلبي والدعاية لأغراض وأجندات مشبوهة.

« سأل نائل: »

- بم تمتاز الواحدة عن الأخرى، مثلاً منصة الفيس بوك بم تمتاز عن الأخريات الوتس أب مثلاً؟

- لكل ميزته، صعب الشرح إلا بالممارسة، الفيس لنشر التهاني والتبريكات والنشرات والتعليقات المختصرة، الوتس اب لتواصل المجموعات والملتقيات ذوات الاهتمامات المشتركة، التلغرام لتداول الأخبار والتعليقات السياسية وعمل قنوات خاصة ... الخ.

« لاحظ جميع من في الغرفة أن شاباً (نعيم) لا يتكلم أبداً حتى عندما يُسأل يلتزم الصمت، وكان من الواضح أن السجن وعذاباته القاسية التي مورست عليه قد شكّك له صدمة نفسية لم يحتملها، قسّمت وجهه جامدة لا تتأثر بشيء، بطيء الحركة بشكل ملفت كأنه تمثال لا يتحرك بذاته، استجابة مشاعره لا تتأثر بما يدور حوله، واضح أنه دخل حالة اكتئاب قاسية ولا يستطيع أو لا يريد الخروج منها، يجتهد الشباب أن يخفّفوا عنه كل بطريقته دون فائدة تذكر، كصخرة جامدة لا ترسل ولا تستقبل، البعض حاول أن يأخذ دور الطبيب النفسي والبعض دور الشيخ الروحاني، كل يجتهد من زاويته دون أن يلامس أحد جوهر مشكلته، هو باختصار يحتاج إلى طبيب نفسي وأنى هذا الطبيب في هذه السجون؟ سحبوا العلاج والدواء في الأمور العضوية الواضحة، فما بالنا في معالجة الأمراض النفسية؟

منذ بداية هذه الحرب ألفوا شيئاً اسمه علاج أو طبيب أو دواء، حتى أصحاب الأمراض المزمنة وأدوية الضغط والسكري توقفت، اعتبرها وزير ما يسمّى وزارة الأمن القومي «ابن غفير» لا غفر الله له رفاهية، الأدوية شكل من أشكال الرفاهية، فقطع عنهم كل ما كان يقدم من علاج رغم سؤته ورغم ما كان يوصف



الغرفة الزهراء

بالإهمال الطبّي الذي راح ضحيته عشرات الشهداء، إلا أنه بعد هذه الحرب حتى الإهمال الطبّي لم يعد الأسرى ليحظوا به، الأكمول الذي كانوا يتندّرون به وأنه علاج لكل الأمراض حرموهم منه وأصبح أمنية يتمناها المعتقل الموحجوع.

هذا الشاب الموحجوع نفسياً ليس له إلا الله، وأوصى علاء ونائل والقدامى (من خلال خبراتهم في حالات مماثلة مرّت عليهم) بعضهم أن يبقوا منتبهين كي لا تصل به حالته النفسية لمحاولة الانتحار لشدة حالة الاكتئاب التي بات فيها. كان كغريق تتلاطمه الأمواج وتسحبه إلى عمق البحر دون أن يملك أحد القدرة على إنقاذه.

عبد الناصر بعد جولة استمرّت لساعتين على محطات إسرائيلية من خلال محطة صقر الإعلامية، تهامس مع الكوادر القديمة في الغرفة الزهراء لبلورة تقدير موقف للوضع السياسي الإسرائيلي بعد مضي شهر على هذه الحرب المدمّرة، استمر النقاش لساعة على الأقل ثم تمّ تكليف عبد الناصر بصياغته وتجهيزه لإرساله للخارج، وكان ملخص ما كتبه عبد الناصر أن الحكومة الإسرائيلية ما زالت مجمعة على استمرار الحرب، هناك حراك جماهيري لإعطاء الأولوية لصفقة تبادل تفضي إلى تحرير أسراهم ولكنه لا يشكل ضغطاً كافياً ولا يؤدي بالضرورة إلى المطالبة بوقف الحرب، رئيس الحكومة تنتياهو تتملكه أهداف شخصية لأن بقاء حكومته مرتبط باستمرار الحرب، من بيده إسقاط الحكومة أحزاب يمينية عنصرية هي الأكثر تطرفاً، تهدّد بإسقاط الحكومة حالة عقد صفقة تفضي إلى إيقاف الحرب. هناك خلاف بين المستوى السياسي والعسكري ولكنه تكتيكي، ونتياهو قادر على احتوائه، خلاصة القول إن الأمور تسير باتجاه المزيد من التصعيد وأن السيطرة على الحلبة السياسية الإسرائيلية ما زالت بيد الأكثر تطرفاً وعنصرية ودموية، فليس بيننا وبينهم إلا المواجهة والميدان. سوى ذلك يعتبر مناورات من قبل نتياهو لا حتواء الشارع ومن يطالب بعقد صفقة تبادل.

تم إقرار تقدير الموقف، في اليوم التالي استلم الرسالة الشاويش آدم من نقطة اتصال متفق عليها عندما يدخل للغرفة للفحص اليومي لحمايات النوافذ الحديدية، لم يعد بالإمكان التواصل العلني بعد دخول معتقلين جدد غير موثوقين أمنياً، واستلم الشباب رسالة من الخارج من نقطة الاتصال ذاتها تطلب منهم أن يزودوهم برأيهم إذ تعتبر السجون دائرة من دوائر الشورى للحركة، هذا غير موضوع تقدير الموقف للمشهد السياسي الإسرائيلي. يشعرون بذلك أنهم جزء مهم من المعركة وأن السجون مهما ضاقت عليهم إلا أن لهم رئة يتنفّسون منها، وأن لهم دوراً مهماً يسطّرونه في هذه الملحمة التي سترويها الأجيال، وستكون تاريخاً ناصعاً يكتب بماء الذهب.

- كشفت المعركة عن ساقها وبرز للعالم أجمع أن غزّة ومحور المقاومة المساند يواجه أقوى كيان في المنطقة، مدعوماً دعماً مباشراً من قبل أقوى دولة في العالم «أمريكا» وكلّ دول أوروبا الاستعمارية: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا. « هتف علاء »

- لله دركم يا أنصار الله في اليمن وحزب الله في لبنان والحشد الشعبي في العراق، مساندة رائعة خذلت عن



الغرفة الزهراء

غزة كثيراً، الصحيح كنا نتوقع هذا من حزب الله لكن اليمن والعراق هذا الإسناد من حيث لا نحسب.

«رائد صرّح بعد صمت طويل:»

- حزب الله من المفروض دخل المعركة بكامل قوّته، هذا محسوب على محور المقاومة وهو شريك كامل، غير مقبول أبداً أن يساند بشيء يسير من قوّته.

«ردّ نائل بالحدّة ذاتها:»

- حزب الله ليس على الريموت، هو أعلن في خطابه الأوّل أنه جبهة مساندة، وحسب تطورات المعركة يكون التصعيد.

«علق علاء:»

- أنا أرى أن ما يفعله حزب الله في الشمال جيّد، نزحت مستوطنات الشمال كلّها إلى الوسط، عطّل الحياة بكلّ أبعادها وسحب جزءاً كبيراً من المجهود الحربي من غزة إلى الشمال، وشكّل ضغطاً نفسياً كبيراً على المجتمع الإسرائيلي.

- هذا جيّد لو كان طرفاً عادياً ولكنه جزء من محور المقاومة، ووحدة المساحات التي كانوا ينادون بها، أم هي مجرد شعارات؟! «ردّ رائد بنبرة حادّة»

«هتف عبد الناصر:»

- حسب تتبعي للمشهد السياسي الإسرائيلي، بالفعل شكّل حزب الله ضغطاً هائلاً على الإسرائيليين. قد يرى البعض أنه غير كافٍ لكن لا تنسوا أن المعركة ما زالت في بدايتها.

«تساءل سليم:»

- كنت أتخيّلها قد أوشكت على نهايتها.

«ردّ نائل مبتسماً:»

- أعتقد أن هذه الحرب ستكون من أطول وأصعب الحروب التي يخوضها الاحتلال، في البداية تلقّت ضربة يوم السابع من تشرين قاسية جداً على كل الصّعد: الاستخباراتية والعسكرية والسياسية والنفسية، هذه ضربتهم في مقتل، وأثبتت أن العقل الفلسطيني يمكنه أن يتغلب على العقل الإسرائيلي، ورفعت روح الحرية والانتصار عند الشعب الفلسطيني وأثبتت أن هزيمة هذا الجيش الذي يقال عنه أنه لا يُقهر ممكنة.

- لكنك لم تقل لماذا تتوقع أن تكون طويلة؟ «سأل سليم»



الغرفة الزهراء

- لأنها ستكون بين جيش نظامي ومقاومة تنتهج طريقة حرب العصابات، والمقاومة التي بدأت المعركة بهذا الإبداع العظيم، أكيد أنها مستعدة لما بعد ذلك ولكل السيناريوهات المتوقعة.

« سحب نضال نفساً عميقاً وأردف: »

- ولا تنسوا إخواني: (وإن الله مع المحسنين) وهذه المعية الربانية جاءت للذين جاهدوا: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين) فيها وعد من الله لعباده المجاهدين وتطمين لقلوبهم. (ولينصرن الله من ينصره)، أينما وجدت رجالاً ينصرون الله، فإن الله لا محالة ينصرهم.

« سأل سليم بلهفة: »

- اليوم موعدنا مع استراحة الأسبوع يا جماعة الخير؟

« تنحنح نضال وهتف: »

- أعددت لكم هذه القصة، جاهزون؟

- كلنا أذان صاغية.

- عنونها: «بطولات جرافة دي ناين»

« علق ناثل على العنوان: »

- جرافتهم اللعينة لها بطولات؟ «هات تنشوف»

D9 بطولات الجرافة

اعتلى جرافته العملاقة (D9)، هذه الجرافة أو الجرافة أو قل أم الجوارف، لا يقف أمامها شيء، تنخلع الأرض من تحتها بما حوت من صخور وشوارع مسفلتة وجدران ومنازل، إذا أتت قرية تبرت ما فيها وقلبت سافلها عاليها، هذا الفريق الهيدرولوجي الميكانيكي المدمر يأتمر بأمر هذا السائق الذي تفولنت روحه ومشاعره إلا بقية باقية تلوح في قلبه بين الحين والآخر. قصير مفلطح الوجه، ذو أنف مدبب ووجنتين صغيرتين، كل شيء فيه صغير لا يكاد يرى في غرفة القيادة، مولع بغروره الذي يجعله عظيماً في نفسه على أنه يحرك هذا الكائن الحديدي العملاق.

كانت مهمة اليوم التي أوكلت له صباحاً أن يزيل مخيماً من «أكواخ بنيت من ألواح الزينكو»، أشد الناس فقراً في قطاع غزة هو هذا الجيب السكاني، مدقع الفقر والبؤس وشظف الحياة، رجاله يعملون في الحقول القريبة فيوفرون لقمة العيش بشق الأنفس، ينزفون عرقاً وتعباً وشقاء طيلة النهار، ثم يأوون إلى هذه التي تسمى بيوتاً لهم ليكملوا فيها دورة الليل، كثيرو الأطفال والعيال، لا يتطلعون إلا إلى مستقبل أفضل لأبنائهم مختلف عما مروا به من حياة على حافة الموت والفناء، هم لاجئون منذ سنة



ثمان وأربعين، هجرتهم من قراهم الأصلية عصابات صهيونية لتبني دولتهم العتيدة على أنقاض تلك القرى الفلسطينية.

«أنت أيها القائد السائق، اليوم بيدك مصائر هذه الحيوانات البشرية، أبناء هؤلاء هم من ارتكبوا الإرهاب في دولتك العظيمة، أبناء هؤلاء هم الذين تجرؤوا علينا في السابع من أكتوبر وقاموا بالمدبحة». هكذا قالت لنا زعامتنا، وهذا ما عهدناهم عليه منذ نشأتنا، جيناتهم الوراثية جينات مزروع فيها كل أوساخ البهائم المقتية، ليسوا بشراً في أي حال من الأحوال، فلو كذبت علينا زعامتنا، فهذا هو دأب الزعامة السياسية، عادة ما يكذبون، ولكن أصول هؤلاء الفلسطينيين مدفون في أعماقها الشر كلّه والخبث كلّه، لذلك أرح ضميرك ولا تجعل له صوتاً يُزعجك، حتى لو سمعت صوتاً فلا تنزعج، أنت تقوم بمهمة إنسانية لا مثيل لها في البشرية كافة، أنت تريح البشرية من هذه الحشرات السامة والأفاعي الضارة، ساو هذه البيوت الآيلة للسقوط بالأرض، تصالح مع ضميرك ولا تمنع النظر كثيراً، فهؤلاء لا يستحقون منك النظر.»

انقضّ على المخيم الصفيحيّ المتهاوي انقضاض الضبع على فريسته دون أي سابق إنذار، كان الصباح مبكراً فهبّ الناس فرعين من نومهم على وقع هذا الصوت المدهام المزجر، فرّ من فرّ وداهمه السحق تحت الركاب وجنزير الجرافة من لم يستطع النفاذ بريشه، وضع السائق الهمام سماعة في أذنه وفتح على الليوتوب ليعيد مشاهدة مؤتمر إعادة الاستيطان في غزة بقيادة زعامة حزب ما يسمّى «عظمة إسرائيل» انتشى عالياً وهو يرى ويسمع صوت الرقص الصاخب والتهافتات العظيمة التي تنذر العرب بالموت، وشعارات من خطبوا في ذاك المهرجان: ألقوهم في البحر، أعيّدوا الاستيطان إلى غزة، أقيموا المنتزعات على رمال غزة الصفراء.. ولع سيجارته، نفض دخانها من فوق أنفه عالياً، تخيل البيوت التي تتهاوى أمامه جيشاً ينتصر عليه ويلحق به شرّ هزيمة ويحقّق بذلك أعظم الانتصارات، هو الآن ينتصر، يعلو عالياً، شعر بأن الجرافة تتحوّل إلى طائرة اف ستة عشر، يخلق بها عالياً فيلقي صواريخه المدمرة، ويتساءل: لم يتعبون أنفسهم بمثل هذه الجرافات، الطائرات تدمر بشكل أسرع وتنتهي المهمة بشكل أفضل..

وصل نهاية الخط الذي داسه بنشوة سادية عارمة وهو يُمنّي نفسه بإرسال قصة بطولته الباسلة وهو ينتقم من هذا المخيم المصفّح بالبلاستيك والكرتون، إلى محبوبته ثم هي تقوم بتوزيعها على جروبات اللوتس أب والتكتوك والانسغرام وبقية أخواتها الفاضحات والناشرات لأعظم البطولات، وكان لا بدّ من صورة «سيلفي» وهو يعتلي مدمرته العظيمة وخلفه الدمار الهائل الذي صنعه بيديه الصغيرتين الجميلتين. لدى محبوبته لأن ألبوم من صور السيلفي التي قام حبيبها بتصويرها، وكان ختام كل عملية تدميرية يتفّن فيها في الخراب وسحق المنازل الجميلة والأحياء البديعة فيرسل صورتين، صورة قبل ما تفعل جرافته فعلها، وصورة بعد أن تظهر تجلياتها الفظيعة، فتذر المكان قاعاً صفصفاً، يشارك محبوبته في متعته السادية ويشربون معاً نخب إنجازاته العظيمة.

لم يكن بحسابه أن مجاهداً فلسطينياً ينتظره براجمة الياسين ١٠٥ المدمرة نهاية الطريق وقبل أن يستدير ليفتح طريقاً ثانية على ركاب البيوت الصفيحية المحطمة، وقبل أن يلتقط الصورة التي يُمنّي بها



الغرفة الزهراء

نفسه، سبقه فريق التصوير للمقاومة الفلسطينية الباسلة، ضرب المجاهد لتصيب القذيفة غرفة القيادة فتحيلها من حديد إلى لهب، وكانت الصورة التي وصلت الإعلام وكل الآفاق وبكل تأكيد وصلت الحبيبة ولكنها دون محبوبها، حيث صار ناراً ذات لهب.

« هتف علاء: »

- نهاية عظيمة إخالها نهاية الاحتلال.

- وكأن الجرافة رمز الاحتلال.

- يا لها من قصة!

- «فشيت غلنا.»

« ردّ كالعادة بتواضع وحمرة تكسو الوجه البرونزي الجميل: »

- أخلجتم تواضعي، بارك الله فيكم.

.....

كذلك نائل يحلو له أن يستظلّ ظلال شجرة وارفة الظلال من هجير صحارى هذه السجون القاحلة، ينيخ بحمله الثقيل ويترك لقلبه يسترق الحب ويمدّ وصال العشق مع محبوبته، هي سلام التي تزوّجها فترة استراحة المجاهد ما بين الحبستين بعد قصة غرام في نهاية حبسته المديدة، أصبحت ذكريات هذا الحب برداً وسلاماً على قلبه، منه وإليه وفي أعماقه يبحر:

- أرايت يا سلام لو كتب الله لنا اللقاء من جديد؟

- حتماً سنلتقي بإذن الله وسنعيدها سيرتها الأولى. « بوجه مشعشع »

- حينا لا تخبو شعلته.

- بل يتجدد ويتعاضم يوماً بعد يوم.

- مثل كرة الثلج المتدرجة.

- كرة ثلج؟ ولكنها ملتهبة.

- أعلمك أنّه قد اشتدّ سوق ما زرعنا في فناء بيتنا، لوزيات وحمضيات وشجرة الليمون ذاتها، كلّه أينع من ماء حينا وسقيته من رحيق عشقنا، ستجد حديقة غناء قد أنبتت من كل زوج بهيج.

- حدثيني عنها شجرة شجرة.



الغرفة الزهراء

«ويستمر الحوار الافتراضي، يسرح فيه نائل ويمرح، أعجبته فكرة مواقع التواصل الافتراضية التي يتحدثون عنها، وقال في نفسه: لم لا أفعل مثلها مع معشوقتي سلام؟»

ومع قرب رحيل خريف الغضب هذا، كان الشتاء يرسل رسائله الباردة وينذر بشتاء عاصف، وكان البرد ينخر العظم خاصة مع حالة التجويع المريعة التي صبّوها في أجساد الأسرى بطريقة أرخت بثقلها بشكل كبير، ومن بداية الحرب غاب السكر وكل ما فيه حلاوة قد تحدث دفناً في هذه الأجساد الخاوية، السكر والملح أيضاً أصبحا حلمين في حياة المعتقلين، فلا أغطية تقي برداً ولا طعام فيه شيء من الدفء، ولا قدرة على الحركة لضيق المكان الذي اكتظ سكانه، وبالطبع فالساحة ممنوعة ولا مجال لأية حركة تبدد برداً، ما عليك إلا أن تعضّ على صبرك بالنواجذ، تتصبر ولا تظهر شكوى أو أنيناً، فهذا لا يتناسب مع رجولتك أو تاريخك الاعتقالي المكلّل برباطة الجأش وقوة العزائم ورفعته المهمم.

العقل الإسرائيلي الذي هزمه العقل الفلسطيني يوم السابع من تشرين الآن يتفنّن في تعذيب الفلسطيني بطريقة سادية في غزّة من خلال القصف بصواريخ تزن ألفي رطل، تقتل الأطفال والنساء والمدنيين، وفي السجون أن تذهب بكل أشكال العذاب حتى النهاية، التجويع إلى آخر ما يفعل في هذه الأجساد، البرد إلى أبعد حدوده، الإهانة والتنكيل إلى أسوأ أوضاعه، الإهمال الطبي إلى حافة الموت، فترة سوداء لم تشهدا السجون من قبل.

هتف علاء همساً مترنماً وكأنه يعزف على أوتار قلوبهم:

- وكالة صقر العالمية ترحب بكم.

«نائل له بالمرصاد»

- «وكالة صقر الصومالية، بالله عليك قديش كيلو الأخبار عندك؟»

- أترك للجمهور الكريم بعد سماع نشرة الأخبار أن يحدّدوا الأسعار.

«أما الخبر الأوّل: كتائب القسام تنشر فيديو تدمير ثلاث دبابات من نوع «ميركافا» وناقلة جند وجرافة دي ناين وقنص جنديين خلال الأربع وعشرين الماضية، بالصوت والصورة يا شباب. وسرايا القدس تدكّ تجمعات الدبابات المتوغلة شرق بيت حانون بقذائف الهاون»

- وما لا يتمّ تصويره أضعاف مضاعفة على رأي المحلّل العسكري فايز الدويري.

- «فكرك أنهم سيرجعون لنا التلفزيون، هذه مشاهد غزّة لازم نشوفها.» «سأل سليم:»

- لا أعتقد لها الرجوع إلا بعد الحرب وبعد إضراب مفتوح عن الطعام حينما تحين الفرصة.

«ردّ نائل»



الغرفة الزهراء

« استأنف علاء نشره الأخبار: »

- دعوات كثيرة عالمية تدعو لوقف الحرب، أمريكا مع استئناف الحرب لكن مع إعطاء أولوية لإطلاق سراح الأسرى لدى المقاومة، المقاومة تصرّ على وقف الحرب والانسحاب من غزة قبل عقد صفقة تبادل بين أسراهم وأسرانا، سلطات الاحتلال ما زالت تصرّ على استمرار العدوان وتجعل من تحرير الرهائن هدفاً لها تدعي على لسان زعيمها نتنياهو بأن استمرار الضغط العسكري على المقاومة سيُفضي حتماً إلى عودة الأسرى وتحرير الرهائن. يدعي أنه مع تحرير الأسرى بينما أنيابه ناشبة في غزة ويدعي أنه يعمل كل ما بوسعه لتحريرهم.

هذا الخبر هو الأكثر تحليلاً وتعليقاً، تتعلّق القلوب من أعماقها عند ذكر أسرى أو صفقة تبادل، تجيش الحرية في الصدور كنسائم صيفية تبرّد من لهيب القلب وأشواقه للحرية والانعقاد من هذا الكرب الذي يبدو أن لا نهاية له، أمل بالله يهدد قلوبهم بأن يسوق أسبابه للحظة الولادة من رحم هذه السجون:

علاء تجده ساهم بصمت طويل يختبئ تحته صخب بيت من زوجة وابنتين رزق بهما ما بين حبسة طويلة تحرّر بها من صفقة تبادل «وفاء الأحرار» قبل اثنتي عشرة سنة، قضى في بيته ثلاث سنوات ثم عاد إلى عرينه هنا ليكمل الأربعين سنة في السجون، في رحلته الصامتة التي تستغرق نصف نهار أحياناً دون أن يكلم أحداً أو يسمح لأحد بأن يقطع خلوته مع بنتيه وزوجته، يرسم في خياله حواراً دافئاً مع كل منهما، ويفترض فارق العمر بين اللحظة التي سجن فيها واليوم بعد قرابة عقد من الزمن، ويقض مضجعه كيف سيستأنف الحياة معهما من جديد، يخشى أن يروه قد عاد إليهما مُسنّاً قد فقد نضارة الشباب والحيوية والقدرة على إسعادهنّ دون أن يشعر بثقله القادم من وراء البحار.

نائيل مثل علاء تقريباً، أطلق سراحه بعد اثنتين وثلاثين سنة ثم تزوّج في ما بين الحبستين قبل أن يعاد اعتقاله، إلا أنه لم يرزق ما يؤنسه من الأطفال لا ولد ولا بنت، كان يأمل ذلك وهو منذ أعيد اعتقاله دون سبب، يأمل ألا تطول حبسته فيعود ليستأنف الحياة من جديد، إلا أن هذه الحبسة الثانية طالت وبلغت اثنتي عشرة سنة، الأسير رابعه في السجن وثلاثة أرباعه خارجه، ما يأخذ من شعوره وتفكيره لحياته بعيداً عن هذه السجون أكثر بكثير من المساحة التي يحتلها السجن، الجسد هنا والروح هناك، زوجته أو قل معشوقته وشريكة روحه دوماً يجد يدها في يده، وقلبه يعانق قلبها، لا يتخيّل نفسه دونها، تغدو مشاعره وتروح وهو يراها بجواره، أقرب إليه من نفسه، أو هما نفسان في نفس واحدة.

نضال الشيخ دائم الذكر لربّه، تتغلّت روحه من رياض الذكر لتجد نفسها في رحاب العائلة، أم تنتظر



أن تكحل عينيها برؤيته قبل حُسن الختام، زوجة لا يتعد عنها ولا تبتعد عنه في شراكة روحية تتجاز جدران السجن وتحطم المسافات، وتلتئم العائلة بين بنتين وبنت، أمّا الاثنتان فرزق بهما في المسافة التي بين الحبستين، بينما الثالثة التي أرادها ولداً سندا لأختيه فكانت تقادير المولى بنتاً ثالثة جاءت بعد أن نجح في تحرير نطفة رغم أنف سجانها، زرعها وأنبثها نباتاً حسناً عن بُعد، فكانت إبداعاً خارقاً من إبداعات أسير يخترق جدرانهم بهذه الحياة الجميلة، صارت جنيناً وكسا الله العظم لحماً، ثم ولدت من رحم المعاناة لتضيف إلى قلبه حياة مؤنسة جميلة، يسهر معهما وهو بمخيلته الأدبي يرتب حواراً ولعباً وضحكاً، يرويه صامتاً ولا يدرون ما وراء الأكمة، وما تحت سكون البحر من أمواج وحياة دافقة دافئة.

عبد الناصر سُجن شاباً أعزب وما زال، قضت عنه صفقة وفاء الأحرار وتجاوزته، أصروا على استثنائه لوعورة ملغّه وما حمل من جهاد أوقع في صفوفهم كثيراً، تجاوز الثلاثين عاماً في الأسر، نجح في تثقيف نفسه ثقافة واسعة وعالية ومتخصصة، سبر غور المعرفة بالشؤون الإسرائيلية وصار خبيراً بها، تفقه في الدين والفكر المعاصر، حقق نجاحات كثيرة في مجال التأليف والعمل الثقافى وزود الخارج بكتب مميزة، يحلم بأن يكون له بيت وزوجة وأبناء، يشعر من أعماقه بنقص كبير في طلاقة روحه بحياة اجتماعية، ليس سهلاً على المرء أن يصادر منه مجموعة أشياء عظيمة تقف على رأسها حريته، ولسنوات تتجاوز الثلاثين، ماذا بقي في قاع نفسه من أشياء بعد ذلك؟ يحاول أن يعوّض بإطلاق العنان للمكات عقله ولكن النقص كبير، مهما ارتفعت ورفعت سقفك ستبقى سماء بلا شمس، أو كبيت تنقصه الكهرباء أو الماء، وكلما تقدّم به العمر شعر أكثر بظلماً روحه، وزاد الحرمان من ثقله على قلبه، يا للحرية ما أعظمك وأجملك ويا لتعاسة الحياة دونك!

رائد كذلك تجاوز الربع قرن في السجن، وما يزال يرقب شبابه الذي يهرب منه، يمسك بتلابيبه بقوة ولكنه يتسرّب ويراه شاخصاً كلما نظر في المرأة ورأى شيب السجن يغزو رأسه، يقرأ كثيراً ويعبد الله كثيراً، ومع ذلك فإن مراقبة العمر وهو يدوي في السجن يجعله يتألم كثيراً، أخوته وأخواته كلهم تزوجوا وأنجبوا وتسير حياتهم إلى الأمام، بينما هو يشعر بأنه يقف مكانه كشجرة معمرة لم تتزحزح من مكانها منذ زمن طويل، ولا جديد عليها إلا ما تحاول جاهدة الوقوف في وجه العواصف العاتية وما تأتي به من ثمر أغلبه استثمار له في الآخرة التي هي خير وأبقى، ولولا هذا لكانت الحبسة أشد وأنكى.

سليم ونعيم المعتقلان الجديدان، سليم صاحب حبسة قديمة قصيرة وهذه التي أتوا به إليها منذ بداية هذه الحرب، يقارن بين الحبستين ويحاول استيعاب هذا التوحّش قدر المستطاع، خريج هندسة معمارية كما قلت عنه من قبل، متقد الفكره وحيوي الروح.



الغرفة الزهراء

نعيم مصدوم لا يرسل ولا يستقبل، بطيخة مسكرة كما وصفه نائل، غارق في حالة اكتئاب، كل محاولات إخراجه منها باءت بالإخفاق، محاولات تفتقد الخبرة وتفتقد العلاج الطبي وبالتالي مرشحة أن تراوح مكانها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

نعقت مكبرات الصوت بالصوت الأرعن لهذا المدير المأفون «اخيفس»:

- علاء الصقر مطلوب لإدارة السجن.

« رفع علاء جذعه وغير جلسته باتجاه باب الغرفة وهتف:»

- خير يا طير، تلفزيون ثانٍ؟ ماذا يريد هذا الأهل؟

- يمكن أن يكون نقلاً إلى سجن آخر أو قسم ثانٍ؟ « هتف نائل:»

- الله يستر.

- في حفظ الله.

كبلت شرطية يديه كالعادة قبل الخروج من الغرفة، وكبلت قدميه بعد أن فتح الباب ثم زعقت:

- تحرك.

« وساقته بعنف ودفع ودفش وعلاء يعجب في نفسه: « كيف تفعل امرأة مثل هذا العنف وتتعامل بهذه القسوة، كذئبة مفترسة أو كتلة من العنصرية الحاقدة التي لا ترانا بشراً، لماذا يشغلون المرأة في هذه المواقع الخسنة، السجون؟ تتدرّب الواحدة على أن تتجرأ على الفلسطينيين وترفع من منسوب الشجاعة في روعها، وفي ذات الوقت مزيد من الإهانة والاستخفاف: امرأة إسرائيلية تنكل بك»

وقرر علاء: إذا كان الأمر كالمرة السابقة بحيث يريدونه لمقابلة تلافزية ألا يقبل ذلك أبداً، شعر بهواء عليل يلاطف وجنتيه، هواء نقي لم تلوّثه قضبان السجن ولا هبو الغرف ولهيب الأنفاس التي تسكنها، شعر بعظمة الحرية، مجرد أن تكون خارج زنزانة السجن تشعر بالتغيير النفسي وطلاقة الروح، فكيف بمن يخرج كلية من السجن وينعتق منه ومن كل أدرانته السوداء؟ وكيف بمن لا احتلال في حياته ولا ظلم ولا استبداد؟ تعسا لحياة تكون فيها الحرية منقوصة.

أدخلوه غرفة المدير، شعر علاء بذلك عندما نطق المدعو اخيفس بصوته النكرة رغم أنه يحاول أن يكون في صوته شيء من الدفء إلا أنها كانت محاولة فاشلة:



الغرفة الزهراء

- أهلاً وسهلاً سيّد علاء، أيّها الأسير الفلسطيني البطل. « بسخرية واضحة »
- أهلاً.

- إنت متابع للأخبار في غزة؟

- أنى ذلك؟ يعني ممكن القليل ممّا يتسرّب.

« قتل جسده على الكرسي ودار نصف دائرة، رسم ابتسامة صفراء:

- طحناكم، طائرات سلاح الجوّ تقصف قصف سجّادي، عارف شو يعني سجّادي؟

- وهل ترى في ذلك انتصاراً؟

- إنّها الطريقة الوحيدة للضغط على المخربّين كي يطلقوا سراح أسرانا.

- بقتل المدنيين، أطفالاً ونساء؟

- السبيل الوحيدة للضغط على المخربّين.

- لو أن المجاهدين فعلوا ذلك؟ قتلوا من نسائكم وأطفالكم من أجل الضغط عليكم لإطلاق سراحنا، هل هذا منطوق صحيح؟

- ألم تقتلوا نساء وأطفالاً في السابع من أكتوبر؟

- تعلم أن ذلك لم يثبت، وما راح من ضحايا ثبت أنه بفضل قصفكم العنيف من طائرات الهباتشي ومدفعية الدبابات.

- اسمع أيها الأعمى، كأنك أعطيت قدرات عينيك في لسانك، لن أقدر عليك ولكن ألا ترى أن ما فعلتموه في ذاك اليوم الأسود هو الذي جرّ عليكم كل هذا الدمار؟

- تاريخ الصراع لا يبدأ من ذلك اليوم، ماذا فعلتم كسلطة احتلال في غزّة قبل ذلك؟ ستة عشر عاماً من الحصار المطبق، لا ميناء ولا مطار ولا دخول ولا عبور إلا من خلال إجراءاتكم الاحتلالية القاسية لحركة الناس أو حركة التجارة، شنتم أربعة حروب قبل هذه من ٢٠٠٥ ولغاية ٢٠٢٣، نرجع لأصل الحكاية؟ سكّان قطاع غزّة أغلبهم لاجئون، من أين أتوا ومن الذي هجرهم من ديارهم إلى قطاع غزّة؟ هل سمعت بنكبة فلسطين سنة ١٩٤٨؟ أنت قبل أن تعمل في سلك الشرطة الإسرائيلية وتنتمي إلى هذه العصابة التي تسمّى نفسها دولة كنت فلسطينياً، ووقع عليك ظلم الاحتلال، الطائفة الدرزية من مكونات الشعب الفلسطيني الأصلية، لكن منهم من بقي محافظاً على وطنيته الفلسطينية ورفض التعامل مع الاحتلال، ومنهم من انسلك من جلده وأصبح عميلاً للاحتلال، صار جندياً أو شرطياً أو سجاناً، نسي قضيته وصار مع المحتل. وها أنت تتبنّى سرديّة الاحتلال وتناقشني في الحقّ الفلسطيني والظلم الذي وقع عليه من قبل



الغرفة الزهراء

الاحتلال الإسرائيلي.

« قُطِبَ جبينه وظهرت علامات الغضب كأنها قطع الليل المظلم في وجهه وجعر من جحيم صدره: »

- إنت واحد وقح، سافل منحط، سمحت لنفسي أن آخذ وأعطي معك، أحببت أن أعرف ما يجول في رؤوسكم من أوهام وقاذورات، إنت واحد إرهابي مخرب، حماس قامت بمذبحة قتلت فيها النساء والأطفال ولا ترون ذلك أبداً، ما زلتُم تلوكون نفس الحكي الفاضي دون كلل أو ملل.

« لا أدري لماذا أراد علاء أن يصبّ الزيت على ناره أو لأنه موقن بأنه لن يخرج منها دون أن يناله من شرهم، سواء حكى أم لم يحك، فهتف بهدوء:

- في مثل أكيد سمعت فيه: « اربط الجحش محل ما بدو صاحبه »

- ما فهمت شو قصدك؟

- قصدي واضح، ربطوك في المحل الذي يريدونه، أن تفعل فعلهم وأن تتبنى مقولتهم.

- وقح سافل منحط.

- من يطرق الباب يسمع الجواب.

« وأشار إلى الشرطة ليسحبوه من عنده ويريح عينيه من رؤيته »

طبعاً طريق العودة لم تكن كالطريق التي ذهب بها، شعر بأنها طويلة لكثرة ما نكلوا به، يدفعونه بقوة حتى إذا وقع أشبعوه ركلاً وبصقاً وشتماً.

اجتاحت علاء أفكار دفعت كل مشاعره وأبدت استعداداً تاماً للشهادة، تحرك في صدّهما سؤالان كبيران: على عادته في التحليل السياسي: ما هي الجدوى الآن؟ ومن المستفيد من هذا؟ هذا الموت الذي يبدو أنه دون مقابل؟ ثم بناتك ينتظرن لحظة اللقاء والعيش معك ولو لأشهر معدودة.

أياماً معدودة، يكفي هذا الغياب الطويل ثم تأتي لتعود إليهن نَعْشاً؟ ما علينا إلا الصبر مهما كلف هذا الصبر من ألم، ومع هذا سيكون لسانى سيفاً عليهم عند أية فرصة، لسانى يشنّ عليهم هجوماً نفسياً كاسحاً، ويمرّ في خلدّه هذا «الخنيفس» الذي أراد أن يتسلّى به أو بأوامر عليا أراد أن يجسّ نبضنا من خلاله، فكان النبض العالي له بالمرصاد.

تدور رحي الحرب على أشدها في غزّة، الدبابات تقصف وتدمّر، طائرات الاستطلاع في سماء غزّة بكل أنواعها لا تكفّ عن الزنين والطنين على مدار الأربع وعشرين ساعة، صدّعت الرؤوس وزرعت فيها توتراً دائماً لا يتوقّف لا ليلاً ولا نهاراً، لو لم يكن في هذه الحرب إلا هذه الزمجرة في سمائهم لكفت، ولكن كانت هذه أبسط الكربات، أمّا الكرب الأكبر فهو القصف الذي يدمّر البيوت على رؤوس ساكنيها، فجأة تجد



الغرفة الزهراء

عائلة ومن استضافتهم من النازحين قد أصبحوا تحت الركام ما بين شهيد وجريح، الدمار هائل وعداد المصابين يمضي مسرعاً، الله وكيلك كل شيء متوقف إلا هذا العداد.

تجسدت الكارثة وعادت نكبة ثمان وأربعين لتظهر من جديد أكثر توحشاً وإجراماً وفتكاً بالمدنيين من النساء والأطفال، إذ أدوات القتل تطوّرت كثيراً، يأتي القتل للناس من الجو عبر طائرات منوعة بطيار ودون طيار، ودبابات الميركافا الحديثة براجماتها العملاقة، وزوارق البحر التي تقصف بحممها على الأحياء المدنية بشكل عشوائي، واعترفت أمريكا بأنها زوّدتهم بقنابل تصل الألفي رطل، منها الذكي ومنها الغبي الذي لا يتحكمون بمكان سقوطه، فينزل بكل جبروته على أحياء سكنية لمخيمات لا جئين في الأصل ضعيفة البنيان، ولم تعد أبداً مثل هذه الحروب. عادوا بقوة دفع جديدة لدفع الناس للهجرة والتطهير العرقي للبلد من ساكنيه، بكل ما أوتوا من قوة وبطش شديد.

ومع كل هذا البطش وهذه الآلة الحربية المؤلفة من الكثير من الفرق والألوية التي داهمت غزة إلا أنه أيضاً كانت عمليات المقاومة النوعية تتصدر المشهد، انتشر مصطلح المسافة صفر، «وشبشب الزنوبا» إذ يتقدم الفدائي الفلسطيني الاستشهادي الذي يلبس شبشب الزنوبا، ليزرع عبوة ناسفة على سطح الدبابة مباشرة، من أين خرج وكيف وصل الدبابة، كانت لهم مملكة الأنفاق والتي أحكموا فيها السيطرة على باطن غزة، الجيش الإسرائيلي فوق الأرض وهم تحت الأرض، ويخرج أيضاً من يصوب ما عرف بقذائف الياسين ٥٠١، وهكذا يمكن تلخيص المشهد، الجيش الإسرائيلي بقضه وقضيضه يقتل ويدمر الحياة المدنية وكل مظاهر الحياة البشرية في غزة، والمقاومة تصطاد دباباته وجنوده باحترافية عالية، والذي كان يكيد العدو ويسرّ الصديق هو أن هذا يحدث بإمكانات بسيطة أغلبها محلي الصنع.

وانتشرت مشاهد عظيمة رغم بساطتها، فعندما يقفز الفدائي في الهواء بعد أن ينجح في رمي دبابة «الميركافا» بقذيفته الحارقة ويصيح «ولّعت» تتحوّل هذه الكلمة في مواقع التواصل الاجتماعي إلى «ترند» يبلغ الأفاق، وعندما يقول الفدائي بعد نجاحه في إصابة الدبابة: «حلل يا دويري» أيضاً تتناقلها شبكة الانترنت لتصل قلوب الملايين فتلقّفها بكل شغف وعشق، وتصل الدويري المحلل العسكري لقناة الجزيرة فتلهب مشاعره وتزيده حماساً وبهاء في تحليلاته التي كانت تشفي الصدور وتنعش قلب كل حرّ أحبّ المقاومة ونبض قلبه مع قلبها.

مع بداية الشهر الثالث للمعركة تحوّلت الغرفة الزهراء إلى غرفة عمليات: رصد وتحليل وتقدير موقف للمشهد الإسرائيلي، وليس هذا فحسب وإنما كذلك المشاركة في الرأي والمشورة، وكان لهم مع الشاويش آدم الذي نجحوا بتجنيدهم معهم دور آخر غير أنه رجل إيصال وتوصيل، نجحوا من خلاله في نقل الرسائل التي يريدون إيصالها إلى استخبارات السجن، فمثلاً بعد استشهاد الشاب «ثائر أبو عصب» نتيجة الضرب المبرح سرب الشباب من خلال الشاويش آدم: أن السجن على وشك الانفجار وهذا من شأنه أن يفجر انتفاضة جديدة في الضفة، ما دفعهم إلى التخفيف من حدة قمعهم والتراجع كثيراً عن الضرب إلى درجة تكسير العظام.



الغرفة الزهراء

كذلك سَرَبَ آدم للغرفة الزهراء أخبار أسرى غزّة والتي فاق التوحّش المصبوب عليهم أضعاف ما يجري على أسرى الضفّة، هناك المسلخ الدائم الذي لا يتوقّف فيه العنف بكل أشكاله، هناك من خضع لعمليات بتر لأطرافه من أثر القيود التي كانت تشدّ الوثاق على معاصم أيديهم وكواعب أرجلهم لفترات طويلة تصل إلى عدة أيام متواصلة ليل نهار، يعرّى من كلّ ملابسه ثم تشدّ مرابط الأيدي والأرجل في الأبراش «الأسيرة الحديدية» ويبقى مربوطاً على الوضعية نفسها لأيام طويلة مع البرد والتجوع والضرب المتواصل على يد فرق أقيمت خصيصاً لهذا القمع، معبأة بعنصرية سوداء وأحقاد مقبّية لا تعرف إلا لغة التعذيب والقهر. صاغت الغرفة الزهراء عدة بيانات صدرتها للإعلام في الخارج عن أسرى غزّة وما يتعرّضون له.

ممّا خفّف عن رجال الغرفة الزهراء من حدّة البلاء وما يتعرضون له هو شعورهم بأنهم مشاركون في معركة طوفان الأقصى، رغم وجودهم في عمق الجحيم الصهيونازي الذي يتعرّضون له.

كلّ محاولات إنطاق نعيم من قبل كوادر وعناصر الغرفة الزهراء باءت بالإخفاق الذريع، بقي صامتاً جامداً كأنه تمثال حجري أو صنم، يتحرّك فقط إذا اضطر لقضاء حاجته، طبعا لا يستحم ولا يأكل إلا بعد أن يتوسّل إليه الصغير والكبير، ولا يأكل إلا القليل من هذا القليل الذي يأتي لهم، نحل وذاب لحمه واقترب من ألا يبقى منه سوى هيكله العظمي، يقول نائل إن هذه حالة اكتئاب أو صدمة نفسية.

نضال يقول إن هذا الابتلاء الذي تعرّض له لم يكن قد استعدّ إلى مثله من قبل، ويصل إلى أن الشعب الذي يعاني من الاحتلال لا بد وأن تأخذ تربية أبنائه بإعدادة نفسياً لمصاعب الأمور، ويتحدّث عن التربية القرآنية التي اعتبرت هذه الحياة الدنيا أنها دار ابتلاء، وبهذا فإن القرآن يُعدّ المسلم نفسياً لتحمل أي ابتلاء يقع عليه ما دام في هذه الدنيا، ويستشهد بالآية الكريمة: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) والآية: (أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ويصل للآية التي تصف الابتلاء إلى درجة أن يزلزل المؤمن في طريقه للجنة: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا....)، كانت هذه الآيات مصدر إلهام مع مشاهد من السيرة النبوية للربط على القلوب وإنزال السكينة فيها أمام الأهوال التي يمرّون بها، كانت مبلسمات للجروح النفسية وآلامها، وكان أحيانا يهيم الشيخ من معين مشاعره العالية المفعمة بمحبّة الله ليصل إلى أن المحب لله يستقبل المهالك بوجه ضاحك، ويصل أحيانا أن للمؤمن درجات في محبة الله تبدأ بالصبر على البلاء ثم بالرضى ثم بالشكر، يشكر في السراء مفهومة أما أن يشكر على الضراء أيضاً فهذه درجة عالية توصل إلى تحويل المحنة إلى منحة وفرصة. نضال زاد على ذلك درجة وهي أن يتلقى المصيبة بصبر ورضى وشكر وحب، لأن الله يبتليه ليرفع درجته وأن الابتلاء على قدر المحبة؛ فمن زيد له في البلاء زيد له في المحبة، يوقفه علاء بقوله:

- حسبك شيخ نضال، لقد حلقت في سماء فوق سمائنا، لطفك بعباد ينتظرون الفرج والخلاص من هذه السجون.

الغرفة الزهراء

« يعترض نائل على اعتراض علاء: »

- إذا في ناس في حب الأوطان مستعدون للغالي والنفيس، فلماذا تستغرب ممن يقع في حب الله أو في الحبين معاً: الله والوطن.

« بيتسم نضال ويسرّ كثيراً لدفاع نائل عنه، ولكنّ عبد الناصر ينحاز إلى علاء: »

- لم نصل بعد إلى هذه الدرجات التي تأخذنا إليها شيخ نضال.

« فيرد نائل بحزم وعنفوان: »

- والله هؤلاء الذين يحاربون هذه القوّة العاتية بهذا الفارق الكبير في العدة والعتاد؛ لولا أنهم وصلوا إلى مثل هذه الدرجات في محبة الله لما استطاعوا. إنّه الفناء عن الذات في حب الله. وأضف إليه حب الوطن الذي ينسجم تماماً مع هذه المحبة، والله هو الحق والعدل وقضيتنا محقّة وعادلة.

نضال يتبسّم لهذا النقاش ثم يلقي بقنبلته:

- لقد صغت قصّة بالأمس من وحي الشاب الأمريكي الذي حرق نفسه تضامناً مع فلسطين واحتجاجاً على الإجرام الأمريكي.

- وماذا تنتظر، كلنا آذان واعية سيدي نضال. « هتف نائل »

- سميتها «الضدائي المشتعل» وهكموها:

الضدائي المشتعل؟

وجدوا على جهازه المحمول ملفاً يحمل عنوان: قصّتي مع فلسطين، قال فيها:

بدأت قصّتي مع فلسطين عندما زاملني شاب فلسطيني اسمه «علي» في سنتي الثالثة لدراستي الجامعية، كنت كأعمى أو كمن تلتفّ على عينيه عصابة سوداء سمكية، تمنع أيّ بصيص نور من أن يتسلّل إلى عقلي، أتبنى الرواية الإسرائيلية بكلّ تفاصيلها منذ كانوا يحلونّ ضيوفاً علينا أيام مدرستي في صفوفها الأولى، فيشحنوننا حقداً وكراهية على العرب، وحباً وعشقا لشعب إسرائيل الكرام ودولة إسرائيل واحة الديمقراطية الغربية في الشرق الأوسط شديد الظلام، أجمل وأرقى وأفضل تطبيق لقيم الغرب العظيمة لن تجدوها في العالم إلا في دولة إسرائيل.

نجح عليّ في رفع العصابة عن عينيّ، فتحها على مصراعيها وجعلها ترى المشهد بكلّ دقّة ووضوح، ويا لهول ما رأيت، ضد الصورة تماماً، رأيت العنصرية البغيضة والتطرّف المجنون، رأيت الجريمة بكلّ صورها البشعة، عصابة تحرّكهم السادية المفرطة ويسمونها دولة بل صوروها لنا بأنها الأرقى والأكثر



الغرفة الزهراء

تقدماً مادياً وإنسانياً وحضارياً، ببساطة جعلني أكتشف أنها احتلال، تحتل أرض شعب آخر وتسيطر عليه بقوة السلاح والنار، وهل هذا اكتشاف يحتاج إلى جهود جبارة أم هو كمن يكتشف العجلة؟ هذه وحدها كافية لينفض الناس عنها وليعرفوا حقيقتها المرة، ولا داعي لتعداد جرائمها وما نتج عن هذا الاحتلال من تهجير وتطهير عرقي وويلات لشعب سرقت أرضه ووطنه وجعلته على قارعة الطريق أو في مخيمات اللجوء والشتات.

تخرّجت والتحقّت بسلاح الطيران كمهندس تقني، ومنذ ذلك الحين اشتعلت معركة ضروس ميدانها قلبي الصغير، المستقبل الواعد المزهري الذي يفتح لي ذراعيه كعضو فريق هندسة الطيران في الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هذا الطيران لا يطير إلا فوق رؤوس المظلومين والمقهورين على وجه هذه الأرض ولا يجري على يديه إلا الكوارث والدمار والهلاك، وأنا وجدت نفسي أنظر بعينين ثاقبتين.

ولأكن صريحا أكثر، منذ أهدى إليّ صديقي الفلسطيني العزيز (علي) كتاب القضية الفلسطينية لإدوارد سعيد وأنا أرى المعادلة من طرفيها، هم كانوا يروننا طرف المعادلة التي تظهر مظلومية الشعب اليهودي على أيدي النازية الألمانية التي حرقتهم في أفرانها وعدّبتهم عذاباً شديداً، وكانوا بعرضهم الذكي والبارع يصلون إلى حصاد عظيم ولا يتيح للإنسان الأمريكي والغربي رؤية الطرف الثاني ومظلوميته.

عندما قرأت هذا الكتاب الذي دفعني لقراءة أغلب كتب هذا المفكر الكبير الذي جمع بين فلسطينيته وأمريكيتيه في شخص واحد واستطاع أن يدحض الرواية الصهيونية بكل دقة ومهارة فكرية عميقة لا ترقى لها أبداً الدعاية الصهيونية، فقد تعرفت من خلاله إلى طرف المعادلة الثانية وتساءلت: ما علاقة الظلم النازي الذي وقع عليهم بظلمهم للفلسطينيين؟ سؤال كبير وفي الصميم ولا يملكون الإجابة عنه أبداً، استدرارهم لدموعنا عليهم لا يبرّر لهم أن يبكي الفلسطيني دماً ممّا يفعلون بهم.

بعد أن قرأت هذا الكتاب وبعد أن أيقظ في روحي كل القيم الانسانية الجميلة وجعلني أنفض ما تراكم على قلبي من عبار دعائهم الملوثة للمشاعر الإنسانية النبيلة، أدمنت القراءة لإدوارد سعيد، قرأت له في السياسة: غزة أريحا: سلام أمريكي، وعجبت لهم كيف كانوا يرون فلسطين أرضاً بلا شعب، وكأنها أرض في صحراء لا يملكها أحد، معقول أرض ملتقى الحضارات ومهد الديانات هكذا كانت تنتظرهم فارغة لتلبّي أحلامهم الشاذة؟ وقرأت كتابيه «تغطية الإسلام» و«الثقافة الإمبريالية»، وددت لو يقرأها كل الأمريكيان، للأسف نحن شعب يساق بعاطفته وعلى وقع إمبراطورية إعلامية قائمة على الكذب وتسيطر عليها الحركة الصهيونية بشكل كبير.

وقرأت عن حادثة قتل الأمريكية المتحررة من إعلامهم الأسود، «راشيل كوري»، هذه البطلة التي تصدّت للجرافة الإسرائيلية حيث كانت تهدم بيوت الفلسطينيين في مدينة رفح عام ٢٠٠٢، كانت متطوعة في

الغرفة الزهراء

منظمة تضامن عالمية وكانت تقول إنها لم تعرف حجم المأساة الفلسطينية على حقيقتها إلا عندما زارت فلسطين ورأت ممارسات الاحتلال الإسرائيلي بأمّ عينها، بكلّ جرأة وشجاعة وقفت أمام الجرافة لتمنع هدم بيت فلسطيني، كانت تريد أن ترسل رسالة للعالم فوقفت أمام الجرافة العملاقة إلا أن سائقها داسها تحت جنزير جرافته وجعلها تعربد مرّتين فوق جسدها الغض الطري، وفوق كل القيم الإنسانيّة التي يجيدون التشدّد بها.

صارت حياتي كلّها غارقة في نقاشات حامية الوطيس حول القضية الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي، وحالة القهر التي يعاني منها الفلسطينيون، لم أترك مجالاً للنقاش إلا ودخلته بكلّ قوّة، شاركت في المظاهرات والمسيرات التي اندلعت مع هذه الحرب ووقفت سداً منيعاً في وجه الدعاية الصهيونية التي حاولت بكلّ جهدها شيطنة الفلسطينيين وبالذات المقاومة الفلسطينية.

كنت راضياً عن دوري في هذه الأنشطة العامّة، أفرغ ما في صدري من غضب وأسهم في رفع الصوت عالياً في وجه الدعم الأمريكي المطلق لهذه المذبحة في غزّة، مذبحه بأدوات القتل الأمريكية والتغطية السياسيّة الكاملة، وعندما أقول أدوات قتل أمريكية أدرك من خلال ما عندي من علم حجم هذه الأدوات، هناك صواريخ تزن طنّين من المتفجّرات تلقى على أحياء سكنيّة في غزّة، أدرك أنه بلغ ما ألقى من متفجّرات أمريكية ما يعادل خمس قنابل نووية، أدرك أن ما يقال في الإعلام أقلّ بكثير من حقيقة هذه المذابح المستمرّة منذ خمسة شهور على مدار الساعة بتواطؤ أمريكي كامل. لقد بلغت الجريمة مبلغاً يفوق تصوّر الشياطين وليس فقط تصوّر البشر.

أتذكر يا أرون أوّل نقاش مع الفلسطيني عليّ، صرخت يومها في وجهه:

- أنت إنسان مجنون أو معتوه، كيف تصف الدولة الديمقراطيّة الوحيدة في الشرق الأوسط بهذه الأوصاف؟

«رد مبتسماً هادئاً:»

- أعلم أنها دولة احتلال، تحتل أرضاً ليست لهم، وتسيطر على شعب هذه الأرض وتسومهم سوء العذاب.

- أنت مُعاد للساميّة، تقول أقوال هؤلاء العنصريين السفّاحين القتلّة الإرهابيين الحاقدين على اليهود، ضحايا الهولوكوست والنازيّة العنصرية المجرمة.

- قلت إنهم ضحايا النازيّة العنصرية، ومعروف أن النازيّة ألمان والهولوكوست حدث في ألمانيا، فما علاقة الفلسطينيين بهذا؟ لماذا جاءوا لينتقموا منّا نحن الفلسطينيون؟

- لا أدري، قد تكونون حلفاءهم، مثلاً.

«سألني بوجه نابض وابتسامة سحرتني بما فيها من روح وهدوء:»



الغرفة الزهراء

- أعندك استعداد أن تناقش بهدوء ونفس طويل حتى النهاية التي نرى فيها الحق والباطل واضحين وضوح الشمس منتصف النهار؟

- على شرط، أن تقرّ وتتنازل عن أية فكرة باطلة. أنا أعرفكم العرب تحبّون الجدل والإصرار على الباطل.
- أنا موافق. « وكانت هذه بداية لنقاشات طويلة وصلت بي لأن أعترف أنا وأعلن لكل أصدقائنا الحقيقة التي وصلت لها»

الآن لم أعد راضياً بعد بلوغ هذا الإجماع ما بلغ، ثم تعد مشاركتي في الاحتجاجات كافية أبداً، وكان مما عاظم من درجة استفزازي أنهم رشّحوني مع فريق تدريب للذهاب هناك وتدريب الطيارين الإسرائيليين على تقنيات ل: ال اف ٥٣ التي تختلف عن سابقتها ال: اف ٦١، يا للهول! يريدون منك أن تدرب القتلة على المزيد من القتل، هذا أمر صاعق، فجر كل المخزون الذي كان بداخلي يتراكم منذ عدة سنوات خلّت، منذ تعرّفت على عليّ ثم مروراً بتلميذتي في مدرسة إدوارد سعيد إلى هذه الأيام منذ السابع من أكتوبر وأنا أتابع أفلام الرعب التي يصنعها الصهاينة في «هولوكوست» غزّة، المشكلة أنني عرفت الحقيقة بكل أبعادها، هؤلاء ضحايا النازية يقومون بدور النازية في ذبح الشعب الفلسطيني في غزّة.

أنا أين موقعي من الإعراب؟ أشعر بأن إيماني في عدالة القضية الفلسطينية وما وقع عليها من ظلم يتعاظم في صدري بشكل كبير، لم تعد فكرة من كتاب أو جاءت عبر نقاش عابر، بل فكرة ترسّخت في أعماقي أنبتت إحساساً عميقاً سيطر على كياني كله، فكرة استحوذت على معنى وجودي في الحياة، أصبحت تشكل حاضري ومستقبلي، كيف أوصل للناس ما وصلت عليه وبشكل سريع، كيف أكتب رسالة يقرؤها أهل الأرض أجمعين؟

ولقد استفزّنتني أيضاً البطولة العظيمة التي يتفانّ في صناعتها أبطال المقاومة، يخرج أحدهم من النفق كما تخرج الأسود من عرينها، يتسلّل للدبابة التي أعرف قدراتها التحسّسية جداً، كيف يصل جسمها ويخترق رداراتها، يزرع العبوة في النقطة الأضعف في جسمها ثم ينطلق، تنفجر الدبابة التي تزيد كلفتها عن ستة مليون دولار، الفارق بين المقاتل الفلسطيني والإسرائيلي كما هو الفارق بين هذه الدبابة وتلك العبوة الصغيرة التي لا تكلف ثلاثمائة دولار. إنسان ينتفش غطرسة وعلواً في الأرض، يبسط باطله بالحديد والنار والقتل والدمار، وإنسان يقف في وجه هذا المارد الجبار بكل بسالة وتضحية وفداء.

أصبحت في هذا اليوم أمام مفترق طرق: إما أن أذهب لتدريب القتلة، أو أن أسلك طريقاً آخر، وأنا مطلع على القدرات التدميرية لهذه الطائرات ومدرك لحجم الجريمة بكل أبعادها. لن أذهب بهذا الطريق أبداً، هذا قرار لا رجعة عنه، أمّا الطريق الثاني فلا بد أن يتناسب طردياً مع حجم الجريمة، لا بد أن يكون إبداعياً واستثنائياً، موجعاً للباطل وأهله، منتصراً للدماء البريئة النازفة بلا توقّف، لم تنجح الإنسانية بكل أشكالها المتمظهرة بهيئة الأمم أو محكمة العدل العليا أو كل المؤسسات والدول والشعوب في وقف هذه الحرب المجنونة، ولم تلق هذه العصابة سمعها لأحد إلا لصوت شهوتها في المزيد من القتل.



أمريكا التي أنا مواطن من مواطنيها تقف بقضها وقضيضها وبكل دعمها وحديدها مع العصابة التي تسمى دولة إسرائيل، وتصّر إصراراً عجيباً على هذا الدعم غير أبهة بمشاهد القتل والدمار التي تحدثها آلتها على أيدي هذه العصابة. كيف وصلت إلى هذه الدرجة من المشاركة الكاملة في هذه المذبحة المريعة؟ كيف يسمحون لهم ويفضل دعمهم بإعادة إنتاج «الهولوكوست» من جديد؟

الدم يغلي في دمي والأفكار تموج كالبراكين المتفجرة، أصبحت أتابع الأخبار، وكلما سمعت عن مجزرة تزلزلت أركانني، نحل جسمي ولم أعد أطيق طعاماً ولا شرباً، عندما يكاد يقتلني الجوع وتضج أمعائي ضجيجاً عالياً ألقم فمي شيئاً مما تيسر من الأكل دون أن أجد له طعاماً.

فكرت بحمل كرتونة أطبع عليها (الحرية لفلسطين)، حملتها كثيراً وطففت فيها الشوارع من خلال المسيرات المتضامنة مع غزة، لا أبدأ هذه لم تعد تجدي نفعاً إلا قليلاً أو في حالة البدايات فتكون جيدة لتحرّض وتملأ الصدور تعبئة غاضبة على هذا المحتلّ اللعين. اليوم بعد عشرات المسيرات وبعد أن تعاضم الغضب في صدري ولم أعد أطيقه، أصبحت كبرميل بارود، فقط يحتاج إلى شرارة تصيب فتيله فينفجر انفجاراً هائلاً.

لا بدّ من رسالة مدوئية تصل كلّ الناس، وجاءت الفكرة، لا بدّ من التضحية وبأعلى ما أملك، عندئذ تننصر الفكرة وتصل الأفاق، سأحرق نفسي وعلى بوابة السفارة الإسرائيلية اللعينة، بهذا يلعنهم الناس، يلعنهم كلّ من له إرادة حرّة أو يملك شيئاً من المشاعر الإنسانيّة النبيلة، ولا بدّ من عمل رسالة قصيرة ليعرف الناس: لم قمّت بهذا الفعل، تسجيل فيديو وأنا ذاهب هناك. وعلى الرغم من أن اشتعالي وحده أعظم رسالة وفيها تبدو منظومة القيم الغربية الزائفة وهي تحترق أمام دعمها المطلق لمحرقّة غزة، إلا أنه لا بدّ من رسالة لذوي جلدة الرأس السمكية:

« هناك حرب إبادة جماعية يقوم بها جيش الاحتلال الإسرائيلي المجرم بحق الشعب الفلسطيني، أنا في سلاح الجو الأمريكي لن أشارك في حرب الإبادة هذه، سأقوم بعمل مريع ولكنه لا يساوي شيئاً مما تقوم به إسرائيل، سأحرق نفسي احتجاجاً على المحرقة التي تقوم بها إسرائيل في غزة»

إلى هنا انتهت قصة هذا الفدائي الأمريكي التي كتبها بيده على جهازه.

شاهد العالم كله على شاشات التلفاز أو عبر شاشاتهم الصغيرة رجلاً يتقدّم بخطى وثيقة، قال مقالته الأخيرة في القصة وكأنه يختم حياته بها، وصل السفارة الإسرائيلية، وقف أمامها في باحتها الخارجية، أكمل لباسه العسكري بلباس طاقية تعبّر عن هوية السلاح الذي ينتمي له وهو سلاح الطيران، أفرغ قنينة كانت بيده مادة مشتعلة، أشعل قداحته، أبت عليه في البداية وكأنها تشفق عليه، إلا أنها استجابت بعد تردد، انتشرت النار بسرعة من أسفل إلى أعلى وجعل يهتف بصوت عال حاسم حادّ مزلز: الحرية لفلسطين، الحرية لفلسطين. بقي واقفاً إلى أن تمكنت منه النيران فخرّ صريعاً، رأى الناس من أتى لنجده وفتح إطفائية عليه ليحاول إنقاذ ما تبقى من جسده، وفي ذات الوقت التي كانت الشهامة تشتعل



الغرفة الزهراء

في جسد هذا الإنسان الفدائي، كانت هناك ندالة تحاول الإحاطة به، رجل أمن السفارة الإسرائيلية يشهر مسدسه ويصوبه على هذا الجسد الذي يحترق تماماً كما تُشهر دولته أسلحتها الفتاكة على صدر الشعب الفلسطيني العاري.

علاء بانبهار:

- هذه القصة تصلح لفيلم سينمائي، لقد حطمت فيها رقماً قياسيًّا، «غزالتك كانت سارحة سيدي نضال».

- بالفعل هذا هو الأدب المقاوم، بورك قلمك شيخنا. «علق عبد الناصر.

«علاء من جانبه يهز رأسه ويقول:

- هذه أخي نضال أعطيك عليها تسعاً وتسعين من مائة.

.....

حالة نعيم استعصت على الجميع وأدركوا نهاية الكلام أنه يحتاج إلى الطب النفسي، وإلى حين توفره لا بد من هذه المحاولات التي تقوّى الدافع الذاتي على الصمود ومحاولة رفع القدرة على التحمل والوقوف في وجه العاصفة، وهم بالمناسبة أمام عاصفتين: ما يعتري غزّة في الخارج من عدوان لم يسبق له مثيل كمّاً ونوعاً واتساعاً في المكان والزمان. وجبهة السجون وما فيها من ويلات وحياة صارت جحيماً كما أراد عقل ابن غفير المجرم الحاقد.

دوى صوت نفيهم كنعيق الغربان، تدفقت على القسم قوّاتهم، طبعاُ البداية تكون مع الغرفة الزهراء، وكان «ابن غفير» وزير ما يسمّى الأمن القومي المعروف بالأكثر حقداً وتطرفاً وعنصرية من وزراء هذا الكيان، مع مدير السجن وضباط من مصلحة السجون وممثلي فرق التنكيل يرقبون الوضع من خلف زجاج «اليومان» غرفة الإدارة المشرفة على القسم، يبدو أن هذا المأفون جاء ليرى أثر سياسته كيف تبدو على أجساد الأسرى، تناوشوا أجساد الغرفة الزهراء واحداً واحداً، يهجم على الواحد أربعة من ذوي الأجسام الثقيلة والعضلات المتورّمة، يضعون القيد في اليدين من الخلف طبعاُ، ثم القدمين، ومن يقاومهم ينهالوا عليه بالعصي الحديدية.

اخيفس يشرح لابن غفير ماذا فعلوا مع بداية الحرب وإلى يومنا هذا، ابن غفير يهز رأسه ويكز على أسنانه ثم يقول:

- هذا غير كاف، غير كاف، لماذا ما زالوا يمشون على أقدامهم؟

- سيدي، صاروا هياكل عظمية، تجرّعوا من الدلّ والهوان ما يمسح شخصيتهم ويدفعها إلى الانهيار، قريبا سنرى الجنون والعاهات النفسية..

- أنت لا تعرفهم إذن، هؤلاء أحفاد العماليق لا ينفع معهم إلا الإبادة والقتل، حتى بعد قتلهم عليك أن



الغرفة الزهراء

تدفنهم في قاع سحيق، توقع أن يخرجوا لنا من قبورهم.

- أفهم أنك تطلب منا قتلهم؟

- لا، الموت قليل عليهم، يجب أن يتجرعوا الموت في اليوم ألف مرة.

- لا تقلق سيدي، نقوم باللازم كما تريد وزيادة.

- ذاك الأسير ضرير؟

«وأشار إلى علاء وهم يُخرجونه تحت الضرب من الغرفة»

- نعم ضرير، مثل ما ترى، لا يوجد عنا أي اعتبار، لا لضرير ولا لمسن ولا لطفل ولا لمريض.

- كفى كفى، أحضره على المكتب، أريد أن أرى روحهم وهي منكسرة ذليلة.

«جروا علاء إلى مكتب المدير وهناك ترعب على عرشه ابن غفير..»

- أيها الأعمى، أتعرف من يخاطبك؟

«هز رأسه، ابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب: (طبعاً الحوار بالعبرية، فعلاء كما تعلمون يتقنها بطلاقة منذ أمد بعيد):»

- أعرف جيداً. ثم خطابك لي بالأعمى، كم من أعمى يرى ببصيرته أضعاف ما يراه المبصرون.

- أنت من هؤلاء الذين يرون أضعاف مضاعفة؟

- الله أعلم أنا لا أزكي نفسي.

- طيب قل لنا: كيف ترى الحرب في غزة؟

- إنها ليست حرباً، وإنما عدوان غاشم من قبل جيش مجرم يجيد قتل الأطفال والنساء على شعب مدني أعزل، أو قل هذه حرب إبادة جماعية ستبقى وصمة عار في جبينكم.

- والمذبحة التي ارتكبتها حماس يوم السابع من أكتوبر؟

- هذه مذبحة ارتكبتها طائرات الهباتشي ومدافع دباباتكم، كأنك لم تقرأ ما كتب عنها من تقارير؟

«نعق مستنكراً وساخراً:»

- كأنكم لم تقتلوا أحداً؟ أنتم حمامة مكة؟!

- نحن نقاتل مقاتل مقابل مقاتل، فارس مقابل فارس، أنتم تصبون جام حقدكم على المسالمين المدنيين،



الغرفة الزهراء

انظر ماذا تفعلون بنا نحن الأسرى؟ تأتون بسلاحكم وحديدكم وأدوات قمعكم وتمعونون بنا ضرباً وتنكيلاً، ونحن عُرِّل لا نملك سلاحاً، هل هذه قيم الفروسية وفيها نخوة الرجال؟

- تريد منا أن نسلحكم مثلاً ثم نتقابل؟

- لا طبعاً، فقط سلّح جنودك بقليل من الأخلاق والقيم التي اعتاد عليها الناس.

« تمعّر وجهه وكساه غضب أسود، ثم عوى: »

- جنودنا الأعلى أخلاقاً في العالم، سترون أخلاقنا عندما تكونون بشراً، أنتم لم تصلوا درجة الحيوان، لو كنتم حيوانات لرفقنا بكم.

« بابتسامة وهدوء رد علاء: »

- وهذا سرّ عنصريتكم أنكم تعتبرون أنفسكم شعب الله المختار، وبقية البشر ما خلقهم الله إلا لخدمتكم.

- نعم هذا صحيح، ولكن كيف عرفت هذا؟

- درسناكم من مصادركم، أنا لعلمك أتقن لغة الإيدش عدا عن اللغة العبرية.

- وبما أنكم وصلتم إلى هذه المعرفة المثبتة بكتبنا السماوية فلم لا تقرّون بها؟

- لأنها غير صحيحة ومحرّفة، وأنزل الله بعدها القرآن الكريم ليحكم فيما اختلف الناس فيه. ثم إن الله سبحانه عادل وخلق الناس سواسية فمستحيل أن يخلقهم بجينات مختلفة تجعل بعضهم فوق بعض، ما يولد مثل هذه العنصرية التي تفودكم إلى كل هذه الجرائم.

- اسمع، نحن لا نؤمن بقرآنكم هذا الذي تقول، نحن أصحاب الكتب السماوية المنزلة، وأنتم «الجويم» غير اليهود عبید لنا والواقع يشهد أننا الأقوى والأعلى والأذكى، نحن فوق فوق وأنتم تحت تحت.

« وأشار إلى الشرطة متأفماً من علاء ليأخذوه من وجهه، وليناله ما ينال من ركل وصفع وبصق وشم. »

«ابن غفير» أراد بهذه الجولة من النقاش أن يثبت «لخنيفس» مدير السجن أن هؤلاء الأسرى ما زال هناك عنفوان في نفوسهم والمطلوب أن يكسر هذا العنفوان، لا يكفي التعذيب والتنكيل في الظاهر، لا بد وأن يصل إلى درجة كسر ما بداخلهم، وقال له إن هناك مشواراً طويلاً من القهر والتعذيب عليك أن تقطعه مع هؤلاء أحفاد العماليق كي تصل إلى كسرهم ما دواخلهم. وأن المطلوب أن يراهم وقد ذلت نفوسهم وانحنت لبني إسرائيل، وأن عليهم أن يقبلوا أحذيتهم حباً وطواعية.

«خنيفس» قال في نفسه: «كيف يصل خيال هذا إلى هذا التصوّر، يريد من هؤلاء الجبابرة أن يذلّوا له، يحلم كحلم إبليس في الجنة، ولعت في عقله فكرة: «ها نحن الدروز الذين تجنّدوا في سلك شرطتهم وجيشهم قد خضعنا لهم حباً وطواعية، ها نحن قائمون على تنفيذ أوامرهم على بني قوما فلسطينيين، وبتنا



صهاينة أكثر من بني صهيون، ملكيين أكثر من الملك نفسه، كيف نجحوا في غسيل دماغنا إلى هذا الحد الذي بنتا فيه حريصين على تنفيذ أوامرهم العنصرية أكثر من حرصنا على أنفسنا. ليتني لم أستمع إلى هذا النقاش، هذا الأعمى يقلب دماغنا ويشعل شمعة في ظلمات نفوسنا، ليتني سجين مثله، خير لي من كل هذه الرتب المزيفة وهذا العمر الذي قضيته في خدمة هذه العنصرية السوداء، كل ما فعلناه لهم لا يعجبهم، يأتي مثل هذا الأرعن ليطلب منا كسر العنقوان الذي في نفوس هؤلاء، كما كسروا العنقوان فينا وجعلونا عبيداً لهم؟ كيف أوصلونا إلى هذه الحال؟ شيطان بشكل بني آدم، والله الشيطان يعجز عن فعلهم.»

صباحا غرد علاء من خلال وكالة صقر للإعلام:

- أخبار ساخنة جداً يا شباب، الإعلام العبري يضحّم دور مجمّع الشفاء الطبي في العمل المقاوم ليبرر هجوم جيشهم عليه بكل وحشية وشراسة، القصف يقتل في المستشفى مئات المرضى، يقولون إن مقر قيادة المقاومة متواجد فيه ومن هناك تدار المعارك، وتجري الآن اشتباكات ضارية حول مجمّع الشفاء الطبي، المقاومة تستبسل وتوقع في صفوفهم خسائر فادحة، كمائن وتدمير دبابات بقاذفة الياسين ٥٠١ وقنص جنود..

مشاهد المجزرة في المجمّع الطبي مروعة، مراسلون ينقلون الصورة أشلاء متناثرة لأطفال ونساء في كل مكان، أطباء يقولون بأن نوع الأسلحة التي يقتل بها الناس غير معروفة من قبل، تقطع أجساد الناس وتحولهم إلى قطع متناثرة، طفلة جريحة نجت من الموت تسأل: أنا في حلم وإلا علم عمّو، ممرضة تبحث عن طفلها بين الجثث وتساءل عنه: «ابني يوسف حلو وشعره كيرلي عمره سبع سنوات»، ومسّن معمم بلحية طويلة ووجه يكشف عن براءة جميلة يحتضن جثمان حفيده الطفل ويقول من أعماق قلبه: يا روح الروح، لتتلق الصورة والكلمة مواقع التواصل لتحيلها إلى أيقونة عالمية.

ويصف مراسلون مجمّع الشفاء الطبي لمن لا يعرفه، هو أكبر مجمّع في القطاع وفيه أقسام مختلفة كل قسم يأخذ عمارة كاملة، دائماً مكتظ بالمرضى في الأوضاع الطبيعية، في الحرب لا تتوقف سيارات الإسعاف عن إحضار الجرحى إليه، الأطباء والمرضى تحولوا إلى مقاومين يعملون على مدار الساعة، يقاومون الموت الذي يأتيهم من كل مكان، غرف العمليات مكتظة بالجرحى، الأطباء يقومون بعمليات بتر الأطراف وتجبير الكسور على الأرض وفي الممرات، أحد الأطباء رئيس قسم العظام عدواً له في اليوم الواحد ما يزيد عن ثلاثين عملية...

يا شباب نشرات الأخبار مليئة بالتقارير المريعة، أنا أسمع وألخص لكم ولكن كمّ الأخبار مهول، رائحة الموت تزكم الأنوف في كل مكان، كل ثانية هناك خبر جديد، إما عن القتل الذي يمارسه هذا الجيش النازي المجرم، أو عن عمليات المقاومة التي لا تتوقف وتوقع بهم خسائر كثيرة.



الغرفة الزهراء

هذه آخر الأخبار لدينا، وشكراً لحسن استماعكم.

نائل أول المعلقين هتف وجبينه يقطر غضباً:

- فعلاً لم يُبق هذا الجيش من المحرمات شيئاً إلا ارتكبه، المساجد والكنائس والمدارس والجامعات، ماذا يريد من ضرب المستشفيات، قبل أيام المستشفى العمداني واليوم مجمع الشفاء الطبي.

«هتف عبد الناصر معلقاً على الخبر:»

- أهدافهم غير المعلنة أوضح من المعلنة، هذه المجازر لدفع الناس للهجرة وترك البلد لهم، سياسة التهجير لا تخرج من دمهم أبداً والطريقة المثلى للتهجير هي ارتكاب المجازر، هكذا هَجَرْنَا سنة ٨٤ وما زالوا يتبعون الأسلوب نفسه.

«رد نائل:»

- اليوم الفلسطيني مختلف عن الثمانية وأربعين، درجة الوعي أعلى، يدرك تماماً ماذا يعني خروجه من بلده بعد أن ذاق الأمرين من اللجوء والغربة والشتات.

«هتف علاء بهدوء:»

- ولكن مع هذا الحجم المرعب من القتل والتدمير، ألا تنجح سياسة التهجير؟ يفرّ الناس بأرواحهم أمام الموت المحقق، أضف إلى ذلك سياسة التجويع، يصبر الإنسان على نفسه، أما عند رؤيته لأطفاله يتضوّرون جوعاً، فماذا عساه أن يفعل؟!

«سليم أدلى بدلوه:»

- بصفتي قادم من خارج السجون، أقول إنّ الناس مختلفون: هناك من الناس: الموت أهون عليه من الهجرة وهناك من يهاجر حتى دون هذه الحرب، يختلف الناس حسب قوّة وصدق انتمائهم لوطنهم وقضيتهم، أنا مثلاً أصدقكم القول، كانت أمنيتي بعد التخرج أن أجد فرصة عمل في الخليج بنية أن أبني نفسي ثم أعود، ولكن اليوم وبعد هذه الحرب لو «يطوّبولي» الخليج كلّ ما خرجت.

«هتف نائل بشيء من الحدة والغضب:»

- هذه المقولة: «أبني نفسي وأعود» مقولة قاتلة، أغلب الناس لا يعودون، عندما تفتح له الدنيا أبوابها ثم ينظر إلى الخلف: كيف سيترك كلّ هذا النعيم ليعود ويبدأ من الصفر؟

«هتف نضال:»

- لو يعود الناس إلى الحكم الشرعي في الهجرة لما هاجر أحد، لا تجوز الهجرة شرعاً إلا لضرورة، لطالب علم غير موجود في بلادنا، أو لمن ألجأته الضرورة المعيشية وتكون الغربة على قدر هذه الضرورة، كذلك



الغرفة الزهراء

عندما نتحدّث عن الرباط وأجره وعن فضل الفئة المنصورة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وما ورد في فضل الرباط على تخوم عسقلان : ورد في الحديث الشريف على سبيل المثال: « موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود » نجد أن هذا يهيئنا نفسياً لتحمل الصعاب، ورفع مستوى جاهزيّتنا للمواجهة والاشتباك مع الدّ أعداء الله، والاستعداد الكامل للتضحية بكل شيء في سبيل الله، وهذا الحقّ الثابت على هذه الأرض المباركة.

« عقّب سليم: »

- ليت الناس يعلمون هذا، لما هاجر أحد.



(٧) الإسراء والمعراج في السجن

استراحة الأسبوع هذه المرة كانت لها مناسبة عزيزة وهي ذكرى الإسراء والمعراج، في الأيام العادية كانت السجون تحتفل بهذه المناسبة وتقيم لها الندوات وتوزع ما تيسر من الحلويات، اليوم لا حلويات ولا مجال لإقامة أي احتفال، نضال كانت استراحته الأسبوعية مع هذه الذكرى العطرة وبخيااله الروحي العذب تعطر المكان وخشعت القلوب مع هذا الجمال: انطلق نضال سارداً ما جادت به شغاف قلبه:

الإسراء والمعراج .. احتفال وذكرى أم طوفان وثورة ١٩

أرادت ذكرى الإسراء والمعراج أن تقوم بجولة تزور فيها عدة بلدان عربية وإسلامية، قبل أن تبدأ الجولة عقدت مؤتمراً صحفياً حددت فيه أهدافها من هذه الجولة، وذكّرت بما حرّضت به من فصل الخطاب في أعوام مديدة قد مضت من عمر القضية.

أما أهداف الجولة فهي تتلخص في التعرف على ما فعلته الذكرى في نفوس أصحابها، وهل ما زالت مجرد فكرة وذكرى، أم أنها قد أنتجت فعلاً وناراً وثورة؟ وكان مما خاطبتكم به سابقاً:

أيها السائرون والسالكون والمتأملون بربكم العظيم، اعلّموا أنّي لست مجرد فكرة عابرة بل أنا فكرة حيّة وقناعة راسخة وإرادة فاعلة، وعشق خالد عميق في قلوب الناس، وترجمة عملية تصل إلى دائرة الفعل المحرك لكل طاقات الأمة، إذا أصبحت هكذا فحتماً سيتحوّل العشق إلى تنظيم ورؤية، إلى برنامج عمل يشعل الفكرة ويلهب الروح وينتج الحرية.

واعلموا - رحماني ورحمكم الله - أنه ما كان لشردمة من شرادم شذاذ الآفاق أن تقتحم المسجد الأقصى نهراً جهاراً وتحت أعين الكاميرات التي توصل الصور إلى كل الآفاق، ثم نرى الشارع العربي والإسلامي نائماً يغط في سبات عميق.

اعلموا أنّي القادر على تخصيص اليورانيوم الإيماني المزروع في أعماقكم، لست قلقاً من هذه الشرادم الصهيونية، إنما هي شعلة الاستفزاز والتخصيب لما في صدوركم، أنا على موعد معكم للتحرير ورفع شأنكم. فقط ما عليكم إلا رفع رايتي خفاقة في قلوبكم وفي سماء أوطانكم، أعلنوا الثورة على كل من يناصر عدوّي وعدوكم، اجعلوا الأقصى ميزاناً لمعرفة صديقكم من عدوكم، ومشعلاً وعنواناً لتحرري وتحرركم.

ثم انطلقت الذكرى وحطت رحالها حيث البلد الأكثر تعداداً وأكثر إيماناً بالفطرة، وجدت الاستقبالات العامرة لتشمل كل المساجد والأماكن الجامعة، عطّلت البلد وأعلنت مصر عيداً رسمياً، تزيّنت الشوارع وتلذّدت البطون بكل أنواع الحلويات الشرقية، لم تجد الذكرى أثراً عمليةً وازدادت إمعاناً في المراسم



الغرفة الزهراء

الشكليّة، ملاً الحزن قلبي خاصة وقد علمت بأن هناك بلداً مسلماً عربياً جاراُ لهذه الديار المليونية يتعرّض لعدوان وجرائم نازية، لأنه أقام اعتباراً لي وأعطى كلامي بالغ الأهميّة. صرخت في وجوههم صرخة أبدية:

- ماذا سوف تقولون لربكم وأنتم لا تنصرون من انتصر لمسجدكم الأقصى؟ وبعد أن صارت ذكراي قلباً ينبض في صدره بالحرية؟

« ردّوا عليّ بعجز وكسل وخبل: »

- نحن نعاني من ظروف قاسية ومأساوية وجبرية، مثلنا مثل بقية الدول العربيّة.

« قلت لهم: »

- لذات السبب هو أنكم لا تستمعون لنداء الأقصى وصوت الحرية، تريدونها هزيلة وشكليّة. ذوقوا مرارة المدلّة والركوع لما تسمونها ظروفاً مأساوية.

وفرت الذكري من ديارهم دون أن تلامس قلوباً خاوية ومخزية، فهي حرّة لا تنزل إلا في بلاد التوحيد والحرية.

ثم طارت الذكري لبلاد خليجية فوجدت من يقول عنها بأنها بدعة وفريّة، وفي ذات الوقت ترى في التطبيع مع المحتل المجرم قمة الفهم ومن متطلبات الأفكار العصرية والواقعية. وفوق هذا تفتح حدودها وطرقها وموانئها لحركة التجارة والبضائع الإسرائيلية، سألت متطفلة عن السبب فقالوا دون حياء أو وجل: هناك دولة آثمة عربيّة قد ضيّقت الخناق على هذه الدولة الفتية، عرفت أنها اليمن الأبيّة فيمّمت شطرها مسرعة قبل أن تقتلني رائحة العمالة الغبيّة.

في اليمن وما أدراك ما اليمن، وجدت من يقيم ذكراي على الطريقة اليمينية الثورية، وجدت القدس نبض قلوبهم والأقصى لا يغيب عن عيونهم، ووجدت الإرادة الحرّة تتجيش وتصطف بكل ما تملك من قوة وشهامة ونخوة إسلامية عربيّة، ووجدت أفكار حيّة نارية وقد شكّلت منها صواريخ بالستية وطائرات عمودية ومسيرات فولاذية، وجدتها قد رفعت راية غرة الأبيّة وسخّرت أذرعها البحرية لتطارده كل سفينة تحمّل للمجرمين أية بضاعة تجارية. وجدت شعبها يخرج بمسيرات مليونية ويتحرّق على نصرة توصل إلى سجدة في مسجدي الأقصى ورؤية الأمة وقد تحرّرت من الصهيونازية.

أعطاني اليمن وشعبه قوة روحية شجعتني لأستمر في تطواري على بلدان عربيّة تجد فيها حرية عزيزة قوية، ذهبت شمالاً إلى لبنان الأبيّة فوجدت فيها حزب الله وضرباته الصاروخية، وجدت جبهة مساندة أرهقت الصهاينة نفسياً وهجرت المستوطنات الشمالية وأحدثت إصابات نوعية في مقرّاته ومعسكراته وقواعده الاستخبارية، وضعت نفسها على حافة حرب شاملة وتوسّعت تدريجياً في ضربها ورهنت جهادها بتوسّع الحرب والعدوان على الشعب الفلسطيني في غرة الأبيّة. وجدت نفسي هناك أسري حباً وعشقا في



الغرفة الزهراء

أرواحهم وقد جعلوها على طريق القدس شهيدة وفدائية.

كان تطواي طويلاً في عالم عربي بين أصيل أسكن أعماق قلبه وأحرّك إرادته قوّة وعنفواناً، إسرائاً ومعرّجاً عملياً يرتقي معرفة وفعلاً وجهاداً وثورة، ووجدت للأسف الشديد من هم في غابات سوداء لا قدس فيها ولا حرية ولا كرامة ولا حياة بشرية، وجدت من يعبد آلهة من دون الله ومن يدور في الفلك الأمريكي والإسرائيلي دون خجل ولا وجل ولا أدنى كرامة وطنية.

وكان مسك الختام لتطواي الجميل أن أخط رحالي عند خير البشر، رأيت بأمر عيني أهلي ومن عرفوا قدري وأنزلوني منزل الجود والكرم، أنزلوني دائرة الفعل والفداء وبذلوا كل ما بوسعهم، بذلوا الغالي والنفيس، مقاومون وعوا تماماً فكرة الإسرائ والمعرّج وانطلقوا من الفهم والتأمل إلى التطبيق والعمل، تماماً كما فعل صلاح الدين وعمر، علموا أن الأقصى ليس شعاراً ولا قصيدة ولا أنشودة ولا حتى عقيدة تنتظر الفرّج، أقاموا الأقصى في قلوبهم تربية وروحاً وإرادة حتى فاض على جوارحهم وقاموا بكل متطلبات التحرير والعمل، حتى إذا استوى على سوقه وأخرج كل ما في قدراتهم من خبرة وإبداع وقوّة وشجاعة وفداء وتضحية ويقين وإيمان وأمل، فاض طوفاناً أسموه بطوفان الأقصى الذي أخذ بطريقه كل عوائق وحواجر الطغيان وسوء العاقبة والفضل.

ها أنا ذا فكرة حيّة تسعى، تجاهد وتصبر وتصابر وترابط مقاومة فذة شجاعة أرت الله ما تصنع، الإرادة الحرة التي كان نبضها وما زال وقوداً لها... الإسرائ والمعرّج فكرة وأعظم المثابرة والجهاد والعمل. لكم الله يا أسود الحق والأقصى، يا جند قيامة الأمة وإعادتي إسرائ عملياً للأقصى ومعرّجاً لسماة أمة مجيدة فتح لها القرآن أبواب السماء وخلافة الأرض وإصلاح أحوال البشر.

ختمت ذكرى الإسرائ والمعرّج تطوافها في غزّة، ثم نظرت إلى من حولها من شعوب ودول نائمة لتقول لها: لقد توجت غزّة سيدة للأمم، لتتود قيامة الأمة ونهضتها من جديد، ولتتود منظومة القيم الإنسانية الرشيدة، بعد أن نهارت بما ضحت وأنجزت منظومة قيم دول الاستكبار والشر العالمية، لقد أقمت نموذجاً عالمياً لكل من أراد نصرة حقيقية للقدس والقضية.

ختم نضال القصة مبتسماً وهو يقرأ في وجوه من حوله الإخبات مع الذكرى، وتلقّي هذه الطريقة في الحديث عنها بارتياح وسرور، طبعاً لا بدّ لنا أن نعلق:

- أعظم الناس احتفاءً بالإسرائ والمعرّج هم أهل غزّة، أبدعوا للأقصى طوفاناً انطلق وسيصل إلى تحرير الأقصى بإذن الله.

- أجمل ما سمعت عن ذكرى الإسرائ والمعرّج في حياتي. « هتف سليم »

- قمة الروعة سيدي نضال. « هتف علاء »

- هوناً على قلب أخيك، أسأل الله القبول وحسن الختام. « عقّب نضال »

لم أجد أحداً يتلذذ بالتعذيب كهؤلاء، أصبحت متعة أحدهم في ابتكار طريقة للإهانة والقمع جديدة وغير مسبوقة، ويحقق فيها سبقاً صحافياً أو إعلامياً يستحق أن يوضع في موسوعة جينيتس، العدد الذي يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد أصبحوا يتفننون في شكل الإهانة فيه، عليك أن تجثو على ركبتك ثم تدير وجهك إلى الأمام وتخفض رأسك على الأرض، والتكسير لمن لا يتقن هذا الشكل المهين، عدد الظهيرة اليوم كان معهم « الحوفيش » الممرض، همس نائل في أذن علاء يعلمه بوجود الممرض، ظن أن وجود الممرض علامة على عودة تقديم العلاجات من جديد بعد أن توقفت منذ بداية الحرب، تقدم علاء ونادى :

- يا حوفيش، إذا سمحت.

تقدم نحو فتحة الباب التي وقف قبالتها علاء راجياً الدواء، ثم صدمه ببصقة ملأت وجه علاء، أتبعها بسيل من الشتائم والمسبات التي لا تخطر على بال بشر سوي، هل نتخيل هناك حقارة أسوأ من هذه؟ أن تتنمر بهذه الطريقة البشعة على رجل ضرير؟

اشتعل صدر علاء وماج الغضب في وجهه، ولكن يعلم علم اليقين أن أية ردة فعل أو حتى احتجاج سيسحل خارج الغرفة ليعود إليها وقد كسرت أضلاعه، لاذ بصت أبلغ من الكلام وكأنه يقول لنفسه: « ستدفع ثمنها غالياً أيها الصعلوك، أنت وكيانك المتعجرف سيحضر لكم مكان ليس في مزابل التاريخ، بل أسوأ بكثير، وهل هناك أسوأ من مزابل التاريخ، نعم سنجد لكم مكاناً أسوأ كي لا تعودوا للإفساد من جديد. ولك أن تتخيل تلك الأيام التي يداولها الله بين الناس وقد أصبحوا في أسفل سافلين.

« هتف نائل: »

- هذا شرف لك سيدي علاء، ستبدل هذه الأيام وسنديقهم من الكأس نفسها بإذن الله.

« وزأ رائد من مرارة القهر التي غصت في صدره: »

- لن نُبقي فيهم ولن نذر بإذن الله.

عبد الناصر قال بألم شديد:

- هذا سيدي علاء لما تشكله لهم من قهر وغيظ في نفوسهم، هذه علامة هزيمة في أعماق نفوسهم تحركهم لمثل هذه التصرفات المشينة.

حاول نضال أن يكون هادئاً رغم العاصفة التي تجتاح صدره:



الغرفة الزهراء

- سنقيم بهم العدل بإذن الله، أخلاقنا لا تسمح لنا أن نفعل ما يفعلونه بنا، هذا انحطاط بشري لن نقع فيه أبداً. يكفيننا حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة بعد أن نقضوا العهد مع رسول الله ووقفوا مع الأحزاب المحاصرة للمدينة، تذكرون القصة وحكم سعد الذي قال عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لقد حكمت فيهم حكم الله من فوق سبع سموات.

سليم: أنا أحاول تفسير هذا الإجماع؟ ما هي دوافعه؟ حقد وانتقام وفشة غل؟ هل هذا تفسير كافٍ؟

« هتف نائل مازحاً ومبداً شيئاً ما من أجواء الكآبة: »

- «الأقدر على إجابة هذا السؤال ذاك الأعمى أبو القتلات».

« تنحنح علاء وهتف: »

- والله إنك واحد فايق ورايق، على كل ساجيب، هذه الشخصية اليهودية التي ركبوا عليها الشخصية الاستعمارية، اليهودي الصهيوني الذي حملوه عقدة التوحش الصليبي الاستعماري، هي هكذا شخصية معقدة، بدايتها اليهودي الذي يحمل عبر تاريخه عقدة الأقليات المظلومة، شعور بالنقص مع عنصرية قائمة إذ يعتبر نفسه شعب الله المختار والباقي هم «الجويم»، جاءت الحركة الصهيونية لتقنع هذا اليهودي بأن له حقاً دينياً وتاريخياً في مكان في الأرض تحت الشمس وأن يقيم له عليها دولة، وأن له امتداداً في دول الغرب التي التقت مصالحها مع مصالح هذه الحركة الصهيونية، وأن تكون الدولة في فلسطين لأنها أرض بلا شعب، فجاءها الشعب في وعد إلهي مكتوب في صحف قديمة يمكن إحيائها من جديد. هذه الشرعية الملققة هي بذاتها عرضة لأن تهتز كلما تعرضوا لمصيبة وعرضة لأن تزول شرعيتها ويضيع هذا المشروع، فتولدت عقدة جديدة هي عقدة الخوف من فقدان شرعيتهم وخراب دولتهم، لأنهم يدركون في قرارة نفوسهم أنهم بنوا مشروعهم على باطل.

« قطعه نائل مازحاً: »

- ما رأيك في أن تسرد لنا موسوعة عبد الوهاب المسيري عن الصهيونية. هذا وحضرتك طالع من قتلة، كيف لو أن الوضع عادي.

- طوّلت يا شباب، أنا أسف، اعذروني؛ السؤال كبير. يعني ممكن عندما تهدى الأوضاع نقيم محاضرة في هذا الموضوع، باختصار شديد: هم يعيشون مجموعة عقد متداخلة تخرجهم من آدميتهم وبالتالي تخرج منهم هذه السادية المتوحشة: عقدة النقص والشعور بالمظلومية، عقد تفوق الجنس البشري وما تنتج من عنصرية مدعومة بمفاهيم دينية، وعقدة الروح الاستعمارية التي اكتسبها من هذه العلاقة العضوية مع الغرب الاستعماري، وهذه لها قصتها الطويلة.

دون سابق إنذار انفلت لسان نعيم، قال بحدة ودون توقف، عيناه تتحركان دون انتظام مع كلامه وعيون من في الغرفة تنظر بذهول، فرحة أن حلت عقدة لسانه ومتألمة لما يقول بعيداً عن ضوابط عقل إنسان



سوي:

- هؤلاء الذين تتحدثون عنهم أضعف مما تتصوِّرون، نحن نسجنهم، الآن أستطيع أن أخرج كل من في السجن، أستطيع أن أحضرهم لكم صاعرين، أنا لى علاقات مفتوحة مع المخابرات الصينية والروسية والإيرانية، اتصال واحد لن يبقى أحد في السجون، كيف تصدقون أن اليهود قد سيطروا على البلاد والعباد، أبداً أنا أعرف من نحن ومن هؤلاء، أنا حاربت مع خالد بن الوليد في اليرموك ومع صلاح الدين في حطين ومع بيبرس في عين جالوت، بيبرس كان يحبني وجعلني أقرب المقربين إليه، هذه الدولة مصنعة، من كرتون، من ورق أو أقل من ذلك، فقاعة سرعان ما تنطفئ. هؤلاء...

« حاول نائل إنزال قوات التدخل السريع: »

- اسمعني قليلاً أخي نعيم لو سمحت.

- أنت احك لي، لو كانوا أقوياء كما تظنون، لم هم للآن غير قادرين على حسم المعركة في غزة، لثلاثة أشهر وهم (مكانك سر)، أنا أعرف السر فقط « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ».

- ممتاز، الآن نحن في السجن، ماذا بإمكاننا أن نفع؟

- سنقاتلهم الواحد منا بمليون منهم، كم مليون هم؟

« همس علاء في أذن نائل: »

- لا تناقشه، تماش معه فيما يقول، واضح أنها حالة نفسية، ممكن انقسام شخصية، كان مكتئباً والآن انطلق بكل قدراته المخبوءة، المهم النقاش دون فائدة، الله يحفظه منهم، هؤلاء لا يعرفون حالة نفسية ولا ما يحزنون.

« نبيرة حانية، ومحاولة لا احتضانها، وقف وأخذه برفق في حضنه، ضغط صدره إلى صدره:

- أخي نعيم، نحن معك، كل ما تقوله صحيح، عندما نخرج من السجن سنفعل كل ما تريد.

« رد بسرعة وخرجت الكلمات من فمه كما يخرج الرصاص من مدفع رشاش:

- لا يمكن للسجن أن يحول بيننا وبين مبادئنا وأهدافنا، نحن أقوى منهم ومن سجونهم، سأريكم ما سأفعل بهم، من هؤلاء؟ يهود يسيطرون علينا؟ هل رأيت يهودياً يسيطر على مسلم على مر التاريخ كله؟ لا والله، يتنازل المرء عن كل شيء إلا كرامته، أنتم تتنازلون عن كرامتكم، نموت واقضين ولن نركع، أليس هذا شعاراً لكم، إما أن يكون الواحد منا حراً كريماً أو عبداً ذليلاً، أنا لا أحني رقبتني إلا لله. »

- نعيم، أنهيت، دعني أناقشك.



الغرفة الزهراء

- هذه أمور مُسلّمات، هل الكرامة محلّ نقاش، الخضوع والخنوع بكلّ أشكاله وأنواعه مرفوض، لن أدلّ لهم ويا ما أحلّى الشهادة في سبيل الله!

- دعني أقل لك..

- ما في قول بعد قول الله عزّ وجلّ: « ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين » العزّة للمؤمنين وليس لليهود الصهاينة الملامين. ما في كلام بعد قول الله تعالى. أيعقل أن يبصق في وجه شيخ مُسنّ كبير، ونحن صامتون صمت القبور؟!

« احتج علاء: »

- يا رجل محسوبك شباب، جعلتني شيخاً مُسنّاً.

« بابتسامة عريضة هتف نائل: »

- والله هذه لك ضربة ثانية اليوم، ومن ذوي القربى، وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة...

« باءت كلّ محاولات نائل بالفشل، بقيّة من في الغرفة يحوقلون وقلوبهم تدعو له السلامة من هذه الذئاب المتوحّشة التي تنكّل وتصب عذابها دون سبب، فكيف إذا جاءها سبب على طبق من ذهب؟ »

وصل عدد الظهيرة حيث اخترقت شمسها السجن رغماً عن أنفه، سطعت وسط الساحة التي تستلقي في أحضان عشرين غرفة على طبقتين يفصل بينهما سلّم حديديّ، يقابل الغرف من الجهة المقابلة خلف الساحة جدار عال يفصلهم عن قسم آخر، وسقف هذه الساحة الضيقة التي كان الأسرى يتنفسون فيها بعضاً من الوقت مسقوف بقضبان حديدية تقطع مشهد السماء لمن أخذه فضول عينيه إلى هناك، وصلت جوقة العذاب الغرفة الزهراء فجثا الجميع كما جرت عليه العادة قسراً منذ بداية العدوان إلا نعيم، بقي جالساً على «برشه» غير مكترث بما يحدث، الغضب يرتسم على وجهه ويصبّ لعناته عليهم، سأل ضابطهم بعد أن صوّب نظراته الحاقدة اتجاه نعيم:

- أنت، ما لك؟

سأل نعيم بحدّة:

- ماذا تريد منّي؟

- عدد... ألم تسمع.

- لا يعنيني عددكم، أنتم وعددكم باطل لا يسري عليّ، من أنتم حتى تصدروا أوامركم عليّ، أنا إنسان مؤمن حرّ لا ينحني لغير الله، اذهب وقل وخبر من بعثك وأوكل لك هذه المهمة القذرة.

- حسناً. افتح الباب.



الغرفة الزهراء

« حاول علاء ونائل التدخل: »

تقدّم علاء نحو الباب وهمس للضابط

- في مشكلة نفسية عند الشاب.

« وهمس نائل: »

- يحتاج إلى طبيب نفسي.

نعق الضابط باشمئزاز بعبريته الرعناء:

- من طلب منكما التدخل، أنتم هنا التنظيم؟

« هجمت قوّة على نعيم، حاول الدفاع عن نفسه، سرعان ما وهن أمام عصيهم الحديدية، بادره أحدهم بغاز في وجهه أعمى بصره وسدّ الأفق في عينيه، سحلوه خارج الغرفة وأشبعوه بعصيهم التي بدورها فتحت نوافير من الدماء في رأسه، علاء ونائل أكل كل واحد منهم عدة عصي وأعادوهما للغرفة، بينما نعيم أخذوه معهم للزنازين الانفرادية.

ارتفعت صيحات «الله أكبر» من كل غرف القسم، كان لهم «خنيفس» مدير السجن بالمرصاد، نهق من مكبرات الصوت وأعلن عقاب القسم، ما في كهرباء ولا ماء ولا خروج للساحة حتى إشعار آخر، وهددهم بفرقة «كيتر»: «عليكم الانتظار حتى تصل فرقة الموت والدمار، «كيتر» ترخّب بكم أجمل ترحيب.

علت سحابة سوداء جوّ الغرفة الزهراء، ما هو أسوأ من العذاب انتظار العذاب، علاء ونائل ما زالا يتحسّسان مواضع العصي الجديدة، والأكثر أماً عندما تأتي الضربة على موضع ضربة قديم، تضيف أماً وتضجّر ما فيه من مخزون سابق، فتنتطق عاصفة من الألم تستقرّ في قحف الرأس، تدور بك الدنيا عدة دورات قبل أن تقع مغشياً عليك، فترتاح قليلاً من أوجاع هذه الدنيا التي تسكنها هذه النازية الجديدة أو قل الصهيونازية، بالفعل هم فتحوا جبهتين: جبهة غزّة وجبهة السجن.

مساء وصلت فرقة «كيتر» تماماً كما وعد «الخنيفس» لعنة الله عليه، بدأت الحفلة كالعادة وجبات الغاز التي ضاقت بها الصدور ولم تعد تطاق، وما تكاد الروح تجد لها ثباتاً في الجسد إلا وتأتي العصي لتشقّ الرؤوس وتسيل الدماء، وتكسر الأضلاع أنت ونصيبك ريشة في الصدر أو عظمة كتف أو ساعد أو ساق، وكل شيء ولا «بوس العلم» من الشباب من يأخذ بالرخصة ومنهم من يمتنع فيزيد له في الضرب والتكسير، ومع أفول الشمس يعود الأسرى لهجعهم دون أن تسمع لهم ركزاً، اللهم إلا بعض الأئين الذي يخرج قسراً، نعيم لا تسألوا عنه فقد غدا كخرقة بالية أو يمكن أن يصل إلى ما لا يحمد عقباه، ترك حسرة في صدور عناصر الزنزانة الزهراء، عن مرضه النفسي الذي سيتفاقم حتماً دون أن يؤخذ بأي اعتبار من قبل زبانية العذاب، وعن العذاب وهو معزول لا معزي له ولا مخفّف من أخ أو صديق.



الغرفة الزهراء

صباح العظام المكسرة والرؤوس التي فقدت كل شيء إلا عقلها، حالة الجوع التي لا تدع هذه الأجساد تقوى على أية حركة، أضف لذلك برد الليل الذي يطارد النوم، ولا يدع له مجالاً ليبسط سيطرته ولو قليلاً من الوقت، فعلاً صاروا كأعجاز نخل خاوية سوى بقايا نبض وروح تسري وتمسك بهذه الأجساد على حافة الموت، أسرى يعيشون الحياة ولا يتخيل أحدهم نفسه وقد عاد إلى أهله بعد هذا الغياب الطويل وهو محمول على الأكتاف، ليس لها إلا الصبر وليس لها من دون الله كاشفة، وزد على ذلك ما تنعق به وكالة الصقر للإعلام أحياناً من أخبار محرقة غزة أو الهولوكوست الذي يعاد إنتاجه من جديد على يد هذه الصهيونازية المجرمة.

هتف علاء همساً بعد عدد الذلّ والمهانة الصباحية مباشرة:

- يا شباب أخبار اليوم مريعة، أنا لا دخل لي، ناقل الشرّ ليس بشرير.

- قلت لكم غراب البين لكم بالمرصاد، قلّ نشرتك وخلصنا.

- جيش الاحتلال يكتفّ هجماته على مجمّع الشفاء، دخل بعض الأبنية وصدر صوراً لأماكن يحاول فيها الإثبات بأنها كانت مكاتب للمقاومة، قتل كثير من الناس المرضى، أطفال ونساء ومن الطاقم الصحي أطباء وممرضون وممرضات، في غرفة أرضية وجد جهاز حاسوب محمول وبنداقية وبعض الأوراق صورها وقال عنها إنها مكتب للمقاومة وأنها إثبات على أنها تستخدم المشايخ للأعمال العدائية، ثارت عواصف كبيرة في مواقع التواصل ووكالات الإعلام العالمية على هذا الكذب المفوض.

لقد استعر القتل بشكل مخيف، عدة مجازر في اليوم الواحد، عشرات القتلى والجرحى غالبيتهم من الأطفال والنساء، تجاوز العدد ثلاثين ألفاً بين شهيد وجريح ومفقود، هناك من لم تتمكن طواقم الإسعاف والدفاع المدني من الوصول إليه، يدمرون بصواريخهم التي تزن ألفي رطل أبراجاً ومربعات سكنية، طفق الكيل، العالم العربي نائم إلا من لبنان واليمن والعراق التي تساند جبهة غزة بصواريخها ومسيراتها وبعض المظاهرات في الأردن، سوى ذلك موات، هناك أخبار عن مظاهرات في بعض الدول الأوروبية وتركيا. مظاهرات مليونية في اليمن، بعض الدول العربية منفصلة عن الواقع رسمياً وشعبياً، بل هناك من يدعم الاحتلال وقيم علاقات تجارية ودبلوماسية وسياسية بما عرف عنها دول التطبيع.

وزير الخارجية الأمريكي هذا اليهودي الصهيوني التذلل يكرّر مراراً وتكراراً الدعم الأمريكي لهذه الحرب، وأن دولة الاحتلال تدافع عن نفسها، الرئيس الأمريكي كأنه الناطق الرسمي الإسرائيلي، يقف الموقف الذي يريده الاحتلال لا يحيد عنه قيد أنملة، الذخائر تصل عبر جسر جوي وبحري من أمريكا دون توقّف. واضح يا شباب الانخراط الأمريكي الكامل في الحرب. في الشمال حزب الله يضرب بصواريخه التي تصيب مواقع عسكرية ونقاط تجسّس للجيش الإسرائيلي. اليمن تستمر في منع السفن الإسرائيلية أو ذات العلاقة بالاحتلال من المرور من باب المندب، وتطلق صواريخ كروز ومسيرات على مدينة إيلات.



الغرفة الزهراء

هذا مختصر الأحداث في الأربع وعشرين ساعة الماضية، وكالة صقر الإعلامية تحييكم من أعماقها.

عقب نائل:

- الله يحييها ويحفظها من نعمة، الصدق لولاها لكانت الحبسة حبسة.

- كي تعلموا فضل العميان على المبصرين. « ردّ علاء مبتسماً »

- والآن هياً إلى التحليل يا شباب، هات ما عندك عبد الناصر. « هتف نائل »

- لا أعتقد أنني قادر على التحليل، شاعر إنّه رأسي قنبلة موقوتة توشك أن تنفجر. « ردّ عبد الناصر »

- وأنا كذلك ولكنني قادر على الاستماع. « همس نضال »

« بنبرة حازمة هتف علاء: »

- إذا سمحتم هذه وكالة صقر وكالة تفاعلية مثل هذا الذي يقولون عنه في الخارج مواقع التواصل الاجتماعي، اعتبروه تيك توك مثلاً. وإلا نغلقها ونروح.

« تبسّم سليم وهتف: »

- لا علاقة لها بالتيك توك لا من قريب ولا من بعيد.

- يا سيدي اعتبرها واتس اب.

- المهم أنا عندي سؤال: هل تتوقعون أن تطول هذه الحرب؟

ردّ علاء:

- والله يا جماعة الخير أنا أراها طويلة وسوف تعلق مع الشمال، لن تبقى غزّة وحدها، جبهة الشمال هي حاضرة، ولكنها ليست مفتوحة وإنما ضمن قواعد اشتباك محدودة، وتتوسّع بالتدرّج حسب تطورات المعركة في غزة.

« وهتف نائل: »

- أنا أرجح أنها سوف تطول، حرب العصابات يصعب حسمها على الجيوش النظامية وهم يحاربون رجالاً عقائديين لا يمكن لهم أن يخضعوا مهما طالّت هذه الحرب.

« هتف نضال وأثار الإرهاق ترتجف لها كلماته: »

- إذا ولا بدّ، سأدلو بدلوي، هناك سنن لتداول الأيام بين الناس، « وتلك الأيام نداولها بين الناس » وعندما يعلو الباطل وينتفش ويبلغ أوجه، بينما أتباع الحق يصرون على نصره الحق ويبدلون قصارى جهدهم



الغرفة الزهراء

تتدخّل العناية الإلهية فتناصر أهل الحق «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم

نائل مخاطباً ناصر همساً في أذنه مباشرة:»

- عليك سيدي عبد الناصر بكتابة تقدير موقف عن المشهد السياسي الإسرائيلي، تغييرات طفيفة صحيح، اليوم نوبة الشاويش آدم، نستطيع إخراج رسالة.

« وهتف عبد الناصر بحماس وكأنّ الحياة دبّت في روحه من جديد:»

- على مفكّري المقاومة في غزّة أن يصوغوا خطاباً لنهضة الأمة، غزّة الآن تخوض حرباً عالمية مع كل دول الاستكبار والشرّ العالمي، غزّة الآن ليست مشروعاً تحرّرياً لها وفلسطين فحسب، وإنما للأمتين العربية والاسلامية، من هيمنة هذا الغرب الذي سقطت قيمه سقوطاً مدوّياً.

« عقّب علاء مباشرة:»

- وأنت سيدي من مفكّري المقاومة، ما رأيك أن تبدأ الكتابة في هذا المشروع.

- المسألة تحتاج إلى فريق عمل من المفكّرين لتصدير خطاب قادر على حمل آمال وتطلعات أمة عليها أن تخرج للناس من تحت ركام التخلف والتبعية والهزيمة والاستلاب الحضاري.

« هتف نائل بحماس:»

- فلتقرع الجرس أو تبدأ الخطوة الأولى، خاصّة على وقع هذا التحديّ الملتهب الذي تصنعه المعركة.

« هتف نضال:»

- بعد انكشاف حقيقة هذا الغرب بقيمه الزائفة التي تسترّ خلفها طويلاً، الآن سوف تلوح للناس علامات استفهام كثيرة، لماذا كلّ هذا القتل والتدمير والتوحش؟ ولماذا تصطف أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا مع الاحتلال الذي يمارس حرب الإبادة الجماعية؟ كلّها مارسات الاستعمار والآن تقف مع الاستعمار وتقدّم له أسلحة القتل والتدمير؟

« عبد الناصر على طريقتة العملية يضع الفكرة على سكّتها العملية:»

- فلنبدأ بمدارسة الأمر معاً، ثم في الخارج بينون عليها وينضجونها على أفضل ما يكون. وهكذا تتحوّل هذه الزنزانة لتشارك في المعركة على ثلاثة خطوط إنتاج: تقدير الموقف للمشهد الإسرائيلي، والمشورة بشكل عام في مجريات المعركة، وتطوير خطاب فكري بعيون غزّة لتحقيق نهضة الأمة وخلاصها.

« وأكمل نائل:»

الغرفة الزهراء

- وكذلك ما تنتجه من قصص قصيرة من وحي المعركة والتي تأتيها بها: كاستراحة الأسبوع، هذا إنتاج أدبي لا يُستهان به مولاي.

« علاء من ناحيته ضرب على وتر التحدي: »

- ليعلم القاصي والداني أننا منخرطون في المعركة بكل قدراتنا وخبراتنا وبأعلى طاقة ممكنة ورغم أنف سجاننا السادي اللئيم.

« علق نائل مازحاً: »

- الزنزانة ما فيها قاص، يعني ليعلم الداني والداني.

« ختم نضال: »

- زنزانتنا بركة، قطوفها دانية.

وصل خبر اعتقال سلام زوجة نائل ومعشوقته، جاء الاعتقال وفق حملة شعواء من الاعتقالات طالت كثيراً من النساء، وقع الخبر كالصاعقة على رأس نائل، هو يعلم كم عانت في السجون سابقاً ويعلم كم هي تكره السجون، سجون تلك الأيام فكيف بسجون هذه الأيام، سار معها وفق تخيله من لحظة اعتقالها إلى يومياتها في السجن:

« هجموا كالوحوش المفترسة، فجرروا باب البيت بعد الثانية من منتصف الليل، عاثوا به فساداً وقلبوا كل ما فيه، نبشوا أحشاء الأثاث وكسروا زجاج البيت، سرقوا بضع مئات من الشواكل وما خف وزنه وعلا ثمنه مثل الجوالات والحواسيب المحمولة، دفعوا سلام أمامهم بقسوة، نزعوها من بيتها نزعاً أليماً، أمست حرّة وأصبحت معتقلة، تدافعوها جنوداً ومجنّادات، وهي تتعثر بقيد بين قدميها وقيد يديها بعد أن شدوا وثاق عصبية على عينيها، يا إلهي كيف يتحوّل الإنسان إلى معتقل يساق على وجهه أمام ذئاب تتلمّظ على فريستها، هكذا يتحوّل الإنسان إلى فريسة مستباحة، منتهكة كل حقوقها، عند أناس لا وزن لها ولا قيمة عندهم، بل هي مجرد شريرة لا حق لها عندهم إلا المهانة وكسر روحها وضرب كرامتها والاعتداء على كل مكوناتها، هي مجرد محل لصب جام غضبهم وحقدهم فيه.

أعرف جرأتها وقوة شكيمة روحها وإن شئت قل عنادها، وهذا ما يجعلني أخاف عليها أن يزيدوا لها في قوة بطشهم وتنكيلهم، بعد أن توصل البضاعة البوسطة وتفلت من يدي الجنود الحاقدين سيتلقّونها زبانية التحقيق، هناك في الزنازين ومكاتب التحقيق ستجسد بالإضافة إلى عنادها صاحبة الخبرة والمعرفة بهم جيداً، ولكنهم تغيروا بعد السابع يا سلام. أرجو من الله أن يلهمك حسابات هذا التغيّر خاصة عندما يتكالب عليك المحققون المتتمرون:

« سألتها أحدهم (أو قل من تميّز منهم ببداية في جسمه ونماش على وجنتي وجهه الذي يميل إلى الشقار كثيراً) وهو ينظر إليها من خلف دخان سيجارته، وكوب القهوة الذي سحب منه جرعة بشدة مقصودة،



الغرفة الزهراء

- ما اسمك؟

« بصرامة أرادت أن توحى إليه أنها لا تحسب له أي حساب »

- اسمي في الهوية معك.

- أريد أن أسمعه من فمك يا أخت ال أنت لا تعرفين أن الأمور تغيرت في السجون.

.....

- ما اسمك؟

.....

- ما اسمك يا (وشم أقذع الشتائم التي قد تخطر على قلب إنسان شرير)

.....

سلام اتخذت القرار، أن تلتزم الصمت، وأقسمت بالله أنه هو وكلّ مخابراته وكل حكومته لن يكونوا قادرين على إنطاقها، لقد اتخذت سلام القرار، أنا أعرفها جيداً.

« دخل محقق آخر وجعل ابن الكلب يهدّدها بالاعتصاب، ويخبرها بأنه قد اغتصب كثيراً من الأسيرات، وأنه رهن إشارة المحقق الأول. (شكله دميم، وسمين وطويل ورأسه كأنه رأسان من ضخامته وارتفاع طولهِ، خشن الصوت تسمع في حروفه خشخشة وزنة عالية، متصبّب العرق، في عينيه احمرار يخبرك بأنه رجل سكير)

- رأيت سيّدة سلام، صحصحي معنا أفضل لك، هذا إن أعطيته إشارة ما في عنده «يا يمة ارحميني».

« أوقفت صمتها كي لا تعطّيهم أي مبرر، ربنا هداها، أخذت بعين الاعتبار أن الأمور تغيرت بعد السابع

- ماذا تريدون مني، من الآخر؟ لم هذا الاعتقال؟

- أنت تعرفين، أنت نشيطة هذه الأيام، صحيح؟

- نشيطة في ماذا مثلاً؟

- أقول لك، أعلم أن نشاطك لا عسكري ولا سياسي، نشاطك في موضوع الأسرى، أدرك كون زوجك سجيناً عندنا يدفعك للمشاركة بأنشطة داعمة، ولكن هذا يحضرك هنا ويقودك للاعتقال الإداري، والسجون اليوم تختلف عن الماضي مليون بالمائة. هل ما قلته غير صحيح؟

- ممكن يكون صحيح ولكنه لا ينطبق عليّ.



الغرفة الزهراء

- اتركينا من اللفّ والدوران، انا بحكي معك عربي، خَلينا نسكّر الملفّ وإلا جورج خلف الباب جاهز، موضوعك لا يستحق كل هذا... اسمعي منّي.

« أمام هذا التهديد لم يكن لسلام إلا أن تخرج له عنفوانها وقد تخرج له من عنفواني المخزون في صدرها، أعتقد أنّه لن يغيب عنها في مثل هذا الموضوع إلا إذا غابت الشمس عن نهار صيف.»

- ممكن أسألك سؤالاً؟

- تفضلي ولكن في الموضوع نفسه.

- قريب منه، من باب إذا رأيت شيئاً تحبّ أن تعرف مصدره، أنت ماذا درست ومن أيّ الجامعات تخرّجت؟ أو قل لي: ما هي ثقافتك التي تنطلق منها للحياة، أو دينك الذي يحكم تصرّفك؟ بإمكانك الإجابة عن سؤال واحد فقط.

- أعرف ماذا تريدني، على كلّ سأجيبك، أنا خريج الجامعة العبرية تل أبيب، يهودي بحبّ ديني، أو من بدولة إسرائيل وأنها تجسّد الحلم اليهودي في أرض الميعاد، هذه وطن لنا نحن الشعب اليهودي الذي حرق في الهولوكوست النازي وظلم ظلماً كبيراً، يجب على البشرية أن تصحح الخطأ التاريخي الذي ظلم الشعب اليهودي واستحقره فترات طويلة من الزمان، نحن نستحق الحياة ونستحق أن يكون لنا وطن.

- أنهيت؟

- نعم أنهيت.

- لقد أثرت عاطفتي معكم، ولكن بقي سؤال؟ من الذي حرقكم ومن هو صاحب الهولوكوست؟

- النازية الألمانية.

- لماذا يكون الحلّ إذن لمشكلتكم على حساب الفلسطينيين؟ لم لا تقتطع ألمانيا أرضاً من أرضها الواسعة فتقيموا دولتكم هناك؟ وهذا تعويض عما فعلوه بكم. ماذا تقول: تركتم حقكم من جلا دكم وجنتم لتجلدوا الشعب الفلسطيني؟ ماذا تسمّي هذا الفعل؟

- أرض الميعاد ليست في ألمانيا إنها هنا.

- والشعب الفلسطيني الذي يسكن هذه الأرض أين نذهب به؟ القتل والمجازر والتهجير؟

- عندكم دول عربية كثيرة وأراضٍ شاسعة تستطيع استيعابكم.

« بامتعاض عميق وسخرية هتفت سلام:»

- والله هذه قاعدة عظيمة، كل استعمار يريد استعمار بلد ما، يقول لشعب هذا البلد: تفضّل هاجر، أرض



الغرفة الزهراء

الله واسعة تستطيع استيعابكم.

« شعر باستهزائها به، والفخ الذي وقع فيه فزعق بنبرة عالية: »

- أنتم العرب تجيدون الكلام، صنعتكم الحكي، اسمعيني جيداً، «نحن أولاد اليوم واللي صار صار واللي فات مات»، المهم أنت هنا، ومطلوب منك أن تعترفي عن نشاطك ونشاط المجموعة التي معك، أنتم تعملون مع حماس، قولي الحقيقة، وإلا فلا تلومي إلا نفسك.

- « أرادت أن تُبأسه منها فردت بنبرة حاسمة قاطعة: »

- شكلك لا تعرفني ولم تقرأ ملفي القديم عندكم، قلت لك لا علاقة لي بحماس لا من قريب ولا من بعيد، وأعلى ما في خيلك اركب.

- عندي خيال فحل، جورج ينتظر؟

- وتدعي أنك يهودي يعني تؤمن بديانة سماوية وضحية للهولوكوست النازية الألمانية ثم تأتي لتهدد بالاغتصاب؟

- هذه أدوات الشغل عندنا.

- يعني الروح الاستعمارية ذاتها؟ الروح الهتلرية ذاتها؟ تماماً كما أجزتم لأنفسكم إقامة دولتكم على المجازر والقتل والتهجير لشعب آخر.

- ما في دولة تقام دون قوة وبطش هذه الأيام.

- وما في دولة يدوم حكمها دون عدل. أساس الملك ودوامه العدل وليس البطش والظلم.

- هذا كلام نظري درسناه في الجامعة، ولكن العملي الواقعي: «إن لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب» أليس هذا مثلاً عربياً؟

- ولم تلوم المقاومة إذن باستخدام القوة لدفع ظلمكم والرد على عدوانكم؟

« نفذ صبره وشعر بنار الغضب تحرق صدره، فنقع بقوة بعد أن ضرب الطاولة براحة يده: »

- اسمعي جيداً، سأعيدك إلى الزنزانة لتفكري براحتك جيداً، ليس أمامك إلا جورج أو الاعتراف، لا تنسي أنك الأسيرة المحررة وزوجة الأسير البطل نائل النوراني، لا تحطمي سمعتك بيديك.

« ثم ضغط على جرس لتدخل شرطية فتضع العصبة على عينيها، ثم تسوقها أمامها إلى الزنزانة، في اليوم التالي لم تره ولم يرها، تم نقلها لسجن النساء حيث دخلت جحيماً جديداً لم تعهده في حبستها الطويلة السابقة، لا يختلف كثيراً عما يجري في سجون الرجال. »



الغرفة الزهراء

هذا ما تخيلَه نائل عند سماعه خبر اعتقال معشوقته، وهذا ما حصل معها بالفعل، شعر بها وهي تعود إلى الزنزانة وراح خياله بانتظارها هناك، أناخت رأسها على صدره وسردت له ما حصل معها مع هذا اللثيم، طمئنتها وذكرها بحفظ الله وأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، هو أذى: « لن يضروكم إلا أذى » وسرعان ما يجعل الله لنا منه مخرجاً. قالت له والقلب مرتعش كسعف النخيل عندما تهزه رياح ناعمة:

- نعم بالله، ثم بروحك الجميلة التي تعانق روحي دوماً ولا أفتردها حتى وأنا أواجه أدغال ظلماتهم الوعرة، هنيئاً لي بك.

- وهنيئاً لي بك أيضاً. بك يزهر قلبي رغم أشواكهم التي طغت على كل تفاصيل حياتنا، أنت هذا القمر الذي يطل عليّ رغم أنف الغيوم السوداء التي تقف بيني وبينه، يصّر إصراراً عجيباً حتى يخترقها ويصل بروحه وريحانه إلى صميم قلبي.

- ستزهر حياتنا من جديد عندما نتحرر المرة الثانية ورجلهم على رقبتهم، رجال المقاومة يخوضون حرباً ضروساً ليصلوا إلى هذه اللحظة العظيمة.

- ويغدو السير إلى زوال هذا المشروع الغاصب المجرم الذي انكشف أمام العالم كله بممارسة حرب الإبادة الجماعية لأهلنا في قطاع غزة.

- إنها يا عزيزتي معركة الحبّ والحياة.

.....

أخلى الاحتلال (بكتافة نيرانه ودفع أرتال الدبابات المريعة ومع القصف الجويّ الشرس) مجمّع الشفاء الطّبيّ، مرضى وأطباء وممرضين خرجوا والدموع تملأ عيونهم، أخرجوه عن الخدمة وهذا يعني إخراج ما يزيد عن نصف الطاقة الاستيعابية للقطاع الصّحّي، أين يذهب المرضى والجرحى، حتّماً سينتقل كثير منهم إلى المقابر شهداء عند ربهم يرزقون.

وما فعلوه في مجمّع الشفاء صار نموذجاً لعدة مستشفيات تبعته على ذات المذبح الصهيونازي اللثيم، مشفى كمال عدوان في خانينونس لاقى المصير نفسه.

من وحي هذا الخروج المأساويّ ومع إطلالة يوم الخميس كان لنضال هذه القصة يقرأها بهمس على أصحاب السجن الذين يتشوّقون لاستراحة الأسبوع هذه:

«القصة بعنوان كرامة لا تنكسر أبداً:»

«ذهبوا وافعلوا ما شئتم، هذا المستشفى الذي يسمّونه مستشفى كمال عدوان يزعمون أنه صامد في وجه العدوان، هكذا يقولون، هو لكم بكل ما فيه من مرضى وطواقم طبيّة ونازحين، باختصار: لكم أن



الغرفة الزهراء

تخرجوا له كل وحشيتكم دون أن تحسبوا حساباً لأحد. لكم أن تقتلوا من تريدون، أن تقصفوا وتدمروا وتظهروا بطشكم الشديد، أن تعتقلوا وتضربوا وتكسروا أصحاب الأنوف الشامخة، لكم...

«رد عليه قائد الكتيبة التي تشن العدوان على مدينة خانيونس منذ عدة أسابيع وتخوض مع المقاومة الفلسطينية حرباً ضارية:»

- أيها الشيطان العزيز، لو تعيرنا سكوتك خير لك ولنا، قلت لك أكثر من مرة لا تتفلسف علينا، في هذه الحرب أنت ستتعلم منا، ستري ما لم تره في عالم الشر كله، ستري ما لم يخطر ببالك ولا ببال من علموك فنون الإجرام والفساد والعبث في الضحية. فقط سأريك مشهداً واحداً ثم إن أحببت أن تدلي بدلوك وتعطينا رأيك بعد ذلك أكن لك من الشاكرين، أرجوك شاهد ولا تتدخل أبداً، نحن نقوم بالمهمة وعلى أفضل بكثير مما تتمنى أو تتوقع منا.

بعد أن دمرت طائراتهم الحربية ودبابتهم الإجرامية محيط المستشفى من عمار وأحاطته إلى خراب ودمار، قتلت مئات الأطفال والنساء والويل كل الويل لمن كان نصيبه الاعتقال، يتمنى لو قتل ألف مرة على أن يعتقل، ضرب وتكسير وسحق وتهشيم للرؤوس والعظام، بعد تربيط المعتقل بمرابط بلاستيكية تكاد تقطع أيديهم وأرجلهم من حدتها وقسوة شدها على عروقهم، ثم تبدأ حفلات المناوبة عليهم بعصي من حديد لا تبقي فيهم ولا تدر، هذا مع تعمد الإهانة ومسح الكرامة بالتعرية من الملابس كاملة ورميه بأقنوع أنواع الشتائم وأسفلها.

بعد أسبوعين دمويين من الحصار القاتل للمستشفى، صباح هذا اليوم الأغير المكفهر قاموا بإفراغه من كل من كان فيه تحت قصف مدافع الدبابات وطائرات إبليس المسيرة التي تقصف فتقتل بغير حساب، نعتت مكبرات الصوت من باحة المستشفى مهددة بقتل كل من فيه أو ليخرجوا، لم يكن هناك بد من الخروج، بقي المرضى والجرحى ذوو الإصابات البليغة وآلامهم تصرخ في أعماقهم، نادوا بمكبرات الصوت كصوت الذئاب في ليلة عاصفة دون كلل أو ملل بتشفٍ لثيم كأنه إعلان نصر مؤزر، بقي الدكتور محمد صبح مُصراً على البقاء مع مرضاه مع طبيب آخر وثلاث ممرضات، لم تستطع نفوسهم ترك مرضاهم خلف ظهورهم وهم بأشد الحاجة إلى رعايتهم، ثم بدأت مكبرات الصوت ترعد بأعلى ما عندها:

- الدكتور محمد صبح ليخرج فوراً، إن لم تخرج سنقصف المستشفى على من فيه، أنت تعلم كلمة جيش الدفاع، ما في عندنا «يمة ارحميني»، سنقتلك ومن معك جميعاً، دكتور محمد صبح معك خمس دقائق، نحن جيش الدفاع جاهزون للقصف، مفهوم؟

امتقع وجه الدكتور وصار دماً قانياً: «ينادونني باسمي، لم يتبق وقت للنقاش، انتهى وقت الحياة عندهم وجاء وقت الموت، عشقهم ومبتغاهم، لم يعد هناك من مفر، أسلم نفسي خير من قتل من معي، ثم أنا لم أرتكب ما يعطيهم مبرراً لمحاسبتني رغم أنهم لا يحتاجون إلى مبرر، أنا طبيب، لست مقاتلاً فليكن ما يكون»



الغرفة الزهراء

وخرج الطبيب محمد قبل أن تنتهي فترة إنذارهم، ويا لهول ما رأى! صفّاً طويلاً على اليمين من الرجال على طول مائة متر تقريباً، ومثله على اليسار من النساء، يقفون بذل وانكسار وتقرأ في وجوههم ما لا تقرأه في رواية البؤساء، قد طأطأت رؤوسهم إلى الأرض وقد رأوا ما تشيب له الولدان من أعمال قهر وإذلال بين التعذيب والقتل البطيء تارة والقتل السريع تارة أخرى، بين يديّ هذين الصّفين عدة جثث لجرحى سالت دماؤهم حتى الموت، مشهد مريع قرأه الدكتور محمد، وعلى رأس المشهد دبابة تسلّط خرطوم الموت باتجاهه، زعق صاحب مكبر الصوت:

- تقدّم دكتور محمد لا تخف. « أمام كلّ هذا الرعب ولا يخاف! »

- اشلح كلّ ملابسك.

« نظر حوله ونظر في عيون الناس التي كان منها ما يعالجه لأيام خلت »

- ماذا تقول؟

- قلت بالعربي، «اشلح كلّ ملابسك، يعني أواعيك يعني كلّ اللي فوق جلدك.»

« خلع الدكتور معطفه الأبيض.»

- اشلح، كلّه كلّه.

« خلع قميصه .. »

- والسروال.

« نظر في عيون الناس، قالت له اشلح يا دكتور، حياتك غالية علينا، لا تستجب لاستفزازاتهم، يريدون قتلك، ضيّع عليهم الفرصة، حياتك غالية وليست مزحة، ما زال عندك ما تطبّب به جراح المكلومين.»

خلع طبيبنا ملابسه ومع كل قطعة كأنه ينزع شيئاً من روحه، وكان الصوت الشامت كالخنجر المسموم يزعق بقوة:

- اخلع كل ملابسك، لا تَبْقَ شيئاً...

« خلع كل ملابسه سوى ما يستر العورة المغلّطة، فصرخ عليه ذاك الغراب: »

- اخلع قبل أن أطلق النار عليك، ووجّه رشاشه باتجاه الدكتور وأطلق صلية من الرصاص فوق رأسه، الرصاصات أرعدت أذنيه وسرت قشعريرة قاسية في جسده، تحسّس الطبيب نفسه ليتحقق من أنه ما زال على قيد الحياة، ثم صرخ من صميم صدره:

- لن أشلح، هيا أطلق عليّ النار.



الغرفة الزهراء

« هجم عليه جنديّ شرّس فمزّق سرواله الداخلي ليقف الدكتور كما ولدته أمّه، ثم رفع سرواله عالياً كراية عزة قد حقّقها هذا الجندي المأفون، ثم نطق صوت المكبّر بنشوة عارمة على هذا النصر العزيز!:

- تقدّم إلينا يا حبيب أمك.

« سارخ الدكتور خطواته كي يختفي من هذا المشهد الذي خفّض رؤوس النساء والرجال، ذاك الجمهور القسري لهذه المسرحية اللعينة، لم يدر في خلد الدكتور أن يقف مثل هذا الموقف في يوم من الأيام، تذكر مشاهد الاحترام والحفاوة البالغة التي يحيطه بها الناس حيث ما رحل أو ارتحل، ما الذي ارتكبه حتى يهان كلّ هذه الإهانة، هنا أدرك لماذا يهينونه أمام جمهوره الطيّب، هي معركة كسر الإرادة والكرامة وإذابة الذات الحرّة لتصبح بلا إرادة ولا كرامة ولنقرأ على ذاتنا الفاتحة أو تبقى ذليلة عند نعالهم.»

وصلهم الدكتور فانقضّ عليه ثلاثة كبّلوا يديه بالشريط البلاستيكي الذي يستخدم في «طوبار» الخشب، كلّما حرّكت يداك رفع من درجة الخناق عليها حتى يصبح بوقت قصير كالمشمار يحزّ يديك بما يزرع الألم شديداً لا يحتمل، ثم إنهم بعد أن أحكموا وثاقه انهالوا عليه ضرباً، أصبح ككرة القدم بين مجموعة لاعبين محترفين، لم يبق فيه عضلة ولا عظمة إلا نالت نصيبها، رأى الناس جميعاً في وجهه من الألم ما هو أشدّ من ألم الضرب والتكسير: «لماذا كلّ هذا الحقد، ما الذي فعلته لكم، أكبر جريمة أني بقيت صابراً مرابطاً في علاج جرحى هذه الحرب المجنونة، لم أكن مقاوماً وحتى لو كان ذلك فهل يستدعي كل أحقادهم لتصبّ دفعة واحدة على جسدي النحيل؟»

ثم ألقوا به في أرضية جيب عسكري ليستقرّ به المقام عند بساطير الجنود، أعملوها بجسده وأجروا في الاستمرار بضربه، شدّوا عصابة على عينيه لتكتمل الصورة، أصبح أعمى لا يرى وصارت هذه العصابة مركز الألم إذ ضغطوها على عينيه المتورمتين، ودّ لو يحاورهم ولكنهم أبوا إلا أن يحاوروه بالمزيد من اللكمات والصفعات، وكأنهم قد حرموا منذ زمن طويل من كيس الملاكمة ثم جاءهم فجأة، أحبّ أن يُخرج شيئاً من صدره فصرخ بالعربي والإنجليزي:

- لماذا؟ واي؟

قهقه الجنود بأعلى صوتهم، ثم انهالوا عليه بموجة جديدة من الضرب وهم يسخرون:

- لماذا ويضرب، واي ويضرب.

بعد ساعتين وهم على هذا المنوال توقّف الجيب، هدأت المعركة قليلاً ثم شحطوه من الجيب، جرّوه كما تجرّ الدابة، سمع صوت أبواب تفتح، ثم استقرّ في غرفة التحقيق، عرف ذلك لمجيء شاب أنيق ليفك العصابة عن عينيه ويبتسم له ابتسامة عريضة:

- أهلاً وسهلاً سيّد محمد، أراك في حالة يرثى لها، ما القصة؟

- تدّعي أنّك لا تعرف، أسأل جنودك.



الغرفة الزهراء

- جنودنا لا يعملون هذا، جيشنا من ناحية الأخلاق أفضل جيش في العالم.
- ما شاء الله عليكم، إذن من فعل بي هذا؟
- اسمع دكتور، كي تروّح لأهلك سالماً غانماً، ضع عقلك في رأسك واسمعي جيداً، أعلم يقيناً بأنك لم ترتكب أي شيء ضدنا، ولكن بإمكانني أن أتهمك أنك عملت مع حماس وبإمكانني أن أخرجك من هنا كما تخرج الشعرة من العجين، هذا يعتمد عليك أنت.
- ما المطلوب إذن للخلاص من هذا الجحيم؟
- كلمة حق بعدها أمورك تصبح لوز... ويا دار ما دخلك شرّ.
- كلمة حق؟ أنا جاهز على طول.
- تشهد على أنه كان في مكتب قيادي لحماس في المستشفى.
- هذه كلمة حق؟ هذا باطل، لم يكن لحماس أي وجود في المستشفى لا قيادة ولا حتى عناصر عاديين.
- « كشر عن أنيابه ونعق بقوة: »
- أنت اخترت لنفسك طريق الموت حبيبي.
- الموت في شهادة الباطل.
- فكر منيح، فرصة ذهبية جاءت لعندك، وعندكم في القرآن: « يجوز لمن أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان »
- على جثتي لا أشهد شهادة باطل.
- فكر يا دكتور في حالك، إنت دكتور كبير وقد الدنيا، حرام تفقد حياتك من أجل كلمة.
- أفقدها ألف مرة في هذه الدنيا الفانية خير من أفقدها في الدنيا والآخرة. « قالها وكأنه يؤكد على عزيمته كي لا تفكر لحظة فيما يريدون. »
- « ضغط المحقق على كبسة حمراء، دخل سريعاً سجانان، شحطاه بعنف إلى زنزانة قذرة، ألقياه فيها وأشبعاه ضرباً مبرحاً ضحاً فيه كل أحقادهم، في الوقت ذاته سرت في جسده نشوة الانتصار، شعر بعظمة روعتها وبحلاوة في قلبه، لحظة من لحظاتها تضمّد جراحه وتبلسم ما فيه من ألم الإهانة التي لو صبّوها في بلد كبير لوسعته، لم يعد بعد ذلك يكثر بشيء من سوء الطعام والمعاملة ووضع آلامه التي بقيت ترافقه لأسابيع طويلة، المهم انتصر عليهم، وكان كلما توجّع ذكر لطف الله به أن ثبتته على الحق ولم يبع ضميره لهؤلاء المجرمين. »



الغرفة الزهراء

وكان يمرّ في خاطره كيف لو استجاب لطلبهم، وخان دماء الشهداء وقلب ظهر المجنّ للمقاومة الباسلة، ذلك هو الألم الفظيع الذي لا يغادره أبداً، وكان يحمد الله كثيراً على هذه النعمة التي لا توازيها الدنيا وما فيها من متاع زائل. انتصرت إرادته الحرّة على إرادتهم الماكرة الماجنة المجرمة.

اعتاد أن ينهض على عدد الصباح فيخرجوه من أحلامه الجميلة التي يرى فيها غزّة وقد عاد لها شبابها واستردّت عافيتها وأصبحت نموذجاً يُصدّر قيم الحرية والكرامة والسّيادة، وروحاً تسري في عروق الأمة لاستعادة مجدها ودورها الحضاريّ العظيم.

زق صباحاً مكبر الصوت على اسمه فخرج من أحلامه العميقة الجميلة ليهبّ واقفاً كي لا يناله أذاهم، فهذه الأيام يتم تكسير عظام الأسير لأنفه الأسباب، وأحياناً كثيرة دونما سبب يذكر، ولما يتشاف من آثار الضرب بعد.

- أنت محمد صبح؟

- نعم صحيح.

- أنت شحرور «إفراج».

كاد قلبه يقفز من صدره، معقول سيخرج من هذا الجحيم، معقول سيفلت من عقابهم، سيعود حرّاً طليقاً، هل بالفعل ستقلب هذه الصفحة السوداء من حياته، سيعود لمرضاه ومزاولة مهنته التي تنقذ أرواح الغلابى والعباد؟

خرج من ذهوله وأقبل على إخوانه المعتقلين ليعانقهم ويبثّ الأمل من قلبه لقلوبهم، سحبه بعنف ودفعوه أمامهم كمن يريد أن يشغل سياره استعصت عليه، ودّعهم بنظرات حزينة بائسة، أنهى إجراءات الإفراج التي استغرقت أربع ساعات، ألقوه بداية في قفص في العراء مكشوف من جهاته الأربع، يضربه هواء صحراء النقب البارد من كل جانب، ثلاث ساعات مضت كأنها ثلاثون، ولم يكن على يقين بأنّه بالفعل إفراج، قد تكون جولة تحقيق جديدة أو أنهم سيحتفلون به من جديد وقيمون حفلات التعذيب القاسية كالتي خاضها بداية رحلته معهم، ثم إنهم طلبوه ليجلس مع ضابط الأمن، سار خلف الشرطي الذي قاده والحديد في يديه ورجليه، جلس قبالة ضابط قصير وبدين، ذي صوت حادّ ورفيع، زق متكلّفاً الوداعة والهدوء:

- مرّة أخيرة سأعرض عليك عرضاً مغربياً، صفقة لصالحك، أنت من ناحيتك تحكي إنه كان في مكتب في المستشفى لحماس، وكانت قياداتهم تجتمع فيه، ونحن من ناحيتنا نطلق سراحك ومكافأة مالية تعيد فيها تعمير بيتك، أه نسيت أحكي لك دكتور: نحن فجّرنا بيتك.

- لا حول ولا قوّة إلا بالله. «بحزن وأسى»

- ماذا قلت؟



الغرفة الزهراء

- قلت لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا طبيب لا أجد إلا مهنتي كطبيب.

- أنتم الغزاويون رؤوسكم من حديد.

اسمع حبيبي، سنطلق سراحك يا دكتور، ممنوع مقابلات إعلامية، ممنوع تحكي عن أي شيء رأيت أو صار معك في هذه الحبسة، مفهوم؟ وإلا نعرف كيف سنعيدك إلى هذا الجحيم، مفهوم؟

- مفهوم.

ثم جاء شرطيان وساقاه إلى ذاك القفص ليملك فيه قرابة ساعة مرّت عليه كأنها سنة، فتحوا القفص وساقوه إلى البوسطة، الجنازة المصفحة بالحديد، سارت به قرابة ساعة ليجد نفسه عند معبر «كرم أبو سالم» أنزلوه وفكّوا وثاقه ثم طلبوا منه خلع ملابسه، قال لهم عليهم يعقلون:

- كيف أخلع ملابسي في هذا البرد.

- اخلع ولا كلمة، تدافع عليه اثنان وحال بينه وبينهم ثالث، خلع ملابسه سوى الداخلي فهجموا عليه ونزعوا عنه وهم يقهقهون ومنهم من كان يصوّر ويلتقط «سلفي» بحيث يظهر الدكتور معه في الصورة.

أشاروا إلى الطريق وتركوه يسير قرابة خمسة كيلو مترات وهو مجرد من كل ملابسه، ينظر تارة إلى السماء ثم يخفض رأسه إلى الأرض، عرف كيف يفتersh المرء الأرض ويلتحف السماء، وزد على ذلك أنه عار من كل شيء، وصل خرابة كان اسمها غزّة قد جردوها من كل شيء، نزعوا عنها كل ملابستها وحللها كما نزعوا عنه ملابسه. شعر بجسده الخرب، قادماً من سجون خربة إلى ديار خربة ولكن في داخله كرامة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم، كرامة لم ولن تنكسر أبداً.

كان نضال يقرأ وكأن الطير على رؤوسهم، دخلوا بكلّ مشاعرهم عالم هذه القصة القصيرة التي جاءتهم من وحي تلك الحرب القاسية، علّق كلّ منهم بما جال في صدره، أثنوا على نضال الذي احمرّ وجهه البرونزي وتمنّى من أعماق قلبه أن يكفّوا عن المديح مع أنه ينتظر أن يسمع ما يؤكد له قوة القصة، تبقى يده على قلبه حتى يُفرغ ما بجعبته ويستمتع لردة قولهم.

.....

بعد أسبوع عاد نعيم من عزلهم، كادوا ألا يعرفوه، شخص آخر تماماً، وجهه متورّم ومليء بالبقع الزرقاء والجروح المتعفنة باخضرار قبيح، أسنانه مهشمة وحاجباه مترهلان، منحني الظهر، متقوس الصدر، نحافة مخيفة، يجرّ قدميه كأنها غير قادرة على حمل جسده، يدها مجبرتان إحداهما معلقة برقبتة، واضح أنه محطّم الهيكل من كل جانب كسيارة تدهورت في وادٍ سحيق فلم يبق فيها شيء سليم. دفعوه داخل الزنزانة، صفقوا بابها بعنف كأنهم جاءوا ليتخلصوا من همّ ويلقوه عن ظهورهم.

سلمّ سلاماً باهتاً ووقف وسط الغرفة واجماً، احتضنه نائل برقّة وحنان، ووقف له كل من في الغرفة



الغرفة الزهراء

ليضعوا ما فعل نائل، وكلّ يُسمعه ما طاب من الذي يرفع الروح ويشدّ العزيمة سوى رائد همس في أذنه:

- كنا نقول: «جاييهم يوم» هم الآن يعيشون هذا اليوم في غزة، توكلّ على الله يا خوي»

نعيم يحتاج إلى أن يدخل مستشفى ليعالج ما به من جروح وكسور والأخطر من ذلك جروحه النفسية العميقة التي سيطول علاجها حالة توفر المعالج والعلاج، لا أدري ما هو مصيره في هذه الزنزانة الزهراء «الكئيبة» وفي هذا الظرف التعيس الذي يشبهه من هو في طنجرة ضغط.

كانت وجبة الأخبار الصباحية المنتفّس الوحيد الذي يخفّف عن الصور قليلاً من ثقل الحرب وعذاباتها، على الأقلّ تأتيهم أخبار أفعال المقاومة وبطولاتها التي أذهلت العدو قبل الصديق، هذا من جهة ومن جهة ثانية أخبار فعل الآلة العسكرية المدمرة للبنيان في غزة وكلّ مقومات الحياة والقاتلة للأطفال والنساء بما تشيب له الولدان.

نجحت وكالة صقر للإعلام بقيادة علاء الهمّام أن تلتقط قناة الميادين اللبنانية على محطة «اف ام» لراديو محليّ، فكانت فتحاً مبيناً لعلاء، أضافت سردية الفعل الفلسطيني في هذه الحرب، كانت محطات إسرائيلية تحجب كلياً ما هو لصالح المقاومة الفلسطينية وتغرّب ما يخدم الدعاية الكاذبة والمضلّلة وتوظّف ذلك وفق أهدافهم ورؤيتهم للمعركة إلا ما تسرّب منها، الميادين تلفزيون مُنتم للمقاومة بامتياز، وقد استضافت من المحلّلين العسكريين والسياسيين ما يحلّل بشكل موضوعي، وبعيداً عن سمّ وكالات الأنباء العربية المتصهينة مثل العربية وأل: **MBC** التي اعتبرت قادة المقاومة الشهداء إرهابيين.

ممّا ذكره الدويري على قناة الجزيرة عن هذه الصيحة من هذا الفدائيّ الذي يضرب من مسافة صفر وقال: «حلّ يا دويري» أنّه ارتعش لها جسده وانتفض قلبه ودمعت عيناه، انتابته مشاعر من الفخر والتكريم بما لا تجاربه أية شهادة أو وسام تقلّده في حياته، هذا الرجل الفدائيّ المقدم وفي أرقى تجلياته وهو يضرب وسط المخاطر وهو على الخط الرفيع الذي يفصل الحياة عن الموت، هناك يتذكّره ويطلب منه أن يحلّل، ما هذه العظمة والروح الجميلة العالية!

كلّ يوم سيل من الأخبار المفعمة بالبطولة تارة وبأخبار القتل والدمار تارة أخرى، أصبح وكأنّ هذا العدو كلما تكبّد خسائر جسيمة في الأرواح راح يفشّ خلقه في القصف المدمر والمزلزل للأحياء السكنية والمشافي والمدارس والمساجد وكل مقومات الحياة، وكأنه يتجلّى بعد أن يستمع في الأخبار أن نتائج قصفه جلّهم من الأطفال والنساء، وهذا أكثر ما كان يغيظ أصحاب الضمائر الحية في العالم، مشاهد الأطفال وهم يخرجون من تحت الأنقاض جثثاً هامدة أو جثثاً مهشمة فيها بقايا حياة، لم يعد هناك آليات قادرة على متابعة الحجم الهائل من الدمار حتى تنقذ من صاروا تحته، جهود يدوية ممّن يتجمعون من الناس، تحضر بأظافرهم لتخرج من ما زال في عمره بقية حياة.

وتنزل على الناس كسفاً من سماء العتاد الأمريكي المدمر، صواريخ تزن الألفي رطل من المواد شديدة الانفجار، وتأتي الصور لتظهر للناس حجم هذه الصواريخ الأمريكية المزلزلة، لم يعد هناك محرّمات



على بني صهيون في هذه الحرب، عاثوا في قطاع غزة فساداً، وأشبعوها دماراً وشرّدوا أهلها منها ولم يعد هناك مكان آمن البتّة، هدّدوا باجتياح خان يونس ورسدوا لها سبعة ألوية جاءت بقضّها وقضيضها تازّ مجنزراتها وكأنّها كتلة من الحديد الصلب يضرب بعضه بعضاً، تتقدّمها الجرافات الضخمة (D9).

في أحد المحاور تقدّمت الكتل الحديدية الصمّاء بكلّ جبروتها، وهناك كانت تدبّر الأمور بليل طال انتظار فجره، مع تباشير الفجر أخرجت لهم الأرض أثقالها، خرجت قذيفة الياسين ٥٠١ ومن خلفها رجل من رجالها، يزحف على قدميه العاريتين سوى من قطعة بلاستيكية تدعى في غزة: «زنوبا» زحف وتمركز في مواجهة هذا الحديد الضخم، سمّى الله ثم أرسل قذيفة على سطح الجرافة ليرسل معالم الموت على من فيها ويتوقّف الرتل، ثم أنزل المقاومون من كلّ مكان سخطهم وعظيم غضبهم، أحالوا دبابتهم إلى قاع صنفص، وضجّت المنطقة بالعويل وأزيز الطائرات المروحية لنقل الجرحى، وقعوا في كمين محكم، بعد ما يقارب الأربع ساعات حتى استطاعوا إخلاء جرحاهم ودبابتهم، انكشف غبار المعركة على الكم الهائل من الدمار والقتل والتشريد، سيّارات الإسعاف تنقل منا والطائرات العمودية تنقل منهم، لم يعد بالحسبان إلا حرب استنزاف طويلة وعضّ على الأصابع لمن يعلن عن الألم قبل الآخر.

صبيحة تلك المسائية الساخنة على جبهات المقاومة جاء القصف المدمّر وجاءت فرقة «نحشون» لتداهم القسم وتبدأ بالزنزانة الزهراء، دخل أحدهم متقدّماً فريقاً مدرعاً بالكلاب الضخمة والجنود التي تشارك الكلاب ضخامة أجسامهم، أشار بعصاه على ثلاثة (سليم ونعيم ورائد) وأبقى ثلاثة:

- أنتم الثلاثة، منقولون. قبل النقل أروني مسرحية الضرب، أنت، وأشار على سليم عشر لكلمات من أقوى ما عندك لهذا العجوز الأعمى «مشيراً إلى علاء»، وأنت «مشيراً إلى سليم: عليك بهذا بهذا الأشقر بعشر صفعات أريد أن أسمع صوتها لكلّ من في السجن، وأنت، مشيراً إلى نعيم: «أيها المعتوه، عليك بهذا الرجل الكهل «مشيراً إلى نضال: أريدك أن تشبعه ركلاً من كل صوب وحذب وبكلّ ما أوتيت من قوّة.

«وكأنّهم قد تعبوا من الضرب أو ملّوا هذه الحكاية وأرادوا أن يصنعوا حكاية ثانية تشبع غريزتهم السادية»

الشيوخ الثلاثة من جانبهم طلبوا من الشباب أن يفعلوا ما طُلب منهم، ونضال سارع مُفتياً لهم:

- افعلوا ما طلب منكم؛ فهذا أخفّ الضررين.

ماذا تتوقّعون؟ هل يفعلها هؤلاء الثلاثة، بالتأكيد رفضوا، فانهالت العصيّ على رؤوسهم، سوى نعيم الذي حاول أن يضرب نضال، ولكن قواه خائته بما فيه من آم، فناله ما نال زملاءه من الضرب المبرح.

آية سادية وأيّ توحّش قد أصاب هذه الكائنات البشرية المفترسة، كيف كشفت هذه الحرب عن مستوى الشرّ الغارقة فيه حتى النخاع، لم يكن هناك من يتوقّع أن يخرج منهم ما خرج من إجرام وتوحّش وروح شريرة سوداء بهذا الشكل المريع. بلغوا انحطاطاً ما بعده انحطاط.



الغرفة الزهراء

تنفّس الثلاثة الصعداء إذ عادت الزنزانة بسعتها الأصلية لثلاثة، بالإمكان أن يزداد لها واحد لتصبح أربعة، أما أن يحشوا فيها ستة فهذا أمر في غاية القسوة والظنك.

ويا فرحة ما تمّت، لم تصل الشمس كبد السماء إلا وضيغان قد تمّ تصديرهما إلى هذه الزنزانة الجميلة، جاءهم شابان يرى عليهما أثر الاعتقال الجديد، ربّ ضارة نافعة، سيوافوهم بأخبار جديدة تنعش صدورهم وتتحف قلوبهم.

الضيغان هما: عبد الرحيم وسائد.

نضال يرتاح إلى ربط الأسماء بما تحمل من معانٍ ودلالات، فهتف بعد أن عرّف الجدد على أسمائهم

- تفاءلوا يا شباب، عبد الرحيم وسائد، رحمة تسود بإذن الله.

«فعلّق نائل»

- ونحن الثلاثة، نضال ونائل وعلاء: نضال ينال من ذاك العلاء الرابض على صدورنا.

وعندما ذكروا عدد سنوات السجن تركوها غير معرفة ليوهموهم بأنها شهور وليست سنوات كما يحلو لهم دائما كعادة اعتادوها، إلى أن يُكتشف الأمر فيما بعد.

عبد الرحيم شاب في العشرين نحيف ووسيم، أسمر البشرة وذو قسمات ناعمة مريحة عرّف بنفسه:

- الرفيق عبد الرحيم، طالب في جامعة بئرالسبع ومن سكّانها من عرب ثمانية وأربعين سنة ثالثة. معتقل على خلفية احتجاجات على الحرب في الجامعة.

سائد أيضا في بداية العشرينيات، قوام قصير وبدين لصوته جرس عال، يحاول صناعة النكتة فتبدو مفتعلة، يعمل في الأمن الوطني الفلسطيني، قال عن نفسه:

- أخوكم سائد، من جماعة السلطة «عدم المؤاخدة».

«تبسم الجميع وهتف نائل:»

- أعانك الله.

«تقدّم نضال بعد تردّد وهتف، يا شباب بما أنه اليوم الخميس ما رأيكم باستراحة الأسبوع، وراح بوجهه إلى النزليين الجديدين وتابع: هذه استراحة الأسبوع قصّة أقدمها للشباب من وحي المعركة..»

قاطعهم علاء:

- ولا تنس أنها من فعاليات وبرامج وكالة صقر العالمية.



الغرفة الزهراء

« ولا بدّ لنا أن ينكش رأسه على علاء: »

- وكالة صقر تنافس الجزيرة وفي الوقت نفسه « تلتطش » أخبارها منها. سرقة الأخبار حلال يا شيخ.

- لعلاء في هذه الظروف حلال مائة بالمائة.

- الله ينصر دينك شيخ نضال، الآن دعنا نسمع القصة، كلنا آذان وقلوب صاغية ومتلهفة، ولا تنسوا أنها من فعاليات وكالة صقر الإعلامية، الزاوية الأدبية:

« تنحنح نضال ثم شرع يقصّ قصّته بشغف:

قصّتنا اليوم مؤلمة، بل مؤلمة إلى درجة لا تحتل، هي بعنوان: « لم يعد الصمت محتملاً ».

- هات ما عندك يا سيدي، لم يعد هناك شيء محتمل في ظلّ هذا التوحّش والإجرام الذي لم يسبق له مثيل. « هتف علاء »

- حسنا، على بركة الله:

بعد خمسين يوماً من الاعتقال المهين، يومان مرّاً على الإفراج عنا والانتقال من عالم أسود شديد الحلكة دون أية فرجة من نور، تقف بين المهاتتين مهانة، وبين العسرين عسر، فقط جاء اليسر عندما تمّ إبلاغنا بفضّ قيدينا، انتقلنا إلى عالم أقلّ سواداً بقدر يسير، نلتقط به نفساً بين موتتين. موتة من القصف بكلّ أنواعه الجهنمية، جواً وبحراً وبراً، وموتة من المجاعة وانتشار الأوبئة وفقر الدم والمناعة وفقر كلّ مقوّمات الحياة.

بعد يومين تمكّنا أنا ورفيقة دربي في الحبسة من الالتقاء، وصلت ذات المدرسة التي وصلت إليها حيث ينزح إليها النازحون والفارّون من لهيب أسلحة الدمار الشامل، كان ذلك في يوم بارد ماطر، السماء تكتظّ بغيوم سوداء تحجب الشمس وتقف بشدة وحزم أمام كل من يحاول التسلّل من أشعتها الدافئة تماماً كحاجز عسكريّ لثيم، وغرف المدرسة على ثلاث طبقات مكتظة بالنساء والأطفال المرعوبين والخائفين على أرواحهم، وكلّ منهم له قصة في فراره من بيته ووصوله إلى هذا الملجأ القسريّ، أغلبهم قد فقد عدداً من عائلته واعتصم من تبقى منها في هذه المدرسة.

المهم في ساحة المدرسة التي تطلّ عليها هذه الجماهير المحشورة في غرفها التقيت أنا شهد مع ناريمان، وكانت فرصة لأخرج ما تراكم في صدري من قهر كأنه كتل صخرية أثقلت صدري وسحقت قلبي بكل ما فيه من حزن وكره لا يعلم حجمه إلا الله.

بعد عناق طويل أفرغت فيه كثيراً من شحنات قلبي، انفلت لساني من عقاله:

- اتفقنا في السجن يا روجي أن نتكلّم.



الغرفة الزهراء

- أعترف لك أن الموضوع ليس سهلاً، لم أتخيل نفسي كيف سينظر لي أهلي، الناس، كيف سأنظر أنا نفسي في المرأة، هل تتحمل نفسياتي هذا الوصف الذي سأنت به، تخيلي سيقال: هذه البنت مغتصبة، اغتصبها اليهود؟!«

« ارتسم على وجهي ذات الألم وهاجت عواصف عاتية في صدري، انهمرت عيناى بالدموع ورأيت دموعها كالمطر»

- وهل الصمت هو البديل؟ هل نصمت على جريمتهم؟ هل نذعن لتهديداتهم؟

- لم أقل هذا، الصمت فظيع، سيقتلني كمدأ وقهراً. « ثم هزت رأسها بعنف وتابعت: والبوح أشدّ وطناً وأماً.

- يا خيتي باختصار، الكلام نتضرّر منه نحن شخصياً، بينما الصمت تتضرّر منه قضيتنا وسنفتح الباب على مصراعيه على هذه الجريمة لأنهم سيقولون: تخشى الفلسطينيات على أنفسهن من فضح ممارساتنا معهنّ، سوف يمعنون في هذه الجريمة وتصبح ديدنهم، أنا مقتنع تماماً رغم كل تهديداتهم لنا بأنه لا بدّ من التضحية بالشأن الخاص لخدمة الشأن العام.

- أنا معك، لكن بصراحة ... « وطال صمتها مع المزيد من البكاء والنشيج»

- بصراحة ماذا؟ والله إنّي لأعرف ماذا يعتمل في عقلك. تخشين على فرصك في الزواج. ثقافة مجتمعنا تظلمنا كثيراً.

- لا أريد أن أزيد خسارة على خسائرنا الكبيرة، خسرنا بيوتنا وكثير من أهلنا، أحوالنا وأموالنا كلّها أكلتها هذه الحرب المجنونة، لم يتبق لأحدنا إلا ما نحمل من شرف ودين وضمير حيّ.

- أنت إنسانة مؤمنة، والله سبحانه وعدنا أن يجعل لنا مخرجاً إذا كنّا على تقوى الله. (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً).

- الحمد لله، تربينا على أن نكون حريصين على تقوى الله.

- ومن تقوى الله يا سيّدي أن نعرّي الظالمين ونكشف ظلمهم للناس، (لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) وتعلمين أن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

- اسمعي أذكيلك أنا مقتنعة بما تقولينه ولكنّي نفسياً لست قادرة، أنا كلما مرّ شريط ما فعلوا بي أكاد أستفرغ أمعائي، أشعر بسكاكين تضرب نصالها في قلبي، قولي لي كيف يتخيلني الناس وأنا أتحدّث عن الاغتصاب الهمجي الذي وقع عليّ، كيف كبلوا يدي من الخلف ثم كيف مزّقوا ملابسني بصورة وحشية، لا لا أستطيع أن أكمل، مجرد إعادة الشريط عذاب ما بعده عذاب.

- لا داعي للتفاصيل نحن نوثّق شهادتنا على أصولها في مؤسسة حقوقية ونطوي الصفحة.



الغرفة الزهراء

- بهذه البساطة نطوي الصفحة، ليتني أستطيع ذلك.

« وضعت راحة يدي على كتفها برفق وقلت بحماسة هادئة:

- يا عزيزتي، دعي الحديث لي، نحن أمام هدف نبيل، خاصة أنهم ادّعوا على رجال مقاومتنا أنهم اغتصبوا نساءهم يوم السابع من أكتوبر وثبت كذبهم ولم يستطيعوا الإتيان بدليل واحد، نحن الآن الدليل القطعي على أنهم ارتكبوا هذه الجريمة، نحن أمام هدف عظيم يستحقّ منا هذه التضحية. »

- أنا جاهزة توكّلي على الله، لن يضيّعنا الله.

رَن هاتفي فإذا به الصحفي الذي رتّبت معه على عقد مؤتمر للإفصاح عن الأمر.

- اليوم الثانية بعد الظهر ستأتي الصحافة ووكالات أجنبية، جاهزة؟

- نعم جاهزة ومعني المعتقلة الثانية التي حدثتك عنها.

- عظيم جداً.

- وسيأتي مندوب عن الأمم المتحدة لتسجيل الشهادة.

- التوقيت جداً مناسب، «نتناهو» بالأمس يتشدّق بأن جيشهم هو أكثر الجيوش أخلاقية في العالم.

- بالفعل لم يعد الصمت محتملاً.

« كان أول المعلقين علاء»

- لقد أبكيتي شيخ الأدب نضال، وأنا طبيعة دمعتي عزيزة جداً.

« انبري سائد بقنبلة مفاجئة من الطراز الثقيل الذي لم تعده هذه الزنزانة منذ فترة طويلة، ألقى بقنبلته كتلك القنابل التي تلقى في غزة على رؤوس ساكنيها»

- وما الذي جرّنا إلى هذا الوضع المأساوي، لم نعرف الاغتصاب قبل هذه الحرب أبداً؟ من الذي أخرج للناس كل هذا الشر؟ لو لم تفعل كتائب القسام ما فعلت لما دُمّرت غزة، ولما تصرّف معنا الاحتلال بكل هذه الروح العدائية.

« ردّ نائل بقوة بعد أن احمرّ وجهه الأشقر وانتفخت العروق في رقبتة:

- وما الذي فعلناه قبل النكبة؟ ماذا فعلنا حتى طردونا من ديارنا وأعملوا الذبح والقتل فينا سنة ثمان وأربعين؟»



الغرفة الزهراء

« وأردف علاء مستغرباً: »

- باقي القول إن المقاومة هي التي قتلت وارتكبت المجازر.

« ردّ سائد بصلف وبرود: »

- هي كانت السبب؛ ولو تصرفت بحكمة لما وصلنا إلى هذه النقطة.

- كيف سيكون التصرف بحكمة مثلاً؟ « سأل نائل محاولاً ضبط أعصابه. »

- هجوم السابع من أكتوبر كان كبيراً جداً لا يحتمله العقل الإسرائيلي، شكّل صدمة وصعقة استفزّت كل الشرّ الذي بداخلهم.

وتدخّل بوجل وتردّد عبد الرحيم:

- أنا صحيح ضدّ الحرب وشاركت بمسيرات تدين حرب الإبادة الجماعية التي تمارسها «إسرائيل» ولكنّي في الوقت نفسه لست مع ما قامت به كتائب القسام يوم سبعة أكتوبر.

« توقّف علاء ونائل ونضال واجمين مذهولين، حائرين فيما يسمعان، نضال أخذ نفساً عميقاً وأخذ الحديث محاولاً السيطرة بهدوء على بركان الغضب الذي يثور في أعماق صدره: »

- حسابات الربح والخسارة في الحروب والسياسة مهمة جداً سيدي، والقيادة الناجحة تضع في نصب عينها أن تنتصر، فتضع الأهداف الممكنة والخطط والبرامج التي من شأنها أن تحقّق النتائج، هناك فرق شاسع بين من يريد أن ينتصر ومن يريد أن ينتقم.

- وهل تستطيع القول بأن تدمير قطاع غزة انتصار؟ « سأل سائد »

- وبالمقابل ما هو حال أعدائنا؟ ما الذي خسروه في هذه المعركة؟

- لم تدمّر تل أبيب كما دمّرت غزة.

من الواضح أنّ تركيبية الزنزانة قد تغيّرت وحالة الانسجام مع الفكر المقاوم قد تبدّلت، أصبحت الهوة شاسعة وهذا يتطلب نفساً طويلاً في النقاش، خبراتهم المديدة في السجون تعلم أنّ لهذا إيجابيات كما أنّ له سلبيات عليهم احتمالها، نائل لم يستطع أن يبقى صامتاً، دخل ساحة النقاش:

- خسائر المشروع الصهيوني أكثر بكثير من خسائرنا، عدّ معي:

أولاً: خسر الجيش الإسرائيلي قدرته على تحقيق الردع، ثلاثة شهور من الحرب الضروس لغاية الآن والحبل على الجرار دون الوصول إلى أهدافه، في حرب سبعة وستين في ستة أيام سحق ثلاثة جيوش عربية واحتل الجولان والقدس والضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء، يا رجل قطاع غزة أصغر من محافظة رام



الغرفة الزهراء

الله والبيرة، وما زال القتال على أشده في مواجهة فصائل مقاومة وليست جيوش دول جرارة.

- تأكل الردع واضح ؟ « علق علاء وكأنه يريد من نائل أن يختصر ولا يطيل الشرح » « تابع نائل »

ثانياً: عودة القضية الفلسطينية للصدارة مع فشل ذريع للسردية الصهيونية على هذه الأرض، هم أقاموا مشروعاتهم على أساس أنهم ضحية الإبادة الجماعية التي مورست عليهم من قبل النازية الألمانية، الآن صورتهم في العالم لم تعد صورة الضحية بل هم من يمارس حرب الإبادة الجماعية على السكان الأصليين لفلسطين. وهذا نقض لمشروعهم من أساسه.

ثالثاً: الحرب النفسية التي وقعت على رؤوسهم من الشمال ومن الجنوب، فسكان الجنوب نزحوا إلى الوسط وكذلك سكان الشمال، الآن غير قادرين على وقف خطر الشمال وخطر الجنوب، أرض السمن والعسل والاستثمار الاقتصادي باتت في خطر، لا سمن ولا عسل ولا أمن ولا أمان ولا استقرار، دمار نفسي وهجرة معاكسة وهذا له تداعيات كبيرة أثناء الحرب وما بعدها.

- ألا ترى أنك تبالغ كثيراً؟

« سال سائد مستغرباً بعد أن زم على شفتيه: »

- هذا تتداوله الصحافة العبرية وكثيرون من زعمائهم يتحدثون عما باتوا فيه من ويلات هذه الحرب، على كل، هب أن هناك مبالغة في إحدى النقاط، مجموع النقاط تقوي بعضها بعضاً خذ أيضاً: وضعهم الدولي وإدانتهم لدى محكمة العدل الدولية والمظاهرات التي تجوب عواصم العالم مستنكرة أفعالهم ووضعهم الاقتصادي، وكلما امتدت الحرب ازدادت هذه الأمور تفاقماً.

« لم يعجب هذا الكلام سائد: »

- أنا أعتبر أن كل هذا لا يساوي جزءاً يسيراً من الدماء الزكية التي سفكت في غزة، قتل الأطفال والنساء بهذه الحرب التدميرية تسقط أمامها كل الاعتبارات السياسية.

وتابع عبد الرحيم من صميم قلبه:

- وأنا كذلك، لا أرى في كل هذه الفوائد ما يستحق كل هذا الدمار والأرواح التي أزهقت.

« هتف نائل غاضباً: »

- وهل وجدتم على مر التاريخ شعباً تحرر من ربطة الاستعمار دون ضحايا وشلالات من الدماء.

« ردّ سائد بحزم: »

- كلامك صحيح، ولكن ظرفنا يختلف كثيراً عن أية حالة، أنت تتحدث عن أكبر ترسانة عسكرية في المنطقة مدعومة بالدولة الأعظم في العالم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا زيادة



البياع. ماذا عساها تصمد المقاومة الفلسطينية؟

«وعزّز رأيه عبد الرحيم:»

- إضافة إلى هذه القوة المادية الهائلة المدمرة فإنها تتمتع بروح شريفة لا حدود لها في عالم الجريمة.

- ولكنها في السابع من أكتوبر انكشفت عسكرياً واستخبارتياً وأمنياً على أنها أوهن من بيت العنكبوت.

«ردّ سائد بنبرة حاسمة وسريعة:»

- وهذا ما دفعها لإخراج كل ما بداخلها من شرّ مستطير، لذلك اسمح لي بوجهة نظري، نحن فرحنا لما حدث من اختراق وانتصار في لحظتها ولكنها كانت غير محسوبة وجلبت علينا الدمار، وهنا دعني أسألك: لو كانت قيادة القسام تعلم هذه النتائج الكارثية وهذا الدمار الذي لحق بغزة لأقدمت على ما فعلت؟ لو أنها قدرت ذلك وأقدمت مصيبة ولو لم تحسن التقدير فتلك مصيبة أكبر.

«تدخل نضال قائلاً - وهو يحاول أن يضيفي ظللاً روحية على النقاش كعادته - :»

- إخوتي حسابات المعركة المادية ضرورية وواجبة، وعلى القيادة وصناع قرار السلم والحرب مسؤولية عظيمة، لا شك بأنها تخضع لحسابات دقيقة ولكن في النهاية لا بد من التوكل على الله، (فإذا عزم فتوكل على الله) ولا تنسوا أبداً أن الله بقوته وعزّته وقدرته وجبروته مع المؤمنين ومع أهل الحق، آيات كثيرة تدلّ على هذا؛ لذلك قال تعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» ثم انظر إلى سورة الفيل مثلاً كيف ضربها الله مثلاً لنبيه عليه السلام ليثبت بها فؤاده: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) انظر إلى سرديّة القرآن حول هذه المعركة بدأت بفعل الله: كيف فعل ربك.

وسمى السورة باسم الآلة التي استخدمها معسكر الباطل، هذه الآلة الضخمة المرعبة المخيفة، وذكر الآلة التي انتصر بها معسكر الحق: طيراً أبابيل وحجارة من سجيل، هذا البعد العسكري، بينما سياسياً جعل كيدهم في تضليل، فشل معسكر الباطل عسكرياً وسياسياً وجعلهم الله كعصف مأكول. هذا مثل ليثبت الله به قلب رسول الله وقلوب المؤمنين إلى يوم الدين، تتغير أدوات المعركة ويُسْتبدل بالفيل الميركافا والطائرات المقاتلة، وأبابيل الحق اليوم مسيرات ومقذوفات صغيرة ولكنها تضرب وتوجع معسكر الباطل.

استمع الجميع بهدوء وسكينة، سوى عبد الرحيم فكان كالبيضة في المقلاة، سارع بالقول:

- كلام جميل، ولكنه لا ينطبق على حالتنا، قريش أمام أبرهة الأشرم لم تقا، وهربت إلى شعاب مكة وقال عبد المطلب مقولته المشهورة: «للبيت ربّ يحميه»، فضلاً عن أنّ هناك قاعدة شرعية: «شرع ما قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا»، بالمناسبة أنا طالب شريعة، لم أقل ذلك وتركتها مبهمة عندما قلت طالب جامعة.

- يعني وقعتك سخنة شيخ نضال.



الغرفة الزهراء

« هتف نائل »

سأل علاء:

- في أية جامعة؟

- في جامعة القدس «أبو ديس».

« تابع نضال: »

- بهذا يصبح نقاشنا أسهل. وبهذا نتفق على أن القيادة التي تتخذ القرار تُخضع الأمر إلى دراسة عميقة بين المصالح والمفاسد، بل وأفضل المصلحتين وأقلها مفسدة وضرراً، وتأخذ بالقاعدة الأصولية: «درء المفاسد أولى من جلب المصالح» وهي في الأصل مؤهلة وعميقة الفهم للدين وكذلك عميقة في فهم الواقع ومتطلبات السياسة والوقوف على الإمكانيات والقدرات المتاحة للمعركة وإمكانيات وقدرات وتحالفات الأعداء، ولا ننس أن هذا القرار يُتخذ بشكل جماعي للقيادة من خلال الشورى؛ كي يكون القرار في النهاية حكيماً ورشيداً وليأتي بعد كل هذا: (وإذا عزمتم فتوكل على الله)

« ردّ سائد وقد خفف قليلاً من انفعاله: »

- هذا بشكل نظري جميل، ولكني لا أعتقد أنه يطبق عملياً.

- ولم لا يطبق؟ « ردّ نضال »

- نحن نحسن الظنّ بقيادتنا ونسأل الله لها التوفيق والنجاح. « هتف علاء من صميم قلبه »

- وخير دليل على التوفيق والنجاح بل وقمة الإبداع ما شهده هذا اليوم العظيم يوم السابع من أكتوبر، يوم أعز الله فيه أوليائه، وهُدِّد دعائم أمنهم وكلّ خبراتهم العسكرية وترساناتهم الدفاعية، انهارت وصارت قاعاً صفصفاً أمام بأس رجالنا وقوة تخطيطاتهم وتوظيف قدراتهم والمحافظة على أسرارهم، انظر كيف حصّنوا جيّتهم وفي الوقت ذاته اخترقوا وغربلوا كل تحصيناتهم الأمنية والسيبرانية وعمّوا بصيرتهم الالكترونية تماماً.

ردّ عبد الرحيم بامتعاض حاول أن يخفيه ولكنه ظهر بوضوح:

- نتفق على أن ما جرى في هذا اليوم انتصار عظيم، ولكن ماذا جرّ على قطاع غزة من وبال بعد ذلك؟ ألا تعتقد أن السنوار بحماسه الزائدة قد ورطكم؟

«ردّ نائل بعد نفس عميق ملأ صدره من هواء الغرفة البارد والقاتم»

- نعود إلى المربع ذاته، إذا أردت جرداً للحساب فانظر أيضاً ماذا جرى لهم وما هي أوضاعهم الآن، وكيف كان مشروعهم وما هو حاله اليوم؟ ثم إن السنوار قد ورطنا؟ يا سلام، هي بيعة بندورة؟ هناك مجلس



الغرفة الزهراء

شوري ودائمًا يُؤخَد القرار من خلاله.

بهدوء قَعَد نضال الآية الكريمة:

- سجد الآية الكريمة شاخصة أمام أعيننا: (إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون وترجون من الله ما لا يرجون)، لا بد من ألم متبادل لتحقيق الانتصار ولا بد من دفع أثمان باهظة وهي ضريبة التحرير بإذن الله. نسأل الله النصر والنجاح والصلاح.

وهتف علاء بعد أن أسند ظهره:

- وأولاً وأخيراً: (وما النصر إلا من عند الله).

واضح ممّا ارتسم على وجهي سائد وعبد الرحيم أن نتيجة هذا النقاش لم ترق لهم. ومع هروب النوم بانتصاف الليل من عيون الجميع إلا أن له وحشة، تشتاق الأجساد المنهكة إلى عناقه والغياب في حضرته فهتف نائل مازحاً:

- ما رأيكم دام فضلكم باستراحة المجاهد قبل أن يأتينا طارق من طوارق الليل، اقرؤوا سورة الفلق واصبحوا على خير بإذن الله.

« علق عليه علاء:»

- بعد أن طار النوم من عيوننا.

مذ أضافوا عناصر جددًا للزنزانة الزهراء اختلّت حالة الثقة بطريقة التواصل المباشرة بين الشاويش آدم وبين القدامى الذين وثق بهم ووثقوا به، صار الاتصال عبر نقطة اتصال يضع فيها آدم ما يريد ويوصل إليهم من خلالها رسائل الخارج، ووضع لهم كلمات تفهم بطريقة مختلفة عما يفصح به ظاهرها، هم يفهمون عليه، بينما العناصر الجدد تذهب إلى المعنى الظاهر للكلمات.

خط الباب بقبضة يده الثقيلة وزعق:

- غرفة مشاعبة مخربة، أه هذه غرفة الأعمى المخرب.

« تملل علاء قليلاً ثم ردّ عليه:»

- مش معجبك الأعمى، لعلمك أرى ما لا ترون رغم إنه بطارياتها قريت على النهاية. (قصده بطاريات الراديو)

- في عيونك المطفية بطاريات! والله هنيئاً لك.

« دخل على الخط نائل:»

الغرفة الزهراء

- كنت يا آدم مليح مع الأسرى، ما الذي غيّرَكَ؟
- جرائمكم في يوم السبت الأسود، نسيتموها؟ تقديركم للموقف يأتي متأخراً، متأخرون متخلفون، عرب جرب. (يقصد أن منذ فترة ما خرج منهم تقدير موقف للمشهد السياسي للمعركة)
- فكرك شاويش آدم سياسة التنقلات ستبقى. (يقصد بسبب التنقلات ونقل عبد الناصر)
- أنا ما لي شأن في التنقلات، أنتم تستحقون كل ما جرى لكم.
- نحن أسرى ولا شأن لنا بما يجري في الخارج.
- أنتم لا شأن لكم، أعرّف أن تواصلكم لا ينقطع، أو كسجين لكم لا تستغنون عنه. (يقصد لا توقفوا التواصل، تابعوا عبر البريد ونقطة التواصل السرية)
- هذا كان زمان، اليوم صعب.
- بصوت عالٍ ونبرة حادة زعق وهو يبتعد: «
- المهم ولا نفس، هذه الغرفة لازم نكسر أنفها، ممنوع أي صوت.

وصلت الرسالة بشكل جيد، في اليوم التالي تهامس الثلاثة وخرجوا بتقدير موقف يلخص المشهد السياسي الإسرائيلي تحت عنوان: « وجعل كيدهم في تضليل » عدد أوجه الصراعات الحادة بين أقطاب صناعة القرار السياسي الإسرائيلي، كل يصرح على ليلاه ويعمل لحسابه الشخصي وعينه على رصيده في الانتخابات المقبلة، مزایدات لا حدود لها، آخر ما يفكرون به مصلحة هذا الكيان، ننتياهو من جهة يريد البقاء في السلطة وبقاؤه مرتبط باستمرار الحرب، عضو مجلس الحرب «جانّس» من جهة و« غالنت» من جهة ثانية يعملون ضد ننتياهو، خلافات جوهرية بين المستوى السياسي والعسكري، المعارضة وأهالي أسراهم يتظاهرون ويجندون الشارع ويطالبون بإسقاط الحكومة، أشد الناس تطرفاً في الحكومة ابن غفير وسموتريتش يمسون رسن ننتياهو ويتحكمون به لأن بيدهم إسقاط الحكومة. بالفعل مشهدهم السياسي تلخّصه الآية « وجعل كيدهم في تضليل ».

علاء هتف قبل أن يداهم النوم الصعب مضجعهم:

- لاحظوا أنكم منذ فترة لم تتطرقوا للساحة الدوليّة وتفاعلاتها مع ما يجري في غزّة؟

سارع نضال بالإجابة:

- غزّة تقود الآن منظومة القيم الإنسانية على مستوى العالم.

« وتابع نائل: »

- وقبل ذلك تقود نهضة الأمّة.



الغرفة الزهراء

- أنتم جاهزون دائماً لإطلاق النار، لنطبخ الموضوع حتى الصباح، ما رأيكم دام فضلكم؟
- بهذا أنت طيّرت النوم من عيوننا.
- وهل النوم ينتظر أوامرِك؟ النوم منذ بداية الحرب طار بعيداً وأصبح صعب المنال.
- كنت أرى أبا إبراهيم السنوار في منتصف الليل يقوم فيكتب شيئاً ثم يعود للنوم، سألته مرة فقال لي: تأتيني فكرة فأكتبها كي لا تضيع.
- كان قارئاً بنهم وكاتباً بعمق ومحللاً سياسياً ومثابراً في كل أوجه النشاط الممكنة في السجن، رياضياً، ومصلاً اجتماعياً ومريباً وإماماً للصلاة وخطيباً.
- ولا تنس، كان طبّاحاً ماهراً، يحبّ الطبخ وصناعة الحلويات.
- الشيخ صالح كان كل ما ذكرت إلا الطبخ.
- كل القادة الذين يديرون المعركة الآن هم خريجوا هذه السجون.
- « هتف سائد وكأنه يريد منهم أن ينهوا الحديث ليتسنى له النوم: »
- كنت خارج السجن عندما يداهمني الأرق أعدّ للمائة فأغرق في النوم قبل أن أصل الرقم مائة، اليوم أصل الألف دون أن يصلني النوم.
- « أدلى عبد الرحيم بدلوه: »
- أنا عندما يأتيني الأرق أرهب به وأعتبره صديقاً، سرعان ما يوئى هارباً خاصة إذا عملت عقلي في مسألة صعبة وتعود عليّ بالنفع، وكأنه يوازن بين أمرين يتركني أنام أم يتركني رقيقاً لأفكاري وإعمال عقلي فيها.
- « هتف نضال: »
- قريب من هذا أشغل نفسي في تسميع سورة أو تسبيح أو ذكر فسرعان ما أنام.
- قال علاء مازحاً:
- أنا إذا طرقت بنتاي وزوجتي بابي ودخلت معهم نقاشي الافتراضي وئى النوم هارباً من ديارى مسرعاً، ولا أكون قادراً على استرجاعه في تلك الليلة، الآن أغلقت عيني (مازحاً)، تصبحون على خير يا شباب، موعدنا غداً الساحة الدولية وتداعياتها.



(٨) مطاردة ساخنة للترانزستر

«قريب الساعة الثانية بعد منتصف الليل داهمت فرقة الزنزانة يتقدمهم كلب ضخم يزمجر ويتشمّم زوايا الزنزانة ومحتوياتها، سحبونا سحلاً وركلاً بكلّ ما أتوا من قسوة خارج الزنزانة حيث ساحة الضرب والتكسير، نعق كبيرهم بصوته العبري المقيت:»

- لديكم راديو، أين هو يا كلاب؟

«قبض على قميص علاء وشدّ على رقبتة حتى برزت أوداجه واسودّ وجهه، وعوى:»

- أين الراديو يا حيوان؟

«بصعوبة ردّ متحشّراً:»

- لا يوجد لدينا راديو.

- وإن وجد؟

- مبروك عليك.

رمى به أرضاً على ظهره، ارتطم رأسه من الخلف أرضاً، أحسّ بالدوار وغاب عن الوعي قبل أن يأتوا بدلو ماء فيسكبوه عليه.

لم يفلحوا بالوصول إلى مخبأ الراديو، علاء ببصره المزروع على رأس أصابعه يجيد زرعه في كوة محفورة باتقان ويغلق عليها لتصبح قطعة من المحيط دون أية معالم، طافوا على عدة غرف بذات الوحشية ثم انسحبوا بعد أن لعبت العصي على رؤوسهم ونالهم ما نالهم من اللكم والركل والبصق وكلّ فظائع الشتائم التي تفتّق عنها نفوسهم المريضة.

صلّوا الفجر فرادى، ثم لاذ كلّ منهم إلى عالمه الخاص دون أن يُعقّب.

علاء من جانبه فتح سجلّ عشقه لبنتيه وأمهما محبوبته الكبرى، بدأ السؤال وهو يتخيّل أيام السهر معهن من خلال خلويّ مهرب، يرحم تلك الأيام، ما بعد هذه الحرب لم يتبقّ لهم سوى هذا الترانزستر، ستر عليهم بأخباره المتعاقبة عن الحرب، لولاه لكانوا مثل الأطرش في الزفة، السؤال المعهود من الصغيرة ريم:

- متى تنتهي هذه الحرب؟

- لا أحد يعرف ولكن لكلّ شيء نهاية.



الغرفة الزهراء

- نهايتها الإفراج بالتأكيد. « قالت نور التي تكبرها بسنة »

- فرج الله قريب يا بنات.

- المهم نخرج منتصرين. « ترنّمت بها ريم. »

- حتماً سننتصر، طالما أن الحب يُعمّر قلوبنا فإننا منتصرون بإذن الله.

- يعني بالحبّ ننتصر. « قالت ريم ثم سألت نور:

- بالحبّ وحده بابا.

- طبعاً هناك أمور كثيرة لا بدّ منها، ولكن إذا توفّر الحب ارتفعت الهمة وتشكّلت في النفس طاقة عالية وأمل كبير، لما أنا مثلاً في سجنني ألمس هذا الحب الذي يملأ قلبيكما اتجاهي، أحلّق عالياً ولا تسعني الدنيا ولا تضيرني مصاعبها ولو كنت بين أربعة جدران مسجوناً كما هي حالي.

« غمزت نور ريم وهمست: »

- حبنا وإلا حبّ ماما؟

- ضحك الجميع بملء فيه، وقلت في نفسي: والله بناتك كبرت يا علاء.

واستمرّ الحوار الافتراضي إلى أن شهدنا حالة انتصار الفجر على جحافل الليل.

نائل بدوره يعرف كيف يغيب ولو شعورياً عن هذا الجبّ المليء بالقهر والألم، له فسحة يلاقي بها زوجته ويعانق حنينها ويفتح ملف عشقه القديم المتجدد، يعشق مشهد الشروق في يوم تتلبّد فيه الغيوم خاصة عندما تشقّ طريقها وتبدّد هذه الغيوم من حولها وتسيطر على المشهد.

نضال يحلو له الأدب، ولا يعرف هل هو الذي يأخذ بيد الأدب الجميل أم أن الأدب هو الذي يأخذ بيد قلبه، صاحب حسّ أدبي جمالي رفيع يوظّفه في عالمه الافتراضي مع بناته الثلاث ومحبوبته التي تشاطره قسوة هذه الحياة، ما أن خرج وتزوّج ووضع قدمه على عتبة الأبوة حتى اصطادوه فريسة بين أنياب سجونهم، نضال يعطي لنفسه وقتاً يشطح فيه مع فلذات عمره وشقيقة روحه، ولا ينسى طبعاً أن يقف طويلاً مع عشيقته الأولى، الحاجة السيّدة ذات الحسّ الجمالي العظيم، ويتنقل من أمه إلى أخواته وإخوته، وأبنائهم، يمازح هذا ويعظ هذا، لا يتقن سوى المزاح والوعظ الديني الجميل، ويسمع ردهم ونقاشهم، ويتابع ببال طويل حتى النهاية.

في صباح بداية الشهر الرابع للحرب وصل النقاش إلى سبر غور الجبهة الدولية وما يعتريها من تحولات عظيمة لصالح القضية الفلسطينية، انقلب الرأي العام في أغلب الدول على الدعاية الإسرائيلية التي كانت قويّة في بداية المعركة، روّجت بقوة إلى أن الفلسطينيين ارتكبوا مذابح، قتلوا وحرقوا أطفالاً،



اغتصبوا نساء وقتلوا مدنيين آمنين مسلمين، ثم ما لبثت وبدأت الحقائق تتسرب وتكشف زيف هذه الدعاية، تقرير إسرائيلي ذكر بأنه لم تسجل حالة اغتصاب واحدة، والقتلى المدنيون وحرقت المنازل كان بقصف إسرائيلي، صحيفة أمريكية فضحت صورة الطفل المحروق وأثبتت أنها لكذب.

بينما مشاهد قتل المدنيين والأطفال والنساء الفلسطينيين على يد الجيش الإسرائيلي فقد سيطرت على شاشات العالم، وساعدت مواقع التواصل الاجتماعي على تخطي الإعلام الرسمي ونقل الصورة الصحيحة، انتشرت المظاهرات في كثير من العواصم الأوروبية، لندن وباريس وبرلين، وبدأت تظهر الاحتجاجات في الجامعات الأمريكية، الأمر الذي اعتبر تحولاً كبيراً في الجيل الشاب في المجتمع الأمريكي، ما جعل نتيا هو يدعو الحكومة الأمريكية لوقفها ولو بالقوة، يعني كما يفعل هو مع الفلسطينيين، يريد للحكومة الأمريكية أن تقمع مع الطلاب المحتجين في الجامعات الأمريكية، بالفعل تدخلت قوات الأمن ولم تُراع حُرمة هذه الجامعات. المظاهرات تتمدد طويلاً وعرضاً لتشمل مئات الجامعات وتنتشر الأخبار والكوفية الفلسطينية ويتسم بها المشهد، أعادت للأذهان وفرضت على صفحات الإعلام المقارنة بين هذه الأيام وأيام خلاص الفيتناميين من الاحتلال الأمريكي لبلادهم، وكيف كان للجامعات واحتجاجاتها هذا الأثر، وكانت من مطالب الطلاب قطع التعاون البحثي القائم بين جامعاتهم والجامعات الإسرائيلية، وكان لكل هذا أثر عظيم أقض مضاجع قادة الاحتلال.

بعد أن أوجز علاء لهم حصيلة الأخبار في راديو الصقر المجيد، سلم الراية لنضال حتى يبحر لهم في استراحتهم الأسبوعية التي وصلت لميعادها الأسبوعي، تهلت أساريره ثم عبس قليلاً وانطلق:

- قصتنا اليوم حزينة مؤلمة ولكن هذه هي تجليات الحروب ما بين مدّ وجزر، هم يُمعنون قتلاً في المدنيين والنساء والأطفال وتدمير كل مقومات الحياة، ومقاومتنا الباسلة تمنع في قتل جنودهم وضباطهم ومهاجمة آلياتهم ودباباتهم.

غزوة الطحين ١٩

«هل نحن في عام الرمادة، حيث مجاعة الصحراء القاحلة ووصول الناس إلى حافة الموت، تلك الأيام كان الجوع يضرب أجساد البشر فتهدوي خائفة كأعجاز نخل خاوية، اليوم في غزة وحرب المجاعة هذه لا يكفي انعدام الطعام وإنما أضف إليه انقطاع الماء، ليس لك إلا مياه مألحة غير صالحة للاستخدام البشري، كان قد أفسد الاحتلال مياه غزة الجوفية قبل خروجه منها، هذه المياه تزيدك عطشاً وجوعاً وجفافاً»

سأل رامي أباه وهو بين الهديان والتركيز الذي غاب عنه منذ أيام كقطار خرج عن سكتته ولم يعد بمقدور أحد أن يعيده إليها، رامي ابن الثلاث عشرة سنة، أصبحت تخرج منه كلمات وجمل تحتاج إلى جهد كبير لفهم مرادها، هذا بالإضافة إلى صراخ وبكاء من يصغره سناً، خاصة معزوفات ما قبل النوم التراجيدية، تأتيك وجبات بكاء وعويل يومية لا تدع للنوم إلى عينيك سبيلاً.



الغرفة الزهراء

انقسمت العائلة بين طلب المغامرة أو العزوف عنها، أبو رامي كان متردداً، أمه العجوز كانت تعارض المغامرة بشدة، فقد سمعت كثيراً عن مجزرة الطحين التي قتلوا فيها الناس الجياع وهم ينتظرون المساعدات، تحولت المساعدات الدولية إلى شرك لدبابات الاحتلال وطائراته، استغلت تجمع الناس فقصفته شر القصف الذي حول ساحة الطحين الأبيض إلى أن تصبح حمراء من ضحايا تجاوزوا المائة وعشرين شهيداً ومئات الجرحى، ولكن ما الحل؟ الأطفال يتضورون جوعاً، مضت أيام طويلة دون أن تعانق أفواههم لقمة خبز، فكانت أم رامي مع المغامرة فهي خير من الموت جوعاً، عيون الأطفال الدامعة تقول كثيراً، عقد أبو رامي عزمه على الذهاب مع من قاسمه الخيار ذاته الصعب والنكد، أي لقمة ستكون هنية إذا غمست بدماء الشهداء؟

وأصر رامي أن يرافق أباه، شجعت أمه وهمست بأذنه:

- أنت رجل تستطيع حمل كيس، وأبوك يأتينا بكيس آخر..

« غلبت العجوز على أمرها وقالت بمرارة: »

- على بركة الله.

صبيحة هذا اليوم خرج الأب وابنه عكس تيار العاصفة التي كانت تضرب جدران الخيمة البلاستيكية طيلة الليل بضراوة، تعزف موسيقى صاخبة لا وزن لها ولا إيقاع، تشتد أحياناً فتكاد تقتلع الخيمة من جذورها الواهية، ثم ما تلبث أن تتلطف بها قليلاً بعد سيل دعوات العجوز وومضات القلوب الفازعة إلى ربها، مدت الشمس خيوطها ببرودة أعصاب غير أبهة بغيوم سوداء تعترض طريق دفتها كما فعل الاحتلال بحياة الناس هناك، لا طعام ولا شراب ولا دواء ولا أمل يشي بقرب الخلاص، نهار جديد تعقب ليلنا دون أن يأتي بما اعتاد الناس عليه، في غزاة لا تتوقف الطائرات المسيرة عن طنينها القاتل، وهي بالمناسبة أنواع كثيرة منها المتجسّسة ومنها القاصفة والمحاقّة ومنها ما لا نعلم ما تقوم به فوق رؤوسنا سوى هذا الطنين الذي يقتل حاسة السمع في أذاننا، نهار كالليل تماماً معجون بالصواريخ والموت والدمار.

انطلق أبو رامي وولده البكر للبحث عن الرزق الذي يمطرونه من السماء، سأل رامي ابن الأربعة عشر خريفاً أباه الأربعيني:

- لم تركوا الوسائل الأخرى ولجؤوا إلى هذه الطريقة، يلقون مساعداتهم من السماء، لم لا تأتي عبر البر؟

- يا بني خليها على الله، سؤالك هذا صعب، هذا إمعان في الإذلال، هم يأتوننا من فوق ونحن تحت ننتظر فتاتهم، يعملون لأنفسهم دعاية أنهم يساعدون شعباً جائعاً منكوباً يعاني من ويلات الحرب، وفي ذات الوقت الذي يقدمون فيه كل أدوات القتل المتطورة لمن يحاربنا، هذا عالم مجرم منافق.



الغرفة الزهراء

- وأين دولنا العربية؟

- هذه الدول منذ زمن بعيد لم يبق من عربيتها إلا الاسم، هذه سياستها أمريكية وإسرائيلية، لو كانت عربية لما شاركت في حصارنا ولفتح المعابر البرية للمساعدات منذ زمن بعيد، ها هي الحرب دخلت شهرها الرابع، والحصار مطبق علينا من كل جانب.

كان لا بد من شدّ الأرجل والسير قُدماً كمن يسابق الأقدار نحو رزقه أو نحو أجله، أخبار من من سبقهم إلى كيس الطحين أو الموت أو كليهما كانت تملأ صدريهما رعباً وخوفاً، التوتّر يضرب معزوفاته الشنيعة وينشر هلعاً لا حدود له كلما اقتربا من الموقع الذي يسمّى الدوّار الكويتي، هناك يلتقي الأجل مع الرزق، دوّار فسيح يطلّ على البحر، أو قل ما كان يسمّى دوّاراً لأنّ دبابات الاحتلال وجرافاته العملاقة قلبته عدّة مرّات وجاست كلّ تفاصيله وتركته مهشّماً من كلّ جانب، الشمس ترسل أشعتها على وجل، بالكاد تصل البحر وتسارع الفرق به خشية الكشف عمّا يجري في مثلث الرعب هذا.

الناس يتوافدون ومحمّلون بكلّ تناقضات الحياة، ينحصر الأمل عندهم في كيس طحين يسدّ رمق أفواه تنتظرهم، والقلوب تبلغ الحناجر خوفاً وترقباً للموت في كلّ لحظة، فأدوات الموت العملاقة تحيط بهم جواً بكلّ تشكيلات القتل وبراً وبحراً، ومع هذا يصرّ هذا الغزّوي بشراسة على الحياة، بكلّ غضب الدنيا ينظرون بعيونهم الصقرية نحو السماء، وتلهج قلوبهم بالدعاء لربّ السماء، كلّ منهم يتربّص فرصة حياة تُبقية على قيدها حتى حين.

تناهى للآذان هدير طائرة شحن، الغزّوي خير من يفرز الأصوات ويحلّلها، ما بين طائرة زنّانة وزنّانة يحدّدون نوعها، هذه طائرة شحن تقترب فهديرها هرش خشن ولكنه صار عندهم معزوفة فنية جميلة إذ بعد سماعه تلقى المساعدات، عليه أن يحدّد المكان وينطلق مسرعاً لاستقبال هذا الضيف العزيز، وفي الوقت نفسه أدارت الدبابات المتربّصة مدافعها الرشاشة نحو المكان ذاته، عجباً لهم يستهدفون ذات المكان بموت قاتل وأمل حياة آت، وكلّ معرّض لنصيبه من إحدى الحسينين، عجباً للعبة الموت والحياة هذه!

أفرغت الطائرة ما بجعبتها من مظلات تحمل المساعدات، وتهادت الخيرات المنتظرة من السماء، تقترب ببطء شديد والقلوب الوالهة على أحرّ من نيران الدبابات المتربّصة، عشرات المظلات تقترب بمشهد مهيب، وكأنّ قائد الطائرة لم يقرأ الإحداثيات بشكل صحيح فقد وصلت المظلات البحر وكان لا بدّ للنشامى من السباحة في فصل الشتاء، لحظات ومئات الشباب أصبحوا في مواجهة شرسة مع أمواج البحر العاتية، وكان المشهد ينقصه الموسيقى التصويرية، هذه المهمة توكلّ بها ذئاب الدبابات المتربّصة، فتحوا مدافعهم فأصبح الناس في حالة مستنفرة لا يدرون أين المضرّ، رامي الذي نزل البحر ضاع عن عينيّ أبيه، الأبّ فرّ برأ والابن فقد مصيره بحراً، ما هي إلا دراما عشر دقائق وانتهى المشهد، أوصلت الدبابات رسالتها عبر الدم والنار، هدأ المكان سوى من صوت الزنّانات الذي لا يتوقّف أبداً.



الغرفة الزهراء

أسفرت غزوة من غزوات الطحين عن عشرات الشهداء والجرحى منهم من أصابته نيرانهم ومنهم من غرق، عاد أبو رامي ينظر في مئات الوجوه الجائعة البائسة المكروبة، علّه يجد وجه ابنه، قاده قلبه لينظر في وجوه الشهداء، وجده ملقى على ظهره مبتلاً مبتسماً هادئاً مستقرّ الملامح يوّد لو يقول لأبيه شيئاً، صرخ من عميق قلبه صرخة غرقت في أمواج البحر الهادرة وابتلتعها صوت الزنانات الذي لا يتوقّف فوق رؤوسهم، وجد غيره من يطلق مثل هذه الصرخة، عاد إلى نفسه وحمل ولده على كتفيه بدل كيس الطحين وقفل به راجعاً به إلى حيث أتى.

هتف علاء بحزن:

- فطرت قلوبنا بهذه القصة، ماذا يحصل لي لو كانت القصة معي وأنا أدعي أنّي جبل صبر لا تلين له قناة؟

- هذا هو طريق الحرية، ثمنها غالٍ وعزيز.

« سائد مصرّ على نهجه التثاؤمي، كزّ على شفته السفلى ورفع عقيرته: »

- لا داعي لكل هذه الأثمان، ما الذي أجبرنا على هذا الطوفان؟ كان عيارنا ثقيلاً ولا يتناسب مع حجم إمكاناتنا.

« وتابع على ذات النهج عبد الرحيم ممتعضاً: »

- لا أدري لم هذه الآلية الكريمة تلازمني هذه الأيام، رغم علمي من مناسبة نزولها أنّها لا تتناسب مع ما تقال له: « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين »، وأتساءل: هل ألقّت المقاومة بشبابها وشعبها إلى التهلكة بإقدامها على هذا العبور إلى جحر الضباع المفترسة؟

« علاء رد مستنقراً: »

- أمّن جواز عليكم عقول ضاربة على جهة، العمل الفدائي البطولي العظيم تحوّلونه بانهازميتم إلى دمار وهلاك وتهلكة؟

« نائل ذهب بهم مُستفزاً إلى التاريخ: »

- ألم تقرّوا عن تاريخ كلّ الثورات، وكم دفعت من أثمان حتى حققت انتصاراتها؟ هل أعدّد؟

« دخل نضال على الخط: »

- على رسلك نائل، لن تنهي طيلة النهار تعداداً للثورات من أرشيفك الواسع، لنذهب إلى رسول الله لأنه استشهد بالآلية الكريمة: « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ماذا نقول عن غزوات رسول الله التي أغلبها كان ظاهرها الذهاب إلى التهلكة، أصلاً انطلاق الدعوة في ظلمات ودياجير الجاهلية المنتشرة كانت تهلكة



الغرفة الزهراء

ما بعدها تهلكة، ماذا تقول عن غزوة الخندق التي تجمعت فيها أعتى القبائل العربية لاستئصال شأفة المسلمين هناك، بيعة الرضوان كانت بيعة على الموت، في غزوة تبوك جيش صغير من جزيرة العرب يخرج لمواجهة إمبراطورية الروم، وماذا جرى في مؤتة...

« قاطعه عبد الرحيم بهدوء: »

- أنا مقتنع بما تقول سيدي، فقط راودتني أفكار، هذه الدماء الزكية التي تسفكها هذه الحثالة البشرية تؤلمنا كثيراً.

- تعلم سيدي عبد الرحيم أن ترك الإنفاق في سبيل الله وترك الجهاد هو التهلكة بعينها، كما أنه من المعروف ضريبة الذل أعلى بكثير من ضريبة الكرامة عند الشعوب الحرّة.

أبدى سائده اعتراضه من جديد:

- من منطق سياسي، حيث إن السياسة هي حصاد العمل العسكري، ما هو حصاد هذه الحرب المدمرة على صعيد قضيتنا الفلسطينية؟ دمروا غزة والاستيطان على قدم وساق في الضفة.

«ردّ نائل وعيناه تقدحان شرراً:»

- لو أفضى المسار السياسي الذي أنتجه اتفاق أوسلو لنا حصاداً عظيماً، لوجدنا وجاهة لكلامك، ولكن واضح أن حصاده كان نكبة جديدة، لا دولة ولا كرامة ولا حقوق، استيطان دون توقّف واعتقالات دائمة وتدنيس للمسجد الأقصى، وقطع للطرق واعتداءات دائمة على كل مقومات الحياة الفلسطينية، ثلاثون سنة من بعد أوسلو «الله لا يرحمها» ونحن نراوح مكاننا، يجادلوننا في بقرة موسى عليه السلام وما زالوا عند: «إن البقر تشابه علينا» ولم يصلوا بعد لقولهم «وإنا إن شاء الله لمهتدون».

« هتف علاء مبهتجاً: »

- يا شباب وكالة صقر العالمية معكم، أخبار سكر ولوز.

- يا خويّ تطلع هالوكالة غراب البين.

- اسمعوا وعوا: كمين مركب في خان يونس عند فتحة نفق، إصابة قوّة راجلة بأكملها ما بين قتيل وجريح، والاشتباك بالقنص مع قوّة الإنقاذ التي حضرت للمكان على قدم وساق. اشتباكات ضارية في شمال غزة، بيت حانون وبيت لاهيا، المقاومة تدكّ عشرات المواقع العسكرية في الشمال...

« هتف نائل: »

- في الجنوب يغرقون وفي الشمال يحترقون.

- وهناك صواريخ يمنية تصيب سفينة تحمل بضائع إسرائيلية قرب مضيق باب المندب.



الغرفة الزهراء

- « بورك في يمننا ، والله واشتعل محور المقاومة يا شباب.

« نعقت بقوة مكبرات الصوت معلنة النفيير وحالة الطوارئ والمسبات وكل القاذورات التي تنتجها قلوبهم
الخربة الحاقدة »

- هكذا كلما أكلوها في الحرب جاءوا هنا «فشة غل». هذا دليل أن وقعتهم ساخنة.

« همس نائل»

بأعلى صوت متعجرف وبطريقة مستفزة صارت بائخة ومكرورة:

- يا أولاد الحرام، يا أولاد ال يا حيوانات، يا حاويات، يا قاذورات، تفتيش عار خلال لحظات ..

« وتبدأ الحفلة، تماماً مع الغروب وكأنهم يعرفون أنفسهم ظلماً يأتي مع الظلام، بهمس تتبئل من أفواه المعتقلين الحوقلة والبسملة، يتحسسون مواضع الألم التي لم تبرأ بعد، يتنهّدون بعمق وينطلق الدعاء لاهجاً بمجامع قلوبهم، اللهم لطفك وحفظك وعونك، اللهم اكفناهم بما شئت، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.. »

تبدأ الحفلة بجلبية من الصباح والقرقعة المقتحمة للقسم، يتدافعون المجموعة تلو الأخرى وهم مدججون بأدوات القمع والتي كان أشدها بأساً هذا الغاز اللعين الذي يشق طريقه للصدر بكل وحشية وقسوة، والكلاب التي تهمر ببراطيمها العريضة وتختلط رائحتها النتنة برائحهم القذرة.

زنزانتنا أول زنزانة يدس خرطوم الغاز أنفه فيها، قبل أن ينفث سمومه أحب «خنيفس» الذي جاء هذه المرة على رأس القوة المقتحمة، أن ينكش رأسه، وقف متعالياً وكأنه ينظر إلى أنفه وقد عانق مصدر ظلام هذه الليلة الليلية، عوى بصرامة:

- وبين الأعمى؟

- علاء باشا، ما رأيك فيما يجري في غزة، لقد جعلناها «كوكتيل».

« رد علاء بهدوء وثقة:»

- أتفتخر بذلك، مبسوط على كوكتيل أطفال ونساء؟

- طبعاً مبسوط، هذه حرب وليس لعبة.

- وهل هذا يرضي ضمائركم؟

- أنت تجيب فقط، ما شاء الله عليك صار عليك تسأل وأنا أجيب.

..... -

الغرفة الزهراء

- عندي فكرة عظيمة قد تخفف عنكم شيئاً من هذا العذاب، تحب سماعها؟

..... -

- حسناً، ما رأيكم بإصدار بيان تطلبون فيه من المخربين تسليم أسلحتهم وتسليم من بحوزتهم من الرهائن الإسرائيليين.

..... -

- أجب، ما لك بلعت لسانك؟

..... -

- الكلام معك ومع أشكالك بالعصا أفضل من اللسان، أنتم لا تملكون المنطق والقدرة على حوار العقل للعقل.

« رفع علاء عقيرته بقوة وعنفوان وحزم وهو يوقن بأن القمع والتكسير لا مفرّ منه قال أو لم يقل قولته: »

- اسمع يا خنيفس، نحن تحاورنا سنوات طويلة، تعرفنا جيداً، أنتم الذين نحيتم العقل وجئتم بالعصا، لذلك كلامك لا يستحق الردّ.

- وفكرة البيان؟

- فكرة تافهة. اذهب واقرأ التاريخ، هل رأيت ثورة تسلّم سلاحها للمحتلّ؟

- والمختطفون؟

- أسرى مقابل أسرى، الأسرى الذين بيد المقاومة الفلسطينية ستبيّض بهم هذه السجون. سنرتاح من رؤية خلقتك يا خنيفس قريباً إن شاء الله.

« وأشار إلى من خلفه للهجوم، بدأ الغاز ثم اقتحام الغرف بعد زخات من الرصاص المطاطي، ثم التريبط والسّحل خارج الغرف والضرب على الرؤوس .. وبقية المسلسل، منتصف الليل يعاد الأسرى للغرف منهكين مكسّرين، كل خلية في أجسامهم تنن وتصرخ، فقط هناك إيمان وإرادة وأمل، يقتربون مع المزيد من التعذيب إلى فضاء الحرية الذي يملأ قلوبهم، هم بشر تقوى عزائمهم وتضعف وتكاد تصل الانهيار أحياناً، ولكنهم عندما يرون ما يفعل البشر الأشرار وأين وصلوا في الانسلاخ من بشريتهم يحمدون الله أن جعلهم في معسكر الحق وفي مكان هم أبعد ما يكون من أن يكونوا مثل هذه الحثالة البشرية. »

في صلاة الفجر وكان يوم جمعة صلى بهم نضال جماعة بهمس كي لا يسمعه الأشرار، اختصر سورة السجدة بالآية التي تدعو للسجود: «إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرّوا سجداً وهم لا يستكبرون»



الغرفة الزهراء

سجد نضال مع كل ذرة وجع وكل خلية أصابها منهم ما أصابها تشكو إلى بارئها وتستغيث وتتضرع، هوت أرواحهم قبل أن تهوي أجسادهم ساجدة في أعلى درجات الافتقار والفاقة واللجوء التام، مرّ بهم الشاويش آدم وهو يصارع دموعه، ويدقّ جدران قلبه سؤال كبير: لماذا يتوحّشون على هؤلاء الضعفاء؟

من أيّ طينة من البشر تجعلهم يبلغون هذا الدرك الأسفل المنحط؟ ودّ لو يتحدث معهم طويلاً ولكنه لا يثق بالاثنين الجدد على هذه الزنزانة التي ربطته بعناصرها صحبة قديمة توحدت عليها مشاعرهم. حضوره وهز رأسه لنضال ونائل ونحنحة لعلاء تشعرهم بأن هناك رسالة من الخارج إليهم قد وضعها لهم في نقطة الاتصال، يأملون أن تحوي أخباراً عن صفقة تبادل يكون فيها الخلاص من هذا الكرب الشديد.

لعلت وكالة صقر بأخبار خفّت كثيراً من أوجاعهم، المقاومة تواصل كمائنها وتتحول إلى مجموعات صغيرة تهاجم بضراوة وتوقع خسائر كثيرة في الأرواح والمعدات، الصحافة الإسرائيلية تصف الجنود في غزّة على أنّهم حقل بط، تصطادهم المقاومة الفلسطينية بكل براعة، لا يدرون من أين يخرجون إليهم: من نفق، او من تحت الركام، يضرب أحدهم ثم يعود للاختفاء، « فص ملح وذاب ». ووصفوها بأنها حرب أشباح.

وكانت المقاومة تصدر فيديوهات تصوير لبعض العمليات النوعية التي تقوم بها، فتلهب مشاعر جمهور المقاومة وتشكّل إلهاماً وروحاً تسري في جسد الأمة، كيف يقترح المقاوم بعبوة ناسفة الميدان، فيلصقها على دبابة «الميركافا» ويدمرها، وأصبحت مشاهد القنص اليومية على شاشات التلفزة خاصة شاشة الجزيرة، بندقية القنص الغول من تصميم المقاومة تدخل الساحة وتبلي بلاء حسناً. المقاومة تستهدف جنودهم وضباطهم وآلياتهم بكل بسالة وشجاعة، بينما هم يستهدفون قتل الأطفال والنساء والمدنيين بكل بشاعة وتوحّش مما عرفته ولم تعرفه البشرية.

« هتف سائد بروح محطّمة: »

- متى ستنتهي هذه الحرب ونحمي شعبنا من هذه الكوارث والمجازر اليومية؟

- عندما يتوقّف الاحتلال عن عدوانه. « ردّ علاء بسرعة »

« وتابع نائل: »

- عندما يتوصّلون إلى اتفاق حول الصفقة. ويبقى قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار.

- ليست بهذه البساطة، أطفال يُقتلون يا جماعة؟ « هتف عبد الرحيم بحزن شديد »

« ردّ نائل بنبرة أعلى: »

- هذه مشكلة الصهيونية المتوحّشة والصليبيّة المجرمة رمتنا من قوس واحدة. وهذه طريقتهم في



الغرفة الزهراء

الحروب، ادرس كل السياسات الاستعمارية التي انطلقت من الحضارة الغربية المعاصرة، كلها قتلت النساء والأطفال وتوحشت، ومعروف أنه كان مبدؤها ومبررها: الغاية تبرر الوسيلة.

« رمى سائد سؤاله بخبث: »

- وهل لنا أن نعطيهم المبرر؟

« نضال - بهدوء بعد أن ظهر الانفعال الشديد في وجهه فكساه حمرة خفيفة - : »

- يا جماعة الخير، هذا ديدن الصراع بين الحق والباطل، وهذه سنة التدافع بينهما: « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

- أنا نقاشي سيدي الشيخ، هل لم يكن بالإمكان أفضل مما كان، نعلم أن السياسة هي فن الممكن، فما قامت به المقاومة يوم العبور العظيم، ألم تثقل العيار مما أدى إلى استجلاب كل هذه الويلات؟

- « رد نائل: »

- وكان بالإمكان أن يحدث ما حدث كرد فعل على ما هو أقل من ذلك بكثير، يعني بشكل نظري تريد أن تزن المقاومة فعلها على ميزان الاحتلال، أو ميزان من ذهب؟

« وتابع نضال: »

- هو اجتهاد بفعل مقاوم صحيح نسأل الله له القبول والتوفيق وأن يحصد أعظم النتائج.

« رفع نائل قليلاً من نبرة صوته، حدج في سائد: »

- لماذا نبخس أنفسنا حقها ونجيد جلدها، والله لو أن ثورة في أقصى العالم عملت ما عملنا لطرنا بها وصفقنا لها طويلاً، سبحان الله.

- ولم لا نحتمل النقد سيدي؟

« رد نائل منفعلاً ووجهه يقطر احمراره الجميل: »

- هذه تهمة جاهزة، من أول يوم في الحرب وسهام النقد تضرب عرض المقاومة دون كلل أو ملل، النقطة نفسها، ثم عندما نردّتهم بعدم تحمّل النقد، يا سبحان الله. قل لي يا أخي: لماذا أنتم لا تتحمّلون نقدنا لنقدكم؟

حوت الرسالة التي وجدوها تنتظرهم على أحرّ من الجمر في نقطة الاتصال تأكيداً على أن المقاومة لا يمكن إلا وأن تبيض السجون من كل المعتقلين وأنها تحتفظ بعدد كاف من الأسرى الإسرائيليين لتحقيق هذا الهدف، وطمنت الرسالة على وضع المقاومة وأنهم من قبل أعدوا العدة لحرب طويلة، وأنهم



الغرفة الزهراء

سَيُغْرَقُونَ جيش الاحتلال في حرب استنزاف طويلة، أكدوا استفادتهم من تحليلات الأسرى وأن وحدة السجن في الشورى لها اعتبار كبير، وطلبوا المزيد من تقدير الموقف يوماً بيوم وأن يكتفوا الدعاء.

علاء لم يفتح النهار كما تفعل الشمس بضياؤها، غابت شمس قلبه ولاذ في صمت رهيب، حامت الظنون في فضاء الزنزانة الضيق، تحسب نضال ونائل وضربت أخماسهم بأسداسها، ماذا لم ينطلق لسان علاء وقد بلغت الساعة العاشرة، هناك أمر جلل ولا شك بأنها مصيبة كبيرة، صلى الضجر ولم يعقب، لاذ في برشه مدعياً النوم بعد سهر طويل، ولكن صمته مريب ومثير للهاجس والظنون، وكذلك لا تخفى حركة شرطة السجن وما ظهر على وجوههم من فرح وقت العدد الصباحي، قطع هذه الكأبة نائل وهمس في أذن علاء:

- سيدي علاء، ما ينزل من السماء تتلقفه الأرض، نحن الأرض التي تستوعب كل المصائب مهما بلغت، وكأنهم قصفوا وكالة صقر، هل نقرأ عليها الفاتحة؟

« ردّ علاء بصوت خافت حزين: »

- ليت الأمر وقّف على وكالة صقر، ليتها ما كانت ولا قالت حتى أتلقى منها هذا الخبر.

- قل يا رجل، ماذا هناك، نحن معتادون على البلاء مهما بلغ، « محسوبينك: ستينلس ستيل. »

« تحشرجت الكلمات في صدره ثم أخرجها بصعوبة والدموع تنبجس من المكان التي كانت فيه عيناه في يوم من الأيام: »

- الشيخ صالح.

- ماذا تقول؟

« هتف نضال من قاع صدره »

« تابع علاء بصعوبة قاسية: »

- رحمه الله.

- كيف وأين ومتى؟

- في الضاحية الجنوبية لبيروت، تم قصف اجتماع كان فيه هناك في إحدى الشقق.

« انتبه للأمر سائد وعبد الرحيم، تدارك الأمر علاء فهتف: »

- رأيت ذلك في منامي، وتعلمون ما أراه في المنام يتحقق.

« همس نائل بحزن وقهر: »



الغرفة الزهراء

- جناحا المقاومة والحكمة والثورة، الصالح والسَّوار، ذهب الحكمة بذهاب الصالح ولم يبق إلا الثورة، ليس لها إلا الثأر.

« ردّ نضال: »

- على رسلك سيدي نائل، الحكمة لا تنفصل أبداً عن الثورة ولو استشهد رمز من رموزها.

« همس علاء: »

- ستجود قريحتك بما يشرح صدورنا عن الشيخ صالح لا محالة بعون الله.

- وخيرها ما كان على سجيّتك العفويّة سيدي نضال.

« قلب عينيه نضال وراح قلبه يغرف من معين قلبه: »

الشهيد الشيخ صالح العاروري.. القويّ الحكيم

«من سبقني للشهادة بيوم هو أفضل مني» جملة من جماليات الشيخ الشهيد صالح العاروري التي يضيق حصرها، هذه وحدها تجعل من نفسه واضعاً لها في ماراتون الراكضين نحو الشهادة والفرديوس الأعلى.

وإن من تجليات الآية الكريمة: « من المؤمنين رجال صدقوا » المطمئنة لنفوسنا والمبسمة لهذا الجرح العميق الذي أصاب أعماق قلوبنا، هذه الآية التي أرى فيها مثل ريشة فنان مذهل، كل رسم له يذهلنا ويفاجئنا بجديده المبهر على صفحات قلوبنا، نجده كل مرة مختلف عن الذي قبلها، كل مرة لها ألوانها ولها عبقها ومذاقها، نتلمس ما فيها من جمال بكل ما نملك من قدرات استشعارية، فتتوجها لوحة فنيّة بهيجة متقنة الجمال، رفيعة الوصف، صعبة المنال، تذهلنا، تنير دربات أرواحنا، تشعل روحاً وترفع حساً وترقي كل ما فينا من أحاسيس جميلة ومشاعر نبيلة.

رأيت في رسمك الجميل سيدي ما نذرت حياتك له، ما عاهدت الله عليه، لم تدع شاردة ولا واردة في حياتك إلا جعلتها له، ولم تقف عند حدّ من الحدود بل كنت تسير خلف ما ترنو له روحك التي لا حدود لطموحها ولا شيء يقف في وجه آمالها، أبيت إلا أن تحطّ لنفسك طريق العلم والعمل، وصعدت مرتقى عالياً إلى حيث ذروة سنام الإسلام وكنت بذلك مستعداً لدفع الثمن.

أكلت السجون من جنبك ثمانية عشر عاماً لم تكن فيها مجرد معتقل صابر محتسب، بل جعلت من السجون معسكر تدريب تخرّج فيه قادة وتنتج ثواراً وثورة، سلبت من سجّانك رحي السجن وجعلته بين يديك لتجعل منه مصنعاً للرجال، وزراعة متقنة لقيم الحرية والعزة والكرامة وروح الانتصار.

رأيت سيدي في رسمك الجميل حياة كاملة عزيزة كريمة جميلة عظيمة، تتجلّى فيها كل ما في الحياة من روعة وكمال، ترفعها عالية للناس كنموذج للعالمين، نمذجت الحياة العظيمة الراقية وجعلتها ماركة مسجّلة، مسلمة، ربانيّة، مؤمنة، محسنة، مجاهدة، نائرة، قائدة، رائدة، عالية رفيعة، سجّلتها في سجلّ



الغرفة الزهراء

الخالدين ووسمتها بسمات الصديقين الشهداء الصالحين، لقد أدركت الآن أن هذه الدنيا الصغيرة لا تتسع بكل رحابها لمثل هذه الشخصيات العظيمة، لذلك فإن الله يختارهم لحياة مديدة عرضها السموات والأرض ومقعدهم فيها عند المليك المقدر، أرحم الراحمين وأعظم من يكرم من يختارهم لرفقته في عليين.

ولقد أذهلتنا الخنساء التي حملتك في أحشائها عندما ودعتك بذات العنقوان الجميل الذي أرضعتك إياه، بصبر جميل ورضى أجمل باركت لك الشهادة، أرسلت لك تهانيتها من أعماق قلبها وهي في غاية الطمأنينة واليقين: أبارك لك يا ولدي دخولك الفردوس الأعلى، هل هناك ما هو أعظم من هذه الروح؟ هل هناك ما هو أسمى وأعلى وأجل؟ مثل هذه الخنساء تنجب مثل هؤلاء الرجال.

« علق علاء: »

- أحسنت سيدي، ورغم روعة ما يقال إلا أن هؤلاء الرجال فوق القول وبراعة اللغة.

« وهتف نائل: »

- سيكتب قلم التاريخ طويلاً عن هؤلاء القادة الأحرار العظام وسيحضر عميقاً.

« وعقب نضال: »

- ذهاب الشيخ صالح خسارة كبيرة، كان بمثابة العقل السياسي الحكيم الذي يحفظ التوازن، إن شئت فقل باروميتر أو بوصلة أو صمام أمان، مرونة سياسية من غير جمود أو تضيق. هذا يتيح هامشاً واسعاً للحركة، وفتح طرق الحوار للاستفادة من المقدرات المتاحة فلسطينياً وإقليمياً وعربياً وإسلامياً وعالمياً.

« وهتف نائل: »

- لذلك كان عامل وحدة مع الفصائل الفلسطينية، ومع مكونات الأمة، سعى بقوة لتصليب العلاقة مع إيران وحزب الله، وهذا ساهم في تقوية محور المقاومة والارتقاء بمفهوم وحدة السّاحات.

« هتف علاء: »

- ولا تنسوا أن لهذه الزنزانة الزهراء فضلاً كبيراً على كل من سكنها وأقام فيها، لقد أنتجت كثيرين أمثال الشيخ صالح والسنوار، حيث تتعاقب الحكمة والثورة، يتنفسون السياسة كما يتنفس غيرهم الأوكسجين.

« تملل سائد وعبد الرحيم من نومهما، انتبها على أن الأجواء غير طبيعية، وأن هناك عاصفة تضرب أركان الزنزانة، تتأب سائد وسأل: »



الغرفة الزهراء

- أشم رائحة غير طبيعية.

- بالفعل هناك مؤامرة.

« ردّ علاء: »

- نتناقش حول رؤية رأيها في منامي.

- خيراً ؟ اللهم اجعله خيراً.

.....

عبر أثير راديو الصقر وعبر التقاطه لبث الجزيرة كان الناطق الإعلامي لكثائب القسام أبو عبيدة يطلّ بين الحين والآخر فيضع النقاط على الحروف، طلب نائل من نضال أن يطلق قريحته الأدبية في تحليل أدبي لخطاب أبي عبيدة، وكأن نضال قد وقع على غنيمة طيبة، تنهد عميقاً ثم أطلق لسانه العنان:

- كان خطاباً حاسماً قاطعاً سريعاً واضحاً جلياً، يبلسم جراح الحرب ويزرع في القلوب طمأنينة تهدد ضحيجه وتخفف من اضطراب لوعته، يأتي خطاب أبي عبيدة روحاً تسري في عروقنا، يأتي كمنطق بارع يقوم بعملية جراحية بارعة، يستل قلب السردية الإسرائيلية البائسة من عمق الوجود ويزرع قلباً نابضاً يمثل نبض المقاومة الفلسطينية الصادق.

- يأتي غنياً قوياً شاملاً مرتفعاً سامياً، يصيب الأهداف المطلوبة بدقة في سياق شديد الحساسية .. يغطي المعركة ويرسم المشهد ويستحضر الإمكانات والقدرات والفعاليات التي تؤكد صمود المقاومة وثباتها وقدرتها على مواصلة الطريق بكل عنفوان واقتدار.

- ويرسم رسمه السياسي في توحيد الكلمة بين جبهات الأسناد وقدرتها على رفع السقوف والضغط الكافي لوقف العدوان.

- ويوجه سهامه للمجتمع الإسرائيلي بما يكشف من نذر يسير من فشل السابع من أكتوبر، وأنه سيأتي اليوم الذي سيكشف فيه عما جرى من خداع استراتيجي وقدرات استخبارية عالية جرى الإعداد لها طويلاً بكل دقة وإحكام. وبهذا يوجه ضربة معلم في حلبة صراع شديدة الحساسية داخل ملعب الاحتلال.

- خطاب يصيب بأسهمه أهدافاً متعددة بوقت قصير، خاطف وسريع. ويشن حرباً نفسية هادئة قوية واثقة، حطم فيها قواعد حربهم النفسية بكل جسارة وبراعة .

- ثم يقدم تلخيصاً للمطلوب العملي بنقاط محددة وفق أولوياتها ووفق وقت مرسوم بدقة متناهية.

- أمّا لغة الخطاب فهي اللغة البارة التي يفهمها الجميع ويفهم المراد منها دون بساطة يستهان بها ولا قوية معقدة تغلق الفهم دونها، وسطية سهلة يستعذبها السامع ويصل مرادها بسلاسة ويسر وبلاغة وعمق. .



الغرفة الزهراء

- ويتمتع خطاب أبي عبيدة أيضاً بنفَسٍ وحدوي، يجمع ولا يفرق وينصف ولا ينقص أحداً حقه.

هذا شيء من فصل الخطاب الذي يحوي جمال اللغة وقوة المحتوى.

« أنصت الجميع لهذا التدفق من نضال وكأنّ على رؤوسهم الطير، نائل أحسّ لوهلة أنّه ورط الشباب في هذه المطوّلة من الوصف، إلاّ أنه نظر في وجوههم فرأى الانسجام وحسن الاستماع ورأى كأنّه قد أضاف للجمال جمالاً تتملاه القلوب قبل العيون.»

واقترح علاء على نضال أن يكتب هذه القراءة في خطاب أبي عبيدة، وأن يرسلها كتغذية راجعة ويرسلها للقيادة في الخارج تحت عنوان: رأينا في خطاب أبي عبيدة.

.....

تابع علاء مداوات ما تسمّى عندهم (طبعاً ظلماً وزوراً) المحكمة العليا بخصوص معتقل «سدي تومان» حيث طالبت جمعية حقوقية بإغلاقه بعد أن فاحت رائحته وانتشرت عالمياً أساليب التعذيب المريعة التي تُمارس فيه على أسرى غزّة، معتقلون صنّفوهم بمقاتل غير شرعي، عرّوهم دون ملابس وأحكموا القيود بأيديهم وأرجلهم ما أدى إلى قطع أطراف بعضهم بعمليات جراحية دون تخدير، اغتصاب بتصويب خرطوم الإطفائية إلى مؤخرة المعتقل وضخ مادة الإطفاء إلى جوفه ما أدى إلى استشهاد بعضهم، البرد والضرب والتكسير ولا علاج البتّة حتى المسكنات والأكمول لا وجود لها هناك.

وتم استدعاء ابن غفير هذا الصهيوني المتطرّف بصفته وزير ما يسمّى الأمن القومي، وبصفته مسؤولاً عن السجون.

تقف في صدر المحكمة منصّة مرتفعة خلفها خمسة كراسي فخمة أعدت لقضاة المحكمة، ويقف مدرّج للجمهور قبالتها على طبقتين، وفي أسفلها كرسي وطاولة للنائب العام وآخر وعلى الجانب المقابل كرسي وطاولة لمهامي الدفاع، وهناك بوابة عريضة مفتوحة على الشارع ليتمكّن عابر الطريق من أن يعرّج على المحكمة دون أيّ عائق.

المحكمة من حيث الشكل مكتملة النصاب لتحقيق الشفافية والعدالة، ولكنها من حيث المضمون أبعد ما تكون عن هذا، غالبية القضاة ممّن خدموا سابقاً في الجيش، وكلّ يحمل في رقبته سجلاً حافلاً بالقتل والترويع، وهذه عندهم قمة الوطنية الباسلة التي تؤهله للقضاء.

دخل القضاة ووقف لهم من في القاعة، ثم دخل ابن غفير مع حرسه المحيط به من كلّ جانب، بوجه جامد لا ترى عليه ملامح شأن ذي بال، صفيق الوجه بارد الروح، سليط اللسان، ذو نظرات مريبة حاقدة ماسخة.

وقف المدعي العام يقرأ تفاصيل القضية وختم:



الغرفة الزهراء

- نحن الأكثر أخلاقاً في العالم ونراعي كل القوانين والحقوق الإنسانية، ولا مجال للتعاطي مع من سفكوا دماءنا وحرقوا أطفالنا واغتصبوا نساءنا.

« أشار أوسط القضاة مجلساً لمحامي الدفاع: »

- سادتي القضاة المحترمين، هذا السجن المسمى «سيدي تومان» من أبشع السجون التي لم تعرفها بعد البشرية هذه الأيام، يمارس فيه كل صنوف التعذيب والانتهاك لحقوق الإنسان، لم يتركوا قانوناً ولا عرفاً ولا تقليداً إلا وانقضوا عليه وهتكوا ستره وجعلوه في خبر كان، ما بعد السابع من أكتوبر، توخشوا، أجرموا، قتلوا، سحلوا، كسروا، عرّوا، اغتصبوا، نعم ولدينا شهادات حية على كل هذا، أطلب إغلاق هذا السجن فوراً وعلاج من يحتاج إلى العلاج منهم ونقلهم إلى المشافي، كما وأطالب بإطلاق سراح من لا تهمة لهم وهم كثيرون. كما وأطالب بتشكيل لجنة تحقيق محايدة يشارك فيها طرف قانوني أممي محايد.

- لنستمع إلى شهادة وزير الأمن القومي ابن غفير.

« تنحني قليلاً، ابتسم مثل ابتسامة ثعلب وعبس عبوسة ذئب، نظر حوله نظرة حرامي محترف، وانطلق يهبه يميناً وشمالاً: »

- هؤلاء الأسرى لا يجوز بحقهم إلا الإعدام، لأنهم مخربون وأيديهم ملطخة بدماء اليهود، ولأن قانون الإعدام لم يقر بعد، فإن حياتهم فقط تنتظر سنّ هذا القانون، ولحين أن يتم الأمر نحن نطعمهم ونسقيهم بما يبقئهم على قيد الحياة، وهذه قمة الأخلاق أن تطعم وتسقي القتلة والمجرمين، هؤلاء المخربون الذين تتباكون عليهم في السجون، نحن نكرمهم ونجزل لهم العطاء ونقدم لهم ما يبقئهم على قيد الحياة.

« سأل قاضٍ من الذين بلغوا من الكبر عتياً: »

- وما هو ردّك على التنكيل والتعذيب الذي يمارس عليهم في هذا السجن؟

« ردّ على السؤال بسؤال: »

- لماذا هم في السجن أصلاً؟ لماذا يعتقلهم جيش الدفاع؟ أنا أجيبيكم. لأنهم مخربون وكل ما يجري لهم أقل مما يستحقّون، حتى الموت غير كاف كعقوبة لهم، يستحقّون ما هو أكثر من الموت، ولكن حتى نسّن قانون الإعدام لنعدمهم جميعاً ونريح العالم منهم نتسلى بهم قليلاً.

« رفع محامي الدفاع يده طالباً الحديث، فأذن له القاضي أوسطهم: »

- سادتي، هؤلاء الذين يتحدّث عنهم أنهم مخربون هم أسرى قضية سياسية، وهم أسرى حرب قد ضمنت لهم اتفاقيات جنيف حقوقاً يجب مراعاتها من طرف الجهة الأسيرة.



« رفع ابن غفير عقيرته ونعق عالياً:

- أنت مثلهم مخرب، غير اليهود في أرض إسرائيل لا حق لهم ولا حقوق.

- هل تسمحون لي إكمال مرافعتي؟

- تفضل.

- كما تعلمون حضرات القضاة، لا يوجد هناك أي مسوغ قانوني يجيز أو يبرر التعذيب لأي كان من البشر، ثم من وصفهم بالمخربين هناك ما يزيد عن خمسة آلاف معتقل إداري، يعني لا يوجد لهم تهمة ولا يوجد هناك ما يدينهم بارتكاب أية مخالفة قانونية، ثم موضوع التعذيب حتى على من أسروه وقاتل فهذا أسير حرب تنطبق عليه قوانين أقرها المجتمع الدولي بما تسمى بقوانين جنيف، له من الحقوق ما يحق له ظروفاً معيشية مناسبة من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن وله من القوانين ما يمنع تعذيبه، هذه السجون والقائمون عليها ينتهكون كل هذه القوانين، لذلك فقط أطالب المحكمة بفرض قوانين جنيف الدولية في هذه السجون، ووقف كل المخالفات الصارخة التي يندى لها جبين الإنسانية.

« نعق ابن غفير بأعلى صوته: »

- لن يتم هذا أبداً وأنا وزير للأمن القومي، سأسعى بكل قوّة لفرض قانون الإعدام، وإلى حينها سيرون نجوم الظهر. هذا ما عندي. أراكم بخير، شكراً جزيلاً.

« وانسحب تاركاً المحكمة خلفه عاصفة هوجاء، هو يجيد ويتجلى على إثارة مثل هذه العواصف. »

قررت المحكمة تأجيل قرارها ستة شهور.

ختم علاء تقريره عما سمع من مجريات المحكمة بصمت طويل ومريب قطعته نائل قائلاً:

- إلى حينها سيدفع آلاف الأسرى كثيراً من الأثم والقهر، وسيمرّ عليهم كل صنوف العذاب.

« وعلّق نضال مُظهراً استنكاره وامتعاضه الذي لمسه في تجاربه القديمة معها:

- أصلاً المحكمة هي ركن هام من أركان هذا الاحتلال. هي التي تشرعن العذاب وتصبغه بالصبغة القانونية التي يريدونها، وإن شعرت بالحرّج فالمماطلة والتسويف جاهزان.

« نائل أراد أن يخرج الشعب من ظلال محاكمهم الثقيلة: »

- اشتقنا لقصة جديدة مولانا نضال، أن لنا أن نستظل ظلال واحتنا الأدبية.

ويتدخّل علاء ليتبنّى الموضوع:

- إنّها المساحة الأدبية لوكالة صقر الإعلامية، يقدّمها لكم أديبنا الرائع نضال فليتمنّى مشكوراً:



« نضال يتنحى بهدوء وينطلق في سرد قصته الأسبوعية متجاوزاً محاكمات علاء ونائل: »

قصتنا اليوم بعنوان:

جندى يروي قصة إعدامهم لطفل غزة متلازمة داون (محمد بهار) ٩٩

(قصة قصيرة من وحي المعركة)

عقدنا بدايةً حلقة نقاش عندما وضعنا أيدينا على فريسة قد تبدو غريبة وقد نبني عليها فيلمًا قصيرًا من إخراجنا. داخل شقة آيلة للسقوط بعد أن تكوّم نصفها، وعلى وقع صعقات الحرب التي كانت تدار بشتى أنواع الأسلحة: الطائرات بكل تشكيلاتها المحلقة، صليل الدبابات المزمجرة وصوت زخات الرصاص الذي لا يهدأ له بال، بداية وقف الضابط أمامنا شارحاً لفكرة الفيلم.

بين أيدينا الآن طفل غزي بعمر خمسة عشر عاماً من النوع « المنغولي » مصاب بمتلازمة داون، هنا تحلو الحكاية، بطل القصة هذا الطفل الذي أرشحه لكم للقيام بالدور قياماً حقيقياً وليس تمثيلاً، بقية الممثلين الذين سيجسدون دور الذئاب الذكية عندما تأخذ شكلها البشري بعيداً عن أية زخرفة أو تمثيل، وسيمثلون دور العدو المفترس الذي يستمتع بتعذيب ضحيته ويتسلّى على آلامها بحنكة وذكاء، فيلم رعب هم فيه الروح الشريرة القادرة على إخراج كل تجليات الشر الكامنة في أعماق أعماقها، سيجسدون كيف وصلت هذه الروح إلى هذا القاع السحيق من البشرية ذات الروح السوداء الكريهة المقيتة، سيظهرون في الفيلم كيف نجحت أرواحهم نجاحاً باهراً في أن لا تستبقي شيئاً من دواخلها الشريرة.

لا بدّ من أن يكون قد مرّ من يرشح للقيام بهذا الدور بتجارب قد مارس فيها الإجماع بدرجات متفاوتة، ولا بدّ له من أن يرتقي في هذا السلم درجة تلو الأخرى ليصل في النهاية إلى هذه القدرة الخارقة على ممارسة الجريمة بأبشع الصور التي لا يتخيّلها بشر ولا تمرّ بخياله ولو مروراً سريعاً.

لا بدّ له مثلاً من أن يكون قد دخل سابقاً في ندالة الجريمة، قد هدم بيوتاً فوق رؤوس ساكنيها من أطفال ونساء لا دور لهم في هذه الحرب ودون أي مبرر أو سبب، لا بدّ له من أن يكون قد مارس دوراً في قصف القنبلة ذات الألفي رطل على بيوت النازحين البلاستيكية والمشايخ والمدارس والجامعات ودور العبادة، وأن يكون قد شاهد ذلك وهو يقهقه وينتشي ويضح، ولا بدّ له من أن يكون قد اعتاد على أن يشعر بالطرب وهو يستمع لأنفاس الناس وصرخاتهم وهي تُسلم الروح، ولا بدّ له من أن يكون قد تسلّى كثيراً وهو يقوم بتعرية الناس وتعذيبهم شتى أنواع العذاب ليزداد طرباً ويستعذب قلبه هذا العذاب، وأن يكون من الذين مارسوا السحل وتكسير العظام والحرق وكل أشكال البطش الشديد، والشرط ألا تتحرك في دواخلهم أية وخزة ضمير، بل يرتعش ضميرهم جزلاً وسروراً وابتهاجاً. هو بهذا وغير هذا يصبح مؤهلاً للإبداع والتفكير خارج الصندوق المألوف في عالم الجريمة، يصبح له خيال خلاق ويصبح فاتحاً لآفاق جديدة، وذا قدرة عالية في الوصول إلى الذروة التي لم يصلها أحد من قبله من إنس أو جان.



الغرفة الزهراء

لقد قمنا بالفعل بتأهيل هذه المجموعة من الجنود، وقد تأهلت في هذه الحرب ووصلت ذروة الإبداع، ثم إنها ذات سبق في دوري الجريمة الممتاز، ولها تجارب في البحث عن أشكال جديدة لم يصلها أحد، فرصة تثبت للقاصي والداني في هذه العصابة أنها لا يشق لها غبار ولا يحدها حد في تحقيق أعظم التجليات. وأنتم مررتم بهذه التجارب لذلك أرشحكم للقيام بهذا الدور الفظيع.

ولتحقيق أفضل مشهد درامي في سينما إنتاج أفلام العرب، أضع بين أيديكم هذا الطفل الملائكي المصاب بمتلازمة داون، إن في ذلك لفرصة عظيمة، لأن الجريمة عندما يكون لها مبرر تفقد جودتها، هذا الطفل لا مبرر بأي حال من الأحوال يجيز الاعتداء عليه، وهنا يكمن فن الجريمة، هكذا أريد أن أقتلك دون مبرر صادق أو حتى كاذب، ثم إن شكله يوحي بكل شيء عن مرضه وإعاقته فرسالتنا في الفيلم واضحة العيان: لا داعي أيها الجندي العظيم عندما تقتل الفلسطيني أن يكون لك مبرر لقتله، يكفي أن يكون فلسطينياً.

هنا تبلغ الجريمة مداها العظيم ويبلغ الفيلم ذروته، ينزع من حضن أمه فنضرب بذلك قلبها في مقتل، ثم رصاصة في رأسه، لا أبداً؛ هكذا تبدو الجريمة اعتيادية والإخراج سيئاً، تريخ ضحيتك بهذه السرعة وكأنكم لم تسمعوا وصية عظيمنا المقدس ابن غضير عندما قال: « لا يعتبر الموت عقوبة كافية للفلسطيني، يجب أن نذيقه ما هو أصعب من الموت» الرصاصة في الرأس غير كافية، ما رأيكم دام فضلكم؟

« هتف أحدهم مغتبطاً بفكرته: »

- نقتل أمه ونتركه مكبلاً حتى يموت جوعاً وعطشاً.

« هز الضابط المخرج رأسه منكرأ: »

- قد يأتي من ينقذه بعد مغادرتنا المكان.

« قال ثالث - مزهواً بفكرة بدت له أنها عظيمة - : »

- نقوم بالعكس، نقتله ونترك أمه تموت حسرة عليه.

« أنكر عليه الضابط مقولته: »

- فكرة ولكنّها مكرورة مملّة، حصل مثلها كثير. ثم أين المتعة فيها وأين التسلية؟

« قال الرابع وهو يظنّ أنه يحسن صنعا: »

- نقتل الاثنين برصاصتين غير مميتتين ثم نتركهما ينزفان حتى الموت.

« لم تعجب الضابط، استخفّ بها ونعق: »

- لا جديد، أريد فكرة خلّاقة، جديدة، طازجة لم يسبقنا إليها أحد.



الغرفة الزهراء

« قال شرير واضح أنه قد رضع من حليب إبليس في صغره: »

- وجدتها، لم لا نطعم كلبنا، نترك الكلب يفترسه ولننظر كيف يواجه هذا المعتوه مصيره، وننظر في وجه أمه كيف نقرأ رواية البؤساء في تقاطيعه الجميلة، نطعم كلبنا ونسلي أرواحنا.

« صفق الجميع للفكرة، وسال لعابهم على مشهد سينمائي هوليوذي رهيب »

- رأيتم كيف تشرق الفكرة القويّة وتزهو بها الأرواح؟ أحضروا أمه لتشاهد معنا الفيلم، هيّا أطلقوا الكلب عليه.

« اعترض جندي صامت هادئ من الواضح أنه حديث عهد في هذه الجنديّة، وجه كلامه لضابط المجموعة

«

- لا أرى ذلك مناسباً سيدي، إن كان ولا بدّ فدعوني أجهز عليهما برصاصتين.

« قهقهه الجند وضابطهم »

- ما زلت طريّ الفؤاد يا ولدي، محارب فاشل.

« ناشدتهم أمه باكية بعد أن رأت الشرّ في عيونهم وقرأ قلبها ما يحيط بفلذة كبدها من مخاطر: »

- إنّه معاق، من أطفال متلازمة داون، ألا ترون شكله، بالله عليكم، أرجوكم ارحموه، اتركوه وشأنه.

« سأل أحدهم ساخراً: »

- أنت أم هو، الكلب جائع ونريد أن نطعمه.

- أنا، فليأكلني كلبكم واتركوا ولدي.

« قهقهه الضابط ونعق: »

- أنت لحمك أزرق ناشف لا ينفع للأكل.

« هجم الكلب بكلّ عنفوانه وأنيابه مشرّعة، صرخت أمه بأعلى صوتها، من وسط صراخها سمعت ابنها

وهو يخاطب الكلب: »

- « بس حبيبي، خلص.. » لم يدر بخلده الصغير ولم يمر في حياته أن هناك ضباعاً على شكل بشر، حسب

الكلب صديقاً أو دمية، ولكن الكلب أنشب أنيابه في يده فمزّقها، امتنع وجهه هلعاً، وتداخلت مشاهد

الرجاء والخوف والسذاجة والبراءة في صورة سيراليية واحدة في وجهه، امتزجت فيها كلّ الألوان

القاتمة، تجعد صباحه وشخصت عيناه، بكى بمرارة وحزن يقطع القلوب، ثم صرخ من أعماقه صرخة

اهتزت لها الجدران .



الغرفة الزهراء

- ماما أنا بحبك. « وكانت آخر كلماته »

نهش الكلب وجهه ليخفي صوته، لعق من دمائه ونزل الدم غزيراً من رقبته.

« صرخت أمه صرخة ترددت في جنبات خراب غزة ثم راحت في غيبوبة طويلة، نجحنا بتصوير الفيلم على هواتفنا، اشتد القصف علينا فولينا هاربين.. »

هنا انتهت رواية الجندي بنهاية فيلمهم.

وجدت أمه نفسها في خيمة يقال عنها مشفى، سألت عن ولدها لعلها كانت في رؤيا سيئة أو كابوساً في منامها، ولكن الناس ترحموا عليه وقالوا لها ترضي عنه فقد سبقك إلى الجنة والرفيق الأعلى. تذكرت المشهد الأخير من فيلم الرعب وجّهت قلبها لربها وناجت:

« اللهم إنك تسمع وترى ولا تخفى عليك خافية، إنهم ظلمة جبابرة طغاة وحوش كاسرة، قد طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم سوط عذاب، اللهم ما صنعوا مع ولدي أرهم إياه أضعافاً مضاعفة، وانتقم لي ولولدي انتقامك لأحبائك على أعدائك، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدماء ولا تغادر منهم أحداً. »

عقب نائل :

- أحسنت في حبكة القصة ونجحت في رسم صور أبطالها.

عبد الرحيم علق بامتعاض:

- هذا يسير مما خلفته هذه الحرب اللعينة.

« سائد عقب بخبت: »

- كلام الأدب يختلف عن كلام الواقع.

ردّ نائل بنبرة ساخنة:

- الحركة الأدبية روح حضارية تسري في جسد الشعب لترتقي به وتقوده إلى رشده.

ردّ سائد بشيء من السخرية:

- وهذا ما لا يحصل في بلادنا، الأدب غالباً ما يُغرّد خارج السرب.

« رماهما نائل بسهم من جعبته: »



الغرفة الزهراء

- أنتم الجوز سائد وعبد الرحيم، متى ستنزعون عن أعينكم هذه النظارة السوداء، ما في شيء إلا وترونها أسود، يا لطيف عليكم!

- أنتم لا تتحملون النقد.

- وأنتم لا تتحملون نقدنا لنقدكم. ردها عليّ إن استطعت يا أبا العرب.

«أراد نائل بذلك أن يختمه بنكتة ويغلق باب الجدل الذي لا طائفة منه»

علاء من ناحيته فتح منحى آخر:

- في معتقل الجيش لأسرى غزّة «سدي تومان» قسموه قسمين وسمّوهما: قسم جهنم وقسم الجحيم، وتتنافس فرق العذاب هناك في ابتكاراتها التنكيلية، يتفننون في صبّ شتى ألوان العذاب عليهم، أسرى غزّة يعتبرونهم من جنود النخبة في كتائب عز الدين القسام وعلى اعتبار أنها المسؤولة الأولى عن يوم العبور العظيم في السابع، كل معتقل من غزّة يعتبرونه نخبة والويل له، عليه أن يختار بين الجحيم وجهنم على حدّ تقسيمهم.

«عقب نائل:»

- لقد جنّ هؤلاء اليهود، أخرجوا كلّ الشرّ الذي يملأ صدورهم، وهذا دليل أنّهم في حالة من التراجع والضعف على طريق الزوال بإذن الله، لو كانوا أقوياء لتماسكت نفوسهم ولما ذهبوا إلى كلّ هذا المربع الجنون.

«ردّ سائد معترضاً وممتعضاً:»

- على النقيض مما تقول تماماً؛ هم بذلك يُثبّتون أركان دولتهم بالقوّة والبطش وهذا هو دأب الاستعمار في كلّ زمان ومكان.

«ردّ علاء:»

- وما كانت مصائر هؤلاء في كلّ زمان ومكان؟

«تابع نائل:»

- مزابيل التاريخ.

«حشر عبد الرحيم أنفه بعد صمت طويل، صمت دهنراً وقال:»

- الاستعمار في العالم العربي خرج من الباب ودخل علينا من كلّ النوافذ والشبابيك. «زاد في مطّ كلمة الشبابيك تنطعاً وإمعاناً في التهكم»



الغرفة الزهراء

« نضال من ناحيته أراد أن يخرجهم من عنق زجاجة الجدل العبثي فهتف: »

- فكركم لغة من الأصوب: أن نستخدم كلمة نافذة أم شباك؟

« رد نائل مازحاً: »

- المهم أن تكون واسعة ولا حديد فيها، وأن ينفذ منها الهواء العليل بسهولة ويسر، بعد ذلك سمها شيخ نضال كما شئت.

« تابع علاء: »

- أنت تريدها «برندة»، ما هو أصل هذه الكلمة؟ أعتقد أنه غير عربي.

« رد علاء. »

- لما نخلص من الشباك والنافذة سنأتي للبرندة.

- لو قدر لي أن أبني بيتاً فلن أغلق البرندة بالزجاج، سأتركها مفتوحة.

- الشبائيك دون حماية حديدية والبرندة من غير زجاج، ستسهل عليهم أمر اعتقالك. « هتف علاء برخاوة وهدوء.

- قلت لكم «غراب البين».

- لعلمك، إذا كتب لنا الإفراج فسأضع نفسي في نقطة ميّنة، لو قطعوني إرباً خير لي من العودة للسجن.

- وأنت في السجن تفكر إذا أفرج عنك بالعودة إليه، متى سيخرج السجن من رؤوسنا؟

- لن يخرج إلا في حالتين: الخلاص من الاحتلال أو الرحيل للرفيق الأعلى.

« طلّ الشاويش آدم برأسه، ضرب بيده الباب خلخل به أركان الغرفة: »

- في صوت، شكلكم اشتقتم للعقاب، تنتظركم عقابات جديدة، حميمة وسعيدة.

« يعني بذلك رسالة جديدة ستجدونها في نقطة الاتصال »

- أنت يا آدم كنت زمان أحسن واحد في السجن، اليوم ما في على لسانك إلا العقوبة والقمع.

- كله بعد يوم السبت الأسود تغير.

بعد العصر تمكّن نائل من مغافلة سائد وعبد الرحيم فأخرج الرسالة، دارت على ثلاثهم حيث كانت تحمل أخباراً عظيمة، أنزلت الطمأنينة في قلوبهم ورفعت معنوياتهم إلى عنان السماء.

«إخوتنا الأحبة في سجون الاحتلال، تحياتنا لكم جميعاً، من مواقع العزة والكرامة وتسطير أعظم صفحات التاريخ إلى الأسود الرابضة في سجون الاحتلال الذين ما قطعنا وادياً ولا خضنا غمار مواجهة إلا كنتم معنا، فأنتم من عبّدتكم طريق العزة والتحرير ونحن الذين سرنا على خطاكم.

نطمئنكم عن وضع المقاومة، ندير المعركة بفعالية عالية، نوقع بهم خسائر بشرية ومادية أضعاف أضعاف ما يعلنون، نصوّر للناس بعض عملياتنا فقط من أجل إظهار الصورة على حقيقتها، نحاربهم حرب العصابات، نستدرجهم إلى أفخاخنا، نهاجمهم بغتة ونوقع بهم خسائر جمّة، نخرج عليهم من شبكة أنفاقنا كالأسباح لا يدرون من أين تأتيهم ضرباتنا، نحن أصحاب الملعب ونحن الذين ندير اللعبة كما يحلو لنا بفضل الله، هم يأتون بقضهم وقضيضهم من الدبابات والجرافات العملاقة مع تغطية جوية بكل أنواع الطائرات وقصف بحري متواصل، الأعداد الهائلة من الجنود والمدرعات تتيح لنا أهدافاً كثيرة.

لا تقلقوا أبداً، بالأمس على سبيل المثال كانت عملية مركبة من ثلاث مراحل، طبعاً نعتمد على معرفتنا بطريقة تفكيرهم وإدارتهم للمعركة ونفوسهم المبنية على الحقد وشهية الانتقام، كان هناك بيت جميل مبني بطريقة مميزة، توقعنا أن هذا الجمال سيثير شهيتهم لتدميره وسوف يتصورون معه قبل وأثناء وبعد تدميره كي يتسنّى لهم إرسال صورهم معه لأحبائهم، وكى يقولوا انظروا كيف ندمر كل مقومات الحياة في حياتهم، انظروا أبطالكم كيف ينتقمون لكم، انظروا كيف نقطع شرايين حياتهم، ونجعل من غزّة جحيماً على أهلها.

كان هذا الضابط المأفون يمسك كبسة التفجير وينتظر فرقة الهندسة حتى تنهي مهمتها في تفخيخ البيت فيلتقط لنفسه صورة «سيلفي» قبل تدميره ثم وفي أثناء عملية التدمير التي تظهر فيها سحابة هائلة من الغبار الكثيف، وليكتمل الفيلم بمتعة ما بعدها متعة وأنت تنظر كيف يتحوّل البنيان القويّ المتين الشامخ إلى هباء منثور في لحظة، بل في ثانية...

قبل دقائق معدودة من إنهاء الفريق الهندسي تفخيخ البيت الأنيق، وقبل أن تصلهم إشارة التفجير، اهتزت الأرض من تحتهم وطار البيت، لماذا تعجلوا التفجير، هل حصل خطأ فني؟ مستحيل فكل الاحتياطات تؤخذ بعين الاعتبار، ومن يشرف على تفجير البيت ثلثة من الخبراء المتمرسين ولديهم خبرات طويلة، ما الذي حصل إذن؟

بدأ الغبار ينقشع ومن عمقه خرجت استغااثات الجنود، لقد وقعوا في فخّ للمقاومة، فجروا البيت في الوقت المناسب، قبل أن يتمّ الخبراء مهمتهم جاءهم الموت من كل مكان، ولم تنته القصة إلى هذا الحدّ، فما أن وصل فريق النجدة عبر طائرة مروحية إلا وانهمر الرصاص عليهم من كل صوب وحذب، واستمرت المعركة قرابة الساعتين لتقع فرقة الإنقاذ بين قتيل وجريح، ولقد تمكّن مجاهدونا من تصوير هذا الكمين المركب المحترف والذي استغرق منهم أسبوعاً كاملاً من الرصد والرباط والصبر والمصابرة في المكان ذاته تحت الأرض وفوقها.



الغرفة الزهراء

الكماين كثيرة وحرب العصابات لا نهاية لها في المفاجآت، تحولت الحرب إلى حرب استنزاف لقدرات أعدائنا، هم يجيدون قتل المدنيين من النساء والأطفال ومن أهداف مدنيّة مربية تدمّر المنازل والبنى التحتية والمساجد والمدارس والجامعات، والمقاومة تمنع في قتل جنودهم وتدمير آلياتهم.

ثمة خبران مهمان، تصعيد وتيرة الإسناد من قبل جبهات المساندة، اليمن أوقفت بشبه كامل التجارة الإسرائيلية من الجنوب وشلّت ميناء «إيلات» شللاً تاماً، وهناك تصعيد وتوسيع لعمليات حزب الله بشكل كبير، يوماً عشرات الصواريخ والمسيرات التي تصيب أهدافها بدقة وتوقع خسائر كبيرة، هناك تعميم كبير على الإصابات والخسائر، لا يسمح بالنشر إلا القليل القليل.

أما الخبر الثاني فهو خاص وعام، رسالة مرفقة تشرّفت بأن أكون ساعي البريد لها من زوجة نائل حيث تمكّنت من زيارة سجن النساء وهذا الخاص بنائل، هذه الرسالة للأمانة لم أطلع عليها ولكن قلبي يرتعش ووجداني تحوّل إلى جوقة عزف كلّما خطر في بالي أنّي أحمل رسالة من هذا الوزن الثقيل، كيف ترى نائل الآن وهو يقرأ رسالته الخاصة، احذروا عليه من الذوبان أو أن يصبح شهيد الحبّ والحرية، قد لا يحتمل قلبه ما في الرسالة من صعقات كهربائية، أرجو ألا تحمّلوني المسؤولية إن حدث له شيء لا سمح الله.

« توجّه نائل لعلاء عندما وصل خبر رسالته، بعنفوان روح لا حدود لجموحها: »

- أعطوني رسالتي ، أين هي؟

- على رسلك حتى ننهي قراءة الرسالة العامّة.

- ولا على رسلك ولا على بطيخ أقرع، هات رسالتي وخلصني.

- أمّا العام فهو أخبار ال.....

- دشّرني من العام الآن أعطني رسالتي وأجل العام قليلاً.

« أعطوه رسالته وراح غارقاً في برشه في صمت طويل، بدا أن لا حدود له لولا حركات علاء: »

- سجن النساء حيث إنه لا يختلف كثيراً عن هنا، هناك قمع وتجويع وتفتيش وخلع حجاب وبقية أشكال التنكيل التي رأيتموها هنا. ثم غمز: وهناك رسائل حب وعشق من قاع الدّست (الطنجرة).

« لم يلتفت نائل وبقي غارقاً، فأتبّعه علاء ثانية: »

- يا عباد الله ارحموا من حولكم.

« التفت نائل وردّ: »

- « مش فاضيلك ولا رايقلك . »



الغرفة الزهراء

- أفيضوا علينا مما رزقكم الله.

« نهره نضال بلطف: »

- حلّ عنه يا ابن الحلال، تعال لنحلل صفقة التبادل.

- ما في تبادل طالما «هالنت نياهو» على رأس هذه العصابة.

« علق سائد بشدة وحزم: »

- هذا متوقّع، صفقة تبادل تعني انهيار الائتلاف الحكومي، وانفجار التحقيق في أحداث السابع وتورّطه بالفشل، ثم ملفّات الفساد التي قد تفضي به إلى السجن، الحلّ الوحيد أمامه الاستمرار في الحرب.

« وتابع عبد الرحيم: »

- وهذا يعني المزيد من الخسائر البشرية والمجازر من النساء والأطفال والخسائر الماديّة من تدمير الأبنية ومقوّمات الحياة في غزّة.

« ردّ علاء: »

- الخسائر من الطرفين.

فردّ سائد:

- ولكن أين خسائرنا من خسائرهم؟

« ردّ علاء: »

- وأين تحمّلنا وصبرنا من تحمّلهم وصبرهم؟

« عقب نضال: »

وتعودون أدراجكم إلى قوله تعالى:

- (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) وإن شئت انظري في جرس وقرع هذه الآية الكريمة من جديد: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا زلزلاً شديداً ...)

« رد عبد الرحيم متصنّعاً الهدوء: »

- هذه آيات بيّنة واضحة، ولكن حجم الألم هل هو ضمن قدرات الناس؟ هل يستطيع رجلٌ تحمّل رؤية أطفاله مقطّعين أمامه؟



الغرفة الزهراء

« ردّ نائل بامتعاض: »

- لا تكلّ ولا تملّ يا بعيد، تتباكى على الضحايا لتخرج منها بموقف سياسي مهزوم، أنا فاهمك، اذكر مع هذا ما أصاب عدونا، والبطولات العظيمة التي يسطّرها رجال المقاومة.

- أنا لا أتكّر هذا ولا ذاك ولكن الحساب الكلي، مجمل الأمر هذه حرب فاقت كلّ خيال، لقد دمّروا غزّة، لم يبق فيها حجر على حجر.

- نعود للمربّع الأوّل: وهل تريد حرّية بلا ثمن؟

- أدرك ذلك ولكنّ: ثمن معقول.

- والله يا عزيزي لا يمكن لأحد أن يقدر نتائج المعركة ويرسمها بدقّة حسب ما يريد.

- لم تكن تقديراتنا صحيحة في البداية فكانت النتيجة هذا الدمار.

- لم تنته المعركة بعد، الاحتلال لم يصل إلى أهدافه وستخرج المقاومة منتصرة بإذن الله.

- ولكن بخسائر جسيمة تجعل الانتصار هزيباً. وهذا لا يسمّى انتصاراً.

« قطع النقاش علاء: »

- دخليكم خلصونا من هالنقاش الفاضي، المقاومة اتخذت القرار وتوكّلت على الله: (فإذا عزمتم فتوكّل على الله)

« ردّ سائد: »

- قرار المعركة ليس سهلاً.

- بالتأكيد سبق وأن قلنا إنه يحتاج إلى الراسخين في العلم.

« ختم نضال بثقة عالية. »

- القرآن الكريم يأتي بالمعادلة التي تحسّم الأمر: □ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ □ المؤمن أمام جحافل الخشية من الناس وغلبة أهل الباطل يزداد إيماناً ويبقى الشعار العملي الخالد: حسبنا الله ونعم الوكيل.

« هتف نائل: »

- كان من أوّل سيدي نزلت قوات الحسم السّريع.

- القرآن يشفي العقول قبل أن يشفي القلوب التي في الصدور.

الغرفة الزهراء

- ثم إن المعركة لم تضع أوزارها بعد. « ختم علاء بنبرة حاسمة »

« نائل وهو يقرأ رسالة معشوقته المهربة من سجن النساء، كأنه غرق في بحر لحي لا قرار له، غار عميقاً، ذهبت الروح بعيداً وبقي الجسد دون أي حراك، لك أن تتخيل ما جاء فيها من حبّ وعشق وروح جميلة أتته رغم أنوف السجانين، جاء بها سجانهم الجميل « آدم » .

« روعي وأملي وبطلتي العظيم: نائل .. »

فاجأني هذا الذي يسره الله لكم وطلب مني أن أكتب لك سريعاً، ثارت في صدري ثورة، انتفض قلبي وأخرج كل أسلحته، لا تقلق الناعمة، فتحت لك مخازن ذخيرتي وامتشقت القلم وتركت له العنان كفرس أصيلة انطلقت في سباق، صبّ قلبي في قلبي من أنهاره الغزيرة كثيراً مما لم يستطع حمله في أحشائه الصغيرة، كم من المداد يحتاج قلبي ليعبر عما يكتنز قلبي من شوق دفين طال حشره هناك، فماذا أبتّ لك في دقائق معدودة وعلى صفحة صغيرة، الكلمة الخالدة التي بيننا عهد وذمة « أحبك » نمت وترعرت، ارتوت من ماء الشوق والحنان فصارت « أعشقتك » بل إنني لا يمكن أن يخطر في بالي أن أحداً يعشق أحداً كما أنا وأنت، البعد وحديدهم وسجونهم العاتية اخترقها عشقنا وصارت ماء سلسبيلاً يسري في عروقنا، لقد كذبوا عندما قالوا البعد جفاء، نحن بُعدنا قرب، وساعة لقاءنا تقترب بإذن الله العليّ القدير، الأرواح جنود الرحمن يجنّدها ويروي عطشها ويسقيها من مداد حبه فيروي بها قلوب المحبين فيديم عليهم سعادة الحبّ وهناء الوجد وروعة القرب رغم المسافات التي تفصل أجسادنا، أرواحنا دوماً في لقاء رغم أنوف سجانينا اللثام، قمع وقهر ولكنه في ظلال شجرة عشقنا ينقلب إلى سعادة وحلاوة نجدها في قلوبنا خاصة ونحن نستشعر أنه في سبيل الله، وأننا حملة قضية عظيمة نرفع لواءها حباً وعشقا فنجد حلاوة حبها في قلوبنا.

حبيبي نائل لم يتبق سعة في هذه الورقة ولكن قلبي فضاء واسع أنت تتربّع في كبد سمائه، دمت بحب وعشق « ودير بالك على حالك الفرج قريب بإذن الله. »

ما أن تهلّل وجه نائل وانفجرت أساريه حتى انطلقت التهاني والتبريكات، مع بعض الغمز واللمز من علاء:

- لولا جدران السجن سميكة لرأيناك الآن قريب من الشمس في كبد السماء.

- هو أنا صقر مثلك؟

- أجنحة الصقر الديناصوري هذه الرسالة العنيفة.

- « الله يرزقك مثلها، حلينا نشوفك شو رايح يصير فيك. »

- ما أراه أمامي لا يتكرّر أبداً. نائل الآن ليس نائل ما قبل الرسالة.



الغرفة الزهراء

علاء صمت طويلاً فجأة وذهب في سردابه الطويل يرسم ملامح رسالة جاءتة من معشوقته أيضاً، على قاعدة: « إن لم تأتِك رسالة من أحبابك فاكتبها أنت وتخيّلها كما تريد » ومهر علاء رسالة على صفحة قلبه :

« عزيزي الغالي، لقد طال الفراق واكتوى قلبي شوقاً لرؤية بسمتك الجميلة ولتلامس روعي روحك اللطيفة، ولأرتشف من غسل كلماتك البديعة، لقد طال الفراق وتباعد زمن غيابك عنا ولكن روحك النديّة لا تفارق أرواحنا، ترفرف على قلوبنا، نلمسها فتلهب مشاعرنا وتبقينا على قيد حبك العظيم، أنت لنا شجرة رحيّة بظلالها زهية بثمارها عبقرة بشذاها ثرية بجمالها، آه آه على لحظة نراك فيها بيننا، تناغشنا، تعاتبنا، تضحكنا، وتنشر الروح والريحان في قلوبنا، يا لها من لحظة يجتمع فيها كل ما فينا مع كل ما فيك لتزهر حياتنا من جديد.

دوما نرفع رؤوسنا عالياً فيك، نفخر ونفاخر بك، وترفع من قدرنا مجرد معرفة الناس بانتسابنا إليك، بناتك كل ما كبرن ووعين الحياة ازددن فخراً بك، وكل من حولنا يسلم عليك وينتظر لحظة الإفراج عنك بفارغ الصبر.

ويكمل جلسته مع بناته ومع مسابقتها الثقافية المفضلة التي أحياناً ينسى فارق السن فتضطّر العاشقة الكبيرة للهمس في أذن المتورطة في السؤال.

وأحضر لهم رسالة من عبد الناصر من سجن جلبوع الواقع في الشمال الشرقي من فلسطين، منطقة أغوار حارة جداً في الصيف، أخبرهم عن ظروف السجن المأساوية التي تزيد قليلاً عن أوضاع سجون الجنوب، وكان في الرسالة خبر جميل: وهو محاولته التكيّف مع المشروع الذي انطلقوا به سوياً بأن يتابع في مساره الرابع، وهو رسم ملامح رؤية فكرية لتداعيات ما بعد هذه الحرب على غزة، وكي تكون غزة قائدة الأمة تحو خلاصها وتحرّرها من كل أشكال الاستعمار المباشر وغير المباشر، وكيف تلعب غزة دوراً مهماً في هذا المجال خاصّة الفكري والسياسي لنهضة الأمة.

.....

أصبحت معادلة المعركة واضحة للعيان، أهداف المقاومة دباباتهم وجنودهم، بينما أهداف هذا الاحتلال ضرب المدنيين وإيقاع المزيد من الضحايا أطفال ونساء وإنتاج مشاهد مؤلمة من الدمار وضرب البنى التحتية ومقومات الحياة، وهذه يسميها زعيمهم الأرعن נתان ياهو بالضغط العسكري للوصول إلى صفقة تبادل، طبعاً خبرة الفلسطينيين في التفاوض مع هؤلاء مريرة وطويلة منذ ما يزيد عن ثلاثين



الغرفة الزهراء

سنة وهم يراوحون في ذات المكان وينفذون سياستهم في الاستيطان وكل أشكال العدوان، يتقنون المفاوضات العبثية ويصلون في العنت إلى ألا يتنازعا مع أنفسهم بعدة مستويات واتجاهات، ثم يأتي الوفد المفاوض مهلهلاً ومنقسماً ولا يملك صلاحيات فيعود إلى من بعثه بخفي حنين.

«من غير سابق إنذار هتف سائد:»

- ألا ترون أن اليوم الخميس موعدنا مع استراحة الأسبوع.

- أتحفنا يا شيخ الأدب من إبداعاتك الجميلة. «تابع علاء»

تبسم نضال وامتلاً صدره غبطة وسروراً على أن الجماهر هي التي تطلب وتُخبر بحول الموعد، تنحج قليلاً كجندي على أهبة الاستعداد لإطلاق النار وشرع في قصته:

عنوان القصة: ابن رجيم!؟

(قصة قصيرة من وحي المعركة)

في حفل بهيج أمام فرق الموت النازية إلى غزة وقف خطيباً وزير ما يسمّى «الأمن القومي لإسرائيل» الزعيم التوراتي النجيب المدعى ابن رجيم، كان الجو شتوياً مشمساً، الشمس تعلقو بهامتها وتغدو بتؤدة وعنفوان نحو مركز السماء، نسائم هادئة تدغدغ غروره وتلهب مشاعره، شد جاكيتيه الأسود الكالج بكفّيه القويتين ليعانق قميصه الأبيض الذي يشعل النار في صدره، عدل نظارته ذات المكعبات السميكة على عينيه بحزم، رمق صفوف الجيش الذي ينتظر كلماته ذات الرعد المزلزل، أصابته رعدة ذات نشوة يحبها ويحب ما تنشره في صدره، أصابت سحب غضبه فثارت عواصف حقه المدفونة في أعماق أعماقه، بدأ كموج البحر، بدأ بصرخة هادئة ثم هاج صراخه وماج ليتحوّل إلى بحر متلاطم الأمواج، وليبلغ هديره عنان السماء:

«أحبتي يا أبناء التوراة وموسى وداود وسليمان وجبرائيل، اسمعوني جيداً، لقد قلتها وسأقولها عالياً على الدوام، بكل شموخ وكبرياء، لكل من يقتل العماليق الجدد، هؤلاء أراذل الحيوانات،

قتلهم وسحقهم من أعلى القربات، لن يرضى الله عنكم إلا إذا تخلصتم من هذه الحثالات، يجب ألا يرف لكم جفن ولا يخفق لكم قلب ولا تأخذكم شفقة ولا رحمة وأنتم تقتلون وتدمرون وتحرقون. واعلموا أنه لن يكون لكم وزن ولا حاضر ولا مستقبل ولا شعور بفخر وشموخ وكبرياء إلا بسحق هؤلاء، تماماً كما فعلنا في غزة سنفلع هنا في القدس وفي كل الضفة ومستقبلاً سنفلعها في مصر والأردن وسيناء، في الخليج واليمن ولبنان، لا تقلقوا كل ينتظر دوره أمام مقصلتنا وقصف طيراننا والصواعق من صواريخنا التي لا تبقى ولا تذر، سنستأصل شافتهم ونذرهم عبرة لمن اعتبر.

«رأى نفسه يطير ويرفرف بجناحيه فوق هذا الحشد، غراباً يرتفع عالياً ثم ينقض على فأر، يضعه بين



الغرفة الزهراء

منقریه ویمزقہ بمخالبه القویة ثم یطرحه أرضاً، تابع خطبته العصماء:

مثلنا ومثلهم أيها السادة مثل الغربا والضر، ماذا یفعل الغربا إذا وقع الضر بین مخالبه؟ یا غربان العصر أبیدوا الفئران ولا تتركوا منها أحداً، لا یوجد ما یسمى فلسطينیین، هؤلاء لیسوا بشراً وإنما مخلوقات خلقها الله لخدمتنا، وقد سأل أسلافكم الرب: یا رب، لم خلقتهم كائنات تشبهنا؟ فقال هم خدم لكم وخلقتمهم على صورة تشبه صورتكم، كي تستأنسوا بهم وهي قائمة بأمرکم. ولكم أن تتخلصوا منها إذا فعلت ما لا یروق لكم.

رفع جندي يده، هزّ بن رجيم رأسه آذناً له بالحديث:

« بصوت جهوري خطابي هتف مخاطباً الجمهور: »

- أرجو أخوتي ألا يصور أحدكم ما یجری هنا، هذا خطاب داخلي لیس للنشر.

« ابتسم بن رجيم ابتسامة عريضة بلهاء وزعق: »

- صوروا وانشروا كما شئتم، نحن أمة لا نحسب حساباً لأحد، عالم الجويم « غير اليهود » كله في جيبتنا الصغيرة، ثم نحن نعتد على قوتنا وبطشنا الشديد، نحن دولة نووية وفيها من سلاح الجو المتفوق كماً ونوعاً ما يدمر المنطقة، لا تقلق يا بني اذهب وانتقم من هؤلاء أحفاد العماليق، تدرّبوا فيهم قتلاً وتدميراً، هذا فقط بروفة لما هو قادم، وليعلم الذي لا يعلم، سنكتسح المنطقة كلها وندمرها عن بكرة أبيها، المهم أعملوا سلاحكم فيهم كما تعمل السكين في قطعة الكيك في احتفالات ميلادكم، اليوم أقدم لكم قطاع غزّة قطعة كيك، افعلوا فيها ما يحلو لكم، وسّعوا خيالكم البطولي ومارسوا كل ما في داخلكم من قدرات على الإرهاب والترويع، لا تنسوا أننا نريد قطاع غزّة نظيفاً من الصراصير والأفاعي السامة وكل الحشرات.

« تقدّم رجل من حراسه ووضع أمامه هاتفاً، تهلّلت أساريره، ثم هتف: »

- مفخرة جديدة أيها الأبطال، إخوانكم في غزّة فتحوا النيران بكل أشكالها على آلاف الفوغائيين الذين قدموا لأخذ أكياس الطحين من شاحنات المساعدات، أعادوهم لأبنائهم الجياع في أكياس.

« قهقهه عالياً ثم تابع: »

- أبناؤهم بدل استقبال الطحين استقبلوا جثامين آبائهم.

أما الخبر التالي، فالناطق باسم جيشنا يقول إن هؤلاء دهستهم شاحنات المساعدات، شاحنات تدهس المئات من البشر؟ لم الكذب أيها الناطق، هذا بعد أن قتلتم مدافع دبابتنا، يجب أن يهربوا إلى خارج القطاع ولا يهجرهم إلا أخبار القتل والدمار. وهذا ليس جديداً علينا، هكذا فعلنا في سنة ثمان وأربعين، مفاخر



الغرفة الزهراء

وبطولات كثيرة كانت السبب في هروب الناس وعلى رأسها مضخرة دير ياسين. سأكرم هؤلاء الأبطال الذين يحيون تاريخ آبائهم الأحرار. هم الأوفياء لأبطال يستحقون التكريم ولهم منا كل الاحترام.

علت صرخات التشجيع والصفير والتصفيق وتشكّلت حلقات الرقص سريعاً فور انتهاء ابن رجييم لخطابه، نزل عن المنصة وسط الهتافات الصاخبة التي كان أبرزها: الموت للعرب الموت للعرب، تهادى بين الراقصين ووزع ابتساماته العريضة هنا وهناك، صافح كثيراً وعانق كثيراً، تداعت عليه الصحافة وكاميرات التلفزة، سحبه أحدهم لمقابلة تلفزيونية:

- ماذا عن المسجد الأقصى في رمضان؟

- تقصد جبل الهيكل، لا يوجد ما يسمّى المسجد الأقصى، عدد المصلين من الفلسطينيين المسموح لهم الوصول لجبل الهيكل يساوي صفراً. هذا المكان هو حق كامل لليهود.

- هذا من شأنه سيدي أن يغضب الجماهير العربية والمسلمة علينا. قد تتعرض «إسرائيل» لمخاطر أمنية. قد يؤدي منع الفلسطينيين من الصلاة إلى تفجير الأوضاع.

- جبل الهيكل خط أحمر، لن يسمح لأي فلسطيني من الصلاة فيه في هذا الشهر.

دوت صفارة الإنذار منذرة بشرّ صواريخ قد اقترب، هرع ابن رجييم مع حراسه إلى الملاجئ، وهرب الجميع هلعاً كأنهم حُمر مستنطرة.

تبدّلت الأيام بسرعة ودار الزمان دورة من دوراته المديدة، أحضروا ابن رجييم من السّجن إلى محكمة الجنائيات الدولية ليحاكم كمجرم إبادة جماعية، أنكر كل التهم الموجهة إليه، لبس لباس حمل وديع ومثّل على أنه كان من دعاة السلام والمحبة والوثام، أخرج له النائب العام تسجيلاً مصوراً لفيديو ذاك الزمان، يوم كان يطرب على الهتاف: الموت للعرب الموت للعرب، ويوم خطب على أبواب غزة في الجنود.

« هتف علاء:»

- قفلة القصة أطربتنا، بالفعل بارعة.

« ردّ نائل:»

- هذا مصيرهم المحتوم، أتشك في هذا سيدي علاء؟

- لا أشك، ولكن هذه النقلة من واقع اليوم للمستقبل البعيد شيء عظيم.

- من قال لك إنه مستقبل بعيد؟ وما يدريك أنه أقرب إليك من جبل الوريد؟

- والله ما أردت إلا خلافي، يا أخي قريب والا بعيد كلّه بيد الله.



«تدخّل سائد بطريقة حادة:»

- دعه يحلم كما يريد، مجرد أحلام كاتب.

«وتابع عبد الرحيم ساخراً:»

- العرب ينامون طويلاً ويحلمون كثيراً.

«ردّ نائل:»

- جوز محبطين... أعوذ بالله.

- لم لا تقول وأقعيين، موضوعيين، براغماتيين مثلاً، بينما أنتم حاملون.

«تدخّل نضال ليحلّ الإشكال بهدوء:»

- التاريخ دائماً يخبرنا بأن للظالمين نهاية ونهايتهم وخيمة، هذه سنّة التاريخ.

«فردّ عبد الرحيم بصلف:»

- والتاريخ سيّدي يقول إنّ هناك مواصفات للذي يجري على يديه وضع حدّ للظالمين. أين هو هذا القادر على وضع حدّ لهذا الاحتلال المجرم المتوحّش؟

«ردّ نائل:»

- من أربعين سنة ونحن نغني: «وين الملايين» «طلعت الشغلة بدها شويّة رجال».

«ردّ عبد الرحيم بحنق:»

- «خربوا بيتنا شويّة الرجال تعونك».

علاء من جانبه لأوّل مرّة يبدي غضبه مع عبد الرحيم:

- عجيب أمرك تُسَخّف المقاومة بهذا الشكل المقيت، من رفعوا رأسنا وعلموا على عدونا وأعادوا شيئاً من الاعتبار لكرامتنا، تسخر منهم وتتهمهم!؟

- هم من دمروا قطاع غزّة ونقطة آخر السّطر. «ردّ عبد الرحيم بحسم ولؤم»

«تابع علاء على الوتيرة نفسها:»

- يعني الاحتلال لم يدمر غزّة، المقاومة هي التي دمّرت، هنيئاً للاحتلال بمثل هذه العقول.

«هتف سائد بسخرية فجّة:»



الغرفة الزهراء

- خمسين في المية الاحتلال وخمسين المقاومة. « وضحك بافتعال واضح.

« تدخل نضال كي لا تشتعل الأمور أكثر ويصعب إطفائها»

- واضح أنكم خطان سياسيان لا يلتقيان، منكم من يريد المقاومة ومنكم من لا يريدتها.

« بحدة سريعة وساحقة ردّ عبد الرحيم:»

- من قال هذا، نحن نريد مقاومة على أصولها، للمقاومة حساباتها الدقيقة.

« وأردف سائد:»

- هذه مقاومة متهورّة، انظر أين أوصلتنا؟

« ردّ نائل مستنفرًا:»

- وماذا بعد؟ تفضّل وعقلن المقاومة، اعملها مقاومة ناعمة يا أخي تفضّل؟ وإلا المقاومة مفاوضات؟ كم

سنة فاوضتموهم؟ ثلاثين سنة. هل وصلتكم إلى شيء؟

« ببرود زعق عبد الرحيم:»

- وإلى ماذا أوصلتنا المقاومة بعد السابع؟ على الأقلّ دمّرت غزّة.

« ردّ نائل:»

- أنت لا ترى إلا الدمار الذي لحق بغزّة، لماذا لا ترى ما لحق بهم مثلاً؟ هناك تداعيات كثيرة للمعركة

يجب أن تؤخذ بالحسبان، كما أنّ المعركة لم تنته بعد.

« عاد نضال لينهي حوار الطرشان هذا:»

- يا جماعة الخير، هذا نقاش لا ينتهي بينكما أبداً، نسأل الله أن يلطف بعباده وأن ينصر شعبنا ومقاومتنا.

« ردّ عبد الرحيم مصرّاً على استمرار الاستفزاز:

- هذا هو والله... ليس لها إلا الدعاء.

نائل ذهب أيضاً إلى إنهاء النقاش، شعر أن في أمر هذا بالتحديد العبد الرحيم إن، ورسم في ذهنه علامة

استفهام كبيرة، إذ لا يعقل هذا المنطق بهذا الصلف، سائد يعارض بوجهة نظر، لكن هذا أصبح كدئب

مفترس لا يجد صيداً أمامه إلا المقاومة:»

- «يحرق اللي حبسك، في حد ماسكك؟ ادع ليل نهار.»



لم يُبق نائل الأمر في سرّه، باح به بداية لعلاء فهمس في أذنه:

- أمر هذا عبد الرحيم مريب، نقاشاته ملغومة ويصرّ على وجهة نظر جوهرها صهيوني، يلتقي تماماً بما يقول مع مقولة جيش الاحتلال، لا يحيد عنها قيد أنملة، لا يجد فرصة ينال فيها من المقاومة إلا ويستثمرها أبشع استثمار. أتتفق معي صديقي؟

- سبحان الله، الإحساس نفسه.

- يعني تحرك عندك الحسّ الأمني؟

- واضح، في الأمر (إن).

- إن وأخواتها.

- تبقى هذه الإشارات غير كافية، فالظلم ظلمات يا سيدي.

- بكل تأكيد، خبرتنا طويلة في هذا الميدان.

- وسائد أفندي.

- لا أعتقد أنّ سائد مثل عبد الرحيم بتاتا. سائد يحمل وجهة نظر يحملها بعض الناس بشكل طبيعي، لكن هذا العبد الرحيم يبالغ كثيراً، ويُناصب المقاومة العداء بطريقة تشعر كم هو حاقد: «قد بدت البغضاء من أفواههم».

نضال عندما وصله هذا التحليل كان ردّه: «إنّ بعض الظنّ إثم»

همس له نائل:

- بعض الظن يا سيدي وليس كلّه. لو كان السنوار معنا لالتقطته شاشات راداره على السريع. أنت سيدي نضال، حسك الأمني مثل حس جدتي في المنخفض الجوي.

« نائل شغل الحاسة السادسة الأمنية ووظف لها كلّ الحواس، وضع عبد الرحيم تحت المجهر وأخذ يحلّل كل تصرف من تصرفاته ويحاول أن يكون موضوعياً دون أن يقع في الهوس الأمني (الذي وقع به كثيرون من قبل) فيحمل كل تصرف له محملاً سيئاً ويذهب به إلى الاتهام، ولا أن يكون ساذجاً تمرّ المياه من تحت قدميه ولا يلقي لها بالاً. لم يجد أي شيء سوى مواقفه المتطرفة إلى درجة تصل حد أن يتماهي مع المناطق باسم الجيش الإسرائيلي، بعد عدة أيام من المراقبة لاحظ نائل أن لدى عبد الرحيم قلماً،



الغرفة الزهراء

يخرجه ليلاً ويكتب قليلاً ثم ينام، ومن المعروف أن لدى الغرفة قلماً واحداً مهرباً مع علاء، يخرجه عند الضرورة يكتب ثم يعود إلى مخبئه، أتى يكون لعبد الرحيم قلم خاص في مثل هذه الظروف؟! ثم لماذا تراه يكتب، ولماذا ليلاً بعد أن يخلد من في الغرفة في نومهم؟!»

وقد تعلمت الحركة الأسيرة من خلال تجاربها المريعة أن تنتبه جيداً من الوقوع في الظلم من خلال تفسير بعض التصرفات تفسيراً أمنياً يقوم الاتهام على أساسها.

لمح الشاويش آدم بأن أخبار الغرفة تصل مدير الاستخبارات أولاً بأول، وهو معني بما يدور فيها من نقاشات، هناك من يسرب أو جهاز تنصت، الثلاثي علاء ونائل ونضال يعرفون أنفسهم ردحاً طويلاً من الدهر، والثقة في أعلى درجاتها، يبقى سائد وعبد الرحيم، هناك علامات استفهام تحوم فوق رأس عبد الرحيم، سواء لمح الشاويش آدم أم لم يلمح.

وبما أن أخبارنا تصل فلا بد من طريقة توصيل، إذا ألقى القبض على نقطة التوصيل عندئذ ينكشف اللغز، نائل ينام بعين واحدة والثانية ترقب عبد الرحيم ويراه عندما يستل قلمه ويكتب رغم الظلام المخيم في الزنزانة إلا ما يتسلل من ضوء خافت من ممر القسم، لعب نائل على مدار أسبوع لعبة القط الحذر، كان يترقب ترقب القط الذي يخشى افتراس ثعلب، لا بد من إبقاء عين مفتوحة قليلاً ومتأهبة لإيقاظ بقية أعضاء الجسد.

أخيراً جاءت اللحظة التي رأى فيها عبد الرحيم وهو يضع الورقة التي خربش فيها في المكان المطلوب، خلف زاوية البرش الملاصقة للحائط، هناك يخفيها أسفل هذه الزاوية، في الربع الأول منه، إذن هي نقطة الاتصال التي يتواصل عبرها مع استخبارات السجن. انتظر الخروج للفورة وقد سمحوا بها ربع ساعة في اليوم بعد الشهر الرابع للحرب، خرج الجميع وتمارض نائل بمغص في بطنه، حتى إذا خلت له وحده الزنزانة انقض على نقطة اتصال هذا العبد الرحيم، فتح الورقة، جحظت عيناه وهو يقرأ:

« سيدي، هؤلاء مجموعة شديدة التطرف، هؤلاء إن حصلت صفقة تبادل ستخرجون من السجن مجموعة من السنّاوير (نسبة ليحيى السنوار قائد حركة حماس)، لا يفكرون إلا في إبادتكم ولا يؤمنون بوجود دولة تسمى «إسرائيل» ويعتقدون بحتمية النصر عليكم، الضغط الحاصل عليهم في هذه الحرب زادهم إصراراً وتطرفاً وتمسكاً بأفكارهم العفنة وأهدافهم المتطرفة، باختصار نقاشاتهم كلها تصب في نهر هادر يسمونه مقاومة، ولا مجال مع هؤلاء الرجال في ثني إرادتهم أو كبح جماح عزميتهم، دراستي في الجامعة الإسلامية في تل أبيب ساعدتني كثيراً في نقاشهم واستفزازهم واستخراج ما في بطون عقولهم »

هتف علاء من أعماقه بعد أن قرأ الرسالة: « الحمد لله، ما أعظم الحياة تحت ظلال السيوف، ما أجمل أن تكون مغيظاً لعدوك»، إذن، عُرف الآن لماذا كل هذا التنكيل والتعذيب، يريدون أن يروا أثر ذلك على نفوسنا، هل خضعت وضعفت أم بقيت بعنفوانها؟ هذا العميل بعثوه ليجس نبضنا ويفحص ضغط قلوبنا، ونحن ما شاء الله كشفنا له حقيقة أمرنا بكل بساطة، نناقش ونعرض آراءنا بكل براءة. لم يعد هناك ما



الغرفة الزهراء

نخفيه عن أحد، نحن الذين يزيدهم البطش قوة وصلابة وعنقواناً.

في الوضع الطبيعي اكتشاف نقطة الاتصال بين العميل واستخبارات السجن دليل قاطع على إدانة هذا العميل، وهذا يستدعي تنزيله زاوية، أي: حشره في إحدى زوايا الغرفة البعيدة عن عين السجان للتحقيق معه ومعرفة تفاصيل ارتباطه والمهام الموكلة إليه... ولكن الوضع الآن غير طبيعي، وقد يؤدي ذلك إلى جلب كارثة للزنازة بقمعنا من جديد وتشيتتنا كل في سجن فلا نلتقي بعد ذلك أبداً، من الممكن مكاشفته على أمل أن توضع له خطة علاج وإنقاذ من برائن مخبراتهم، ولكن مثل هذا يدرس في جامعة تل أبيب الإسلامية وهي التي أقاموها من أجل تخريج كوادر تفهم الإسلام جيداً لتحدث اختراقاً في جدار الوعي الديني، وتنتشر مقولات يروجها الاحتلال فيزعزع المفاهيم الدينية في رؤوس أصحابها. درجة التجذّر في العمالة وخدمة المحتل عند هذا الرجل لا أخالها تجعله قابلاً للعلاج أبداً.

كولس (كلمة سائدة في السجن بمعنى التناجي بالسرّ) الثلاثة حول هذا العميل: ما العمل؟ هل ننزله زاوية ونحقّق معه؟ الأغلب سوف يسلم نفسه لإدارة السجن فتنزل علينا لعنائهم، ويأتينا القمع بلون قاتم، ثم يجري تشيتتنا فتضرب هذه الحلقة التي تقوم بأعمال جلييلة وهي مجتمعة معاً، بعد نقاش طويل استقرّ الأمر على إبقاء الأمر على ما هو عليه مع محاولة استخدامه في الرسائل غير المباشرة التي نريد أن نوصلها لاستخباراتهم، عرفنا مهمته معنا فلنجعل منه مهمّة لنا.

في اليوم التالي زار المحامي علاء، وقبل أن أكمل الحيلة التي حيكّت لتميرها عبر هذا الطنجير (العميل) عبد الرحيم، دعوني أتوقف قليلاً مع الرسالة التي كانت ردّاً من نائل على رسالة زوجته، لم يكن هناك إنصاف في الوقت، فقد كتبت هي تحت ضغط الوقت بشكل سريع بينما تمطى نائل على راحته ومكث في كتابتها ثلاثة أيام وهو يغزلها حرفاً حرفاً، إلى أن استوت على الجودي كأنها قطعة مطرقات فلسطينية جميلة:

« أيتها الحبيبة، حبيبة القلب والروح وكلّ تلافيف عقلي وما حوى، يا حبيبة العمر وأعلى ما يتمنى عند سدرة المنتهى.

أتدريين ما فعلت بي رسالتك العظيمة وما حوته من كنوز جلييلة؟ غرست في كل مسامات روحي فسيلة من فسائل روحك الجميلة، زرعت زرعاً أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ويزرع الغيظ والكمد في قلب علاء، تعرفين من هو علاء غريم الحبسة والابتلاء، صنعت في قلبي ثورة حبّ متكاملة الأركان، كنت قبلها نائماً غافلاً لأبد المشاعر فاقد الإحساس غائر الروح تماماً كحال الشعوب العربية اتجاه ما يحدث في غزّة، هبّت نسائم كلماتك فإذا بي ثائراً، شاعراً، متقدّ الحسّ مشتعل الروح والفضّاد، ألهبت وجداني وضربت جدران الخزان وفار التنّور، ففاضت جماهير الحرية في شرايين جسدي كلّ، تهتف عشقاً، وتنشد سموّاً وتسيّل الوديان ماءً عذباً فراثاً سائغاً للشاربين، لقد فعلت رسالتك الأعاجيب، كان أولها ثورة وآخرها ولها وعشقاً.



الغرفة الزهراء

في هذه الظروف القاسية العصبية التي لا تخفى عليك، فقدنا كل شيء سوى إيمان وإرادة وقضية، وهذه وحدها كافية، فكيف إذا أشرقت شمسك عليها أحالت ظلماتها ضياء ونوراً، يا لروعة لطف الله بنا أن جعلنا نوراً متصلاً وحبل وذاً لا ينقطع ولا ينقضي مداده أبداً، هذه وحدها كافية أن نحتمل كل عذاب مهما بلغ، فليركبوا أعلى ما عندهم من غطرسة ولؤم وصلف، إنهم لا يدركون سرّاً ما وقر في قلوبنا، ولا يعرفون للإنسانية طعاماً آخر غير ما عشتش في صدورهم النكدة من حقد وغل وخراب، لذلك هم يمعنون في الظلام ونحن لا نعرف إلا السفر والإمعان في النور والبهاء وأجمل ما في الحياة.

صدّقيني عزيزتي الغالية، لو لم يبق لي في الحياة إلا ذرة من حبك لكفتني، أعشقتك، أموت في حبك، أسأل المولى الأحب إلى قلوبنا الصغيرة أن يديم علينا هذا الحب العظيم وأن يجمعنا مع الحرية لنعود إلى عشنا الصغير عن قريب.

المتيم بك نائل.

لنعد إلى علاء بعد أن عاد من الزيارة ليسرّب تسريباً متفقاً عليه بين الثلاثة، بهدوء وبراءة بعيداً عن التكلّف والتمثيل هتف:

- كل السجون الآن مُجمعة على أن ترفع عنها هذا القهر والهوان الذي تمارسه عليها فرق القمع في إدارة السجون، وهم بذلك يتواصلون مع فصائلهم وكل الحركات الشبابية من أجل تثوير الضفة وتفجير الأوضاع نصرّة لأسراهم، وقد اقتربت ساعة الصفر.

هتف نائل بحماسة عالية:

- والله هذا خير عظيم سيقلب الطاولة في وجوههم. المرّة أستطيع القول: «غاب وجاب».

- «والا مثلك لو رححت على البحر لتتشفه».

- «يعني تقول عنك جايب الذيب من ذيله».

- قبل قليل قلت عنه: خير عظيم.

- «تدخّل نضال ليعيد البوصلة».

- المهمّ يا جماعة الخير قرب الفرج، إذا تحرّكت الضفة كما يجب، فسوف يعيدون حساباتهم معنا على الفور.

- ومع غزّة أيضاً. «تابع علاء»

هتف سائد بوجه عابس:

- هذا جيد، ولكنه لن يوقف العدوان على غزّة. وطالما أن الحرب هناك لم تضع أوزارها فلن يخفّفوا عنّا.



الغرفة الزهراء

« ردّ نائل بحسم ناعم: »

- شوية تفاؤل إذا سمحت.

« صرّح عبد الرحيم - بعد أن خرج من حالة نعاس صباحية وبرد أصاب معدته ليلاً - : »

- على ماذا نتفاءل؟ أطمئنكم، الضفّة عليها رحمة الله، اقرؤوا الفاتحة وغسلوا أيديكم منها، لو أرادت الانتفاضة لا تنفضت مع غزّة (تعثر فيها قليلاً) من أوّل مجزرة.

« ردّ عليه نائل كقنّاص بارع: »

- إنّت تخصّص إحباط سبحان الله، لو أرادت الانتفاضة لا تنفضت، تقدر تقول عشر مرّات: «شجرة نتش جيت أنتشها ما انتتشتش».

بعد يومين طلب ضابط الاستخبارات علاء، سحبوه من الغرفة بهدوء، ساقه شرطيّان عبر دهايز السّجن التي حفظها عن ظهر غيب في مخيلته، عدد الممرات والسلالم التي يصعدّها أو يهبط منها، المهم نهاية المشوار الغرفة التي ينطلق منها مكرهم وخبثهم وطغيانهم، تفوح منها رائحة الذناب والضباع والثعالب وتفوح رائحة الدخان النتن الذي تعج به هذه الغرفة فيتصوّرّها علاء كالطابون الأجرّب الذي لا يحرق فيه إلا الروث المعتق الخبيث.

« نعق مدير السجن «اخنيّس» بصوته القبيح: »

- اجلس أيها الأعمى، تفضّل.

« ردّ علاء بصوت جليّ وواثق: »

- خير يا طير؟

- كيف شايف الحرب؟

- هذه ليست حرباً، وإنما عدوان وإبادة جماعية.

- كيف تتابعون الأخبار.

- نسمع صوت الطائرات الذاهبة إلى غزّة، ونقدّر ماذا فعلت صواريخها بأطفال ونساء غزّة.

« عقد حاجبيه قليلاً، ورفع رأسه، كزّ على أسنانه ونعق: »

- دعك من هذا الاستهبال. أنا متأكد من أنّ لديكم راديو، ولديكم طريقة تواصل. زرت المحامي بالأمس، صحيح؟



الغرفة الزهراء

- هذا مسجّل عنديكم.
- ماذا أخبرك عن ثورة السجون؟
- المقابلة مسجلة عنديكم، صحيح؟
- أحببت أن أعرف منك وأناقشك في الموضوع.
- افترض أن ذلك صحيح، أنا ماذا بيدي؟
- لماذا يخبرك إذن؟ أنت بيدك أن تفعل كثيراً، يقولون عنك أعمى، لكنك ترى وتسمع أكثر منا جميعاً.
- ماذا بوسعي أن أفعل، وماذا بوسعك أنت؟
- نبدأ بك، بإمكانك أن تخبر جماعتك أن يهدّوا اللعب خير لهم؛ لأن هذا يجلب لهم المزيد من القمع والضرب والتكسير والتجويع.
- أكثر من هذا الذي نراه.
- هذا مزاح بالنسبة لما هو قادم.
- حسب خبراتك الطويلة معنا، ألم تصل لقناعة بأن التهديد لا يجدي معنا نفعاً؟
- وأنت حسب خبراتك معنا، ألم تصل لقناعة بأن العناد «والجكر» لا ينفعكم أبداً؟
- من الآخر، ماذا تريد؟
- لا تلعبوا بالنار، ودعوكم من التهؤور.
- مقابل ماذا مثلاً؟
- أنا لا أفاوضك، فقط أبلغك لتبلغ أصحابك في التنظيم، مفهوم.
- أنتم فرطتم التنظيم، ما في تنظيم.
- «كمش تجاعيد وجهه بشكل بشع وعوى:»
- لغاية الآن أنتم لا تعرفون حجم غضبي، لم أطلق العنان لغضبي بعد، ما رأيتموه لا يعادل عشر غضبي.
- «ردّ علاء بهدوء وبرود أعصاب، وأراد أن يذبحه بسكين حاف:»
- لصالح من تُخرج كل غضبك؟ لصالح شعبك وأمّتك مثلاً؟ نحن نموت ولا نخرج من ثوبنا.



الغرفة الزهراء

« أدرك ما يرمي إليه علاء، إنه مرتزق رخيص عميل، بعيد أن يعمل لصالح شعبه، اشتعل الغضب في صدره وهب واقفاً، وأطلق سيلاً من المسبات الفاحشة: »

- أنتم سفلة منحطون، عملاء إيران في المنطقة، دمّرتم حياتكم بأيديكم، أنت وأمثالك تخمّجون في السجن، غزة دمرتموها على رؤوس أصحابها.

« لم يتوقّف عن الشتم، بينما استجاب الشرطيّان لإشارة منه كي يخرجوا علاء من عنده، فيراتح قليلاً من ضغطه على أنفاسه، هتف بعد أن أوشك على المغادرة كي يزيده ناراً: »

- لسنا عملاء لأحد، نحن أحرار لا نخضع إلا لله، لو رضينا أن نكون عبيداً، ما دخلنا هذه السجن.

« دفعه الشرطيّان أمامهم بقوة، وكان كلّما تعثر تناوشوه بأيديهم وأرجلهم، لم تكن طريق العودة سهلة، فقد كانت مفروشة بالشوك وعلقم اللكمات والصفعات، اتخذوا منه كيس ملاكمة أو متنفساً لأحقادهم، كان في أعماقه ضاحكاً على الضربات التي سدّها في صميم قلب كاهنهم الأكبر (هذا إن كان له قلب) ولم تكن رحلة العودة لزنزانتة الطويلة جديدة عليه »

في الزنزانة تأكدوا بعد عودة علاء بأن رسالتهم عبر هذا «الطربش» العميل قد وصلت، وتأكدوا بأن قرار الإبقاء عليه مع الاستمرار في التمثيل على أنه يخدعهم قرار صائب، الرسالة أنّ السجن تجهز لثورة قد آتت أكلها، بعد عدة أيام أظهرها بعض التراجع في تعاملهم مع المعتقلين خاصة موضوعي الأكل والضرب. وذكرهم علاء أنّ هذه الطريقة لعبها السنوار كثيراً فترة الثلاث وعشرين سنة التي قضاها في السجن، كثير من العملاء حولهم إلى عملاء له دون أن يدركوا ذلك. يعني حقوق الطبع محفوظة للسنوار.

« هتف علاء: »

- تراه اليوم كما يقولون، يدير المعركة من أعماق الأنفاق دون أن تلتقط نبضه أو بصمة صوته طائرات التجسس العملاقة التي تحوم في سماء غزة، كلّ أجهزة التنصت التي يمتلكها العالم الحرّ مسخرة في خدمة جيش الاحتلال للعثور على السنوار.

« اعترض نائل وهو يحاول ضبط هدوئه: »

- أعترض، المصادر التي اعتمدت عليها غير موثوقة، أنا أعرف السنوار جيداً، لا يمكن ألا يشارك الشباب في المواجهات، ومن فوق الأرض، نفسه الحرّة تأبى ذلك، تأبى أن يعتكف في أعماق الأنفاق، حتى لو ألزمه التنظيم بذلك سيخرج ويرمي مع الرماة، ثم قولك كيف تقول العالم الحرّ، هذا هو العالم المتصهين المجرم القاتل.

« أجاب علاء بهدوء لأنه يعرف دقّة نائل في المصطلحات: »

- أتفق معك في الثانية، لكن في الأولى أختلف؛ لأنّ روحه كقائد ليست ملكه الشخصي، هناك اعتبارات



الغرفة الزهراء

كثيرة يأخذها التنظيم بعين الاعتبار، ولا يمكن أن يسمحوا بذلك.

- أتراهن؟ « سأل نائل»

- وكيف نفضح الأمر؟

« تدخل نضال وهتف:»

- هذا ما ستكشفه الأيام. المهم إن ثبت يا سيدي نائل ضد ما تقول، فعليك كرتونة تمر.

- هذا إن عاد الكنتين في يوم من الأيام.

- إن شاء الله خارج السجن.

- «خارج السجن فك رقية. وشوي الخروف اللي بحبه قلبك سيدي نضال.»

.....

تداول الثلاثة أخباراً جديدة عن العدوان المستعر في غزة من زاوية استهداف الصحافة وصحفيي الجزيرة بالتحديد هم وعائلاتهم، فوائل الدحدوح قد تحوّل نموذجاً للاستهداف البشع وفي ذات الوقت جسّد عنفوان الصبر والتحدّي؛ حيث استشهد كلٌّ من زوجته وابنه وابنته وحفيده في الضربة الأولى، وكانت كلمته الخالدة التي انطلقت «ترند عالمي» « معلش» افعلوا ما بدا لكم فلن تنالوا ذرة من عزائمتنا. ثم قتلوا ابنه الصحفي حمزة وبعد ذلك أصيب هو واستشهد زميله سامر أبو دقة، واستشهد واحد وعشرون من عائلة مراسل الجزيرة مؤمن الشرايفي، ووالد أنس الشريف، وكثيرون غيرهم ممن يعملون في الصحافة بشكل عام، تجاوزوا المائة وستين لغاية كتابة هذه السطور.

« بألم ومرارة هتف علاء:»

- كانت الدنيا تقوم وتقعّد إذا استهدف صحفي واحد، اليوم تُغتال الصحافة بهذا الشكل البشع كماً ونوعاً، ولا نجد ردة الفعل التي تليق بحجم هذه الجرائم البتّة.

نائل من جانبه قال بحسرة:

- لا يوجد في العالمين العربي والإسلامي ردّ إلا ردّ المقاومة، سوى ذلك الذي لا يسمن ولا يغني من جوع من بيانات الشجب والاستنكار الخجولة، فقط المقاومة التي توجعهم، والعالم الغربي يحلّس ويمسّ على رؤوسهم مهما فعلوا وأجرموا كما يفعل المرء مع طفله المدلل.

« هتف سائد:»

- وهذا العالم الغربي الرسمي يظهر على حقيقته البشعة ويقف مع رواية المحتل الكاذبة بكلّ تفاصيلها.



الغرفة الزهراء

« عاد علاء للقول: »

- بينما الموقف الشعبي مختلف نوعاً ما، ما تشهده شوارعهم من مظاهرات ومسيرات يؤكد ذلك.

« ردّ نائل: »

- ولكن ما زالت بعيدة عن حسم الأمر في وجه هذه الجرائم البشعة التي تجاوزت كل الخطوط الحمراء.

« نضال قال متفائلاً كعادته: »

- دماء الصحفيين والأطفال والنساء وكل المستضعفين لن تذهب هدراً، سنة الله في الذين خلوا من قبل،
يُهلك الله الظالمين ويجعل الدائرة تدور عليهم: « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ».

« وكان لا بدّ من مناكفة عبد الرحيم التي أصبحت للثلاثة مفضوحة ومعروفة الدوافع، ولكن لا بدّ من التمثيل كي يستمرّ في لعب دوره الذي أرادته الثلاثة، هو يحسب نفسه على دور واحد للمخابرات ومن حيث لا يدري يقوم بالدور المعاكس »

- كلّ هذه الدماء العريضة الغالية في رقبة المقاومة المتهورّة.

« اعترض سائد: »

- ليست متهورّة ولكنّها أخطأت في التقدير.

« أجمهما نائل بهذا الردّ: »

- أنتم فطاحلة العقلنة والتقدير، لا يسبقكم أحد في سياسة الانبطاح والتفريط.

« ردّ سائد: »

- أنتم هكذا جماعة المقاومة دائماً تتهمون من يخالفكم الرأي بالانبطاح والتفريط.

- لأنكم دائماً تسارعون باتهام المقاومة بالغباء السياسي والتهور وعدم تقدير العواقب.

.....

اشتعلت أخبار المسجد الأقصى حيث اقتحم المدعو ابن غضير وزير ما يسمّى الأمن القومي مع مئات



الغرفة الزهراء

من المستوطنين المتطرفين ساحات المسجد الأقصى، عربدوا وهتفوا ورقصوا وصلّوا صلاتهم هناك على مرأى ومسمع العالم العربي والإسلامي كلّه، لم يكن الردّ الطبيعي على هذه الغطرسة إلا من المقاومة في غزّة ولبنان، مقاومة غزّة رفعت وتيرة ضرباتها الصاروخية على «تل أبيب» قلب الكيان وعصبه الحساس، ومن لبنان انطلقت عشرات الصواريخ على مستوطنات الشمال الفلسطيني. اليمن بدوره ساهم بإغلاق باب المنذب على التجارة الإسرائيلية مع بعض الصواريخ الباليستية والطائرات المسيّرة، سوى ذلك في العالمين العربي والإسلامي صمت كصمت القبور.

«هتف نائل بحدّة وغضب:»

- هل المسجد الأقصى للفلسطينيين وحدهم؟ اقتحام وعريضة بهذا المستوى من الاستفزاز كفيّلة بتحريك الشارع وإحداث انتفاضة على أقلّ تقدير.

«ردّ سائد:»

- نحن هنا في الضفة الغربية لم نتحرّك كما يجب، فهل تطلب من العالم العربي والإسلامي ذلك، لنتحرّك نحن أوّلاً.

«تابع عبد الرحيم:»

- لم يعد المسجد الأقصى وما يحدث على ثراه عامل تثوير وتحذّر عند الناس للأسف الشديد، ما يشغل الناس اليوم الأشياء: الرواتب والعقارات والسيارات «وتجارة تخشون كسادها أحبّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا» وشدّ على (فتربّصوا).

- «إنتو الجوز شغل احباط، الله وكيلك» «هتف نائل»

- هذه الحقيقة سيدي نائل.

«دخل علاء على الخط وهتف:»

- الصحيح على قدر ما هناك تقدّم في الاهتمام والتضحية للأقصى في غزّة، حيث يتبوأ قمة اهتمامها وتركيزها وحيث انطلقت المقاومة أصلاً يوم العبور العظيم، هناك تراجع كبير في الضفّة والعالمين العربي والإسلامي، لم نسمع أيّ خبر عن أيّ حراك من أية عاصمة عربية.

«قاطعه نائل:»

- في اليمن خرجت مظاهرات مليونية يا سيدي ما رأيتهما، آه نسيت إنك أعمى.

- اليمن شيء آخر، ورغم أنّي أعمى فأني أراها بقوة، ولكنك لم تصبر عليّ على عادتك.

«أدلى نضال بدلوّه:»



- ولم اليمن شيء مختلف؟

«ردّ نائل:»

- هناك الدين يُنتج ثورة، بينما في دولنا العربيّة البائسة ينتج كلّ شيء إلا الثورة.

«هتف نضال:»

- ونحن الفلسطينين في الضفة، انظر حال المساجد كيف أصبحت وخطباء السلف الصالح؟!

«هتف علاء:»

- الله وكيلك، منهم من ليس لهم علاقة بما يجري في غزّة وكأنّ الأمر لا يعنيههم.

«تابع نائل:»

- الجهاد عندهم بعد أن يأذن وليّ الأمر، قدّس الله سرّه.

«هتف علاء:»

- وإذا كان وليّ الأمر في الفلك الأمريكي أو مع محور التطبيع؟ متى يأذن بالجهاد.

«رمى نائل سهمه الحاسم:»

- للأسف، يصطفون في حلف واحد أمريكي إسرائيلي عربي.

«تدخّل عبد الرحيم بعد أن شبعته أذناه بما يغطي تقريراً شافياً:»

- ألا يمكن أن تكون هذه «براغماتية» سياسيّة كي لا تستحوذ «إسرائيل» وحدها على الدعم الأمريكي في المنطقة؟ لم لا تنافسها في هذا الدعم؟ هذا ما تحاول فعله دول التطبيع. مجرد تفكير سياسي، ألا يمكن أن يصل إلى حصاد أفضل ممّا حصلت عليه غزّة، دمرت المقاومة بلدها بيدها بحسابات متهورّة لا تنظر في مآلات الأمور، وعندنا في الشرع الإسلامي قاعدة في أصول الفقه: «درء المفسد أولى من جلب المصالح».

«ردّ نائل بعد أن احمرّ وجهه وغلّت الدماء في صدره:»

- الحلّ إذن أن تخضع لها وأن تسلك سياسة التوسّل والرجاء بدل المقاومة والإباء؟

- علينا ألا نضحك على أنفسنا، أيّ نظام يسلك غير هذا الطريق يصبح في خبر كان.

- لذلك هم حريصون على عروشهم، ولا تهمهم مصالح شعوبهم.

- شعوبهم أم عروشهم ليس مهمّاً، هذا الواقع وأنا أحب أن أفسّر الواقع كما هو.



الغرفة الزهراء

« وزاد الطين بلة سائد: »

- المهم نحن الفلسطينين لا نرسم الواقع العربي كما نتمنى، مطلوب منا أن نتعامل معه كما هو، مثلاً قطار التطبيع يسير بنا ودوننا فمن الأفضل: أن نستفيد منه أم أن نقف في طريقه فيدوسنا تحت عجلاته؟ طبعت الإمارات والبحرين، وخرجنا من المولد بلا حمص، فهل تطبيع السعودية أيضاً ونخرج بلا حمص؟

« هتف نائل بحدّة واستنكار: »

- الله يقطع من حمص مغمّس بالخيانة والذلّ والهوان.

« ردّ عبد الرحيم بهدوء مصطنع: »

- هذا الواقع إن أردت أن تستخلص منه شيئاً، أمّا إذا أردت أن تحلم وتعيش شعاراتك الجميلة فستلحق الضفّة بغزة وما لحق بها من دمار وإبادة.

« ردّ علاء رغم علمه بخيانة هذا اللسان المأجور، ولكن كي لا يوحي عدم معارضتهم لأفكاره معرفتهم بأمره، صار واضحاً لديهم أنهم بين عميل (عبد الرحيم) عن علم ومخدوع بغير علم، مؤيد لأفكاره عن جهل (سائد)، هناك مقولة للشيخ محمد الغزالي: « ليس شرطاً أن تكون عميلاً حتى تخدم عدوك، يكفي أن تكون غيبياً »:

« تابع نائل: »

- تتحدّثان وكأنّ المقاومة هي التي تقتل وتدمّر! سبحان الله وماذا تقولون عن الضفّة؟ عندما أسقوا الطفل أبو خضير بنزيراً وحرقوه، وعائلة دوايشة ومجزرة الأقصى عام ٩٠ ومجازر ثمانية وأربعين وما بعدها، وما قتلوا في انتفاضة الحجارة وانتفاضة الأقصى وما فعلوه بنا في مخيمات الشتات في لبنان من مجازر صبرا وشاتيلا وقانا؟ كله بسبب المقاومة وحساباتها التي لم تكن كما يجب؟

« ببرود أعصاب ردّ عبد الرحيم: »

- أنتم لستم مع العمل وفق حسابات لا تجرّ وبالاً علينا؟

وتابع سائد:

- حسابات المقاومة السلمية في ظلّ موازين القوى المختلّ بشكل رهيب لصالحهم هي الأفضل للحالة الفلسطينية. وهذا ما وصلت إليه قيادة منظمة التحرير بعد تجربة طويلة، أليس كذلك؟ « مطّها » أليس كذلك؟ بزهو واعتداد مستفزّ.

« بادر علاء بمسك زمام النقاش خوفاً من انزلاق الأمور على يد نائل: »



الغرفة الزهراء

- يا أحبابي، لسنا ضد الحسابات السياسية وحساب القدرات والإمكانات، الايمان والمبادئ لا تنتصر دون العمل والعمل على أصوله وبكل متطلباته، بل مع أن تكون في غاية الدقة وأن توزن على ميزان من ذهب، ما في مشكلة؟ أنظر من أوسلو لليوم قرابة ثلاثين سنة، ماذا حَقَّقت؟ تمادى الاحتلال فينا وأوغل بكل شراسة، لم يعد أمامنا إلا العودة للكفاح المسلح ومقاومة البندقية.

« تلعثم قليلاً عبد الرحيم، ثم جمّع قواه وشدّ حنجرته وانطلق بحدّة: »

- كلامك متناقض ولا أرى فيه ذرّة من الفهم السياسي، أنت بين مقاومتين: واحدة مكلفة وتعطي المحتلّ الذريعة ليرتكب المجازر ويدمر البلد، والثانية تسحب منه الذرائع وتجند العالم معك ومع مقاومتك المشروعة.

« ردّ نائل بحزم: »

- قال لك: هذا كان قبل السابع من أكتوبر بثلاثين سنة موجوداً، فماذا أنتج؟

دخل نضال على الخط وهتف بتؤدة وهدوء:

- يا جماعة الخير قد يحترق العقل ولا يجد سبيل الرشيد بشكل قطعي، لذلك كان لا بدّ له من وحي السماء ليستلهم رشده ولتكتمل دورة العقل مع وحي السماء. لا بدّ من الموازين القرآنية: مثلاً قوله تعالى عن بني إسرائيل: « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يأتون الناس نقيراً »، لن يتنازلوا عن نقير مما في أيديهم لغيرهم بمحض إرادتهم أبداً. طوعاً لا يتنازلون، والآيات كثيرة التي تدفع للجهاد بالقوّة، « أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير » وسيرة رسول الله خير نموذج على تطبيق ما ورد في القرآن من آيات القتال والجهاد.

« لاذ سائد بالصمت، بينما التهبت شهية عبد الرحيم للنقاش وكأنه في مباراة كرة قدم قد اشتدّ أوارها: »

- صحيح سيدي الشيخ، ولكن لا تنسَ أنّ في سيرة رسول الله سنوات كانت المواجهة سلمية وحتى أنّ قبلها كانت الدعوة سرية. وقد أذن لهم بالقتال في وضع استوجب القتال وكان ذا جدوى واحتمالية تحقيق النصر فيه كبيرة.

ردّ نضال بهدوء وثقة:

- لذلك قرار السّلم والحرب هو للراسخين في العلم وبالذات العلوم السياسيّة وليس لعابر الطريق، وكذلك للذين هم في معمعان المعركة، لذلك كانت الآية الكريمة: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين....» انظر لكلمة نفر، أي: خرج للجهاد في سبيل الله، لذلك لا يفتي قاعد لمجاهد بل العكس، وبعد اتخاذ القرار لا أرى أنّ في المصلحة الاستمرار في نقاش الموضوع، يلزم أن نتوكّل على الله حقّ توكّله: « فإذا عزمتم فتوكّل على الله ».



الغرفة الزهراء

«وتابع علاء:»

- ثم إنَّ المعركة لم تنته بعد، وكأنَّ البعض لا يرى أمامه إلى الهزيمة.

رد عبد الرحيم:

- سامحك الله سيدي، كما أن لديكم موازين شرعية فلا تحتكروا الشرع على فهمكم وحدكم. محسوبك
دارس شريعة ومتبحر في السياسة.

«رد نائل وضربه ضربة نجلاء في صدره:»

- بالعكس... حياك الله، ما قصدته أن هناك من يصر على مثل هذه المناقشات والمعركة دائمة على أشدها،
لا أدري لماذا ولصالح من تكون هذه النقاشات؟

«هتف سائد:»

- أنتم لم تشاهدوا مواقع التواصل الاجتماعي على شبكة النت، هذا الشغل الشاغل للذباب الالكتروني.

«رفع عبد الرحيم عقيرته في وجه سائد، إذ منعتة هيبة نائل من التنفيس عن احتقانه:»

- تُشبهني بالذباب الالكتروني، أنتم رعاة هذا الذباب.

«رد سائد بحدّة وعنف:»

- خسئت، أنت لا ترى نفسك أنك من هذا الذباب؟! كل ما تقوله من آراء ضالّة مضلّة هو من صنعة
هذا الذباب.

«علاء لا يريد للأمر أن تصل إلى هذه الدرجة التي يرانا فيها عبد الرحيم أننا كشفناه، سائد لا يعرف
ما نعرفه، النقاش قاده إلى كشف المستور أو رفع عنده درجة الشك إضافة إلى أنه حرّك حسّه الوطني
والأمني المركوزين في أعماقه، هتف لطّي هذه الصفحة التي قد تخرب الخطة.»

- دعونا من قصة هذا الذباب، لا تبالغ صديقي سائد، أخونا عبد الرحيم أبعد ما يكون عن حكاية هذا
الذباب. أه يا شباب أرى أنه منذ زمن سيدي نضال لم يتحفنا بقصة عبر أثير الصفحة الأدبية لراديو
الصقر العظيم.

«رد نضال:»

- والله منذ حديثنا عن الأقصى وردة الفعل الباردة على تدنيس ابن غضير وعصابته له، وهناك قصة
تراودني ..

- وماذا تنتظر، هيا سيدي هيا.



الغرفة الزهراء

« نضال بدوره تنحج وشرع في قص قصته، بينما ألقى من في الزنانة آذان قلوبهم: »

القصة بعنوان: الأقصى في عين فتى الأردن الحرّ.

(القصة باختصار بمناسبة اقتحام ابن غفير للأقصى وهي حقيقة)

كان الفتى الاردني سلطان العجلوني عام ١٩٩٠ في صفة الحادي عشر عندما تناهى إلى سمعه نبأ مجزرة الأقصى، «أتفعل هذه الشرذمة فينا ما تفعل ولسلطان عرق ينبض؟ لا والله، أتسفك الدماء البريئة في ساحة هذا المسجد العظيم ونقف هنا في أردن العزة والإباء مكتوي الأيدي؟ لا والله، أتعربد حثالة البشر على ساحة مسجدنا وينعق متطرفهم شارون من هناك نعقه الحقير؟ وفي أرواحنا نفس حر؟ لا والله .

هجم سلطان على حصالته فبجها بسكينه ثم ضربها بيمينه الصغيرة بما تحمل من إرادة كبيرة، أخرج ما في أحشائها من قروش وبراييز وشلاطين كان قد جمعها منذ سنوات، حملها وانطلق ليشترى بها مسدس الحرية والانتقام.

أودع حقيبته المدرسية صباح اليوم التالي بعد أن استبدلها بها حقيبة عقيدة وإيمان وهمّة رجال ومسدس، فالانتصار للأقصى أمر لا ينتظر ونخوة الأبطال أمر في صدره لا يعرف التسوية أو التبرير.

يَمّ وجهه بدل مدرسته شطر غربي النهر فهناك مدرسة الحرية والإباء، عرف كيف يتجاوز حواجز الطريق بعد أن تجاوز حواجز التثاقل إلى الأرض في نفسه، قطع النهر سباحة بعد أن وصل عصراً، وأخذ موقع الأسد المتربص بفريسته، ساعة ساعتين ثلاثاً، فغلبه النعاس أمنة من الله، مرّت الدورية المصفحة من بين يدي الأسد الصغير المتحفّز لقنصها بمسدسه الصغير بسلام.

نهض بعد أن ستره الليل بستائره، الروح الثائرة تلتهب وتزداد اشتعالاً، انطلق يبحث من بين الأضواء البعيدة عن معسكر يشفي به غليله، وجد ضالته، تسلل وساعده على التسلل جسده النحيف.

بادئ ذي بدء، بدأ برمزهم الكاذب فاعتلى السارية وأنزل علمهم، دعس عليه بأقدامه الصغيرة، وراح يبحث بعيني صقر عن فريسته، وجد جنديين يحرسان في خندق فلقم الأول رصاصة في رأسه فأراده قتيلاً، أراد أن يرمي الثاني فلم يطعه المسدس، هجم على الجندي الثاني الذي لفه الرعب الشديد بجناحيه ولم يدر ماذا يفعل، نزع منه سلاحه، أراد أن يطلق نيرانه فلم يطعه فحوّله إلى عصا وهشم رأسه بضربات متتالية أوقعته صريعاً .

تنادى عليه معسكر الشرّ وأحاطوا به .

عاش بعد ذلك حياة الأسر قرابة عشرين عاماً ليتخرّج منه مفكراً سياسياً أديباً رائداً من رواد الفكر والمعرفة، وليدخل معترك الحياة مصارعاً عنيداً في عالم يحاول فيه الظلام بسط نفوذه، ولكن أنى له ذلك وسلطان وأمثاله لهم بالمرصاد.

الغرفة الزهراء

علّق علاء منشرح الصدر:

- لقد عشت معه سنوات في هذه السّجون، نَعْم الرجل، سلطان لو كان له السلطان لتغيّرت الحال، ولما وصلت دول الطوق إلى ما وصلت إليه من ذلّ وهوان.

« وعلّق نائل: »

- فارس شجاع قبل أن يبلغ سنّ الرجال، في السجن أصبح فارس الفكرة ورائد المعرفة.

« أمّا عبد الرحيم فقال ناقداً بثقة عالية ومع تعمّد ظهورها: »

- القصة كمحتوى قوية، أدبياً كان بإمكانك أن ترسم شخصية البطل فيها بشكل أفضل، لم تطل كثيراً عنده ولم تضع القصة في سياقها التاريخي جيداً، اعتمدت على أن القارئ محيط بالأمر، وكأنك لا تريد الإطالة على القارئ فوَقعت بالاختصار المخلّ. عموماً وصلت الهدف ورسمت تضاريس القصة بشكل جميل.

« هزّ نضال رأسه وقبل الأمر دون نقاش »



(٩) أشمّ رائحة السنوار

لاحظ أبطالنا في هذه الزنزانة ثلاثة أحداث مرتبطة معاً بشكل دائم، يأتيهم القمع والتعذيب مسرعاً كلما كانت خسائرهم في المعركة في غزّة كبيرة، وكلما زادت زيد لهم في التنكيل، فأصبحت المعادلة تقرأ بالعكس: إذا داهمهم بقسوة وهجموا بعذابهم اللثيم فاعلم أن خسائرهم كبيرة وأن المقاومة تكون قد ضربتهم ضربة مريعة، وكذلك ولو غمهم بالدماء الفلسطينية المدنية وارتكابهم المجازر مرتبطة بضربات المقاومة الموجهة. ومع تصاعد حدّة المقاومة واستبسالها تصاعدت الأرواح البريئة وظهرت للناس أخلاقية المقاومة وانحطاط جيش الاحتلال، المقاومة تستهدف جنودهم وضباطهم بينما جيشهم يستهدف النساء والأطفال وإحداث الدمار في المشايخ والمدارس ومباني الناس وكل مقومات الحياة.

بعد كمين محكم مركّب وقعت فيه قوة لجيش الاحتلال، تم تفجير فتحة نفق في مجموعة راجلة تحوّلوا فجأة إلى أشلاء قتلى وجرحى، ولم تكن هذه إلا طُعماً؛ لتأتي قوات كبيرة لإنقاذهم فوقعت القوّة في مرمى نيران كثيفة من كل صوب وحذب فكانت مقتلة لجنودهم وملحمة سطرتها المقاومة على رمال غزّة، انتشرت الكمائن الهجومية بشكل كبير، ألحقت بهم خسائر كبيرة. كانت الرقابة العسكرية عندهم تتكتم على حجم الضحايا الكبير، تفضحهم عدد الطائرات المروحية الخاصة بنقل الضحايا والجرحى، وكذلك ما يحدث من تسريب من مستشفياتهم. وما تتمكّن المقاومة من تصويره وبثّه.

بنت المقاومة كثيراً وبشكل يوميّ، من كمائن وقنص وتدمير دبابة «الميركافا» فخر جيشهم وعنادهم العسكريّ، أصبحت زاداً يومياً على شاشات التلفزة يترقبها الناس وينتظرون جديدها، وكان المحلّل العسكري فايز الدويري الذي لمع نجمه في تحليلات المقاومة على شاشة الجزيرة. ولكن علاء يسمع دون أن يرى من مدياعه السريّ الصغير، تتسلّل إلى أذنه الأخبار وهو يتفنّن في ايصالها لئانل ونضال مع إخفاء ذلك عن بقية جمهور الغرفة خاصة بعد انكشاف ستر عبد الرحيم وتبيان أمره.

هجموا على القسم كذئاب جائعة تهجم على فريسة وقعت بين أنيابها، هذه المرّة لا أدري لماذا خصّوا كبار السنّ بالمزيد من الضرب والتكسير، في إحدى الغرف ضربوا من فيها بقسوة شديدة ثم أخذوا أحدهم وهو الشيخ مصطفى أبو عرّة، مسن في العقد السادس، نحيف طويل القامة، يبدو عليه أنه قد دخل العقد السابع، ذو لحية بيضاء طويلة، له مهابة ونظرات عميقة، يعرفه الأسرى جيّداً، وتعرفه السجون من كثرة ما نالت من جنابته، ذو منطق سديد وفهم حركي وعملي للدين، دمث شفاف الروح يدخل القلب بسهولة ويُسّر، وصاحب ابتسامه يواجه بها المصاعب وتنبئ بالصبر الجميل الذي يفيض به قلبه.

خصّوه بقمع زائد أرادوا به إحداث الألم النفسي للذين نالهم ما نالهم من الأذى الذي يكاد لا يطاق، ولا يملكون أن ينتصروا لشيخهم في ذات الغرفة وباقي القسم، تقاذفوه بين أرجلهم ككرة قدم، دعسوا عليه ببساطيرهم الحديدية، انهالت عصبهم على رأسه، جعلت منه أخايد وسالت دماؤه غزيرة، رفعه أحدهم

الغرفة الزهراء

من ذوي الأجساد الضخمة المتوحشة إلى أعلى مستغلاً نحافة الشيخ وقلة وزنه ولأنه من أول الحرب ببقية الأسرى في حالة من التجويع والتحويل إلى هيكل عظمي، ومن أعلى ما عنده رماه أرضاً فتلقفه أحد الشباب من الأسرى، وكانت هذه بمثابة جريمة لا تغتفر أن يتجرأ على هذا الفعل، فهجموا عليه وأشبعوا عصيهم من جسده ورأسه.

تركوا الشيخ بلا حراك، خرجوا بعد أن صفقوا الباب بقوة زلزلت أركان الغرفة، انصرفوا ففرغ الشباب إلى شيخهم، خلعوا قميصه فإذا بجسده كله أزرق وملطخ بالدماء، الشيخ في حالة غيبوبة، نادى الشباب على السجان وهذه في عرف هذه الأيام أن ترفع صوتك خارج الغرفة من الجرائم التي يعاقبون عليها، ولكن لا مفر الشيخ يوشك أن يلفظ أنفاسه.

بعد ساعتين من الاستغاثة جاءوا بقوة، فتحوا الباب وسحبوا الشيخ معهم، جال الشيخ بعينيه على إخوانه وكأنه يودعهم الوداع الأخير، تمت شفتاه دون صوت، فهموا منها أنه يحمد الله. خرج والشباب قد أنكروا أهمية أمام ما شاهدوا من آلام شيخهم وقلقهم عليه، خيم الشعور بالشهادة والموت في سبيل الله على أرواحهم، شعروا أن روح الشيخ ترفرف على قلوبهم وتهدهد عليها وتحيطها بشذاها الطيب. لهجت الألسنة بالدعاء للشيخ أن يجو من هذه المقتلة، استجاب الله لها وجاء خبر شهادة الشيخ، النجاة بالشهادة والسفر إلى حياة لا يرى فيها هذه الجبلية النكدة الحاقدة المجرمة من البشر.

وصلت رسالة من خلال نقطة اتصال الشاويش آدم، من أعلى المستوى الهرمي، طمّنت قلوبهم ورفعت معنوياتهم عنان السماء:»

- نود أن نطمئنكم أحبائنا أنه لا وقف لهذا العدوان إلا بنيل حريّكم، لقد أعدنا عدتنا لحرب طويلة قد تستغرق سنوات، لم ينالوا منا حسب ما يعلنون أبداً، هناك خسائر من صفوفنا ولكنها قليلة، نضربهم بقوة المخبوءة تحت الأرض كالأشباح ثم نختفي بسرعة البرق، نضرب عناصر قوتنا بنقاط ضعفهم، لا تصدقوهم فأغلب عملياتنا التي تجلد ظهورهم تمنع الرقابة العسكرية نشرها ونشر خسائرهم فيها.

إدارة المعركة قوية ومتابعة لكل صغيرة وكبيرة، لقد فاجأنا شبابنا بقوة ثباتهم ورباطة جأشهم والشجاعة التي يتحلون بها وإقدامهم على الموت كما يقدم أعداؤهم على الحياة بل وأكثر، لو رأيتموهم كيف يقترعون على من سيزرع العبوة الناسفة في الدبابة من مسافة صفر، ينقض مجاهدنا كإنقضاض الصقر على فريسته، يطارد الموت والموت يطارده، ثم كيف يعود من برائن الموت وهو أقرب إليه من حبل الوريد لا تدري.

بعد انتظار ورصد قد يصل إلى عدة أيام، تصل الدبابة إلى الموقع المتوقع، يتأهب الصقر، يُعطى الإشارة فينطلق مسرعاً وهو يحمل العبوة بوزن خمسة كيلو غرامات وكأنها بوزن ريشة، يزرعها في مكانها دون أن يلتفت إلى الموت المحيط به من كل مكان، طائراتهم المسيّرة وحساسات الدبابة نفسها، وأحياناً قنّاصتهم المنتشرون على الأسطح العالية القريبة، رغم وجود قنّاصتنا أيضاً الذين يحمون ظهر صقرهم، يتقدم



الغرفة الزهراء

بخطى ثابتة لا تردّ فيها البتّة، يقوم بالمهمة وينسحب بسرعة الريح، ثم تنفجر الدبابة ويسجد الفريق المفجّر شكراً لله ليقوم بعملية الانسحاب، وأحياناً أخرى فريق آخر لينقضّ على من يأتون لإنقاذ جرحاهم وحمل جثث موتاهم. لا تقلقوا على مقاومتكم فهي تحت السيطرة تماماً ولن يتمكنوا منا أبداً بإذن الله. (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً).

وكذلك نظمناكم على جبهات المساندة، فما يجري في الشمال يفوق الوصف، لقد أبلى حزب الله بلاءً حسناً، ونجح نجاحاً باهراً ليشكل ضغطاً عسكرياً وأمنياً ونفسياً هائلاً على الاحتلال قيادة وشعباً، يمطرهم يومياً بعشرات الصواريخ والطائرات المسيّرة الموجهة بدقة نحو أهدافها، لقد ضرب البنية العسكرية التجسّسية بشكل واسع، وحقّق توازن ردع عظيم خفّف كثيراً من قوتهم في غزّة وهجر الشمال الفلسطيني المحتل من مستوطنيه، شلّ في الشمال الزراعة والسياحة وساهم في ضرب الاقتصاد الإسرائيلي ودفع باتجاه الهجرة العكسية ليصل لغاية اليوم ما يقارب المليون مهاجر بلا عودة. « ومع مية قلعة ».

كما ونشيد بجبهة اليمن، هذا البلد العربيّ الأصيل الذي شكّل جبهة مساندة عظيمة، شلّ التجارة باتجاه دولة الكيان من جهة باب المندب، سلك بذلك طريقاً صعباً تحدّى به الملاحة العالمية، وأثبت قدم صدق في دعم ومساندة إخوانهم في غزّة، بشلّ التجارة والمسيرات التي تضرب مدينة أم الرشراش في فلسطين المحتلة، والمظاهرات المليونية من الشعب اليمني العظيم التي ملأت الشوارع تضامناً معنا، اليمن وأنصار الله هناك جسّدوا نموذجاً لكلّ العرب الهمل، خاصة الدول التي فتحت طرقها كبديل تجاري عن إغلاق باب المندب، وبالاسم الإمارات والسعودية والأردن، فتحت خطأ برياً مباشراً لتزويد الاحتلال باحتياجاته كخط بديل عن الذي أغلقته اليمن. الله وكيلك عرب تحارب معك وعرب يقفون مع عدوك.

وانطلقت أيضاً من العراق مسيرات وصواريخ شكّلت خطراً داهماً على الاحتلال وقواعد عسكرية أمريكية في العراق، وضربت مثلاً لمساندة المقاومة الفلسطينية في حربها الضروس في قطاع غزّة.

نخبركم إخواننا أن محور المقاومة قد شكّل وحدة الساحات بشكل عملي وفاعل وضاعط على الاحتلال، وشكل نذير شوّم على المشروع الصهيوني وعلى مستقبله في هذه المنطقة، وهكذا يرتسم المستقبل بلفظ المنطقة لهم رغم أنف معسكر التطبيع، وما سميّ باتباع الديانة الإبراهيمية حيث كانت تترتب على شكل تحالف صهيوني أمريكي عربي طبعاً تحت السيادة الإسرائيلية، ولمواجهة محور المقاومة معاً. ولو تأخّر قليلاً العبور العظيم يوم السابع بعد تشكّل هذا التحالف، لحاربنا اليوم كتفاً بكتف جيوش عربية مع الجيش الإسرائيلي.»

انتهت الرسالة، دارت على الثلاثة وأمعنوا بقراءتها، همس علاء:

- إنّي أشم رائحة السنوار في كلّ حرف من حروفها، إنّه على عهده معنا.

« همس نائل: »

- لم أر ولم أسمع ولم أقرأ عن رجل ترجم وفاءه بمثل ما ترجمه السنوار حفظه الله ورعا.

الغرفة الزهراء

« وهمس نضال: »

- والله يا جماعة الخير من أول ما انطلق الطوفان وأنا أشمّ فيه رائحة السنوار، هل نستطيع أن نتصوّر ماذا فعل ما بين الإفراج عنه سنة ٢٠١١ وما بين يوم السابع العظيم؟ ثلاثة عشر عاماً، ماذا زرع فيها ليحصد كل هذا الحصاد؟ كيف وظّف خبراته وقدراته؟ وما هي طبيعة النقلة النوعية التي نقل فيها الحركة ليهيئها كي تكون قادرة على هذا الفعل العظيم؟

« ردّ علاء: »

- يا جماعة، لا تُرجعوا الأمر كلّه لرجل مهما بلغ، صحيح كان له الدور المميّز حسب معرفتنا بشخصيته، ولكن معه كثيرون، ولا تنسوا أن الحركة قائمة على العمل الجماعي.

« ردّ نضال: »

- هذا صحيح، (محمد رسول الله والذين معه). انظروا كيف جمع المولى رسول الله بمن معه من الصحابة.

« همس نائل: »

- خلص: السنوار ومن معه.

« وتابع نضال: »

- وفاؤهُ للأسرى بما قام به سيكتبه التاريخ بماء من ذهب، وهذا الوفاء العملي العظيم سيختمه الله بأعلى المراتب عنده..

« سأل علاء: »

- ماذا تقصد؟

- إنها الشهادة، رجل بهذا الفناء عن كلّ شيء سوى الله، سيختاره الله شهيداً.

« هتف نائل: »

- قال الله ولا فالك سيدي نضال، وحدّ الله يا رجل.

- هو بالفعل قال الله لأوليائه.

.....



الغرفة الزهراء

وصل طعام الإفطار، لحسة لبنة بين شرحتي خبز جرى بلعها بسهولة ويسر لتستقبلها جوقة الجهاز الهضمي بعزف حزين يحاول جاهداً الاحتفاء بهذا الزائر الجميل، رافق هذه الوجبة لساعات من البرد تصنع انتفاضة صاخبة في المعدة الخاوية، وكان في النقاش والانفعال مع مضامين هذه الرسالة تسخين للجهة الداخلية، طبعاً دون أن يعرف بقية أعضائها أن الرسالة هي خلفية النقاش، افتتح علاء النقاش بطريقته الخاصة، بهدوء ولكنه حاسم ومن عميق صدره:

- لقد حققت المساندة اليمنية واللبنانية والعراقية نصرة عظيمة في هذه المعركة.

« تابع نائل: »

- خاصة في زمن الردّة والتطبيع العربي.

« ردّ عبد الرحيم بانفعال وحنق: »

- تطيشون على شبر ماء، هؤلاء الشيعة على مرّ التاريخ ما طلع منهم خير لمسلم، هم أقرب لليهود منّا.

« ردّ عليه علاء: »

- ولماذا ذهبت للموضوع سنة وشيعة؟ لماذا لم تنظر للأمر كما هو: محور مقاوم يواجه محوراً صهيونياً (كل من يدعم الاحتلال).

- أنا درست المذهب الشيعي بعمق، هم يكرهون السنة على المسبحة، يكفي أنهم يسبّون الصحابة وأمّ المؤمنين عائشة.

« ردّ نائل وهو ضاغط على كواحب نفسه مجتهداً الهدوء: »

- لقد مللنا من هذه السمفونية، هناك فريق يُخرج هذا الكرت الأصفر كلما حدث تعاون أو تقارب بين السنة والشيعة، الآن من الأفضل أن تقف الأمة معاً في مواجهة المشروع الصهيونى أو قتل الصهيونازي، أم ندخل في بعض: السنة والشيعة؟

« تدخّل سائد ومعالّم التحوّل تظهر في نبرة صوته، فعلاً أحداث تعيد تشكيل العقل، طوفان الأقصى ليس فقط طوفاناً في ميدان المعركة: »

- طبعاً لا يوجد عاقل يختار تناحر الأمة في ظلّ هذا التحدي الصهيونازي، والقاعدة الاستعمارية معروفة: « فرّق تسد ».

« ردّ عليه عبد الرحيم بعصبية جعلت من صوته خشناً وناظراً: »

- ولكنك نسيت ما فعلوا بالسنة في العراق وسوريا، هؤلاء فلسطين بالنسبة لهم ساتر ودعاية لمشروعهم الصفويّ المقيت، أصلاً أنا قرأت كتاباً لهم يقول إن المسجد الأقصى في السماء الرابعة، وأنّ هذا الذي في



القدس ليس هو المسجد الأقصى، ويا فرحتك يا «إسرائيل».

«ردّ نائل:»

- قرأت ذلك وأيضاً هناك روايات كثيرة عندهم لا تأخذ بهذه الرواية البتّة، كتابة التاريخ عندنا وعندهم فيها دخن كثير ولم تنقح ولم تخضع الروايات للجرح والتعديل الذي خضع له حديث رسول الله، فأخرجنا بذلك آلاف الأحاديث الضعيفة والموضوعة على رسول الله، المهم الآن هو الموقف السياسي، ولا داعي للدخول في النوايا، يعني مثلاً جنوب إفريقيا دعمتنا في محكمة العدل الدولية، فهل نؤيد ذلك أو نسأل عن اعتقاداتهم ونواياهم؟ أم أن هذا موقف سياسي نتقاطع معه؟ محور المقاومة يكفي أنه في خندق المواجهة لهذا المحتل المجرم.

- أنا شخصياً لا أثق بهم، ولست مع التعاون معهم ولو كان مثقال ذرة.

«ردّ علاء بثقة عالية:»

- اسمع جيداً: المقاومة الفلسطينية ليست مجلس إفتاء ولا محاكم تفتيش، هي حركة تحرر وطني حريصة كل الحرص على من يساندها ويقف معها، إنها أمام طريقتين: إما أن تبحث عن المساحات المشتركة وتستخدم الذكاء السياقي والاستراتيجي في الاستفادة من إمكانات من يتفق معها على ما نشترك به من سياسة وثقافة ودين وهدف وغاية وهم وعدو مشترك، أو أن تبحث عن التناقضات والصراعات والتي قد تبدو وهمية ومن صنيعا المستعمر أو مخلفات وترسبات في عقول البعض والتعصبات المذهبية التي يستغلها المستعمر أبشع استغلال.

«خرج نضال عن صمته وأدلى بدلوه على عادته في صياغة مسك الختام:»

- ومن المهم أن نؤكد ونطمئن الحريصين على مذهبهم على أنه ليس المطلوب من السنة أن يصبحوا شيعة ولا الشيعة أن يصبحوا سنة، المطلوب فقط أن يقف السنة والشيعة كأمة واحدة في مواجهة الصهيونية والعرب المتصهينة والمنجرفة في هذا التطبيع الذي يرسخ الهيمنة الأمريكية والصهيونية على المنطقة.

«من الواضح أن سائد أصبحت هذه الأفكار تأخذ يد قلبه إلى معادلات جديدة في الفكر والسياسة:»

- هذا منطوق سديد، وكأنه يُذكرني بكتاب قرأته منذ عدّة سنوات للمفكر الإيراني علي شريعتي: «النباهة والاستحمار في مواجهة السياسات الاستعمارية» فعلاً الأمور اليوم واضحة وقد كشفت غزّة وهذه الحرب عن أنياب المستعمرين ومن يسيرون في ركابهم ويوالونهم بأفكارهم وسياساتهم.

«كان هذا مفاجئاً لعبد الرحيم لأنه يعتبره الأقرب لأفكاره ومؤيداً لها في مواجهة المفكرين الثلاثة، رفع عقيرته بشدة وعصبية نزقة لا تتناسب مع مستوى النقاش:»

- أنتم مصابون بعمى الألوان، هانت عليكم دماء السنة في العراق وسورياً، أصلاً يجب أن تنبع السياسة



الغرفة الزهراء

من العقيدة، ولا خير في سياسة تتناقض مع عقيدتنا.

« ردّ عليه سائد بصورة فجّة: »

- لا تأخذنا بالصوت، تريد أن نرفض من ساندنا ونضيفه على من خذلنا، أي عقل سوي يفكر بهذه الطريقة؟

« تدخّل نضال لوضع حدّ لهذا النقاش الذي أصبح عقيمًا مع عبد الرحيم، وخاصة أنهم يعرفون خلفيته تمامًا: « الشريعة الإسلامية من جامعة تل أبيب. »

- قولوا معي دعاء أبي بكر رضي الله عنه: « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعلنا نبتع الهوى فنضل ونشقى. »

.....

« بعد زيارة المحامي لعلاء (بعد انقطاع دام ستة شهور منع فيها زيارات المحامين وزيارات الأهل) صباحاً مباشرة، شرع راديو الصقر ببيت الاخبار كأثمة سمعها من المحامي، بينما كانت من تلك السماعة الحبيبة الموصولة بترانزستره الجميل الذي كان يحلو له أن يسميه أبو لسان طويل: »

تناقلت أخبار مكثفة الأحوال التي يتعرّض لها سجن «سيدي تومان» وهو معسكر لتعذيب أسرى قطاع غزة، وقد تسرّبت منه بعض فظائع التعذيب بعد خمسة شهور من إقامته حيث تمكّن محامي من زيارة صحفي معتقل هناك، خرج المحامي ببيان صحفي ذكر فيه صنوف العذاب، هناك حالات اغتصاب لأسرى بطرق وحشية لم تخطر على قلب بشر، منها مثلاً وضع خرطوم الإطفائية في مؤخرة أسير وضخ بودرة إطفاء الحرائق لتخترق جسده وتعمل عملها في المسافة الفاصلة بين هذا الاغتصاب والموت الزؤام.

ومنها الفيديو الذي تسرّب، حيث كان الأسرى مكبلين ومستلقين على بطونهم على الأرض، سحبت مجموعة جنود سادية معتقلاً تريد أن تتلذذ بوقت ترفيهي وتستجمّ على ألم إنسان بطريقة وحشية غير مسبوقة، أحاطته إحاطة السوار بالمعصم، أضافت تكبيل قدميه إلى يديه المكبلات من قبل، ثم أطلقت عليه كلباً من كلابهم الضخمة المدربة، همهم الكلب، سال لعبه وقفز وألقى بيديه على كتفيه، غرز مخالبه فيها وتابع إنجاز المهمة القذرة بكل وحشية وبشاعة، رقص الجنود رقصتهم الدينية بنشوة عالية، تصايحوا وفتنوا: «شعب إسرائيل حيّ، شعب إسرائيل حيّ».

ثارت قصة الاغتصاب في سجن «سدي تومان»، وما آلت إليه بقية السجون التي لم يتعد عنه في التعذيب إلا قليلاً، تركوهم أشهر الشتاء في البرد القارس عراة مكبلين بالأبراش الحديدية، دون طعام أو شراب أو دواء إلا ما يبيحهم في الرمق الأخير من الحياة، كلّ من جاءوا به من غزة اعتبروه من نخبة القسام وبالتالي أمعنوا في تعذيبه انتقاماً لما جرى لهم في ذلك اليوم، واعتبروا أنّ كل ما يفعلونه مبرر، حتى إن استطلاعاً للرأي العام سأل: هل توافق على اغتصاب الأسرى في السجون؟ فكانت الإجابة ٤٨٪ مع



الغرفة الزهراء

الاجتصاب.

هنا توقّف علاء عن سرد ما بجعبته من أخبار.

« هتف نائل من قحف صدره: »

- « شعب إسرائيل حيّ، أي حياة بيتغونها لشعبهم من اجتصاب أسير؟ أهنالك أخطّ وأحقر من هذه الجبلّة النكدة من البشر.

« وتابع علاء بالوتيرة ذاتها: »

- ثم ٤٨٪ من شعبهم تؤيّد هذا الاجتصاب! هذا دليل على حالة الانحطاط التي وصلوا إليها.

« وعلّق سائد: »

- لا أعتقد لو أجرينا هذا الاستطلاع فلسطينياً أن تجد أحداً يؤيّد الاجتصاب أبداً.

« ردّ عبد الرحيم ببرود: »

- لا تبالغ، ستجد من يؤيّد.

« سأل سائد: »

- ولكن بهذه النسبة؟

- علمها عند الله.

« ثارت ثائرة سائد: »

- أنا أكره هذه الإجابة، نهرب من الإجابة بإرجاعها لله، ونحن نعلم ثقافة مجتمعا الدينية والاجتماعية تأبى هذا الفعل، إن أيد أحد يكون كردة فعل على فعلهم فقط لا غير، أنا وأنت نعلم ذلك، لم نقول علمها عند الله؟

« تدخّل نضال مهدناً كعادته كلما اشتعلت الحرائق: »

- أقول والله أعلم إن انتشار أخبار هذه الأفعال الشنيعة من شأنه أن يُحدث انتفاضة في الضفة الغربية، خاصة إذا التقطت ذلك الفصائل والقوى الحيّة وعملت على تحريك الشارع.

« ردّ عبد الرحيم بخشونة: »

- أنتم كمن يلقي زرعته في الهواء أو في أرض بور، تفاؤلكم في غير مكانه، الضفة خرابانة.



« عقّب نضال لإغلاق النقاش: »

- تفاءلوا بالخير تجدوه، على كلّ، الأيام تلد ما في رحمها.

« سأل علاء: »

- سيدي نضال، أين استراحة الأسبوع، الصفحة الأدبية في وكالة صقر الاعلامية بالانتظار؟

- عندي قصة شديدة الألم ولكن لا بدّ منها.

« هتف نائل: »

- أكيد عن اغتصاب الكلاب؟ هذه لا تفوتك أبداً.

نعم صحيح، أنا محتار بين عنوانين لها: لا حدود لمملكة الشر؟ أو:

اغتصاب الكلاب في سجون الذئاب؟

« ردّ نائل: »

- نستمع للقصة أولاً، ثم نرجح لك العنوان الأنسب.

- حسناً.

أخذ نضال نفساً عميقاً، ثم شرع في القراءة، هذه المرّة كان سريعاً وكأنّ حملاً ثقيلاً على عاتقه يودّ الخلاص منه بسرعة: «

« كلما تعرّضت مع إخواني في السجون لتنكيل من لون جديد، كان يدور في خلدي أنّه سيأتي يوم ويفرج عنّي وأكتب للناس عن هذا التنكيل، بصفتي أزعم أنّي أملك قلماً يستطيع بقدراته الأدبية المتواضعة أن يصوّر المشهد، الناس في الخارج يسارع أحدهم إلى هاتفه الذكيّ ذي الكاميرات المتطورة، يمتشقه ويصوّبه اتجاه المشهد ليكون التصوير صوتاً وصورة وبأبعاده الثلاثية والرباعية جاهز للبتّ خلال ثوان معدودة. في السجن لا أملك سوى كاميرا القلم لتصوّر المشهد ما استطعت لذلك سبيلاً. »

ولكنّي وجدت نفسي أمام مشهد ارتعبت له كاميرا هذا القلم، أحجمت ورجعت للخلف بدل أن أقدم كعادتها، تلكأت وتلعثمت، بل ولّت هاربة دون أن تعقب، قلت لها:

- أقبلي ولا تخاي، لم أعهدك جبانة ولا عاجزة ولا خوّارة. قالت: لست خائفة ولا جبانة، إنه الحياء والخشية من المساس بحرمة بواسل هذا الشعب والذين دوماً يشكّلون عنفوانه وروحه العالية وطلائعه العظيمة الرائدة.

« قلت لها مشجعاً: »



الغرفة الزهراء

- لقد صوّرت أيتها الكاميرا الضدّة لهذا القلم المتواضع الجميل كثيراً من الصور، برعت في مواطن كثيرة وعلى أوقات مديدة من عمر هذه الفترة الشديدة القاسية، منذ السابع من أكتوبر (حيث فتح المحتل على الشعب الفلسطيني كل الجبهات وكان أشدها جبهتين، جبهة غزّة وجبهة السجون) وأنت تصوّرين من فظائع ما يجري في سجونهم السوداء.

لقد صوّرت أيتها الكاميرا ذات الرأس المدبّب المزروع في مقدّمة قلم الرصاص الأسرى وهم يُسامون سوء العذاب:

- صوّرت وكائنات القمع المتوحّشة تقتحم أسرابهم القسم بحقد أسود وروح انتقامية لم يعرف البشر لها مثيلاً، ذئاب بشرية مفترسة تتقدّمها كلاب متوحّشة، تبدأ الحفلة بموسيقى صاخبة مثل ما تفعل القبائل المتوحّشة من أكلي لحوم البشر فيضربون الطبل لتنتشي رؤوسهم وتثمل برائحة دماء الضحية، يصبّون جام غضب، جرار الغاز لتملأ الزنازين من سحب الموت، ثم يطلقون الرصاص المطاطي على أجساد أنهلكها الغاز ثم يكبلون ويسحلون ثم يُفعلون شتى أنواع العصي: الحديدية والكهربائية لتجعل من أجساد الأسرى مساحة للسحق والطحن والتكسير المريع.

- صوّرت أيتها الكاميرا الرصاصية الصغيرة وهم يضربون ثائر أبو عصب بعصيهم السوداء الغليظة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة نفساً نفساً، ومع كل نفس ترسل عيناه الجميلتان عشقاً وأملاً وقُبلة لكل أحبابه الذين ينتظرون حرّيته على أحرّ من الجمر، التقطت عيون الكاميرا بريق عينيه ولسانه يعزف لحن الشهادة ويطلق لها العنان.

- صوّرت أيتها الكاميرا لحظات عمّر ضراغمة الأخيرة وروحه تتفّلت من بين جنبيه وعيون الممرّض الشامت يمنع عنه دواءه، قتل عمداً مع سبق الإصرار ولم يعد مجرد إهمال طبيّ، بل هو أن يتجرّع المريض كأس الموت الزؤام قطرة قطرة دون أن يرف لسجّانه اللئيم أيّ جنن.

- صوّرت الأسير المفكّر وليد دقّة في لحظاته الأخيرة بعد أن نهش السجن والسرطان والحقد وروح الانتقام الشريرة جسده المنهك وبعد أن وصلت عنصريّتهم أبعد مدى لها على مدار ثمان وثلاثين سنة من السجن، وأبت أن يختم حياته بملامسة أنامل طفلته أو أن يطبع على جبينها قبلة، نجحت أيتها الكاميرا بالتقاط بارقة أمل سريعة تسع الدنيا والمستقبل المشرق لهذه القضية التي قضى نحبه خادماً أميناً لها.

- وصوّرت الكاميرا الأسيرات وذهبت إلى أبعد نقطة لا تتخيلها عقول صانعة أفلام الرعب والإجرام، ومع هذا لم تستطع بعد تصوير آلام أم حديضة جرّار التي قطعت قدمها وهي في بوسطة الاعتقال وما رأت حجم الألم لهذه المرأة في غرفة عمليّاتهم، تبتّر القدمان، بينما اليدان مكبلتان بسرير العمليات الجراحية وأسلحة السجّان مصوّبة على رأسها، يخافون منها ويغلقون منافذ الهرب رغم أنّهم أمام امرأة أضحت بسببهم بلا قدمين.



الغرفة الزهراء

- وتجرات هذه الكاميرا على التقاط مشهد الاغتصاب لأسيرتين، ترددت كثيراً ولكنها حسمت الأمر على تصوير المشهد بعيداً عن تفاصيله التي لا تطيقها قلوب الأحياء من البشر، نَعَمْ، الأحياء؛ لأن هناك بشراً ماتت قلوبهم ويمرّون على مثل هذه الصور مرور اللثام دون أي اعتبار أو كلام، لأن هذه المغتصبة من وطن اغتصبه شرّ خلق الله.

ولكنك أيتها الكاميرا الصغيرة تحجمين هذه المرّة ولا تطلقين لحريتك العنان، رغم أنك حرّة لقلم حرّ، ما لك وما الذي جرى لهمّتك العالية وإرادتك الصادقة؟

قالت الكاميرا بحزن وألم:

- أرجو أن تعفيني فالأمر صعب ومآلاته مريعة وعواقبه وخيمة، أنا أمام مشهد ترتجف له الكاميرا وتكلّ عن إرسال ضوئها وتُرّجع البصر مرّات كثيرة، أتفصح عمّا رأت وفي ذلك ضرر وصاعقة وقنبلة، كي لا تخدش حياء خير من عرفهم البشر، ولكن في المقابل هذا المجرم الذي أوصله خياله المريض المتوحش الذي سيطرت عليه كلّ مشاعر الشذوذ التي عرفها ولم يعرفها البشر، أيجوز أن نتسّرع على جرائمه بحجة ألا نسيء إلى الضحية، وهل هذا بالفعل يسيء إليها أم أنّها هي الشاهدة والشهيدة وهي الحجة الدامغة على من أعادوا الهولوكوست من جديد وأخرجوا للناس نسخة متطوّرة، لا عليك أيتها الكاميرا، صوّري وافضحي هذا الانحطاطي الذي لم يصل إليه أحد.

- حسناً، إذن فأليك هذه الصورة بكل دقّة وبعيداً عن أيّ خيال لن يصل إليه كاتب لأن خيالهم الإجماعي لا يصل إليه أحد وسترى وتحكم:

نعقت سماعة القسم وزعقت بتشفّ مقيت وسخرية عالية:

- يا حيوانات، يا مساجين، يا حشرات يا صراصير، لقد قرّرت فرقة «كتر» أن تدعوكم لحضور فيلم ممتع وفي غاية الروعة، انظروا إلى الساحة، لقد بدأ الفيلم، فتح باب الساحة التي تحتضن اثنتي عشرة زنزانة على طابقين، كل ست في طابق، تجمهر الأسرى على البوابات والنافذة التي تقف على يسار الباب، دفعت مجموعة من تلك الذئاب المسلّحة بكلّ أدوات القمع، كانوا قرابة العشرين يدفعون أمامهم أسيراً عارياً من كلّ شيء سوى عصبة تشدّ وثاقها على عينيه، وقيد يربط بين معصمي يديه وثان في قدميه، وثالث يربط ما بين القيدين، عرفه الأسرى وتهامسوا باسمه، كان من الأسرى القدامى الذين تجاوزوا الثلاثين سنة في سجنهم والستين من عمره، بدا عليه الإنهاك وأخذ الألم كلّ صورته فرسم على وجهه أسوأ صورة للبؤس والشقاء لا يمكن أن يتخيّلها من يتقنون فنّ الخيال، سوى بريق في عينيه ساطع خارق واضح من معين تاريخ كان فيه بطلاً أوجع عدوّه كثيراً وهو في ميدان فروسيّة الرجال، بينما هم هنا في ميدان الأسر يُظهرون فروسيّتهم الشوهاء الجبانة على أسير مقيّد في ساحة أسر لا في ساحة الفرسان.

تقدّم أحدهم فلكّ العصبة عن عينيه، ثم تقدّم آخر مع كلب ضخم من كلابهم المدرّبة على شذوذهم الأفاك، أطلق الحبل ليهاجم الكلب بدوره في مسرحية تبادل أدوارها ذئاب بشرية شاذة وكلاب مدرّبة



الغرفة الزهراء

على هذا الشذوذ، قفز الكلب على جسد الأسير المكبل ليمارس سادية أسياده وليصنعوا مشهداً هوليودياً جنسياً تعجز عنه هذه الهوليوود لو أرادت إخراج هذا المشهد الفظيع الشاذ. حاول فارسنا دفع هذا الكلب الهائج بكل ما لديه من قوة، رفع الأسرى عقيرتهم بكل قوة ارتعد لها المكان بصيحات الله أكبر. يعرفون من سابق ما جرى ثمن هذا التكبير، أسوأ أشكال التنكيل والتكسير بانتظارهم، ومع هذا علت صيحات التكبير.

وبدأت الحفلة الجماعية على موسيقى الرخّ النازية بنكهة صهيونية عتيده. كالمعتاد هذه الأيام: هجمت عليهم عشرات الذئاب، تبدأ بضخ الغاز القاتل لتملاً بسحبها السوداء الزنازين ثم تكبيل الأسرى من تحت ركام سحب الغاز وسحلهم إلى الساحة، ثم تلعب العصي الحديدية على رؤوسهم وعظامهم ثم تطوف عليهم الكلاب بوجوهها التي تلبس الشبك الحديدي ومخالبها القاتلة، ثم يعادون إلى زنازينهم وهم على شفا الموت، لا يفصل بين موتهم وحياتهم إلا خيط رفيع يكاد يُقَطَع في أية لحظة ولا يحسبون لذلك أي حساب. يخرجون من الحفلة وقد ضربت كل مساحات الألم في نفوسهم وأجسادهم سوى بريق عيون تسكنها الإرادة الحرة والأمل بالتحجير والخلاص من أسوأ شرذمة عرفتها البشرية.

وتساءل القلم بعد أن رسم ما رسم:

- هل هناك كاميرا قد تصل إلى حدود مملكة الشرّ في هذه الصهيونازية العتيده؟! كان بوذي أن أقرأ ما ارتسم على وجوههم وما دار في خلدهم وما امتنعت به قلوبهم، كانت شوهاء، اختلطت فيها كل الألوان الشاذة، كانت قطعاً من جهنم بعد أن أوقدوا فيها ألف وألف وألف عام، حتى اسودّت وانمحت فيها معالم الأشياء.

« هتف نائل: »

- لا فض قلمك سيدي، أقترح العنوان: لا حدود لمملكة الشر!

« علاء بحبّ وإعجاب وألم: »

- بالفعل مؤلمة جداً، هذه قصة غير مسبوقه في تاريخ أدب السجون. ولم لا يتألم الناس معنا؟ هذا من دواعي تحريكهم و«أكل العصي مش مثل اللي بعدها».

« وعلق سائد: »

- قصة رهيبه، لا بد من ترجمتها لعدة لغات كي يرى العالم مستوى الانحطاط الذي بلغته هذه الشرذمة من البشر.

« وكالعادة كان لعبد الرحيم أفندي رأي آخر: »

- هذه قصة تسيء للأسرى ومكانتهم عند الناس، لا أراها مناسبة أبداً.



الغرفة الزهراء

« ردّ نائل بسرعة ودون تردّد: »

- تسيء للجلاد ولا تسيء للضحية. أم نعفي الجلاد من عواقب جريمته ونبلع ظلمه بصمت. هو لا يستحي من فعل الجريمة ونحن نستحي من التحدّث بها.

« هتف نضال: »

- قال تعالى: « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، ثم إنّي إذا لاحظتم لم أسهب في ذروة ارتكاب الجريمة رغم أنّها البؤرة اللامعة في القصة.

- أنا أعارض بشدّة، تسيء لرمزية الأسرى وصورتهم المشرقة.

« ردّ عليه سائد بشدّة: »

- أنت دائماً سبحان الله: « عنزة ولو طارت » .

« أصبح سائد نقيضاً قوياً لعبد الرحيم بعد أن كان في حالة انسجام وتناغم مع آرائه، أصبحت الهوة تتسع بينهما، الثلاثة يدركون دوافع وخلفيات عبد الرحيم، بينما سائد ما زال يناقشه ببراعة وينفر منه ومن آرائه بشكل قطري عفوي، وهذا يدل على صفاء معدنه الذي يساعده في تلمّس جادة الصواب ورؤية الخيط الأبيض من الأسود، والانحياز إلى المواقف السليمة وطنياً وأخلاقياً وإنسانياً. »

فشل الاحتلال الإسرائيلي في تسويق دخول خانيونس وسط قطاع غزة على أنه انتصار كبير، وبقيت الحرب سجلاً والخسائر البشرية والمادية دون توقّف بل أصبحت ساحة استنزاف للمقاومة الفلسطينية، واتسعت رقعة الأهداف فكان انتشار القنص ببندقية الغول وتدمير الدبابات بقذائف الياسين ٥٠١ والعبوات الناسفة والكمائن المحكمة.

هرب للأمام باتجاه رفح قبل أن يصل إلى أيّ حسم في المعارك الدائرة شمال ووسط القطاع، واستمرت بصورة تصاعديّة ضربات حزب الله في الشمال بالصواريخ والمسيّرات مما شكّل ضغطاً كبيراً على جيش الاحتلال، وفي اليمن أيضاً أغلقوا باب التجارة تماماً باستهداف السفن التي تزوّد الاحتلال، كثيراً لدخول رفح وحسم المعركة هناك بأسبوعين أو ثلاثة، دخل الشهر السابع دون أن يتمكّن من الوصول إلى أيّ هدف من أهدافه، سوى المزيد من المجازر اليومية في صفوف المدنيين، قصف مستشفيات ومساجد وجامعات ومسكن نازحين ثم أخذ يستهدف المدارس التي نزح إليها الناس، كل يوم مدرسة. كل يوم يوقع عشرات الشهداء والمصابين في صفوف المدنيين، نساءً وأطفالاً.

مدرسة التابعين، ماذا حدث عن هذه المدرسة في مصلاها وعلى موعد مع تكبيرة الإحرام في صلاة الفجر، تسلّل إلى أذن علاء عبر سماعة الراديو الحبيب هذا المقال الذي خاطب صاحبه رئيس العصابة الصهيونية التي تسمّى الحكومة الإسرائيلية «نتن ياهو» وكانت تحت هذا العنوان:



بين «نتن ياهو» و مُصَلِّي الفجر صاروخ الألفي رطل ..

هنيئاً لك أيها الننتياهو أن رضيت لنفسك أن تقوم بدور التجربة للأسلحة الأمريكية المتطورة، ولكنّ اختيارك للحمّ الفلسطيني من نساء وأطفال كمختبر تجارب كان حماقة ما بعدها حماقة، أنت بذلك تجرّ على نفسك وشعبك عواقب هذه التجربة الفظيعة.

هذه القنبلة ألقى بمثلها ذات مرّة على ملجأ العامرية في بغداد فصهرت من فيه من بشر لأنها تحوّل المكان إلى سبعة آلاف درجة مئوية.

كم هو حجم الحقد والكراهية التي يكنّها صدرك البشع، أن تصبّ جام هذه الحمم الفظيعة على رؤوس مصليّين يبتهلون لربّهم أن يرفع عنهم هذا البلاء، ويكفّ عنهم شرّ بني صهيون المستعر.

لكل واحد من جماعة صلاة الفجر قصة وحياة وطموح وأمل ومستقبل، هكذا في لحظة واحدة أيها الأفاك الأشرّ تضع حداً لهذا الكمّ العظيم من حياة البشر، ماذا ترى في نفسك حتى تعطيتها الحق في وضع حدّ لحياة البشر؟

كم حافظ للقرآن منهم وكم من تقي ورع، وكم من خاشع مبتهل لا شيء في قلبه إلا النور والخير وفلاح البشر؟ كم من أب جاء للصلاة وهو راج وأمل بالله الفرج له ولأبنائه وعائلته الصغيرة والكبيرة، كم من طفل وفتى واعد يرجو الحياة والنجاة من هذه الحرب والتي كلّ يوم فيها تصغر دائرة النجاة بسبب حممها وحميمها وقصف شروركم. كم من أمّ باتت وهي ترجو الله السلامة والنجاة لأطفالها من شروركم؟

أتحسب أنّ جريمة بهذا الحجم الفظيع ستمرّ مرور الكرام، أتدري أم لا تدري أن التاريخ يكتب والناس يشهدون وقبل التاريخ والناس هناك رب كبير متعال، نحن وأنتم نؤمن بالربّ العظيم ذاته، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، وهو بالمرصاد لكل الطغاة والجبابرة.

لن يطول الأمر لكم، لقد بدأت البشرية بالتقرّز من أفعالكم والشعور بالقرف منكم وممن يدعمكم، لقد أذن ليلكم بالزوال وبان الخيط الأبيض من الأسود للناس، ما هي إلا سويغات فيدهم النهار سوادكم ليولّي هارباً من غير رجعة بإذن الله. لقد رأى بدايته بأ عينه كل ذي بصيرة وسرى الفجر قريباً مضاء بنور أرواح من صهرتموهم بصواريخ الألفي رطل وهم ساجدون لله في صلاة الفجر في مسجد مدرسة التابعين في حي الدرج. »

سمحوا لهم بالخروج لمدة ربع ساعة بعد أن تعفّنت أجسامهم، تسعة شهور مضت في زمن الحرب، والمعتقلون في زنازينهم لا يرون شمساً ولا يتنفسون هواء سوى ذاك الذي لوّثته حالة الاكتظاظ وروائح العرق وعفن الأجساد التي لا يلامسها الماء إلا في الأسبوع مرّة يمرّ عليها مرور الكرام، بسرعة عاد الأسرى إلى عهدهم وراحوا يذرعون الساعة مسرعين كي يهتبلوا فرصة رياضة تُخرج شيئاً من الوهن والعجز الذي بات



الغرفة الزهراء

ينقل كواهلهم ، وراح علاء بجانب رياضة الجسم إلى رياضة العقل وحركة السياسة فيه، أخرج لرفيقه نائل ونضال بعض ما قرأ في المقال الأخير، انطلق لسان علاء بتعداد النقاط الهامة في هذا المقال، أفرغ ما بجعبته بسرعة عجيبة كمن يحمل حملاً ثقيلاً وقد وصل نهاية المشوار.

نائل بدوره عبّر عن سخطه الشديد على هذه المجزرة ووجهه يتمرّ غضباً:

- لم يسبقهم أحد عبر التاريخ كله إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط البشري.

وتابع علاء:

- حثالة بشرية منحطة ساقطة.

وعقب نضال:

- لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

«عندما يقطر وجه نائل الأشقر احمراراً فقد بلغ الغضب منتهاه:»

- يا شيخ نضال هناك ما هو أبعد من هذا في عقائدهم التوراتية المتطرفة، هم يعتبرون الرب الذي يؤمنون به لا يكتمل إلا بهم، هم دعائم عرش الرب، ولا يكتمل الرب إلا بسفك الدماء وارتكاب مثل هذه المجازر في غير اليهود.

هتف نضال بعمق:

- سبحان الله عما يصفون. تعالى الله علواً كبيراً.

نعق ناعقهم بانتهاء الفورة بعد أن انتشرت شرطة القمع في الممرات الشاخصة أمام الغرف، أثناء دخول الأسرى عزفت هراواتهم على أجساد الأسرى، كلُّ وحظه، ضربتين، ثلاثاً، أكثر أو أقل. بعد استقرار كل منهم في برشه لائناً بصمته، سأل علاء:

- سليمة نائل؟

«رد نائل» وهو يحاول الابتسام وزرع البسمة في قلوب الآخرين:

- رضرورة. «مع تقريب الضاد إلى ظاء

(١٠) حب وعشق في الزنزانة الزهراء

وكان سحابة من الشوق والحنين أرخت بظلالها في سماء هذه الزنزانة، لَهَا الصمت بحزنه العميق وهجعت النفوس خاشعة في حضرة الحبايب، علاء مع زوجته وبنتيه، نائل مع زوجته المعتقلة مثله، ونضال مع الأربعة زوجته وبناته الثلاث، ثم يعقد نضال مقارنة بين هذا الحب والشوق والحنين وحبّه لربّه الغارق بالعرفان القلبي الكبير والإحساس الوجداني العظيم، هذه تنقله لتلك فتفتح عليه آفاقاً جديدة، من عمق الألم ينطلق إلى سماء علوية دونها أيّ سماء دنيوية، غرق الثلاثة كلّ في عالمه المتخيّل وبما يحلو لروحه أن تسبح في عالمه الفسيح.

أطلق العنان لبناته أن تحدثنه وهو يستمع بخشوع تام، يتلقّف من أفواههن الصغيرة كلمات مغمّسة بالعسل، يسأل ويترك لهن الاسترسال في الإجابة، ثم خلا بحبيبتها أمهن ليشنّف أذنيه لحلو الكلام وجميله، يبادلها اللغة المفقودة في هذا السجن الكئيب:

- كلّما طالّت الحبسة تعاضم الشوق وبلغت محبتي لك عنان السماء.

- لتطلّ إذن ما حلا لها أن تطول.

- لا تغيبني عن بالي أبداً، ولا أية ثانية أو طرفة عين.

- لا معنى لذرة من حياتي دونك يا حبيب الروح.

- وأنت يا سيّدة قلبي وروحي.

وتستمرّ مداولة الغزليات ما شاء لها أن تستمر، إلى أن يعود لنفسه في مقاربة جميلة، هذه محبوبتي التي شدّت قلبي من أعماقه، كيف بحبّي لربيّ سبحانه وتعالى أنسا وشوقاً ولوعة وشغفاً عندما يستولي على كل مساحات قلبي، حتى حبي ذاك يدخل في إطار هذا الحب العظيم، كيف ذلك؟ تلك حرفة يتقنها نضال جيداً، يضع حبّه الصغير في طاعة ومرضاة حبّه الكبير من منطلق أن حياته كلّها لله خاصة حياة القلب. فينسجم الحبان ويتناغمان بحلاوة عجيبة، يأخذ كل حبّ من حلاوة الآخر فينتعش به ويحلّق عالياً. حبّ العبد لمعبوده الحق سعادة ما بعدها سعادة، مداد للقلب والروح والعقل وسرّ عجيب من أسرار الحياة بل هو السرّ الأعظم للحياة.

ووصلت رسالة من زوجة نائل عبر نقطة الاتصال التي بطلها العزيز الشاويش آدم:

عزيزي وحببي وروحي وفؤادي كلّه نائل، ما أنا إلا طائر خلق ليتربّع على كتف قلبك ولنغني معاً أنشودة الحياة، نستمر في غنائنا على لحن الوطن دون سأم أو ملل مهما ادلهمت الخطوب ومهما طغى وتجبر أعداء البشرية والحياة، لا يعكّر صفو حبنا طغيانهم ولا ينالون منا نيلاً إلا كتب لنا به عند الله عمل صالح بإذن الله.



الغرفة الزهراء

أوضاعنا لا تقارن على ما كانت به السجون من قبل، القمع شديد وعلى أتفه الأسباب أو غالباً هم يختلقون الأسباب، بالأمس بحجة التفتيش أخرجونا من الغرف إلى الساحة طيلة الليل، نخر البرد أعماقنا، وعندما احتجنا على هذا أكلت عصيهم من أجسادنا، وأسمعونا من الشتم والسب ما لا يطاوعني لساني على ذكره، حجم الإهانات كبير ولا يُحتمل، هذا عدا عن الأمور التي تعرفها من تجويع وبرد وسحب لكل ما كان: أغطية وألبسة ومواد تنظيف ورايو وتلفاز، الأخبار تصلنا بالقطارة وتصل أحياناً معكوسة لضرب معنوياتنا وقتل أرواحنا.

أملنا في الله كبير أن يكون لقاءنا قريباً، وأن يحرر كل المعتقلين والمعتقلات. يومئذ يفرح المؤمنون، وفرحتي بك ستكون عظيمة بإذن الله، تكفيني هذه: أنت لي وأنا لك للأبد، أنت جنتي في الدنيا والآخرة.

علاء له كل يوم ساعة يناجي بها محبوبته الكبيرة ومحبوباته الصغار، والويل لمن يقطع خلوته في هذه الساعة، يصب عليه جام غضبه ومخزون يومه من القهر والغضب دفعة واحدة، تزانخ عليه عبد الرحيم وهو في ذروة لقاءه الجميل.. هتف ببرود أعصاب وتلذذ حرفاً حرفاً:

- إنت يا سيد علاء رغم إنك دائماً ضد عقلية المؤامرة إلا أنك غارق فيها، كيف تفسر علاقة إيران بأذرعها في المنطقة؟ كيف تحقق مصلحتها وتتوسع في نفوذها في المنطقة باستخدامها لهذه الأذرع؟

« تمعّر وجه علاء، رغم معرفته بدوافع عبد الرحيم العميلة وأنه لا يريد إلا استفزازه ليخرج ما بداخله، إلا أنه رد بغضب:

- مصطلح «أذرع إيران» مصطلح إسرائيلي يا محترم، ثم كيف عرفت وتأكدت أن المقاومة الفلسطينية مجرد ذراع لا رأي لها ولا قرار؟

- الأمور لا تحتاج إلى دليل، أوضح من وضوح الشمس رابعة النهار، إيران تستخدمنا في حربها لمصالحها الخاصة.

« رد عليه ساخراً:

- أنت أدركت هذا الشيء جهبذ زمانك، بينما قادة المقاومة غافلون عن هذا.

- أنا لا أناقش قادة المقاومة، أناقشك أنت.

« هنا أدرك علاء بشكل واضح ماذا يريد من هذا النقاش، هل هو مطلع ومن موقع قيادي حول العلاقة مع إيران، يريد استفزازه للكشف عن بعض خباياه وأسراره، أجابه بهدوء:

- أنا لا علم لي سوى هذه التحليلات التي نستشفها مما نسمعه من أخبار.

« وأكمل عنه نائل متناغماً مع ما وصل إليه:»

- «وأحياناً تحليلاتنا السياسية كأنها تحاليل بول، خاصة مع انقطاع الأخبار.»



الغرفة الزهراء

« ضحك وأكمل سائد غامزاً بعبد الرحيم:

- في ناس الله وكيلك دائماً تحاليلهم تحاليل بول.

« زعق عبد الرحيم:»

- «ايش قصدك؟»

« سارع بالردّ سائد:»

- «اللي على راسه بطحة بحسّس عليها.»

- «إنت واحد وقح وما بتستحي.»

- ما في أوقح من اللي بلتقي بقوله مع قول الإسرائيلي»

«ردّ بحدّة وصراخ»

- إنت تتهمني في وطنيتي؟

« ضرب الشرطي ببسطاره باب الغرفة ضربة كانت كأنها زلزال ثمّ نعق:

- هذه الغرفة معاقبة، بعد خمس دقائق كلّ الفرشات والأغطية والملابس حتى البوكسرات على الباب.

هتف نائل بحزن شديد:

- تفضلوا، لازم هذا الصراخ، ما بتعرفوا النقاش بهدوء؟

« تابع نائل مازحاً:»

- «لازم تشلح الأفكار كلّ ملابسها، هيك يحلو النقاش، اشلحوا يا شباب بالمليح أحسن ما تشرمحكم

كلابهم»

أصبحت الحسبة معروفة: أنت أمام خيارين إما أن تخلع ملابسك طواعية أو بعد أن تلعب عصهم على رأسك عدا خرمشة كلابهم، فتحوا الباب بعد أن أصبح ما طلبوا جاهزاً بأقلّ من خمس دقائق، سوى عبد الرحيم الذي بقي شامخاً مزاولاً على رفاقه، سحبوه مع ملابسه «وشرّحوه من ساسه إلى راسه»، كسّروا عظامه بعصيّهم وفتحوا رأسه ثم رموه داخل الغرفة مضرباً بدمائه، «علاء ونائل ونضال فاهمين اللعبة:» كل هذا كي يثبت لهم أنه وطني منتم صادق»، سائد أخذ يلوم نفسه على شكّه وقسوته مع عبد الرحيم صاحب الأفكار المستفزة».

هل تدرك أخي قارئ الرواية كم هو مؤلم أن تقضي يومك مع نضر من الناس عراة من أيّ لباس بما فيها السواتان، خاصة ممّن جمعتهك بهم صداقة وأخوة عميقة، أين تذهب بنظرك طيلة النهار، تنتظر الليل



الغرفة الزهراء

كي يسترك ويستر إخوانك فتستطيع أن تفتح عينيك، أية عقوبة هذه أن تقضي نهارك، البرد يلسع جلدك من ناحية والحياء يلسع روحك من ناحية أخرى، ما قاله زعيمهم بأن الفلسطينيين حيوانات بشرية أنزلوه تطبيقاً عملياً علينا، يرونك حيواناً ويريدون أن تشاركهم عن نفسك النظرة الدونية المقبّطة ذاتها.

وتأتي لفتات نضال الروحية لتتضمّد جراح الروح العميقة:

- انظروا إخواني في قوله تعالى: « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» من الذي يعز ويذل؟ الله إخواني، هو العزيز منه وحده تُمنح العزة، أنتم الأعز والأكرم والأعلى، شهادة من الله لعباده المؤمنين: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلنون إن كنتم مؤمنين)، هم يحاولون إذلالنا ولكن الله يعزنا لا محالة: « والله العزة ولسوله وللمؤمنين» .

وعلق علاء:

- لو أنهم يملكون عزة حقيقية لما مارسوا على أسراهم هذا الإذلال.

وتابع نائل:

- هم على مر التاريخ أذلاء حقراء جبناء مفسدون في الأرض، لذلك دوماً يأتيهم من يسومهم سوء العذاب، ولذلك قال الله في حقهم: « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله».

مضت ثلاثة أيام بلياليها والغرفة جرداء وسكانها عراة، هل سمعتم بأساليب تعذيب بهذا الشكل، طبعاً تتسرب إليهم أخبار عن سجن «سدي تومان» الذي فتح لمعتقلي غزة ما هو أشد وأنكى، ما في لباس هناك وبرد الصحراء على أشده، أهوال جهنمية من التعذيب وقطع الأطراف دون تخدير لمن تفرم القيود يديه أو قدميه، الضرب وصيحات الألم لا تتوقف، هناك مصابون بجراح خطيرة ولا يعالجون، بل يعذبون أقسى أنواع العذاب، يعتبرونهم من جنود النخبة للمقاومة وهذا يعني عندهم أنه شيطان قد علم عليهم، وبالتالي يجوز لهم أن يبقوه ليل نهار في العذاب الشديد.

وكان الدعاء حاراً عميقاً صارماً بأعلى درجات الفاقة والافتقار التام، وكان هذا اللجوء التام للمولى فيه ما فيه من قوة نفسية وطمأنينة قلبية تحرر كثيراً من آصار وأغلال القهر والظلم الكبير الذي يمارس ألقى لهم شرطيّ ملابسهم مساء اليوم الثالث، كانت وكأنها هدية من السماء، تلقفوها كجنون عاشق، لبسوها بسرعة ولبستهم، تدثرت أرواحهم بسترها في حين تلا نضال مهدداً قلوبهم:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيثًا وَلِبَاسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾، هذا اللباس عظيم ولكن الأعظم منه لباس التقوى، لباس المضيلة والصلاح، أنتم وأنتم عراة مكسوون بلباس التقوى، هم وهم لا بسون عراة لأنهم لا حظ لهم من التقوى والخيرية والصلاح، هم عراة من كل القيم والمشاعر الإنسانية مهما لبسوا على أجسادهم الخاوية. من يستر خبايا نفوسهم



الغرفة الزهراء

الخربة عن عين الله؟

هتف نائل:

- قَبَّحهم الله ، حرب الإبادة الجماعية عرَّتهم أمام العالم أجمع، عرَّت معتقداتهم وأخلاقهم وسياساتهم وكشفت أحقادهم وعنصريتهم وفسادهم الكبير.

« اعترض عبد الرحيم على عاداته ولكنه هذه المرّة بصوت خافت ضعيف:

- وماذا نستفيد نحن من كل هذا، حسبنا الله على الذي ورّطنا مع هذه الجبلة النّكدة.

ردّ نائل بسخرية:

- « موش تتحوسب على هذا الجبلة النكدة أحسنلك يا شيخ».

- أنت أمام وحش كاسر فوق طاقتك أضعاف مضاعفة فهل تهاجمه، هل رأيت قطاً يهاجم أسداً؟

هتف علاء بأسى واضح:

- هذا موضوع أشبع نقاشاً، لماذا تصرّ للعودة إليه سيّد عبد الرحيم؟

- من الألم يا سيدي، من الألم.

- وصلنا إلى أنهم يألمون أكثر مما نألم وإضافة إلى ذلك نرجو من الله ما لا يرجون.»

- لقد طال الأمر، في غزّة مجازر ومسالخ وقتل ودمار، وفي السجون ترون بأمّ أعينكم كيف صارت أحوالنا.

« أصبح الدور الذي يقوم به هذا العبد الرحيم واضحاً، قتل الروح المعنوية وضرب قلوبنا من أعماقها، بينما عصابة السجون لا تنال منهم إلا أجسادهم.»

هتف نضال:

- ما رأيكم أحبّتي بهذه الوقفة مع ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم التي اعتدنا أن ننهل منها أوقات الرخاء، جيّد أن نعود لها أوقات الشدّة بين الحين والآخر.

سارع نائل بالرد:

- أرحنا بها سيدي نضال، ابن عطاء بلسم لجراحنا.

تابع نضال:

- بوركت سيدي نائل: يقول رحمه الله: « لا يَكُنْ تأخراً مَدَّ العطاء مع الإلحاح في الدعاء، مُوجِباً لِيَأْسِك؛ فهو ضَمَنٌ لك الإجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يُريد لا في الوقت الذي تُريد.»



الغرفة الزهراء

متى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.

رُبَمَا أَعْطَاكَ فَمَنْعَكَ، وَرُبَمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ.

واضح أحبابي أن العطاء بكل أشكاله ومنها النصر والتحرير والتمكين في الأرض مع أننا ندعو ونلج في الدعاء ونرغب أن تكون الإجابة عاجلة وعلى أسرع ما يكون، هنا ابن عطاء يدعونا لعدم القلق، لأن الله قد ضمن لنا الإجابة بقوله تعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وهنا يوجهنا ابن عطاء إلى أن الإجابة تكون وفق حكمته التي تحدد ما يختاره الله لنا وهو خير مما نختاره لأنفسنا، وكذلك في الوقت الذي تحدده هذه الحكمة التي يدير الله بها شؤون خلقه، وهي حكمة مطلقة لا يمكن أن نخذلنا أبداً.

ويعرض لنا ابن عطاء مسألة هامة عندما يتكالب علينا الناس ويرموننا من كل صوب وحذب وعندما يكثر الأعداء من الخارج والداخل، يكشّر المجرمون عن أنيابهم، دول الاستكبار العالمي كلها تحاربنا، ودول الاستضعاف العربي، دول التآمر والتطبيع تصطف معهم، وأعداء من الداخل يرموننا بالسنة حداد، يعضون الاحتلال من جرائمه ويلاحقون بها المقاومة بكل شراسة، أمام هذا المشهد نرى جملة ابن عطاء شاخصة: « متى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ » وكما قال تعالى (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) عندئذ يفتح لنا ابن عطاء هذه النافذة الجميلة: « فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به » عندها تتجلى في القلب أنوار: (حسبنا الله ونعم الوكيل) مقولة المؤمنين الدائمة بوعد الله ونصره في مواجهة توخس المجرمين. (فزادهم الله إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)، هنا تكون النتيجة العظيمة: « ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك » فإذا فهمنا حكمة المنع عاد علينا وأصبح هو عين العطاء.

هتف علاء:

- هل لنا سيدي ابن عطاء السكندري المزيد من التوضيح للجملة الأخيرة؟

- تكملة الحكمة توضح الأمر: متى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنَعِ عَادَ الْمَنَعُ عَيْنَ الْعَطَاءِ. وهذه ممكن تقديرها أو توقعها وفق سنن الله في خلقه مثلاً كما ورد في حديث القرآن عن غزوة بدر: (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين)

هتف سائد بعد صمت طويل وكأنه يجد بذلك ضالته:

- زدنا بارك الله فيك سيدي نضال.

- يقول رحمه الله: (مَنْ ظَنَّ أَنْفَكَ أَنْ لُطْفَهُ عَنْ قَدْرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ) وهنا علينا أن ننظر إلى قدر الله وهو محاط بلطفه، قدر الله ولطفه لا ينفصلان أبداً. فما ينتظرنا عنده في حياة سرمدية لا يبدو هذا الشقاء شيئاً أمام ذاك النعيم، عدا ما ينتظرنا حتى في هذه الدنيا الفانية من فرج ونصر وكرامة وعزة وتمكين، هؤلاء الظالمون لو وضعناهم في الميزان مقابلنا فهل هم أكثر منا حظاً من لطف الله وعظيم رعايته وحفظه ورحمته؟



الغرفة الزهراء

« سرت طمأنينة في القلوب ونشوة أصابت الأرواح، سادت فيها رحمة جميلة استقرت في الأعماق وظهرت نوراً في الوجوه، سوى وجه كبح وبسر ولسانه لم يستطع الصبر على هذا الكلام فانفلت من عقاله ذاك هو عبد الرحيم:

- كل هذا الكلام عليه علامات استفهام كثيرة، كلام تواكلي يؤدي إلى العجز والكسل، هذه الصوفية المبتدعة التي زرعت الهزيمة على مر التاريخ الإسلامي، كله تسليم وتقويض وتخدير وإبعاد عن العمل والجهاد والثورة في مواجهة الظالمين والمفسدين في الأرض، له مقولات انهزامية مثل: «ادفن نفسك في أرض الخمول، وما نفع قلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.»

« تبسم نضال ولم يرد، ردّ نائل باقتضاب شديد:

- يا سيدي، كلّ يُفسرها كما يريد، نحن نقولها في سياق الاجتهاد والعمل.

« وهتف سائد:»

- أنا من ناحيتي أثلجت صدري، وجدت فيها ضالتي، معادلة القلب المؤمن المطمئن القوي الصابر المرابط في زمن التوحش والحروب القاسية.

« وهتف علاء:

- ونستطيع القول إن هذا ينسجم تماماً مع البلسمة القرآنية الجميلة للقلوب المكروبة عندما يقول تبارك وتعالى: (إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً) لاحظوا مع وليس بعد، أي: لا ينفك اليسر عن العسر أبداً، يأتي معه في آن واحد، ثم يؤكدها الله سبحانه مرتين. أعتقد أن حكمة ابن عطاء نابعة من هذا المعين القرآني.

« تابع نائل:»

- إنها معادلات ثبات القلوب كالجبال الراسيات في زمن الطوفان.

« ردّ عبد الرحيم من طرف لسانه باستفزاز:»

- «عملتها سفينة نوح!»

- نعم هي سفينة نوح رغم أنفك.

« ردّ سائد كالسيف.»



(II) نحو نهضة فكرية

وجد الشباب في نقطة الاتصال رسالة مطوّلة من عبد الناصر مفادها أنه ما زال على العهد وهو عاكف على وضع أسس النهضة الفكرية للأمة بقيادة غزّة، ومن خلال ما أحدثه هذا الصراع في غزّة بين الغرب المستعمر ومحور المقاومة كخندق متقدّم للأمة، وتداعيات هذا الصراع فكرياً، وطلب المساعدة كوحدة نقاش في عملية تفكير جماعي مهمة لإنضاج المشروع ما استطعنا لذلك سبيلاً رغم أنف ظروف السجن القاسية هذه الأيام.

فتح ثلاثتهم نقاشاً حول هذا الموضوع، هتف علاء:

- لقد قرعت غزّة جدران الخزان الفكري للأمة بكل ما أوتيت من قوّة، بالنار والدم والتضحيات العزيرة الغالية غير المسبوقة أبداً في تاريخ هذا الصراع.

تابع نائل:

- هذه الحرب مفصل مهم من مفاصل التاريخ في الصراع القائم وعلاقة دول الاستعمار والاستكبار العالمي وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية مع كل من يتحالف معها في السرّ أو العلن من دول الغرب ودول العرب ودولة الاحتلال الصهيوني، (ولم يعد هناك سرّ بعد هذه الحرب فقد كشفت الأقنعة تماماً) مع من يقاوم هذا التغوّل والامتداد الغربي في المنطقة والذي يسمّى بمحور المقاومة.

سأل نضال بعمق وهدوء:

- وما الذي دفع هذه الدول العربيّة للتحالف مع أعداء الأمة؟ هل كان تحرّرها من الاستعمار كاذباً؟ وأين شعوبها التي قاتلت الاستعمار المباشر بكل ما أوتيت من قوّة وعزم؟ لماذا وقعت في خديعة حكّامها وقبلت بالاستعمار لحكّام مُستحمرين من قبل أعداء الأمة؟

هتف نائل:

- هذه الأسئلة الكبرى تعيدنا إلى أصول النهضة الفكرية المعاصرة والتي لم تراعها الأمة، تذكرنا بموضوع الاستعمار لعلّي شريعتي ومالك بن نبي في قابلية الاستعمار، للأسف ما زالت عند الغالبية العظمى من شعوبنا قابلية الاستعمار والاستعمار وهذا ما يشهد عليه حالها، إذ كيف تمرّر هذه الشعوب هذا التوحّش المريع على أهل غزّة دون أن تقف معها وتنصرها؟

تابع علاء:

- على أدنى درجات الواجب خروج المظاهرات والمسيرات الاحتجاجيّة لم تفعل إلا قليلاً، وأنت تطلب

الغرفة الزهراء

بالنصرة؟ لكن مظاهرات واحدة في اليمن عن كل مظاهرات العواصم العربية مجتمعة، من بداية الحرب لليوم والمظاهرات المليونية تملأ شوارع صنعاء وبقية المدن اليمنية.

«تساءل علاء:»

- وهذا يفتح سؤالاً كبيراً، ما المختلف في اليمن؟ ثقافة المجتمع هناك مختلفة مثلاً؟

«تابع نضال أسئلته:»

- وبالتحديد الثقافة الدينية؟ بصفته مجتمعاً متديناً، ما الذي يصنعه الدين في حياتهم؟ أهدافه ومقاصده العليا؟ باختصار كيف يتعاملون مع الدين هناك وما هي حدود إنتاجه؟ ماذا ينتج الدين هناك ثورة؟ بينما مثلاً في دول عربية كثيرة ينتج أشياء كثيرة إلا الثورة، ممنوع إنتاجها على الإطلاق لأن مثل هذه الثقافة تشكل خطراً على استقرار هذه الأنظمة العميلة للمستعمر.

هتف علاء:

- إذا سمحتم نقطة نظام، هذه أسئلة كبيرة من شأنها أن ترسي قواعد لتشخيص الحال وتشكيل رؤية نهضة فكرية تكون مقدمة لنهضة حضارية، مستفيدين من تداعيات هذه الحرب التي اعتبرها حرباً كونية لتصفية القضية الفلسطينية والقضاء على أي محاولة للخلاص من حالة التخلف والهزيمة والتصويب نحو نهضة حضارية حقيقية للأمة.

«اعترض نائل:»

- وأين ذهبت نقطة النظام؟ شتيت سيدي علاء.

- لا، لم أشت بعد، الاقتراح أن يكتب نضال محصلة نقاشنا حول كل سؤال من الأسئلة المطروحة، ثم نبعثها لعبد الناصر ليصوغها الصياغة النهائية.

«ختم نضال:»

- على بركة الله، إليكم هذا المقترح للعنوان: من تداعيات طوفان الأقصى: نحو نهضة فكرية للأمة.

«هتف نائل مازحاً:»

- طوفان الأقصى تحرير لفلسطين وللأمة بإذن الله.

- أحلامك كبيرة سيدي نائل.

- ابقوا أنتم في أحلامكم الصغيرة، إياكم أن تخرجوا من فلسطين وحدودها التاريخية من النهر إلى البحر، أعداؤنا من النيل إلى الفرات ونحن من فلسطين إلى المغرب غرباً وإلى بلاد الهند شرقاً.



الغرفة الزهراء

يجب أن تعود الأمة إلى مجدها وعزتها.

« وختم نضال النقاش: »

- لولا أن كانت أحلام العقل الذي صنع الطوفان كبيرة لما فعل ما فعل. لقد كسر شوكتهم وهدم أمنهم وأذل سلطانهم.

هتف علاء:

- ومن الفكر إلى الأدب، وكالة صقر للأبناء منذ فترة لم تستلم منك قصة سيدي نضال. هل ألهتك السياسة والفكر عن الأدب مثلاً؟

« ابتسم نضال وقال: »

- لدي قصة قاسية.

- « خليها تكمل، هذا اللي ناقصنا » « علق نائل. »

- نحن لها يا سيدي، أصلاً نحن قوم لا نعيش إلا في المناطق الوعرة القاسية. « علق علاء، »

« هتف نضال بعنوان القصة ثم انطلق: »

- ذروة القسوة!!

أثقل وأصعب وأعقد مهمة أكلّف بها في السجن، أن أبلّغ بطريقة تخفّف من ألم الصدمة أسيراً بوفاة أحد أعزائه، مهما تفتّنت في الطريقة ومهما لحفت الخبر وغلفته بكلّ المحسنات والمصبرات إلا أن الأسير سيستقرّ في قلبه نهاية الكلام ما مفاده أنك عندما تخرج من السجن لن تجد أباك بانتظارك أو أمك أو زوجتك أو ابنك أو... وكان لي أن أحاول التخفيف وامتصاص مشاعر الحزن وتخفيف وقعها وألم الفراق الأخير دون وداع، منهم من ينهار عندما يصل إليه الخبر ومنهم من يصرخ بأعلى صوته ومنهم من يتكلّف ابتسامة باهتة بينما قلبه يمور حزناً وقهراً، يلزم نفسه التزاماً بما وقر في قلبه من إيمان بقول الحمد لله، ولكن ما أن تنتهي المهمة، تذهب السكرة وتتراقص أمام عينيه الفكرة ليأخذ بتقليبها ومع كل وجه من وجوهها يرى لونا من ألوان الألم.

مرّات كثيرة كلّفت بهذه المهمة، كان من أشدها قسوة أن أبلّغ أب بوفاة ولده الوحيد بعد أن قطع من حبسته قرابة العشرين سنة، عشرون سنة مرّت وهو يحلم كل يوم بعناق ولده، كبر الولد وكبرت طريقة العناق، من حمله واحتضانه إلى أن صار عليه أن يتقبّل عناق رجل لرجل، ثم فجأة جاء الخبر ليتحوّل الأمر إلى زيارة قبره بعد أن يتحرّر من هذه السجون.

ولكن هذه المرّة المهمة أصعب...

الغرفة الزهراء

إحدى المرّات كان عليّ أن أبلّغ عن وفاة الوالد ثم بعد شهرين وفاة الأم، تجد الأسير أمامك كجبل ينهار فجأة، أقرأ ما يجري في عينيه وما يرتسم على وجهه فيفضح ما يعتلج في صدره على خلاف ما يعبر به لسانه، منهم من يغلق أذنيه على الخبر ولا يسمع كل ما يقال بعد ذلك إلى أن يصحو على نفسه بعد عدّة أيام.

هذه المرّة المهمّة أصعب بكثير..

في إحدى المرّات طُلب مني أن أبلّغ أسيراً بوفاة ابنته الطفلة التي زارته قبل ساعات وما زالت مداعباتها أثناء الزيارة تدغغ قلبه ولم يخرج منها بعد، أغلق عليها باب الحاجز العسكري في رحلة إياهم فقتلها فوراً، صار الأسرى عندما يرونني على رأس وفد يضعون أيديهم على قلوبهم، قلت له:

- إن الله مع الصابرين ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

- ماذا حدث؟ أبي لا سمح الله... قالوا لي في الزيارة إنه مريض؟

- ليس أباك.

- من إذن؟ أرجوكم عجلوا بالخبر؟

- ابنتك التي زارتك تعرّضت لحادث وتوفّأها الله، شهيدة بإذن الله.

- مستحيل، ماذا تقول؟

- (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها)

- يا ربّي قبل ثلاث ساعات كانت عندي، يا الله.

« وهطلت دموعه بغزارة ثم صمت طويلاً لعدة أيام .. »

هذه المرّة أصعب بكثير..

كيف سأبلّغه أن بيتكم قد قصف في هذا العدوان الغاشم على غزّة، لقد فقدت عائلتك كلّها، لم يبق لك أب ولا أمّ، كل أخوتك، أختك الوحيدة مع زوجها وأبنائها، زوجتك وأولادك جميعهم، خمسة وأربعون راحوا في ضربة واحدة، بعد أن قصفوا منزلكم المؤلف من أربعة طوابق بصاروخ من صواريخهم الثقيلة التي تزن طنّين. بالإضافة إلى الذين كانوا في ضيافتكم من النازحين.

رأنا وقد أقبلنا عليه في الساحة الخارجية وقت الاستراحة من رطوبة الغرف القاتلة، تتسلّل أشعة الشمس بعد أن تعترضها الغيوم المتفرقة في السماء ثم تسارع للدخول من مربعات الشبك الحديدي لتطمئن قلوباً قد أرهاقها عنت السجون ووزاينها القاحلة، هي ساعة يخرج بها الأسير بعد أن كانت قبل الحرب على غزّة أربع ساعات، عيون السجّانين الحاقدة ترصد كلّ صغيرة وكبيرة وعلى أهبة الاستعداد للقمع



الغرفة الزهراء

الشديد تحت أي مبررٍ تتكئ عليه، وجوه الأسرى تكسوها سحب الغضب وقلوبهم تنبض مع الحرب المدمرة في قطاع غزة. قبل أن أبدأ الحديث بادرنا بالقول:

- سمعت الخبر وقد كنت أتوقعه كلما سمعت خبراً عن عائلة تُشطب من السجّل المدني في غزة، وكنت أسأل نفسي هذا السؤال: ماذا لو كان الأمر معي؟ وما قد حصل.

« بحزن عميق قلت: »

- أنت جبل المحامل طول عمرك، لله ما أخذ ولله ما أبقى.

« ردّ برعشة في صوته وتوتر واضح: »

- كل يوم نقرأ صباحاً في أديعتنا المأثورة: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، من مقتضيات الإيمان التسليم لله بقضائه وقدره.

- ولن تذهب هذه الدماء العريزة هدراً قطعاً.

- تربيّنا منذ نعومة أظفارنا على أننا مشاريع شهادة، هذه المرّة العائلة كلّها مشروع شهادة، دفعة واحدة؟ اللهم اربط على قلوبنا وأفرغ علينا صبراً جميلاً.

« سمعنا فتح باب القسم وإذا بضابط القسم ينادي من بعيد على صاحبا: »

« قلت له مسارعاً: »

- احذر قد يستفزونك، تحلّ بضبط النفس.

- لا تقلق، أعرفهم جيّداً.

وقف أسيرنا المنكوب متثاقلاً وخطا باتجاه بوابة القسم، في طريقه أخذ يتلقّى العزاء من بعض الأسرى الذين أدركوا بأنه قد تمّ تبليغه، خرج من القسم ليسارع شرطيان بتكبير يديه وقدميه، سار أمامه ضابط القسم إلى حيث مكتبه، جلس خلف مكتبه وكأنه طاووس في خيالاته، بلكنة عربية ضعيفة أخرج من بين أسنانه كلمات العزاء متلذّذاً بها:

- يسلم رأسك، البقية في حياتك.

« ردّ عليه بهدوء حاسم: »

- لا أحتاج عزاءكم.

- نحن نعرف الواجب.

الغرفة الزهراء

- تعرفونه جيداً.

- اسمعني جيداً ولا تكثر حكي. أحذرك من أية ردة فعل، إياك أن تتصرف أي تصرف أهوج، ببساطة نلحقك بهم، مفهوم.

« لم يجب و طال صمته بينما الغضب يجتاح كل ذرة في جسمه »

- أجب... ما لك؟

- ما عندي جواب.

- أنا حذرتك وما تلوم إلا نفسك.

أشار إلى سجان يقف خلفه، فسحبته من «الكلبشة» التي تربط يديه، سار به خارج هذه الغرفة اللعينة، وجد من يدفعه من الخلف ويتهكم عليه، يخاطب آخر بالعبري: « عائلة إرهابية، راحت للجهيم، قتلة مجرمون، تلقوا جزاءهم، هذا مصير كل فلسطيني مُصر على أن يبقى في هذه البلاد. » مثل أنه لا يعرف اللغة العبرية، اكتفى بمعرفة حقايرتهم ولم يمكنهم من استفزازه، عاد للقسم ليعانقه كل من في القسم، قلوب متلوعة، مشاعر في غاية الحزن، دموع تترقرق ويغالب أصحابها نزولها إلى أن تخرج رغماً عنها. كانت مهمة في ذروة القسوة، الله سبحانه يلهم الصبر ويمنحه لعباده مع المصيبة، ابتلاء وتمحيصاً واصطفاء.

هذه قصتي وطابت ليلتكم بأحلام مبشرة تبدد ولو قليلاً هذه القسوة.

علاء أوجز في التعليق:

- قصة هيمنت على أرواحنا، واقعية جداً ومؤثرة جداً.

- وجه من وجوه العذاب الشديد في هذا السجون القاحلة.

« عبد الرحيم مخالفاً وهاجماً كالعادة: »

- قصة تسجيلية، ما في رمز ولا خيال ولا ما يحزنون.

« ردّ عليه سائد، « صار الاثنان كالشحم والنار. »

- ولم لا، المهم أن تصل الرسالة، أن يعرف الناس حجم الألم الذي نغرق فيه.

« ردّ نضال بهدوء عميق: »

- أعترف أنها بالفعل من الأدب التسجيلي.



(١٢) القائد الفذ إسماعيل هنية !؟

وكالة الصقر جاءت بهذه الأخبار المريعة:

أصاب صاروخ يمنيّ موقعاً حساساً في «تل أبيب» لم يفصحوا عنه ولكن منع نشر أيّ شيء عنه دليل أن الهدف حساس ومهم، وردّ الاحتلال بقصف ميناء الحديدية في اليمن وحرق مصافي البترول فيها، جبهة اليمن نموذج على الإسناد القويّ العظيم والأخوة الصادقة النبيلة والتضحية العالية نصره لفلسطين وما يجري على أرضها من مجازر وذبح لإخوانهم الفلسطينيين، تماماً كما التهمت الجبهة الشمالية في لبنان من قبل حزب الله ومن وقف معهم من الفلسطينيين هناك.

لقد ضربت اليمن ولبنان والحشد الشعبي في العراق مثلاً عملياً على الإسناد، بينما بقية الوسط العربي وقف بين متفرج يلطم خده ويترجم ذلك ببعض المسيرات والمظاهرات، أو متأمراً متخاذل هو أقرب إلى معسكر الأعداء منه إلى معسكر الأصدقاء خاصة المواقف الرسمية للدول المطبّعة.

تناقلت الأخبار خطاب رئيس عصابة التوحش والقتل لأحدث نسخة للصهيونازية ما يسمّى رئيس الحكومة الإسرائيلية: «نتنياهو» في الكونغرس الأمريكي، بعد قرابة خمسة أسابيع من محاولة احتلال رفح دون أن يفلح، كان يريد قبل هذا الخطاب أن يقدم بين يديه نصراً عزيزاً حاسماً ساحقاً على مدينة رفح القابعة في أقصى جنوب قطاع غزة، سيطر على الأطراف ولم يفلح في بسط سيطرته على عمق المدينة، كما هي الحال في خان يونس وجباليا والشجاعية ومدينة غزة، فشل فشلاً ذريعاً مع دخول الحرب شهرها العاشر، ونجح بالطبع في قتل النساء والأطفال والتدمير، ومع هذا صفّقوا له أكثر من خمسين مرّة، بصورة استعراضية مجنونة وقفوا و صفّقوا لرجل العصر في الإبادة الجماعية، كبرى الدول الديمقراطية تصفّق نخبتها المنتخبة لمرتكب المجازر الجماعية على مسمع ومرأى العالم أجمع، أي إسفاف هذا وأية صفاقة، شهد العالم على أناس يقفون لضبع مفترس بعد افتراس آلاف الضحايا البريئة وما زال الافتراس مستمراً.

عاد من زيارته للعينة هذه أشد شراسة وتوحشاً، ضرب ضربتين كبيرتين لا تحتاج إلى تحليل سياسي كبير ليذكر المستهدفون أن هذا الأحمق يريد أن يفتح معارك جديدة، هروباً من وحل غزة أولاً ثم مستفيداً من الدعم الأمريكي اللامحدود الذي حظي بتأكيده في هذه الزيارة، كانت الضربتان، اغتيال فؤاد شكر وهو قائد كبير وقد يكون الأكبر عسكرياً عند حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت، أمّا الضربة الثانية فهي اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس إسماعيل هنية مع مرافقه وسيم أبو شعبان في العاصمة الإيرانية طهران.

الغرفة الزهراء

طبعاً وصلت المنطقة إلى حد كبير غير مسبوق من التوتر وصارت على شفى حرب إقليمية مدمرة لا حدود لها، صدرت التهديدات من إيران وحزب الله، ووقف الاحتلال وكلّ حلفائه على قدم وساق بانتظار الردّ.

ذاك يوم بكت العيون فيه كثيراً، إسماعيل هنية شخصية فلسطينية جامعة، أحبته الجماهير من أعماقها وشهدت له أفعاله ومواقفه وتضحياته كثيراً، استشهد له أبناء ثلاثة مع مجموعة أحفاد في ضربة واحدة، تلقى الخبر بصبر جميل وكلمات عظيمة، وكان جبلاً ثابتاً راسخاً واجه العاصفة بشموخ وكبرياء، متديناً بروح جميلة عالية، فهم الدين ثورة وترجم ذلك على أرض الواقع أعظم ترجمة.

لم يكن أحفاد هنية هم الأطفال الوحيدون الذين قتلهم الاحتلال بنية قتل الأطفال، بل جاءوا في قافلة من الأطفال تعدادها سبعة عشر ألف طفل لغاية اليوم وحبل قتل الأطفال على الجرار، أطفال في حضن آبائهم يوم عيد يقتلهم سلاح الجوّ للجيش الإسرائيلي، ما هذه البطولة الخارقة التي يتمتع بها هذا الجيش؟ هل من البطولة أن تقتل سيارة مدنية تقلّ أطفالاً وتسير في مهمة مدنية واضحة مكشوفة للعيان؟ أم أن صلة الرحم والزيارة العائلية يوم العيد قد أصبحت عندهم مهمة إرهابية؟

هل من العبقريّة أن ترصد يوم العيد هذه الزيارات العائلية، هل كانت مهمة عسكرية وفي غاية السرية ونجحت في كشفها وقصفها؟ تريد رفع معنويات شعبك باستهداف أبناء هنية وأحفاده ومن السهل بعدها عليك وعلى شعبك المغرور بك أن تسوّق لهم أنهم كانوا في مهمة عسكرية، هل سمع بشر بأن من أراد ذلك يصطحب أطفاله معه؟ هذا والله فشل ما بعده فشل بل هو استهداف يُظهر مستوى الانحطاط الذي وصلوا إليه وحالة الإفلاس التي تجرّهم دوماً إلى هذا الدرك الأسفل الذي باتوا يتبوؤون مكاناً دائماً فيه بكلّ جدارة وروح منحصّة عالية.

ثم جاء اغتيال هنية نفسه بعد اغتيال أبنائه وأحفاده.

لنرى وقع ذلك على زنزانتنا الزهراء وكيف يتوقعون الردّ الإيراني وردّ حزب الله؟

هذه المرّة انطلق لسان عبد الرحيم وكأنه قد ولد من جديد:

- لا يمكن أن يصدّق عقلي أنّ إيران بريئة من دمّ هنية، كيف لهم أن يفتالوا الضيف في عقر دارهم؟ هم قادرون إذن على أن يفتالوا كبيرهم خامنئي لو أرادوا.

« ردّ عليه سائد: »

- وما الفائدة التي تحقّقها إيران من ذلك؟ على قاعدة إذا أردت أن تعرف من؟ فاسأل من المستفيد؟

« زاد من وتيرة انفعاله وردّ بقوة: »



الغرفة الزهراء

- هذه صفقات تعقد في الخفاء، لماذا تضخّي مثلاً إيران بمصالحها من أجلنا؟

« ردّ سائد بانفعال أيضاً: »

- فقط أجيبك بسؤال: طبعاً ما في شكّ إنه الداعم الرئيس لحزب الله هي إيران لا أريد أن أتوسّع أكثر من هذا، وسؤالي: لماذا؟ وطبعاً لا يشكّ أحد أن حزب الله في إسناده للمقاومة الفلسطينية شكل ضغطاً كبيراً على الاحتلال. إذن أصبحت الإجابة واضحة جداً على هذا السؤال: لماذا تدعم إيران حزب الله؟

« رد عبد الرحيم وهو يحاول أن يظهر متزناً وعميقاً وواثقاً بما يقول: »

- لم لا يكون الجواب: هو لبسط نفوذه من خلال أذرع في المنطقة وتقوية الهلال الشيعي على حساب الوسط السنّي.

- لاحظ أن أذرع إيران في المنطقة هو مصطلح إسرائيلي تحاول من خلاله إلحاق المقاومة بإيران لنفي وجود مقاومة ذات دوافع وطنية محلية ترفض المحتلّ. وقصّة سنّي وشيعي هي أسطوانة مشروخة سئمتها منها منذ زمن بعيد.

لم يشارك الثلاثة في هذا النقاش، يعلمون دوافع السيّد عبد الرحيم، ويعتبرون أن الزمن قد تجاوز هذا الأمر. علق نائل بسرعة ونقل النقاش إلى مكان آخر:

- لقد سمعنا عن جنازة الشهيد إسماعيل هنية في طهران وهذا التلاحم الشعبي والرسمي الهائل، المشكلة ليست هنا وإنما في الخسارة العظيمة التي شكّلها هذا الغياب رغم أنها شهادة يتمناها كلّ رجل حرّ.

« هتف نضال بحرقه وحنن: »

- شهيد الأمة إسماعيل هنية تمّ اختياره من لدن حكيم خبير بدقّة متناهية لا مثيل لها، هي حكمة عالية ربانية خالصة، « وليتخذ منكم شهداء ». شهيدنا كان له هذا الاعتماد الربانيّ العظيم، ولنا أن نسأل: لماذا استحق هذا الشرف الكبير؟

« أجب علاء: »

- حياته مسيرة حافلة في الربانيّة الحقّة التي جمعت صفات الربانيّة: العلماء الحكماء العلماء، وأضافت عليها العمل في ميدان ذروة سنام الإسلام. فيكون قد جمع بين العلم في الدين والسياسة الواعية والإدارة الناجحة وعرف كيف يوظف هذا في الميدان.

« وهتف نائل: »

- قدّم بين يدي شهادته أغلى ما يملك: أهله وولده وأحفاده وحياته كلّها، ثم جاد بروحه ليس مقبلاً غير



الغرفة الزهراء

مدبر كما يقولون، بل متفانياً عاشقاً محباً مسارعاً لا يهمله شيء ولا يلتفت إلى شيء سوى دفع متطلبات حبه وعشقه لله ودعوته وقدسهِ ووطنه.

نضال من جانبه ذهب للجنود:

« لا تنسوا إخواني الأساس لذلك كله: »

كان حاملاً للقرآن في صدره مستعداً لتكاليف القرآن ولتطبيق أكثر آيات الله كلفة وتضحية وفداء، تلك الآيات التي يبتعد عنها كثيرون من الناس، هو يعشقها ويعشق أن يكون من الذين قاتلوا وقتلوا مع النبيين (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا)

« عاد علاء يعدد وينهل من معين شخصية هنيئة كونه عايشه في السجن سنوات طوالاً: »

– كان داعياً لله قدوة ومربياً ومفوهاً ومالكاً لفصل الخطاب مُجمَعاً للقلوب، دليل دين وثورة ووحدة، وذا قدرة عالية على نشر المحبة وتحبيب قلوب عباد الله إلى الله..

« استذكر نائل شيئاً مهماً فهتف: »

– أما عن دوره الوجودي فقد تجاوز بعدها المحلي لنرى دوره على صعيد الأمة، وتكفي دلالة ربانية شهادته في معقل الشيعة، وهذا الالتفاف الجماهيري في جنازته ولعلّ مماته يكون معلماً مهماً في بناء هذه الوحدة بين قطبي الأمة. ولعلّ حكمة الله في أن تجتمع الأمة بسنتها وشيعتها على دماء الشهداء أن تكون معلماً من معالم توحيدها على ما فيه خيرها ومصالحتها.

« هتف نضال: »

– دعوني أزد في القصيدة بيتاً أرى أنه في غاية الأهمية:

كان ذا قدرة عالية على الجمع بين الدين والسياسة بطريقة تتجلى فيها الحكمة، فكان إذا تكلم في الدين أصاب السياسة وإذا تكلم في السياسة تكلمت بروحانيته العالية التي تنسجم مع مبادئ الدين العظيمة ومقاصده العليا.

« أضاف علاء: »

– كذلك لم يكن نسيج وحده، بل كان شورياً بامتياز يتقن العمل مع الفريق بروح جمعية تجعل من الفريق كأنه شخص واحد ومن الواحد فريقاً.

وهتف نائل بغضب:



الغرفة الزهراء

- لا بدّ من التذكير بأنّ قتل الصهاينة له هو بالذات ليس كأي جريمة، هم قتلوا رجلاً بأمة، وهذا يعلّق في عنق الأمة مسؤولية ردّ الاعتبار ومعاقبة هذه العصابة المجرمة، خاصة من قبل إيران حيث كان ضيفاً عندها، والأمر - كما قالوا - مساسٌ بشرفها واعتداء آثم على سيادتها، وهذه أيضاً مسؤولية كل غيور في هذه الأمة.

وتابع نضال بانفعال محموم:

- ولا بدّ من التذكير بأهمية هذه النماذج التي تبقى منارات عظيمة في سماء أمة إن أرادت أن تنهض وتحقق نصرها وكرامتها.

إسماعيل هنية رجل بأمة صنع من الدين ثورة، وحُق له أن يكون شمس حرية لأمة بل ونموذجاً للعالم أجمع للحرية وانعتاق البشرية.

« وهتف علاء وكأنّه بذلك يختم سفيراً كبيراً من الأحزان، وأنى له أن يختم: »

- ولا تنسوا أحبتي كم هي خسارة السنوار ومن معه من القادة بخسارة مثل هذه الشخصيات العظيمة هنية والعاروري من قبله، تذهب أركان مهمّة من صنّاع الحكمة والثورة، «الله يكون بعونك أخي أبا إبراهيم.»

« عبد الرحيم كان يستمع متربصاً ويحاول انتهاز الفرصة للانقضاض: »

- لست قادراً على الإدلاء بدلوي في حضرة الشهداء، ولكن عقليتي النقديّة تأبى عليّ الصمت والاكتفاء بالاستماع: الرجل - رحمه الله - لا شكّ بأنّه قامّة عالية، ولكنكم جعلتم منه صحابياً، يعني مثلاً لو أنه من فصيل آخر لما قلتم فيه ما قلتم.

ردّ عليه سائد بسخرية:

- صمت دهرأ ونطق كضراً.

- على طول كضرتني يا رجل؟

- هذا مثل يُضرب وليس للتكفير لا سمح الله.

« تجاوز الثلاثة الأمر، ولم يكثر أحد منهم بما قال، هتف نائل: »

- لكلّ وجهة نظر، نسأل الله السّداد والرشاد.

.....



علاء في هذه الليلة التي هدأت في قسوة سجانيها (كما قلنا إن ما يجري لهم في الميدان يحدّد وتيرة القمع وروح الانتقام داخل السجون) يعيشون نشوة اغتيال قائد حركة حماس إسماعيل هنية في عقر دار إيران، وكذلك القائد فؤاد شكر في ضاحية حزب الله، شرطة السجن جزلة فرحة، تسيير بانبساط وخيلاء، المزاج معتدل فلا داعي للمزيد من التنكيل وإجراءات الانتقام. أسرانا القدامى في هذه الليلة الهادئة الناعمة تناول كل منهم قبساً من رومانسيته المعهودة، علاء تقدّم خطوة وبدل أن يعقد جلسته مع معشوقته وحببيته الصغيرتين على هاتفه المتخيل، عقدها جلسة متخيّلة في البيت، نائل راح يقرأ رسالة جاءت اليوم عبر نقطة الاتصال مرات ومرات، نضال هام في مخيلته حيث شدّ الرحال مع عائلته الصغيرة إلى المسجد الأقصى وراح يمارس الوله والحب والتحليق عالياً في سماء لا تعلوها إلا سماء محبة الله، وذهب ينظم الكلم العذب الشفيف الرقراق من معين لغته الأدبية الواسعة.

أترككم قليلاً أحبتي مع هذه القطعة الذهبية الفريدة التي خطّها ذاك القلب الجميل من سجن الدامون للبنات حيث تقبع زوجة نائل، قلب نائل كاد يقفز من صدره على وقع هذه الكلمات الملتهبة عشقاً وروعة وهياماً:

« يا روحي ومهجة فؤادي، يا نائلي العظيم، يا روحي بكلّ عنفوانك الذي يسري في روحي كنه ررقراق يسري في ربوع أرض خصبة أنبتت من كلّ زوج بهيج، ملاكي وقرّة عيني وشغف قلبي العاشق، كم أنا مشتاق إليك، اشتقت إليك كما تشتاق اليوم غزّة لتعود لها بهجتها وحياتها ما قبل العدوان، كما يشتاق أطفالها إلى حنين أمهاتهم دون أصوات القصف والدمار، كما يشتاق اليمنيّ ويعانق النخوة العربية الأصيلة فيخرج كلّ ما بوسعه من غضب على عصابة الأشرار الباغية على غزّة، بالمناسبة هل أتاك حديث اليمن؟ هل تسمعون أخبارها وما أخرجت لفلستين من أفعالها؟ إنها الأخوة الصادقة والحب الذي لا حدود له والتضحية التي تعانق الحرية وترفع رايتها عالياً.

وهل أتتكم أخبار رجال المقاومة في غزّة وكيف يتلوعون حباً للقاء الله شهداء، ثابتين، قابضين على جمر المعركة، ليس أمامهم إلا ترجمة هذا الحب فداءً وبطولة ولو كان ذلك عناقاً لدبابتهم العملاقة، هذا والله الحب الذي دوماً نعشقه ونتحدّث عنه ونُمنيّ أنفسنا به، حبّ على طريق ذات الشوكة، فناء عن كلّ شيء سوى الله وما يريده من هذه النفوس، جنوداً للحق وكسراً لشوكة الباطل، ليتنا معاً هناك في غزّة مع هذه الثلة المباركة. لم تفتنا بعد فأنت قضيت ما يربو عن الأربعة عقود من السنين، ملتحمًا في الخندق المتقدّم المشتبك بضراوة مع هذه النازية المتسلّطة، أعاذني الله وإياك من شرّها.

سيد قلبي الجميل، لم يعد متّسع لأخبرك عن أوضاعنا التي لا تختلف عن أوضاعكم، قمع وتنكيل من كلّ الأشكال والألوان، الأصعب والأقسى ما يحاولون به إهانتنا وكسر كرامتنا، الألفاظ النابية التي أصبح لسانهم لا ينطق إلا بها في كلّ الأوقات، وكأنّها هواية تنسجم معها أرواحهم الثنتنة، أكيد سمعتم بما جرى مع أم حديفة جرار، عن اعتقالها وما بعد ذلك من لحظة الاعتقال إلى الشهادة رحمها الله، إليك موجزاً سريعاً عن قصتها:



الغرفة الزهراء

الخنساء الشهيدة وفاء جرّار «أم حذيفة» تضجر قضية اعتقال المرأة الفلسطينية ١٩

وأية شهادة شهدتها قبل أن تنال الشهادة، بدميها المتورتين اللتين سبقتاها للجنة، شهدت على بتر أطراف الأسرى في سجنهم اللعين «سدي تومان»، شهدت أن هناك امرأة تعتقل بتهمة مساندة الأسرى بطرق سلمية، بتهمة أن هناك احتلالاً يريد أن يعتقل الزوج والابن والأخ، ثم عليك أيتها المرأة أن تكلمي فمك بيدك ولا تنبسي ببنت شفة، أن تبلي لسائك وأن تلوذي صامته بقهرك، أم حذيفة رفضت أن تسلب حريتها وكرامتها من قبل محتل بغیض، تحركت ونافحت وتكلمت، هذا المعتل يريدنا شاهدي زور على مجازره في غزّة، أخواتها هناك يُعذبن ويقتلن، أطفالهن يُقطعوا بمفرمة صهيونية حادة النصال حارقة ساحقة ماحقة، أُنقى أم حذيفة مكتوفة الأيدي مكبلة الأقدام، لا أبداً؛ فروح عظيمة ذات عنفوان عظيم حتماً ستتحرك لها الأقدام وتسير نصرة لدماء غزّة، أم حذيفة لديها أقدام لا تعرف إلا الحركة والثورة، قدما تعرفان الطريق وتعرفان كيف تقطعه رغم وعورته وقسوة المشي فيه وعواقب من تسير فيه، ومع ذلك هناك إرادة حرّة وعزم نبيل، هناك إيمان راسخ وفكر منير وقضية عادلة وهمّة تناطح السحاب، فهل تقبل أو تستقيل إذا كان العدو ذا بطش شديد؟

هذه هي المعادلة التي تعود إلى جذرها كفّ بيضاء نقية شريفة عفيفة تناطح مخزراً لثيماً، تصرّ هذه اليد على فعلها ويصرّ المخرز على بطشه، فلا النزال القاسي الشديد يتعبها ولا الثمن المبذول يرهقها، إنّها الروح الباسلة ذات العزم الشديد.

أم حذيفة وغزّة بينهما مشتركات كثيرة، العدو واحد ويفعل بهما ذات الفعل، الحصار والاعتقال والبطش والدم من الاحتلال. ومن غزّة وأم حذيفة إرادة الحياة والوقوف في وجه الجابرة الطغاة والإصرار على الانتصار وتحقيق الحرية والسيادة ورفض الانحناء مهما كانت التضحيات، غزّة الآن تُقطع وتقتل، ويحاولون مسحها عن الوجود، ومع هذا تصرّ على الحياة، وهكذا فعلوا مع أم حذيفة: حوصرت وقطعت وقتلت ثم أصرّت على الحياة فكان لها الشهادة حيث الحياة العزيزة الكريمة الخالية من شوائب هذه الحثالة البشرية السوداء.

كم مرّة اعتقل زوجها عبد الجبار ومن أولادها كذلك فما وهنت وما جزعت، بل كانت روحاً وحادية لهذا المسار الذي اختاروه لرفض المحتل وكل تجليات فاشيته وساديته وانحطاطه.

أرادوا الانتقام فكان لهم هذا الاعتقال الذي كان دائماً، فجرت سيارة الاعتقال، هذه الآلة التي تصدر من الفلسطينيين حرّيتهم وكرامتهم وإنسانيتهم، بُترت القدمان ثم تناولتها ماكينة الإهمال الطبي التي لا ترى الفلسطيني إلا مجرماً لا يستحق الحياة.

أم حذيفة بهذا الاعتقال وهذه الجريمة البشعة تطرح أسئلة كبيرة وحساسة وجارحة للكبرياء، أين ضاعت النخوة العربية والشهامة الإسلامية والكرامة الإنسانية؟ ما كان لأمة حيّة أن تمرّر لهم هذه الجريمة. شهادة أم حذيفة بهذه الطريقة صفة مدوية لهذه النخوة أو ما تبقى منها.



الغرفة الزهراء

فهل تراها تصحو أو تعود إلى نبلها ورشدها بعد هذه الجريمة.

غادرت هذه الحياة إلى بارئها شاكية ظلم هذه العصابة وكل من تأمر معها أو خذل أهل فلسطين، ستبقى أم حذيفة خنساء فلسطينية أثبتت خنساويتها بطريقة فذة فريدة، ستبقى قدماها لعنة على المحتل وشاهدة على الاعتقال والحصار وظلم المرأة والإنسان. والله ينبهنا ويمنحنا دفعة معنوية عظيمة عندما يبعدنا عن أي ظن أو خاطر أو مجرد حساب يمر في عقولنا سريعاً : (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) هذه وحدها كافية شافية.

هذه مهجة فؤادي كتبتهما تأبيناً لشهادة حبيبتنا الغالية أم حذيفة جرار رحمها الله.

أختم لروحك السارية دوماً في روحي دون ختام ولا وداع فأنت معي وأنا معك على الدوام. طبت وطابت حريتنا قريباً بإذن الله في ربوع وطننا وأقصانا الحبيب.

قرأها نائل عشر مرّات، كل مرّة يرى فيها نكهة جديدة وتثويراً لأحاسيس ومشاعر مختلفة عن التي قبلها، وبدا على وجهه الأشقر ما يعتمل في قلبه واضحاً، ارتفعت حيويته وزاد صدره انشراحاً، وبدت أهوال السجن أمام أمواج الحب هزيلة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، علاء رغم أنه لا يرى تهائل وجه نائل إلا أنه أكثر من يحسّ به ويقرأ قلبه وقالبه:

- هنيئاً لك أخي نائل، مباركة هذه الرسالة، أراك محلّقاً في عنان السماء.

- تراني؟ كيف لو أنك ترى؟

- أراك من صميم فؤادي.

- الله يسترنا منك.

- تقلق من قلوب المحبّين؟

- «ما بحسد المال إلا أصحابه»

« تدخل نضال»

- الحسد لا يضر إلا صاحبه.

« سأل سائد:»

- لماذا نستعين منه إذن: « ومن شرّ حاسد إذا حسد»؟

- إذا أتبع الحاسد حسده بعمل أو كيد، عندئذ قد يضر؛ لذلك نستعين منه.



(١٣) أحفاد أويس القرنيّ

اشتدّ القصف والتدمير في غزة، سعرت عصابة الاحتلال جنونها، لم تقتصر على القصف العشوائي بل قصدت أماكن النزوح والمدارس، كل يوم لا بدّ من عدة مجازر، تقصف مدارس مكتظة بالنازحين، ومساجد ومنازل ومشايخ ومخيمات من الخيام البلاستيكية المتهالكة، ضاقت على الناس أرض غزة ولم يعد هناك مفرّاً من يلجؤون إليه، وضاقت الصدور كثيراً، كلّما تصوّروا أنهم قد وصلوا إلى أعلى درجة من التوحّش والإبادة فاجؤوهم بما هو أشدّ وأنكى، أبيدت عائلات بأكملها وشطبت من السجّل المدني وبرز وصف الناجي الوحيد على كثيرين من الأطفال، لم يعد لتوحّشهم حدود ولا أية حسابات لا محلية ولا دولية، كسروا عن أنيابهم الشنيعة النتنة بكلّ ما تحتقن نفوسهم من عنصريّة حاقدة وباتوا كضباع ضارية أفلتت في فلاة.

في صبيحة ذكرى المولد النبوي الشريف أردت أن تحتفل جماعة أنصار الله في اليمن على غير عاداتها، فأطلقت صاروخاً يقال عنه فرط صوتي، يعني سرعته خمسة أضعاف سرعة الصوت، اخترق كل دوائر الرصد والحماية الجوية الأمريكية والإسرائيلية والعربية العميلة للمحتل وحط رحاله المتفجرة في إحدى ضواحي «تل ابيب»، كانت ضربة مدوية أصابت القلب السياسي .. لحظة لحظة من فضلك، دعنا منك أيها الراوي ولننظر كيف تناقش زنزانتنا الزهراء هذا الحدث؟

افتتح النقاشات نائل، هتف بانفعال وحمرة نضرة ترسم على وجهه الأشقر:

- هذه هي اليمن العظيمة تقصّ مضاجعهم، مليونان ونصف المليون ينزلون الملاجئ وغرف الحماية الساعة الخامسة فجراً، كيف تجاوز كل أطواق الحماية الجوية والمستنفرة أعلى درجات الاستنفار.

«هتف علاء بهدوء:»

- يقال إن هذا الصاروخ الفرط صوتي يناور ويموّه على رادارات الاستشعار.

«تابع نائل:

- ثعلب يميني.

«وعلق نضال:»

- توفيق ربّاني، إنهم من أهل الإيمان.

«اعترض عبد الرحيم بامتعاض:»

- لا علاقة للإيمان بالموضوع، مجرد مزادة على السعودية «وجكر».

الغرفة الزهراء

« نضال تبسّم ولم يرد »

« ردّ عليه سائد: »

- نعمت المزايدة، المزيد من هذه المزايدات «والجكر».

« علاء بهدوء ولا مبالاة بما قاله عبد الرحيم: »

- اليمن جبهة مساندة عظيمة تكفلت بمحاصرة دولة الاحتلال جنوباً، شلّت ميناء إيلات، ومنعت أيّ سفينة تصلهم من الجنوب. وها هي ترسل الصواريخ، فعلا شكّلت نموذج إسناد عظيم، تخيلوا لو أن هناك عدة دول عربية حذت حذوها.

« تدخّل عبد الرحيم بسفور فجّ: »

- لو؟ هذا التخيل دليل على أنك لا تدرك حدود الجغرافيا السياسية في المنطقة، كلّها متصهينة، باع من زمان.

« هتف سائد بحزم: »

- نائل لا يدرك الجغرافيا السياسيّة؟! سبحان الله، حضرتك تدرك مثلاً؟

« تابع علاء: »

- هذا الصاروخ الضرب صوتي، له ما بعده خاصة أنّه أصاب قلبهم، في المرّة السابقة تجنّدت عشرات الطائرات للرد على ضربتهم الموجعة لقلب تل أبيب، فضربوا ميناء الحديد، اليوم ماذا تراهم يفعلون، كيف يكون الردّ وما هو الردّ المقابل؟ لقد فتحت جبهات محور المقاومة وهذه اليمن لم تكن بالحسبان.

« هتف نضال بابتسامة خفيفة: »

- « ولله الفضل من قبل ومن بعد، اليمن يا جماعة الخير أحفاد أويس القرنيّ، هل أتاكم حديث أويس؟

« هتف سائد: »

- « كلنا آذان صاغية: »

هتف علاء:

- ولكن هذه غير محسوبة لوكالة صقر للأبناء.

- ولا بهمك، القصة باختصار كان عمير بن الخطّاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفیکم أویس بن عامر؟ حتّى أتى على أویس فقال: أنت أویس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مراد، ثم من



الغرفة الزهراء

قَرْن؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دَرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أُمَّدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دَرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكَ فافْعَلْ» فَاسْتَغْفَرَ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غُيْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ.

قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ.

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أُمَّدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دَرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكَ فافْعَلْ».

فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَفَنَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَاَنْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ.

- يعني هذا الإسناد لجبهات الجهاد من اليمن قديم منذ سيدنا عمر. « هتف نائل»

- نعم صحيح، ولهذا قصص قصته، وهذا أويس قيل عنه إنه خير التابعين.

هتف سائد:

- قصة عظيمة، هنيئاً لليمن وأهله.

رد عبد الرحيم:

- مقارناتكم وموازياتكم عقيمة وعجيبة، اليوم هذا الصاروخ اليمني مقابله حاملات طائرات وغواصات نووية تجوب بحار العالم، سيسحقون اليمن والحوثيين وكل من فيها تحت نيرانهم. قبل أيام حرقوا لهم ميناء الحديدة.

« هتف نائل بحزم:»

- يحرق اللي حبسك، أنت قاعد للإحباط»

ورد عليه علاء:

- حاول هؤلاء كل جهدهم من خلال حرب بالوكالة شنتها السعودية والإمارات استمرت سبع سنوات ولم تفلح.



الغرفة الزهراء

وقال سائد:

- يا أخي، هذا العبد الرحيم قاعد مثل البومة، لا يرى أي شيء إيجابي، كله سلبي.

.....

صباحاً أيضاً بثت وكالة صقر للأخبار أخباراً عظيمة للمقاومة في غزة، الكمان والقنص وضرب الدبابات بالياسين ١٠٥ و«الاربي جي» مستمرة بلا توقّف، وقناة الجزيرة تبثّ فيديوهات تصوّر عمليات المقاومة. ونقل المروحيات لقتلاهم وجرحاهم.

أنعشت هذه الأخبار الأرواح وجعلتها تحلق عالياً، وفي ذات الوقت شنت إدارة السجن هجمة شرسة، تفتيش مع كلابها ووحوشها الأراذل، دخلوا القسم كضباع مفترسة تنقضّ على فريستها بكل ما أوتيت من قسوة، ولا جديد في الأمر سوى المزيد من المسبّات الفاحشة، ادّعوا أن غرفة رفعت صوتها في الصلاة فحق بذلك العذاب على القسم كلّه، يفتحون باب الغرفة فيقيّدون الأيدي والأرجل ثم يسحلّ الأسير إلى خارج الغرفة حيث تلعب عصيهم على جسده في الطريق، الشباب منهم من يقاوم ويحاول دفعهم، ومنهم من يستسلم لأن النتيجة واحدة، بعد ساعتى شبح، تُعاد هذه الأجساد المنهكة إلى الغرف ليجدوا أن الفرشات وبقايا البطاطين المتهالكة قد صودرت وأصبحت الغرف خالية على عروشها من كل شيء، يسأل علاء كالعادة نائل:

- كيف الوضع؟

« فيجيب كعادته مبتسماً الابتسامة التي يداري بها آلامه:»

- ررضة.

- أسوؤها تلك الضربات التي تقع على مواقع الضربات السابقة. «ردّ علاء»

- لم يبق مواقع ما فيها ضربات يا أبو القتلات. «ردّ نائل بسخرية»

- «الله المستعان» الفرج قريب بإذن الله، كلّما اشتدّت فرجت. «هتف نضال»

« ويتوقّف الأكل ثلاثة أيام استكمالاً للعقوبة. »

كلّ ذلك على ما ادّعوه أن غرفة رفعت صوتها في الصلاة ولا أعتقد أنه صحيح»

.....



الغرفة الزهراء

على رأي نائل صَبَّحت وكالة صقر للإعلام على لسان ناطقها علاء تنعق: هجوم سيبراني على لبنان يحقق إصابة قرابة ثلاثمائة من عناصر ومقربي حزب الله، قاموا بتفجير أجهزة «بيجر» (أجهزة الكترونية لاستدعاء أصحابها حين الطلب) دفعة واحدة في بيروت والضاحية الجنوبية، أربعة عشر شهيداً وإصابات كثيرة في الأيدي والعيون.

«صرخ نائل:

- «مش معقول»، هذا خبر غير صحيح، حزب الله بخبراته الأمنية المعروفة يُخترق بهذا الحجم، أنا لا أصدق أخبار هذا المصدر.

- يعني وكالة صقر للإعلام صارت مشبوهة سيدي نائل؟! «ردّ علاء»

- مشبوهة ونص وخمسة؟ «تابع نائل بقوة»

«كان لا بدّ من تدخّل عبد الرحيم فهناك فرصة ذهبية»:

- حزب الله مخترق حتى النخاع، طالّت ضرباتهم الشيخ صالح العاروري في الضاحية ثم فؤاد شكر، من الضاحية لطهران مخترقون، لا تنسوا اغتيال هنية.

ردّ سائد:

- يكفينا هذا الخبر لتضيف عليه هذا الخبل.

تابع نائل:

- لازم الغربان تنعق.

- الله يسامحك، لازم نحلّل السياسة على هوائك سيدي نائل. «ردّ عبد الرحيم»

- «دشّرنى منك يا زلمة» «رد نائل بحدة»

تابع علاء:

- لنحلّل الموضوع تحليلاً علمياً، جماعة الخير، على ما سمعت من تحليلات الموضوع كان يخطّط له منذ فترة زمنية طويلة وكان التفجير مع حرب شاملة إلا أن اكتشاف عنصرين من حزب الله للأمر أدى إلى اتخاذ قرار بالتفجير قبل أن يخرجوا من المولد بلا حمص.

- كيف حصل اختراق هذا الكمّ الهائل من الأجهزة؟ «سأل نائل»

- هذا السؤال الآن... يتكهّن كثيرون في الإجابة عنه، ولكنه يحتاج إلى وقت ليوقف الحزب على خفاياه بصورة دقيقة، الضربة كبيرة وصادمة والمصاب جلل.

الغرفة الزهراء

- والإهمال فظيع. « صبّ الزيت على النار، عبد الرحيم طبعاً »

كان لا بدّ من تدخّل نضال:

- أنا لا أهوّن من الأمر ولكن: في حرب الأدمغة على مر تجارب كل الثورات التي تواجه كل أشكال الاحتلال والطغيان هناك إصابات متبادلة كمّاً ونوعاً.

« أعاد عبد الرحيم قوله سؤالاً مستفزاً »

- والإهمال؟

« ردّ سائد: »

- لا تقلق، حزب الله يتمتع بعقلية علمية، لولا ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه، حتماً سيضع يده على الخلل.

- لا أعتقد ذلك، بل العكس تماماً، لولا فشله لما وصلوا إلى هذا الاختراق بهذا الحجم المهول. هذا يُسجّل نجاحاً كبيراً لهم.

« هتف نائل بغضب: »

- كلامك صحيح ولكن يراد به باطل، فقط تكسير مجاديف، فهمنا أنه في خلل ولن يكون الأوّل ولا الأخير، وهذا ليس بداية القصة ولا نهايتها.

« ردّ عبد الرحيم بسماجة وخبث وبرود أعصاب باهت وبدا كأنه يلقي بقنبلة: »

- أنا أعتقد جازماً أن الشيعة لا يخرج منهم خير أبداً.

« تبادل نضال وعلاء نظرات مفهومة لكليهما، نائل ركب رأسه رغم علمه بدوافع عبد الرحيم: »

- قل هذا من البداية، طالما أنّ النظرة المذهبية السوداء على عيونكم فلن تروا أبداً.

« وتابع سائد: »

- هؤلاء ميؤوس منهم سيدي.

.....



الغرفة الزهراء

ونعقت وكالة صقر على لسان ناطقها علاء في اليوم التالي بخبر تفجير مئات أجهزة اتصالات لا سلكية يستخدمها عناصر حزب الله، ثم قصف الطيران الإسرائيلي لعمارتين سكنيتين في الضاحية الجنوبية أدت إلى اغتيال إبراهيم عقيل أحد القادة العسكريين الكبار من قوة الرضوان التابعة لحزب الله مع مجموعة من الحزب كانوا في اجتماع الطابق الثاني تحت الأرض. مصائب متوالية على رأس حزب الله، القادة الإسرائيليون يتحدثون بغطرسة عن الموضوع دون أن يتبنوا الأمر، الشارع الإسرائيلي يحتفل ويوزع الحلوى. وعبد الرحيم يتشقى بطريقة حقيرة مستفزة وبأعصاب باردة ويستخدم فيها القرآن أيضاً:

- (جزء وفاقاً)، (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الله ببعض ما كسبوا)

« سأل سائد: »

- قصدك؟!

- واضحة لا تحتاج إلى توضيح، الله يضرب الظالمين بالظالمين.

- أعوذ بالله منك ومن شرك الذي لا حدود له، هذا ليس رأياً ولا وجهة نظر، هذه شماتة وانحطاط أخلاقي. « رد سائد بحدّة عالية بينما نظر الثلاثة علاء ونائل ونضال في وجوه بعضهم بعضاً، ولسان حالهم يقول: معلوم الصّف الذي ينحاز إليه أمثال هؤلاء خاصّة عندما تأتيهم فرصة ويعرفون كيف يكون الاستثمار لصالح أسيادهم»

- احفظ لسانك وانظر مواقفكم المخزية، قل لي ماذا فعلت سلطتكم؟ أين تقف؟ معنا أم معهم؟

- إنت واحد وقح، وما علاقتي بالسلطة؟

- أنا أعرف أصلك وفصلك، أم أنك ما زلت ترى فتح والسلطة حركة مقاومة؟

« تدخّل علاء ونائل ونضال كلّ من ناحيته يطفئ هذا الحريق قبل أن يلتهم هذه الزنزانة ومن فيها، علاء حدّد قواعد النقاش في الغرفة: »

- إذا سمحتم يا شباب، نحن الأسرى القدامى اعتدنا أن نختلف دون أن نخلّ بالمودة وإذا ما قدرت على المودة فعلى الأقلّ الاحترام المتبادل، تختلف عقولنا ولا تختلف قلوبنا.

« ردّ عبد الرحيم بعجرفة: »

- فكرك؟ تختلف العقول والقلوب ما لها علاقة ولا دخل؟ هذا شيء مثالي وغير معقول.

« تابع نائل: »

- قدر المستطاع، كل واحد يضبط لسانه على الأقلّ.

الغرفة الزهراء

« وعقب نضال:»

- إخوتي لا تنسوا قول الله تعالى: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» الرحمة هي الإسمنت الذي به تتماسك لبنات المجتمع، إذا ضاعت الرحمة ضاعت الروح.

« علق عبد الرحيم بسماجة:

- الإسمنت مفقود من الأسواق هذه الأيام، ضخوه في الأنفاق، «الأمّة ضايعة فكرك موقفة علينا.»

« ردعه نائل بحزم:»

- أنت الآن مالك وما للأمّة، المهم في هذه الزنزانة لا نريد هذا الهبل.

« وختم نضال:»

- «ورد في الحديث الشريف:» « من قال هلك الناس فهو أهلكهم»

.....

ومع تباشير الصباح الملمّع بزمهريه القاسي، وبعد أن صلّوا الفجر جماعة بصوت خافت متبتّل بصوت نضال الذي جعل فيه مسحة حزن عميقة، بقلب منكسر قرأ بهم سورة البروج في الركعة الأولى واختار للثانية سورة الفجر، من ثبات أهل الإيمان في وجه جبروت الطغيان وحرقه لأهل الحق بنار الأخدود، إلى: « إن ربك لبالمرصاد» والطمأنينة التي تسكبها خواتيم السورة في القلوب: « يا أيها النفس المطمئنة» يكاد قلب نضال يتوقّف وهو يستشعر أن المنادي لهذه النفس هو رب الوجود كلّه، وهو سبحانه الواصف لها بهذه الصفة العظيمة: «المطمئنة» خاصة وهي تتلقّى الجائزة العظيمة: «ارجعي إلى ربك راضية مرضية» وقد أعطاه الله هذه الفرصة العظيمة في حياة قاسية لتمنح بعدها كلّ هذا الحصاد العظيم، أطلقها قليلاً لتعود إليه راجعة وهي راضية ومرضيّة وتدخل في عباد الله ومعهم جنّة لا سجن فيها ولا نصب ولا تعب.

ودّ نضال لو يقف شارحاً لهذه المعاني العظيمة ساعات طوالاً، ولكنّ الوضع لا يسمح واستشعاراته التي وصل إليها لا تجد الكلمات المناسبة لتحملها على أجنحتها، والشباب يريدون القصة:

هتف علاء:

- سيدي نضال، وكالة صقر للأبناء الصفحة الأدبية تطلب منك الإيفاء بالتزاماتك الأدبية معها، قصّة قصيرة إن سمحت:

- على الرحب والسعة سيدي علاء، أنا جاهز لكن زحمة الأحداث أخذتنا في أحضانها.



الغرفة الزهراء

- ونريدها قصة ترفع المعنويات في ظل هذه الضربات القاسية، تفضل ودون مقدمات إن سمحت.

- حاضر يا سيدي: القصة بعنوان: «راسك لتحت»:

- اللهم لطفك ورحمتك» ما هذا العنوان، ناقصنا؟ «هتف نائل مستغرباً»

- هي قصة واقعية من وحي ما نحن فيه، لا تقلق.

- راسك لتحت

« ثم أخذ نفساً عميقاً وشرع في سرد قصته :»

- أمعن السير بدءاً من منتصف الليل بهمة متقدة عالية وعزم من حديد، خرج من ضجيج الحياة وأضوائها إلى ليل الجبل البهيم، صار وحيداً مع الليل، كم هو عاشق لهذه الصحبة العريضة، فضاؤك مفتوح على ملك السماوات والأرض، هناك خنقوا لك فضاءك وجعلوك في سجن ضيق بليد وحشروا معك نضراً من الناس، كل يغني على مأساته ويعزف لحنه الحزين، لتختلط الأحزان مع الأشواق والحنين، فتفجر بركاناً من ألم، كان شريط ذاكرته الذي امتد على مساحة ستة شهور زمنية قريبة قضاها في سجونهم يلح عليه إلحاحاً شديداً:

« راسك لتحت» أكثر عبارة خرقت رأسي، ممنوع أن ترفع رأسك، عليك أن تسير كما الدابة رأسها للأرض، إذا اضطرت للخروج إلى المحكمة أو للعبادة أو للنقل من غرفة أو قسم أو سجن، طبعاً دون أن يخبروك إلى أين هذا السفر البغيض، فستسمع هذه العبارة: «راسك لتحت» والويل لهذا الرأس إن ارتفع أو رفع بصره إلى أعلى ولو قليلاً، ستغامر حينها بحياتك، ستلعب العصي على رأسك، وسيدعس الشداد الغلاظ في بطنك، قد تنجو منها وقد تصبح شهيداً. وقد تكسر أضلاع من صدرك فتعود لزنزانتك مهيباً أو كسيحاً موجوعاً لا تحظى بحبة مسكن لتهدأ من روع ألامك.

حبسة من ستة شهور بعد معركة طوفان الأقصى كانت له بمثابة ستين سنة، تلقى إبراهيم ابن الثلاثين خريفاً عاشها في كنف الاحتلال الصهيوني البغيض، كل صنوف التنكيل والمهانة، ذاق من أشكالها وألوانها ما لم يخطر على بال أوسع الناس خيالاً، حبس عدة مرّات كانت تمرّ خفيفة يسيرة، أما هذه الحبسة فكانت ثقيلة ثقل الجبال، عسيرة عسر الشدائد العاتية، كسروا ريشاً في صدره عندما انقضوا عليه وهو مكبل من يديه وقدميه، لأنه لم يخفض رأسه عندما نعق عليه أحدهم: «راسك لتحت». وجهه الحنطي الأسمر الناعم أصبح أزرق كالحا شقت به الأخاديد طريقاً لها، طارت من أسنانه ثناياها وانهدل جبينه عن إحدى عينيه، أربعة شهور مرّت وهو غارق بالأمه، ثم بدأت الأوجاع أحياناً تهجع أو تأخذ لها قسطاً من الراحة فتأخذه سنة من النوم.

كان هناك ضابط يصدر التوجيهات اللعينة وأوامر التعذيب الفاشية، يحمل سحنة الرجل الأبيض بكل ما تحمل من عنصرية بغيضة، كان إبراهيم يراه يجمع كل قوى الشر الذي ذكرها التاريخ في رجل

الغرفة الزهراء

واحد، مركب تختلط في تركيبته كل قوى التوحش والإجرام من الصهيونية وحتى النازية والأمريكية والصليبية والمغولية و...، إحدى مرآت القمع بعد تكسير كل من في القسم وإسالة الدماء العزيزة في ساحة القسم، لم يعد هناك لإبراهيم ما يخسره، كان هذا الضابط يقف متفجعاً على ما تفعله قواته الباسلة، ينظر بعيون شامته، يود لو يحقق أعلى درجات المتعة فيما يرى ويشاهد كأنه في حفل عرس لأعزّ أحبائه، أراد المزيد من المتعة فأشار إلى جنده أن يدفعوا له إبراهيم صاحبنا إليه.

« نطق بسخرية واستعراض: »

- سمحت لك أن ترفع رأسك، قل لي، ما رأيك فيما فعلته حماس؟

« نظر إبراهيم إليه شزراً بطرف عينيه وهتف بنبرة هادئة: »

- فعلت ما يجب أن يفعل مع الاحتلال.

- ولكنها قتلت واغتصبت نساء وأطفالاً؟

- هذا وفق دعايتكم الكاذبة، لم يثبت أحد، أما ما هو مثبت ما يفعله جيشكم فينا من نكبة ثمانية وأربعين إلى غزة هذه الأيام، كم مجزرة اقترفتكم؟

- المشكلة فيكم، تعرف المثل العربي «الكف لا يناطح مخزن»، أنتم مُصرون على مناطحة المخزن، مخزننا ماضٍ ولن تقدرُوا عليه.

- إذن، هو منطق القوة.

- طبعاً القوة وهل هناك أحلى من القوة، هب لو أن الأدوار تبدلت ماذا تفعلون بنا؟

- لا يمكن أن نعدبكم هذا العذاب ولا بأي شكل من الأشكال، وقد رأيت الأسرى الذين خرجوا من عند المقاومة الفلسطينية كيف كانت حالتهم؟ أتعرف لماذا؟ لأن لنا حضارة ذات قيم إنسانية عالية، لنا دين وتاريخ وأخلاق، أنتم شذاذ آفاق لا حضارة لكم ولا تاريخ ولا قيم، تتصرفون بمنطق العصابة والتوحش.

- كفى كفى، أنت لسانك طويل ولازم أقصلك إياه. « وأشار إلى جنده »

« تناولوه بكرلات أقدامهم وسحلوه إلى بوابة زنزانته. »

إبراهيم تألم كثيراً، حمل من أثقال الضرب المبرح ما لم يذكر أمام هذه الوقفة المذلة المهينة، وكان للتخفيف من حجم هذه الآلام أن يتخيل يوماً يمكنه الله من هذا الشرير، ماذا نراه يفعل بعد كل ما رآه وسمعه من غطرسة وعجرفة ولؤم وامتهان مريع للكرامة من جذورها وأعماقها؟ هذا بالتحديد كان يشعره بالإضافة للثأر من كونه احتلالاً بغيضاً ساهم في الاعتداء على بلده، إلا أنه أيضاً هنالك ثأر شخصي خاص بهذا المخلوق.



الغرفة الزهراء

وصل شيك المستوطنة، هذه التي أنشئوها منذ عشرين سنة على أراضي قريتهم التي اغتصبوها من أصحابها عنوة، كان عليه أن يتخطاه دون أن يمسه بالخط الساخن الكهربائي واللاكتروني الموصول بأي اهتزاز تحدثه الأسلاك الشائكة، أي خطأ ستنتقل صافرات الإنذار فتفشل محاولة الاختراق، يعود به الشريط ليرى عيني الضابط الهدف وقد أعيد إلى السجن (لا سمح الله) فيلتيه ثانية ليمارس عليه كل الطقوس النازية من جديد، ترتعد فرائصه لمجرد مرور هذا الخاطر في قلبه، يستعن بالله ليثبت به قلبه، ويجأ إلى الله بدعاء خالص من أعماق أعماقه، أخرج خلويته، فعله وأخذ ينظر في خانة تحديد الموقع الذي اخترقه وأراد أن يستهدفه بهذه الفدائية الضريفة، في قلب المستوطنة وفي عقر بيته.

أخرج من حقيبته الصغيرة لباساً يشبه لباسهم، سار على هدي برنامج تحديد المواقع، يا له من غبي رغم أنه ضابط أمن، إلا أن إبراهيم تمكن من الحصول على معلومات كثيرة من خلال صفحته على الفيس بوك، منها إحدائية سكنه في هذه المستوطنة، الليل يسير بطيئاً والساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، والسؤال الذي كان يقض مضجع ضميره، كيف لو كان في البيت أطفال؟ كيف سيسحبه إلى مضجعه من القتل خارج البيت بعيداً عن أعين أطفاله؟

انتظر إبراهيم وهو كامن يرقب البيت خلف سور استنادي مقابل له على حافة الطريق، وصلت قوة حراسة تجوب شوارع المستوطنة على سيارة تراكاتور مكشوفة، وجوههم فرحة جذلة كأنهم في رحلة صيفية جبلية ممتعة، يحركون كشافات قوية تسلط ضوءها إلى حيث يمت وجهها فتحيل المكان نهاراً، بلغ قلبه حنجرته، اشتدت ضرباته، أحكم اختبائه جيداً خلف السور فمرت بسلام، ولما ابتعدت هتف من أعماقه «يا الله» وانطلق، طاف البيت فوجد نافذة مفتوحة ولكنها محمية بحماية حديدية قوية، تسلقها وقفز إلى السطح، من هناك نزل سلماً يفضي إلى باب خشبي داخلي، كان لا بد من خلعه بضربة واحدة والانقضاض بسرعة البرق إلى الهدف في ثانية واحدة، أخذ نفساً عميقاً فضربه بكتفه بكل ما أوتي من قوة، دهم الغرفة التي انطفأ ضوءها قبل ساعة، فوجد حضرة الضابط يقبل عينيه، نهض رافعاً رأسه يريد أن يستطلع الخبر فداهمه إبراهيم بقوله بعبيرية فصيحة:

- رأسك لتحت.

«انتشر الهلع بسرعة البرق في وجهه وعينيه، ارتعدت أوصاله وهو يرى السكين متجهاً لرقبته، لم يمهلها ثانية، جلس على صدره وحز رقبته، أسرع شريط السجن ليمر عذابهم الشديد بذاكرته مسرعاً، هز رأسه، هتف: رأسك لتحت يا واطي.

غادر مسرعاً قبل أن يصحو أطفاله من نومهم في الغرفة المجاورة، أغلق الباب عليه، نظر بحزن لأطفاله:

كم أحزن أبوكم من الأطفال الفلسطينيين بتعذيب آبائهم!

وكتبوا في صحفهم: سجين فلسطيني ينتقم من سجاناه بعد الإفراج عنه.

(اسم بطل القصة أحبتي إبراهيم منصور من قرية بدو - فلسطين)

الغرفة الزهراء

هتف علاء: من أعماقه:

- لا فضّ فوك سيّدي، أنعشت قلوبنا.

«وأُتبع نائل:»

- أنعشت قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وكلّ شيء فينا.

«عبد الرحيم قال باشمئزاز:»

- بأدبك وما فيه من سحر تُحمّل الأمر فوق ما يحتمل، ألا ترى أنّك قد بالغت؟

«ردّ سائد بحدّة:»

- تأبى إلا أن تعترض، سبحان الله، خالف تُعرّف.

«أيده نائل مبتسماً:»

- «مثل الطاوس بحب ينفس ريشه الحلو.»

«ردّ عليهم عبد الرحيم:»

- تفكيركم تقليدي لا تعرفون النقد.

«ردّ سائد:»

- نعرفه أكثر منك، هناك فرق بين النقد وبين تكسير المجاديف.



(١٤) اغتيال ساحة السيد

بقي ترانزستر علاء مُصرًا على نعقه، نطق هذا اليوم نطقاً لم ينطق مثلاً من قبل، ولا أظنّه سينطق مثلاً من بعد، تلعثم وارتبط لسان علاء قبل أن يبوح بها، دمعت عيناه المظفّيتان ثم تجرأ وهتف:

- هناك أخبار عن اغتيال ... « توقّف لم يستطع أن يكمل»

« اشربأت الأعناق وهتفت:»

- من ؟ ستترك يا ربّ.

« وكان لا بدّ من إلقاء هذا الخبر الثقيل من صدر علاء، كأنّها صخرة توشك على الانفجار.»

- السيد حسن نصر الله.

- مستحيل.

- هل جنّ نتنياهو وفقد عقله.

- قد يكون الخبر غير صحيح.

- هذا له ما بعده.

- حرب طاحنة، حرق للسفن.

- أنا لا أصدّق، مش معقول.

- هل يتجرؤون على جريمة بمثل هذا الحجم؟

عبد الرحيم المختلف دائماً:

- تخلصنا من حاخام شيعي.

ردّ عليه سائد:

- الله أكبر، ما أوقحك!

- لست أوقح من الذين قتلوا إخواننا السوريين.

« هجم عليه سائد ليبطش به لولا نائل كان بينهما فصدّه ووجّه كلامه لعبد الرحيم»

الغرفة الزهراء

- اسمع، إذا ما عندك كلمة خير انخَمْ واسكت. « مش ناقصنا إلا إنت وكلامك السمج. »

« تابعت وكالة صقر الإعلامية: »

- تم ضرب المكان الذي تواجد به نصر الله بثمانين قنبلة من وزن الألفين والثلاثة آلاف رطل، وهذه الأخيرة لأول مرّة تستخدم. واستشهد معه علي الكركي أحد القادة الكبار في الحزب مع مستشار كبير في الحرس الثوري الإيراني.

« هتف نائل: »

- هل تتخيّلون ذلك، هذا يوازي قنبلة نووية.

- يقولون إننا قتلنا الرجل الذي تسبب بأكثر الأعداد قتلاً من اليهود، الاحتفالات تنتشر في الشارع الإسرائيلي، يوزعون الحلوى.

« ملأ الحزن والكمد الصدور وكان أكثرهم تأثراً وشعوراً بالقهر نضال، بكاه بصمت، وابتهل إلى الله من أعماقه بدعاء خالص له.

نفس كل منهم عن صدره ببضع كلمات:

- هنيئاً له هذا الوسام الرباني الرفيع.

- لقي الله من مواقع العزّ والشرف والفضاء مع إخوانه المجاهدين في غزّة وفلسطين .

- لقي الله وهو على حدّ سيف العزّة منادياً: هيهات منا الذلّة.

- لقي الله وهو يُحيي في الأمة قيم الحرية والجهاد والثورة.

- لقي الله وهو يعمّد الشهداء على طريق القدس والتحرير.

- سيبقى حياً خالداً بإذن الله في صدور الأحرار حتى تحرير كل فلسطين.

« وهتف سائد موجهاً كلامه لنضال: »

- لا بدّ وأن تجود قريحتك شيخنا بما يناسب هذا المقام.

- من الصعوبة بمكان أن تطال اللغة وكل بلاغتها ما سطره هذا الرجل في حياة الناس وما حضره في قلوبهم، واحد فقير مثلي بضاعته مزجاة مع هذه الشخصية الفذة كياسط يديه إلى الماء.

- سدّدوا وقاربوا يا سيدي. « هتف نائل »

- سأحاول إن شاء الله.



الغرفة الزهراء

وكان مما جادت به قريحة نضال بهذه المناسبة: ما بين سماحة السيد وناقاة صالح نتيجة واحدة «فدمدم عليهم ربهم»؟!؟

مضت أربع وعشرون ساعة على خبر شهادة سماحة السيد، العقل في حالة من الذهول، لا يستوعب ولا يكاد يصدق، القلب مكسور منقطر، العين تدمع ألماً وحرناً، والسؤال الذي يدق جدران القلب بقوة: كيف تجرؤوا على هذا الفعل؟ حفدة القردة والخنازير، كيف سوّلت لهم أنفسهم وأين ذهب بهم غرورهم ليتخذوا قراراً بهذا الوزن؟ كيف غلبت شقوتهم وأين راحت عقولهم وهم يتداولون مجرد فكرة المساس بهذه النخلة الباسقة أو ضرب رؤوسهم بهذا الجبل الشامخ؟ كيف طوّعت لهم أنفسهم وسوّلت لهم غرورهم أن يقدموا على هذه الجريمة بهذا الوزن الثقيل الكبير وما ستؤول عليهم عاقبة أمره، هل فكروا بعاقبة أمرهم هذا؟!؟

لقد استخفّوا بدلالات عظيمة تحملها هذه الشخصية الفذة، لقد أرست قواعد الروح الثائرة، شقت طريقاً وصنعت نموذجاً وأخرجت للناس تجربة ناجحة ملهمة مذهلة، ولم يكن الأمر دراسة نظرية أو فكرة قوية، بل كانت ملحمة بطولية في زمن ضاعت فيه شمس الحرية في بلاد استمرأت الذل والعبودية، في مواجهة مكشوفة مع كل قوى الشر العالمية الواقفة والداعمة بكل ما تملك من قوة لكيان عربد وقتل وأثخن وثبت أركانه جبروت القوة، نشأ حزب الله في هذه البيئة القاسية الصعبة وقام على أنقاض سلسلة من الهزائم العربية، وكان لقيادة سيد الشهداء سماحة السيد الدور العظيم في قلب المعادلة، سنوات من القيادة القوية والإرادة الصادقة الحرّة الأبية، وإذا به يكسر أنف هذه الغطرسة العالمية، ويحقق سلسلة من الانتصارات التي أفضت إلى هذا النموذج الذي جعل هناك للكرامة العربية مكاناً، وأن هناك إمكانية أن تحقق نصراً وحرية، وكان بذلك ملهماً لكل القوى المقاومة الثورية، محلياً وعالمياً.

القرآن يقصّ علينا قصة ناقاة المعجزة، معجزة نبيّ ظاهرة بيّنة، تحمل للبشرية الخير الوفير واللبن السائغ للشاربين، وأهم من هذا أنها علامة لهم من الله على صدق نبيّهم وما أتاهم به من وحي السماء، اجتمع شقوتهم، من لا يرون الخير، بل يرون الشرّ كلّ في هذا الخير العظيم، ماذا دهي عقولهم حتى يفكروا ويخططوا ويتآمروا على عقر هذه الناقاة؟ ما هي أهدافهم السياسيّة وأين رؤيتهم الحضارية وما هو مستواهم الأخلاقي الذي يدفعهم إلى قتل من يجود للناس بكلّ هذا الخير؟ ما هي جبلتهم وما هي طبيعة جيناتهم الوراثية؟ ما هي المصلحة السياسيّة وماذا يترتب على ذلك من شقاء للبشرية؟ كل هذا لم يدخل حساباتهم.

لقد قرروا عقر الناقاة وقضي الأمر، طمس الله على هذه القلوب المتلوية وهذه النفوس المتغترسة المتعجرفة، أعمى الله بصيرتهم بما انحرفت عليه نفوسهم النكدة. الغرور وقوة البطش وجبروت شهوة القتل سحب سوداء تجعلهم لا يرون شمس الحق ولا نور هذه الآية الباهرة المشرقة الربانية المعجزة العظيمة. فماذا كانت النتيجة؟

الغرفة الزهراء

دمدم الله عليهم، صورتهم التي تملك عيوناً ولساناً وسمعاً وماكينة إعلامية، قدراتهم الكبيرة على الفعل والقتل وفن الجريمة، وجودهم وكيانهم بكل ما فيه من بهرجة وبطر وأشر وجلبة وصوت وصورة حياة ظنوا أنها بمنأى عن العاقبة الوخيمة وعن يد العدالة الربانية العظيمة، بكلمة واحدة ألغى الله وجودهم بما كسبت أيديهم، وبما أرادوا أن يلغوا الحق بالجريمة، دمدم الله عليهم، أنهى كل شيء يحمل اسمهم ويترك أثراً لهم.

النتيجة قاطعة حاسمة آتية لا ريب فيها، «فدمدم عليهم ربهم» الله وحده سبحانه يهيئ الأمور إلى هذه النتيجة، دمروا وقتلوا في غزوة وأمعنوا فيها ما شاء لهم بما أمدتهم قوى الكفر والطغيان العالمية من أدوات للقتل والجريمة، ثم جاءوا لبنان ليمعنوا أيضاً في الدمار والقتل، النتيجة القريبة التي لا ريب فيها أن يدمدم الله عليهم بعباده الأوفياء الصالحين. عقروا ناقة الخير والنور، عقروا قيم الإنسانية العظيمة، عقروا الحرية بل عقروا فلسطين الغالية العزيزة، وأنكروا حقوق شعب بالكلية، عقروا المسجد الأقصى وعقروا الحياة بكل معانيها الجميلة، هم الآن سائرون بقوة وسرعة نحو: « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها». والأمر ليس إيماناً غيبياً بل هو ممكن في سياقاته الموضوعية، المقاومة التي قادها سماحة السيد ومن معه من قادة عظام جبال راسية شامخة، فكرة وثقافة وفعل وقوة ومشروع حياة، هي أرض ووطن وحرية وكرامة وقيم راسية يحملها رجال، لقد ترك سماحته ما قد تزول الجبال ولا يزول من صدور الرجال.

فحش قرير العين مع الملائ الأعلى ومن سبقوك من الشهداء، فما تركته لنا يكفي لتحرير العباد والبلاد من هؤلاء الذين طوّعت لهم أنفسهم قتلهم، وغلبت عليهم شقوتهم ولم يدركوا العاقبة التي لا أقل من زوالهم عن هذه البلاد.

علق علاء مبتهجاً:

- يا سلام... من أجمل ما سمعت.

وتابع نائل:

- التشبيه بناقة صالح أذهلني، رغم أن في صدري شيئاً، يتفق معها سماحة السيد بأشياء ويختلف بأشياء كثيرة، هي معجزة من الله تعالى مجردة من البعد السببي البشري الذي لم يسهم في إنتاج هذه المعجزة، بينما سماحته هو نتاج المزوجة بين الأمرين، التوفيق الإلهي والإبداع البشري في رجل واحد.

« ردّ نضال: »

- كلامك صحيح ولكن لا ننس القاعدة: «لا مباحة في المثل ولا مشاحة في المصطلح»، هو مثل يتشابه في جوانب ويختلف بالتأكيد في جوانب أخرى.

« من جانبه نعق عبد الرحيم: »



الغرفة الزهراء

- لقد ظلمت المشبه والمشبه به بضرب هذا المثل.

« ردّ عليه سائد بتجاهل مقصود: »

- من فترة ما سمعنا «تقدير موقف»، نحن بأشدّ الحاجة إليه مع هذه التطورات الخطيرة.

- كما قالوا نقل ثقل المعركة من غزة إلى لبنان، هذا تغيير جذري بحاجة إلى تحليل وتقدير موقف بالفعل. « هتف علاء »

- أقترح بعد العصر مباشرة، لنرتّب أفكارنا ونناقش الأمر. « هتف نائل »

« عبد الرحيم مكسرّ المجاديف بدوره هتف ممتعصاً: »

- كما دمروا غزّة سوف يدمّرون لبنان، لا داعي للتحاليل الطّبيّة

ردّ عليه سائد:

- ولا داعي لنعيق البوم.

- لا ... النعيق لا بدّ منه حتى يحلو النّغم. « هتف نائل »

« هتف عبد الرحيم باستعلاء، أمال رأسه قليلاً وأرخى لسانه ببرود: »

- بصراحة، تحليلاتكم تسير باتجاه واحد للأسف الشديد. وكلّ ما يُبنى على خطأ يكون خطأ.

- وما هو الخطأ الذي بنينا عليه أيها الفطحل؟ « تساءل سائد بشيء من السّخرية »

- كما قلت سابقاً، من الذي اتخذ قرار العبور يوم السابع؟ وهل درس نتائج الكارثية؟ هل توقع أن يقوم الاحتلال بكل هذه المجازر والدمار؟ المستفيد الوحيد من هذه الحرب هو «نتنياهو، فعل كما فعلت أمريكا في أحداث سبتمبر حيث أتاحت لابن لادن تفجير مركز التجارة العالمي وضرب البنتاغون وهذا أعطى مبرراً لما يسمّى محاربة الإرهاب واحتلال أفغانستان ثمّ العراق، الآن بعد غزّة وانجرار حزب الله للحرب يأتي دوره في القضاء عليه ثم سوريا وإيران وقرأ الفاتحة على محور المقاومة، هذا مخطّط إسرائيلي وما حدث في السابع مسرحية متّفق عليها من بنات أفكار نتنياهو والدولة العميقة عندهم.

« الثلاثة كانوا يستمعون بهدوء وهم يعرفون خلفية هذا العبد الرحيم ومن المستفيد من هذه السردية ومن هو صاحبها، ويرون بأنّ أعينهم كيف يعمل هذا الطابور من الناس وما هو دورهم، هذا أمثاله على مواقع التواصل الاجتماعيّ كثيرون، لهم منصات إعلامية تابعة لوحدة المخابرات الإسرائيلية ٢٠٠٨، وهناك فضائيات عربية كثيرة تسير في الرّكب ذاته »

« وقف سائد وقفة أسد وعيناه جمرتان من لهب، زأر من أعماقه: »

الغرفة الزهراء

- هذا كلام جواسيس، طابور خامس، يصوّر الاحتلال على أنه قدر نافذ وهو اليد العليا دائماً، وينكر أنّ بإمكان العقل الفلسطيني أن يتفوّق على الإسرائيلي أو حتى الغربي، من يقول قولتهم هذه فهو يصطف معهم.

« وكان يقترب منه ويؤشّر بيديه بغضب شديد، حال بينهما نائل وناشده بهدوء: »

- يا أخي سائد، ناقشه بهدوء، وجهة نظر، قابل الحجة بالحجة؟

- هذه ليست وجهة نظر، هذا اصطفا ف معهم، هذا الدلو الذي يسمّم البئر.

« نعتت أبواقهم السيمفونية السوداء، عدد عدد يا حيوانات، عدد يا أخوات ال.... عدد يا أولاد الزنا لا يتركون مسبة ولا شتيمة إلا ويلقون بها ويتفننون بإبداعات جديدة كل مرّة،

« قال نائل ساخراً وموجّهاً كلامه لعبد الرحيم: »

- يا شباب هذه ليست مسبات حقيقية، هذه مجرد مسرحية، أصلاً وجودنا في السجن كلّه كان بسبب مسرحية اسمها النضال الفلسطيني. يا الله استعدّوا لمسرحية العدد.

.....

هناك تفاصيل أيها الرواي لم تفرد لها مساحة كافية، سيحتج عليك كل من يقرأ سرديتك من معتقلي هذا الزمان، كأنك تستخفّ بها.

- مثل ماذا أيها الضمير الحاضر في قلب الزنّانة؟

- لم تذكر مثلاً معاناة الحمام والطريق الوعر للوصول إليه، إذا تحرك بطنك ليلاً وقليل ما يتحرك بسبب الإمساك الشديد، ولكن على أمل أن تحظى «بشخّة» هنية، تذهب متفانلاً وتخطى رقاب النائمين في ساحة الزنّانة الشاسعة ! تصل بشق الأنف وتحاول إنزال بضاعتك الثقيلة، فإن أفلحت استبشر وجهك وخرجت وكأنك خارج من بنك صرف لك فيه شيك بمليون، ويقرأ ذلك أصحاب الزنّانة في وجهك فيباركون لك، وقد مررت مرور الكرام عن قصة نائل في أكله للبيضة الفاسدة من أجل تحقيق هذا المشروع، أما إن لم تفلح فستخرج كالأمّ الوالدة التي مات جنينها في رحمها. وهناك غرف في القسم تتسع لعشرة فزجوا فيها عشرين، عشرون على حمّام واحد وصف على الدور يا ولد.

- وماذا عن الأكل؟

- تحدّثنا كثيراً عن الأكل الذي حولنا إلى هياكل عظمية، هناك ما هو أشدّ وأقسى، الجرب وما أدراك ما الجرب عندما يحرمك حكّه من النوم ويتحوّل إلى دمامل وتقرحات وطفح يملأ الجسم، ويا ويلك إذا



الغرفة الزهراء

احتجت من يحكّ لك ظهرك.

- كل هذا بسبب الحرمان من الشمس والخروج للساحة مع قلة مواد التنظيف والحرمان من الحمام اليومي.

- أخذك الحديث عن امتهان الكرامة بعيداً عن بقية أشكال التنكيل، وكذلك عملهم الدؤوب في فنون ضرب الروح بكل ما أوتوا من غطرسة واستكبار وروح حاقدة مقيتة.

- يا سيدي، الضمير الحاضر ذكّرني بما فاتني ولا تتردد.

- لم تكتب مثلاً عن انتشار البق... هذه الحشرة اللثيمة التي تتسلل في الظلام لتقوم بتخديرك ثم تأخذ نصيبها من دمك ولا تكتشف ذلك إلا بعد أن تغادر وتختفي، فلا تستطيع الانتقام منها وتبقى في حسرتك، كما يفعل هذا الاحتلال البغيض مع شعوب المنطقة، يحدّرها بنشر ثقافة الهزيمة ثم تصحوا بعد فوات الأوان.

- هذا إن صحيت.

- لا بدّ وأن تصحوا ولكن تبقى الإجابة عن السؤالين: متى وكيف؟

- هكذا خرجت عن ميدانك وذهبت إلى ميدان آخر.

- لا، ولكن الشيء بالشيء يذكر. أه تذكرت، ماذا أيضاً عن هذا التعقيم الإعلامي، أنتم ربنا رزقكم وكالة صقر للإعلام مع هذا الترانزيتسر الصغير، أحيطك علماً أنّ هناك أقساماً كثيرة تخلو من أية وسيلة اتصال، هل تدري ماذا يعني في زمن هذه الحرب الضروس بين شعبك ومقاومتك مع ألد أعداء البشرية في توّحّشهم وهمجيتهم دون أن تصلك أخبارها، هذا جنون وخنق للأنفاس، قد يكون قطع الأوكسجين أهون من هذا التعقيم.

- وسمعت أيضاً أنهم يسربون أخباراً كاذبة كي يضرّبوا فيها الروح المعنوية للمعتقلين.

- هم غارقون في الكذب خاصة في هذه الحرب. زعيمهم «النتن ياهو» كلّ تصريحاته ومؤتمراته الصحفية مفترية كاذبة، حتى إنه بات معروفاً عند شعبه «كذاب بن كذاب».

- وماذا تكتب عن الخطوط الصفراء؟ يا سلام ذكّرني بهذا الفنّ من التعامل البغيض،

هذا من إبداعات وتجليات ابن غضير في السجون، خطان أصفران في زنزانة السجن: الأول قريب من النافذة والثاني قبالته قريب من الباب، عند العدد على المعتقلين أن يحشروا أنفسهم خلف الخط الأصفر الذي عند النافذة، والويل لمن يتجاوز هذا الخط.

وعند استلام طعام أو دواء إياك أن تتعدى الخط الأصفر الأمامي، مناطق حظر داخل الزنزانة.



الغرفة الزهراء

- ستُطعّ الضفة ثم سيضطون سيضطرتهم من النيل إلى الفرات إن بقي حال الأمة لا يدرك حقيقة هذا العقل الذي يتجاوز كل الخطوط ويرسم خطه الأصفر.

« هذه بعض الشذرات الغائبة ذكرني بها الضمير الحاضر المستتر في هذه الزنزانة. »

كشفت الحرب عن ساقها في الشمال، ورمى سلاح الجوّ المجرم بكل قنابله الثقيلة، كما فعل في حادثة اغتيال سماحة السيد، ألقى بثلاثة وسبعين طناً من المتفجرات لاغتيال نائبه هاشم صفي الدين، وآلاف الطلعات الجوية على قرى الجنوب اللبناني ومع محاولات للتوغّل البرّي على الحدود الجنوبية والشرقية للبنان، صواريخ المقاومة لم تتوقف، كل يوم عشرات الصواريخ على مواقع عسكرية امتدت جنوباً إلى صغد وطبريا وحيفا، وكذلك الحرب على غزّة استمرت بشراستها في القتل والتدمير.

القيادة الإسرائيلية ظهرت منتشية بعد نجاحها في اغتيال أمين عام حزب الله حسن نصر الله، ظهر النتياهو يتبجح ويعد جمهوره بإعادة تشكيل الشرق الأوسط حسب السياسة الإسرائيلية.

في اليوم الفاتح من أكتوبر ردت إيران رداً صاعقاً على اغتيال قائد حركة حماس إسماعيل هنية واغتيال السيد حسن نصر الله بحوالي مائتين وثمانين صاروخاً باليستياً من النوع الضوط صوتي أصابت العمق الإسرائيلي واستهدفت مطارات وقواعد عسكرية هامة، تجاوزت كل المضادات الجوية الأمريكية والعربية والإسرائيلية ووصلت إلى أهدافها. فرح لها الناس كثيراً خاصة أهالي غزّة والضفة الغربية. في غزّة طاروا لها فرحاً وملاّت مواقع التواصل الاجتماعي مظاهر هذا الفرح، وفي الضفة استقبلوها بالزغاريد وهم على أسطح المنازل، الاحتلال حاول إخفاء الخسائر والتقليل من حجمها، الصور التي تسربت فضحت أمرهم وأظهرت نوعيّة الأهداف وعمقها في جسم الكيان.

على أبواب الذكرى الأولى ليوم السابع من أكتوبر بات الوجد والألم كبيراً لدى طرفي هذه الحرب، حسب تقديراتي وتقديرات من جمعتهم هذه الزنزانة في العصف الذهني للأمر: أنهم صاروا يألمون لا كما نألم بل أكثر مما نألم بكثير، والفارق أيضاً عن قدرتنا على تحمّل الألم أكثر من قدرتهم، بعد عصف ذهني طويل لخصّ علاء تقدير الموقف بما آلت إليه الأمور بعد عام من طوفان الأقصى كالآتي:

طوفان الأقصى والقضية الفلسطينية بعد مرور عام 19

جاء طوفان الأقصى ليكسر شرائع سفنهم ويخرج قطار التطبيع مع بعض الدول العربية عن سكّته، لم يكن مجرد عبور الحدود وتحطيم أسطورة الأمن وجبروت القوّة والعتاد، بل حمل القضية الفلسطينية من عالم النسيان ووضعها على محكّ هذه التحوّلات وحضر لها من جديد في الزمان والمكان، كان عبوراً عظيماً قوياً كاسحاً للقضية الفلسطينية لتعود لها الصدارة والأولوية ولتطرق على كل أبواب العالم ولتقول بقول فصيح: هناك شعب محتل، هناك احتلال يسلبه حقوقه المشروعة والمنصوص عليها دولياً، ودار صراع بين روايتين: رواية مشروع الاحتلال الذي يريد أن يبدأ الحكاية من يوم الطوفان وما جرى في ذلك اليوم من قبل حماس، ورواية فلسطينية تضع اليد على بداية القضية ومسببات هذا الطوفان.



الغرفة الزهراء

وانقسم العالم بين الروايتين، حيث أضححت الولايات المتحدة ومجموعة دول أوروبية هي التي مارست الاستعمار وما زالت تمارسه بطرق متعددة وهي راعية المشروع الصهيوني بعقدتها الصليبية المسيحية العنصرية الحاقدة، طوفان الأقصى كشف الوجه الحقيقي لهذا الغرب المتحالف مع المشروع الصهيوني وكشف منظومة القيم الإنسانية الكاذبة والكيل بمكيالين والانحياز التام بالمال والسلاح والموقف السياسي وتبني روايتهم بكل حذافيرها.

أما بقية العالم فقد أصبحت فلسطين والقضية الفلسطينية بروايتها الصحيحة حاضرة بقوة، وفقدت دولة الاحتلال بذلك رواية الضحية التي تستعطف بها العالم، بل أصبحت صورتها صورة الذي يقوم بحرب الإبادة الجماعية بحق الشعب الفلسطيني.

وبعد مرور سنة بإمكاننا رصد ما خسرتة دولة الاحتلال في هذا العدوان المتوحش على قطاع غزة والفلسطينيين بشكل عام في الضفة:

- هي أرادت أن ترمم الردع الذي كسره الطوفان وضربه في العمق، بعد مرور عام لم تصل إلى الأهداف التي حددتها في حرب ضروس، لقد كان الردع خلال العام في حالة من التراجع والتآكل، وبعد مرور عام انتهى الردع، كل ذلك يثبت أن ادعاء الردع الذي كانت تتبجح به قد انتهى وذهب إلى غير رجعة.

- خسر المشروع الصهيوني صورته الحضارية التي كان يدعيها وأنه واحة الديمقراطية في المنطقة وأنه الأجدر بتمثيل حقوق الإنسان التي يقيمها الغرب بأبهى صورها في الحضارة الإنسانية، وأنه الوكيل الوحيد لهذه القيم الغربية في منطقة متوحشة ومتخلفة ولا حظ لها من هذه القيم. هذا العدوان وهذه المجازر أثبتت بأنه الأسوأ أخلاقاً وقيماً ولا حظ له فيها أبداً، وتصدير صورة حضارية إنسانية مشرقة هي من أسس نجاح الدول وبقاء الحكم على قواعد الحق والعدل، لقد خسر كل هذا ونجح نجاحاً باهراً في تصدير أسوأ صورة تصنعها مجموعة بشرية لنفسها في هذا العصر.

- خسر المشروع الصهيوني قدرته على إيجاد المكان الآمن للهجرة اليهودية، ضاعت هذه البيئة وتبدلت إلى العكس تماماً مما يشجع الهجرة المعاكسة وهجرة رؤوس الأموال المستثمرة، ولا يخفى ما له من مردود سلبي على اقتصادهم وحياتهم الاجتماعية وبنيتهم النفسية.

- وهذا يقودنا إلى الحرب النفسية التي شكلها الطوفان سواء كان ذلك بضربته الأولى أو باستمرار حالة الاستنزاف النفسي الناتجة عن عدم توفر القدرة على إيجاد النصر الحاسم، وبقاء التهديدات في الجنوب والشمال بما يزيد من حالة التوتر والقلق وإمكانات الهزيمة النفسية.

- بداية تصدع في الجبهة المساندة للمشروع الصهيوني عالمياً وحتى في المعسكر الداعم تقليدياً خاصة ما شهدته الجامعات الأمريكية والأوروبية في إدانة حرب الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني. وما تبع ذلك من دعوات مقاطعة الجامعات لأي تعاون مع الجامعات العبرية.

- ما شكّلته إداة محكمة العدل الدولية ودعوة محكمة الجنايات وجرائمهم التي انتشرت عالمياً، بحيث أصبحوا محطّ احتقار واشمئزاز لما ارتكبتهم أيديهم بحق الشعب الفلسطيني، هذا كله أدى إلى تحوّلهم إلى وصمة عار في جبين البشرية.

- وهناك نقاط كثيرة يمكن الحديث فيها في مجال ما خسره المشروع الصهيوني خلال هذا العام ولكن نكتفي بهذه النقاط، للعودة ثانية في إمكانيات البناء على هذا الأمر تراكمياً، وكي نصل إلى سيناريوهات العمل لاستمرار الاستنزاف لهذا المشروع على جميع الصعد، فبالإضافة للاستنزاف العسكري في الوضع المقاوم الذي أصبح حاضراً على امتداد محور المقاومة سواء كان ذلك مفتوحاً أو مسانداً، فإن الأمر يتطلب أيضاً معركة الوعي كي تستمر ثقافة المقاومة في عطاها والعمل بكل متطلبات المعركة.

ولا بدّ من الانتباه لما فتحه الطوفان في معركة طوفان الوعي للاستمرار والمزيد من تعزيز ثقافة المقاومة وإدراك حقيقة التحدي، واضح أن المنطقة كانت تساق إلى ثقافة القطيع والسير في ركب التطبيع، فجاء الطوفان ليقب الطائلة على هذه الثقافة، بات المشروع الصهيوني أحد أركان ثلاثة تعزّز سلب العالم العربي من سيادته وكرامته وحرّيته والقدرة على تحقيق ذاته وهويته الثقافية الأصيلة، أما الركبان الآخرا فهما: الهيمنة الأمريكية والنظام العربي.

هذه الأركان الثلاثة التي ضربت المقاومة جدران خزانها بقوة في العقل العربي، لذلك فإن من أهم إنجازات طوفان الأقصى والذي اتضحت معالمه بشكل واضح بعد عام على مروره هو هذا التحدي الكبير أمام نهضة الأمة وتحرّرها، فلم تعد المسألة فقط فلسطينية أو محوراً مقاوماً يمتد من اليمن جنوباً إلى لبنان شمالاً، بل هو تحديّ أمة وضرورة خلاصها من مركب تخلفها وظهورها مكشوفة كمستعمرة للهيمنة الأمريكية والصهيونية، وأن ما كان يعدّ لها مما كان يسمّى ديانة إبراهيمية ما هو إلا إحكام السيطرة عليها، وبالتالي تعود القضية الفلسطينية كقضية مركزية للأمة، منها وإليها تكون البداية والانطلاق للتغيير الحقيقي الذي يخرج الأمة من هذه الهيمنة العاشمة وهذا الاستعمار الخبيث إلى حيث تحرّرها وفك عقدها. لقد بات طوفان الأقصى بعد عام عنوان حاسم وقاطع لتحقيق التحرر التام من هذه الأصنام الثلاثة: المشروع الصهيوني والهيمنة الأمريكية والنظام العربي المطبّع الفاسد.

وتقدير الموقف الصهيوني هو الإمعان في العدوان والسير خلف زعيمهم الننتياهو والادعاء بأنهم يحاربون على سبع جهات. (بينما محور المقاومة يتعرّض للعدوان السباعي: أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا ودول التطبيع العربي والكيان)، فهو الآن يستعد للردّ على الضربة الإيرانية وقد اتخذوا القرار ويبقى تنفيذها، سائرون بسنة التدافع (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)، الأمور تسير نحو المزيد من التصعيد، المقاومة تريدها حرب استنزاف، وأعداؤنا يعتبرون هذا الدعم الأمريكي والغربي فرصة لتحقيق نصر حاسم رغم فشلهم في تحقيقه على المقاومة المحاصرة في عزّة، كيف بهم وقد تحقّقت وحدة الساحات وقد دخلت المقاومة بكل أبعادها، هم يقامرون ويقودهم غرورهم إلى الجحيم ياذن الله، والله غالب على أمره.



الغرفة الزهراء

« تم تحويل هذا التقدير للموقف إلى كبسولة ساهم سائد بكتابتها بخط صغير لإيصالها للخارج، في نقطة الاتصال وجدوا رسالة من عبد الناصر قد وصلت من خلال الشاويش آدم الذي طال غيابه هذه المرة، ووجدوا رسالة لنائل من زوجته تخبره بالإفراج عنها ليغرق بدوره في بحر من المشاعر الجميلة يظهر على وجهه بكل وضوح»

لجأ إلى زاويته يقرأ ومن في الغرفة يقرؤون الرسالة في وجهه، وحتى علاء الذي لا يرى بعينه فتح عليه استشعاراته القلبية ليجد نفسه في مخيلة فسيحة يرى فيها روح وريحان هذه الرسالة، حتى إنه خطر في باله أن يطرح على نائل توقعات بصيرته في ما جاءت به الرسالة، إلا أن تواضعه فرمل هذا الجموح لبصيرته الثاقبة.

طبعاً نائل من جانبه سارع بزف الخبر فهتف مبتهجاً:

- خبر مُفرح يا أحباب، زوجتي تنتسم عبير الحرية من جديد. «عقبالكم».

« انهالت عليه التبريكات من كل صوب وحذب، تابع:»

- ولكن أخبار الأسيرات لا تسرّ، الإجراءات القاسية نفسها، عندنا وعندهم واحدة.

- العقلية نفسها، صهيونازية حاكمة. اعتداءات وحشية دائمة، أسوأها التفتيشات العارية على يد شرطيات ساديات لا يعرف لسانهنّ إلا سوء الشتم والسبّ بأسوأ ما تجود به عقولهنّ الفاسدة، ويستخدمون الكلاب المتوحشة في تفتيشاتهم اللعينة، خفض الرأس والشتم والركل والضرب هو ديدن الاستفراد بالأسيرة عند النقل أو زيارة المحامي والمحاكم، مثلنا تماماً، كلنا في الهمّ شرق.

« هتف نضال من معين روحه العميق:»

- البلاء كما يصقل الرجال يصقل النساء أيضاً، وكلما ازداد البلاء شدة ازداد الصقل متانة وقوة، والله سوف تُخرَج هذه المحن رجالاً عظاماً ونساءً عظيمات.

« علاء غازل نائل:»

- أبعدتنا عن جوهر الرسالة سيدي نائل، ماذا سكبت في روعك، الجانب الروحي من الرسالة إن سمحت؟

« ردّ نائل مازحاً:»

- هذه لا يدركها العميان أمثالك سيدي علاء.

« هتف سائد:»

- حسب معرفتي، العميان أكثر الناس إدراكاً لها.

الغرفة الزهراء

«عاد علاء للقول:»

- ماذا عن الجانب الروحي في الرسالة، قل قولاً فصيحاً ولا تتلعثم.

- أخشى على قلبك الصغير، ما جاء في الرسالة لأصحاب القلوب الكبيرة المحبة عميقاً والمحلقة عالياً، جناحك غضة طرية لا تقوى على التحليق في سماء ما دون هذه الرسالة بكثير.

- يا سلام؟

- وهل تستطيع شنارة أن تسابق صقراً في تحليقه.

- الله ستر ما قلت دجاجة، أصلح قليلاً أصلح الله حالك.

«هتف نضال مبتسماً:»

- بهذا سيدي نائل أطلقت العنان لخيالنا كي نرى رسالة تحلق في سمائها الصقور.

«استنفر علاء وهتف:

- إذا استخدم نضال خياله الأدبي فسيرسم لنا المشهد وكأنها هي الرسالة ذاتها.

«رد نضال:»

- الكاتب الذي يكتب من معين حبه أقوى ممّن يكتب من معين لغته.

- الله الله يا سيدي، هات ممّا يوجد به قلبك، فكما تعلم كلنا قلوب صاغية وبشغف أيضاً. ونهارنا الطويل ما زال في بدايته «هتف علاء»

- حسناً، سأحدثكم اليوم عن آية معشوقة لقلبي، اليوم شاغبت على بابها بقلبي الصغير وحاولت تسلق صورها عليّ أحظى برؤية شيء من سنا كنوزها.

- و (اهدنا الصراط المستقيم)

قصّتي مع هذه الآية الكريمة زمن الفتن والأهواء باختصار ..

بدأت يومي بسؤال قضّ مضجعي وحرقت سدول الليل وحال بينها وبين أن تطبق على عقلي وقلبي، هل أنت جاد بهذا الطلب يا نضال؟ قرابة خمسة عقود مضت من عمرك وأنت تلحّ بهذا الطلب، فهل تدرك كم هو مهم؟ ولماذا طلب منك خالقك وخالق السموات والأرض ومن بيده حاضرنا المؤقت الزائل ومستقبلك الأبدي الدائم، وما هي حقيقة هذا الطلب بكل أبعاده؟



الغرفة الزهراء

داهمتني عدّة أسئلة حول هذه الآية المذهلة التي جاءت وسط فاتحة الكتاب وهي واحدة من السبع المثاني التي امتدحها الله سبحانه: إليكم سادتي أسئلة داهمتني: عتبة الآية: اهدنا: هل الهداية نور في القلب يصلح الحال القلبي ويصوب المشاعر أم هو أيضاً فهم في العقل ورشد وصوابية وبصيرة وحكمة ورؤية تريك الحق حقاً والباطل باطلاً، وهل الهداية أيضاً سلوك وعمل صالح وعطاء وتضحية للفكرة التي سكنت عقلك والإيمان الذي وقر في قلبك، أم أن الهداية في الثلاثة مجتمعة. وكذلك ركز سؤال ربابته عند آخر حرفين منها: نا في اهدنا، إذن فالمسألة جماعية وليست تلعب وحدك وفي ملعبك الخاص، إنها ليست لعبة ولا ملعب، بل هي قيامة جماعية لآمة أنت أحد عناصرها الفاعلين في سيمفونية نهضة ونصر وتمكين.

وتتابعت الأسئلة: هل الهدف بسيط وسهل؟ هل هو عبارة عن ساندويتش على الطريق تتناوله وتمضي طريقك، أم أنه معقد صعب بعيد المنال، أم أنه واقعي ممكن لمن جد واجتهد واستعان برّبه الهادي ولكل من طرق بابيه وسأله الهداية بصدق وجد؟

هل أنت يا نضال جاد في أنك تريد تحقيق هذا الهدف وهل هو استراتيجي أم تكتيكي، شامل يؤخذ جملة واحدة أم يمكن أن تجزأه أو تمرحله أو تأخذ منه ما تطيق وتترك ما لا تطيق أم هو أصلاً يمكن أن يكلفنا الله أن نسأله ما لا نطيق في كتاب الهداية الذي أنزله علينا وهدى نبيه الذي أرسله لنا؟

أبو بكر رضي الله عنه صاحب الدعاء المعروف: (اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعلني أتبع الهوى فأضلّ) إذن هناك من يلتبس عليه الحق والباطل في الفهم ثم في التطبيق، يا لروعة الدقة... وارزقني اتباعه، معركة مع الفهم ثم معركة مع التطبيق في ميدان النفس. ويأتينا هذه الأيام من يقول لك هذا هو الحق ولا حق غيره ولا يميّز بين الدين وفهمه للدين الذي قد يصيب وقد يخطئ. لذلك طلب الله منك أيها العبد الفقير إلى هداية ربّه نضال، هذا السؤال الدائم والملح كي لا يذهب بك عقلك وأنت ترى نفسك أبا فهم بعيداً عن حقيقة الدين.

هل ما وصلت إليه من فهم للطريق الذي ينتج تحرير الأمة ونهضتها وتخليصها مما علقت فيه هو الهداية المطلوبة في هذا المجال المهم، هل وصل عقلك للحكمة السياسية المطلوبة هذه الأيام؟ أين أنت منها ومن فقه أولوياتها، وكيف تسير بك في درباتها؟

كم حققت في حياتك المديدة من أهداف في عالم الهداية؟ هل تقول لنفسك وتزكّيها بمقولتهم: « لم يكن بالإمكان أفضل مما كان» هل قطعت العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من عمرك وأنت على الهداية التامة بوصولك إلى هدف هذه الآية بكل دقة وإتقان؟ استثمرت في هذه العقود وقتك وجهدك وأنت تطلب الهداية بصدق وجد؟

وحاضرنا اليوم وخاصة عندما تدلهم الأمور وتختلط الرؤى والأحزاب في عالم السياسة ومصائر الشعوب والحكام وبالأخص قضيتنا الفلسطينية، هل ما تراه وتشغل نفسك به هو على الصراط المستقيم؟



اصدق القول يا نضال، وانتبه إلى أن هذه الآية تحتاج إلى أن تصدق التعامل معها وعندما تنطلق من لسانك في الصلاة وتمرّ بها مرور الكرام، عليك أن تعيد الكثرة وتتساءل بالفعل: هل أنت مع قلة السالكين الصادقين أم أنك مع الكثرة الهالكة لا سمح الله.

وجدت نفسي أغرق في أسئلة تجوب بي عالم هذه الآية الكريمة. تنفست الصعداء لأن التوجّه مباشر لربّ هاد بلا حدود، ورحمن رحيم حفيظ ستار لطيف وقريب وودود بل هو بالناس لرؤوف رحيم، فكيف بمن يتوجّهون له بقلوب خاشعة صادقة؟ نسأل الله أن نكون منهم.

المهم يا نضال إياك ثمّ إياك أن ترى نفسك هادياً مهدياً وتعجب بما أنت عليه، بل كن دائماً طالباً للهداية راجياً خائفاً محسناً للظنّ بربّك. وإياك أن تحقرّ غيرك مهما كان على درجة من الهداية إلا من ضرب برأيه أصولاً في الدين واضحة البيان أو ضرب وحدة الأمة واتفاقها والتقى بخطابه مع خطاب أعدائها، ولا تنس دعاء أبي بكر رضي الله عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه.... الخ.

« كان أول الملقين هذه المرّة سائد: »

- لأوّل مرّة في حياتي أقف على ما تحمله هذه الآية الكريمة.

« ردّ نائل: »

- أنت لم تر سيدي نضال وهو يجوب بعينيه آخر تأملاته في وجوهنا، لو ترك لها المجال لما توقّف في المساء، يحدثنا وهو خائف السأمة منّا.

« عبد الرحيم علّق كعادته ممتعّضاً وساخراً »

- حملت الآية ما لا تطيق وشطحت بعيداً عن جوهر الآية ومقصدها الصريح. هذا تفكير غنوصي باطني يبعد الآيات عن مرادها الصحيح.

« أراد أن يردّ عليه سائد، فسبّقه نائل وهتف مع ابتسامه ساخرة: »

- أعجبتني هذه كلمة غنوصي، من وين جبتها، غنوصي قال؟! »

« ردّ عبد الرحيم بغضب: »

- يعني تفسير باطني يبعد النص عن معناه الظاهري.

- «وايش يعني باطني؟ مش تخصّص جراحة ولا توليد ولا أورام سرطانية». »

« توقّف نائل قليلاً، ثمّ وجّه سؤالاً بعيداً عمّا هم فيه: »



الغرفة الزهراء

- جاءتني فكرة يا شباب أحسن فيها أدائي الرومانسي، بصراحة رسائلي كمحتوى ومن غير فشخرة رائعة ولا كل الأدب العربي في مثلها.

« علق علاء: »

- « هذا من غير فشخرة كيف لو بفشخرة؟ »

- « دشرني منك، ومن قلّة ما يصلحك، المهم فيها خلل واحد أريد من يساعدني فيه، تعلمون، أنا خطّي سنسكريتي. »

« أجابه علاء: »

- ممكن نسأل عبد الرحيم... أكيد خطّه حلو.

- « أجاب عبد الرحيم على الفور: »

- « من غير فشخرة... كثير حلو. »

« وقف نائل، هيّا بنا يا صديقي. وأخذة خطوتين إلى الزاوية الخلفية التي لا ترى من فتحة الباب من قبل شرطة السجن إلا بصعوبة، استلّ ورقة وقلماً وجعل يملئ عليه من جملة الرومانسيّة وعبد الرحيم يكتب، بعد عدّة سطور، تناولها نائل منه ثم أخرج رسالة من صدره من التي قبضوا عليها من نقطة الاتصال، الخط ذاته، ثم سأله ووجهه قطعة من لهب:

- أليس هذا خطك؟

« في اللحظة ذاتها كان علاء ونضال وسائد يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم ووجوههم قطعة من غضب لم يعهده عليهم من قبل، كانت خطة انتقلوا فيها من تشغيله غير المباشر بنقل ما يودون نقله لشغلّه ضابط أمن السجن كما أسلفنا من قبل، إلى كشفه وإخراج ما في بطنه بعد رسالة قبضوا عليها من قبل مشغلّه يخبره بقرب الإفراج عنه لمهمة كبيرة وعلى مستوى عال خارج السجن بعد أن عرف كيف تفكر القادة في هذه الزنزانة. بات الأمر لا يحتمل التأجيل والموضوع يستحق التضحية ولو أدى ذلك إلى تشتيتهم في السجن وإنزال أشد العقوبات بهم، المهم أن يكشف أمر هذا الجاسوس الذي يجري إعداده بشكل كبير، ولولا يقظة هؤلاء وخبرتهم ولطف المولى قبل كل شيء لكانوا جزءاً من عملية التأهيل بطريقة غير مباشرة، يشغلونهم وفق أهدافهم ولكن أسرارنا شغلّوه ثم كشفوا أمره وهتكوا سرّه، حرب أدمغة حتى في داخل زنزانة لا تتوقف أبداً. »

« أسقط في يده، امتنع لونه وأصبح أسود مردياً، ابتلع ريقه وحاول أن يصرخ بصوت عالٍ منكرًا أن هذا خطّه، لقمه نائل بمنشفة زرعهما بسرعة خاطفة بين فكّيه وهمس بأذنه:

- كلنا مؤبدات يا واطي، سنقتلك، رأس مالها مؤبد إضافي، سنريح الأرض من رائحتك النتنة، ولك إلنا



الغرفة الزهراء

ثلاثة شهور متحمّلين نتنك وقاذورات فمك وتطاولاتك ومهاتراتك التي تضرب بها معنويات المقاومة، وتضرب كل القيم الحرّة، والضرب على وتر الفرقة وهزيمة الروح والإحباط... والأدهى والأمرّ استخدامك للدين، يا واطي أنت تدرس في الجامعة الإسلامية بتل أبيب وليس القدس كما كذبت علينا، المهم كل هذا لم نعمده، اعتمدنا الدليل الساطع، رسالة بخط يدك ولا تحتاج إلى تحليل خطوط، نسوا أن يدربوك أن تكتب بخطّين، السّفلة؟

«وهمس بأذنه نضال:»

- نحن نفتح لك باب التوبة، ما دمت في بداية الطريق، ويا دار ما دخلك شرّ، أنت الآن أمامك فرصة وقعت بين يدي قدماء أصحاب خبرات وحريصين على إنقاذك، لو وقعت بين يدي شباب لصرت على كل لسان قبل أن يحقّقوا معك، نحن هنا تهمننا التوبة ولا تهمننا الفضيحة.

«هزّ رأسه منكراً ما يقولون، قفز عليه سائد من موقعه في حراسة الباب إلى فوق رأسه وأراد أن يبطش به، وقف نائل أمامه بقوة، هتف سائد:

- دعوني أقتله وأنا أحمل قضيتّه أمام الإدارة، هذا شرف لا أنساه لكم.

«همر عليه نائل بقوة وحزم:»

- ارجع للباب إن سمحت وانتبه جيداً.

«وهمس بأذنه علاء:»

- أنا أضمن ألا يمسك أحد بسوء، فقط قرّر التوبة وبيقى أمرك بالسرّ والكتمان، أنت من أسرة كريمة، ستضع رأسها في الأرض إلى يوم الدين إن صدر بيان عمالة وتشهير، أنت على مفترق طرق وأمامك فرصة ذهبية، التوبة وشرف الدنيا والآخرة أو سواد الوجه لك ولأهلك ودمار مستقبلك الأبدي في الآخرة.

«هزّ رأسه كعلامة للقبول والموافقة على كلام علاء، رفع نائل عن فمه المثشفة وهمس:»

- اتفقنا، أنت أخ كريم لن يضيرك شيء، لنجلس معاً نتابع نقاشنا أنا وأنت، يا الله يا شباب إذا سمحتم، الله يعطيكم العافية.

«سهر ليسمع منه القصّة كاملة، قصّة ارتباطه، كيف حدثت، من اسم الضابط الذي ربطه إلى المهام التي قام بها، وكيف رشّحوه منذ ثلاث سنوات ليدرس الشريعة الإسلامية في جامعتهم في تل أبيب، ويتدرّب على الخطابة والدعوة إلى الإسلام، وكيف كان يمارس نشاطه على مواقع التواصل الاجتماعي ويمثّل عدة أدوار كان منها إثارة الفتن والفرقة وتعميق أسباب النزاع الداخلي، فصائل وأحزاب وعشائر، واشتغل طويلاً على موضوع السنّة والشريعة... الخ، نائل كان يسجّل على ورقة صغيرة معه بعض النقاط الهامة، لو كان الوضع طبيعياً لأعطي دفتراً ليكتب فيه كل شيء بالتفاصيل المملّة، لم يشعر نائل بأنه يعترف



الغرفة الزهراء

بصدق، ولكن قبل منه على أن يستكمل بالإجابة عن الأسئلة التي يوجهها له في اليوم التالي، مع تبشير الفجر قاموا صلوا صلاة الفجر خلف إمامهم نضال ليرتمي بعدها كل منهم على «برشه» إلى أن ينعقوا عبر سماعات الصوت للعدد الصباحي.

دخلت جوقة العدد مع تفزيع الصوت المعهود وسلسلة الشتائم التي تتفتق عنها عقولهم، دعموا الزنزانة الزهراء، ينزاح الأسرى ويحشرون أنفسهم خلف الخط الأصفر القريب من النافذة، مع إدارة الظهر إلى الخلف والجثي على الركب، صاروا في المساحة الصغيرة الفاصلة والمتبقية بين الخطين، بسرعة خاطفة ألقى عبد الرحيم بنفسه بين أيديهم وطلب الحماية، سحبه معهم وانصرفوا.

إذن اتخذ قراره الأخير بالإصرار على طريقه معهم، نجح في خداعهم بإظهار توبته إلى أن يحين الصباح ثم يسلم نفسه للمحتل قبّحه الله، بمصطلح السجون يُقال له «عصفر» أي طار كالعصفور ورمى بنفسه في أحضانهم.

« هتف سائد:»

- قلت لكم دعوني أقتله، مثل هذا لا يتوب.

« ضرب نائل على رأسه وهتف من قعر صدره:»

- لقد خدعنا لعنة الله عليه، «عمره ذنب الكلب ما بصح.»

« وهتف علاء:»

- عملنا قصارى جهدنا لإنقاذه، لا تنس أننا مع الرحمة ولا تكون القسوة إلا لضرورة لا مفر منها.

«وهتف نضال بحزن ومرارة:»

- هؤلاء قست قلوبهم منذ فترة طويلة وصارت غلف كبني إسرائيل، يعملون لهم غسيل عقول وقلوب.

« تساءل سائد:»

- كيف يقدم الواحد منهم الجحيم على الجنة، جحيم الدنيا والآخرة، أن يعيش حقيراً ندلاً عدواً لشعبه، الله أكبر مع من يرتكب المجازر ويقتل الأطفال والنساء صباح مساء، إلى أي درك وصل؟

« أجب نائل:»

- إلى الدرك الأسفل من النار، على مر التاريخ وفي كل الأمم هناك من يخون شعبه، ولا يصل إلى هذه الحال إلا أصحاب النفوس الدنيئة، في داخلها خراب كبير يتسع ويكبر حتى تصبح جاهزة للارتداء في أحضان الذئاب.



الغرفة الزهراء

« هتف علاء: »

- المهم جهّزوا حالكم لحملة قمع ونقل وتنكيل لم يسبق لها مثيل.

« ردّ نائل: »

- « اسجع على راحتك، الله يسعدك يا جميل، والله سجن أبو زعبل ما يردّ راسك أنت وهذا الشيخ النبيل.
من تحت راس ذاك الحقيير. »

« خيّم في الزنزانة طيلة النهار كأبة قاسية وحالة من الترقّب لما هوآت، غرق نضال في أفكاره وأناخ
علاء في مناجاة بناته كما هو معروف عند صمته الطويل مع مواقع التواصل الافتراضية التي ابتدعها
لنفسه، ونائل يقصّ قصص هذا اللئيم على معشوقته ويحاول استمطار رأيها وشدّ أزرها مما يرشح به
قلبها الجميل. »



(١٥) استشهاد فارس الطوفان

اشتد أوار الحرب على الجبهات الثلاث، كان آخرها في غزة، حيث شهدت كميناً مركباً من رتل من آليات الاحتلال، دمر ناقلة جند وسيارة جيب عسكري «همر» بقذائف الياسين ١٠٥ ثم هجموا على من نجا منهم بمدافعهم الرشاشة، من هرب منهم احتوى ببيت فلقموه قذيفة خسفت بهم البيت، لم ينسحب المجاهدون، كمنوا في المكان حتى إذا وصلت سيارات الإنقاذ قصفوهم بقوة تركتهم قتلى وجرحى كالعصف المأكول.

في تلك الأثناء صبّ جيش الاحتلال جام غضبه على المدنيين، هذا الجيش المأزوم الذي قالوا عنه إنه يجيد القتل ولا يجيد القتال، يحاصر شمال القطاع ويقصف جواً وبراً وبحراً، عاث في غزة خراباً ودماراً لا مثيل له ودونها ما جرى في الحروب العالمية.

في لبنان كذلك الجيش الإسرائيلي منذ ثلاثة أسابيع، بأربع فرق على تخوم الحدود كلما تقدّمت قوة ضربت بالصواريخ والنار، وجرت عدة محاولات تسلل عادت أدراجها وهي تحمل قتلاها وجرحاها، انتشر مصطلح يدخلون لبنان أفقياً فيخرجون عمودياً، يعني محمّلين جرحى في الطائرات العمودية. الإعلام الإسرائيلي يخضع لرقابة صارمة ولا يتحدث عن قتلاه إلا قليلاً لذر الرماد في العيون. وكلما خسر في الميدان ذهب لقصف الحياة المدنية للحاضنة الشعبية للمقاومة، يدمر الضاحية الجنوبية في بيروت وقرى الجنوب والبقاع اللبناني كما فعل في غزة. الناس هناك أيضاً صابرون صامدون قلباً وقالباً كالجسد الواحد مع المقاومة مهما بلغت التضحيات.

شمال الضفة يحافظ على اشتعال المقاومة ومشتبك على طول مع الجيش الإسرائيلي رغم التفاوت المذهل بالإمكانات والاستعدادات للمعارك التي تنشب هناك.

في الداخل الفلسطيني المحتلّ هناك عمليات نوعية بين الحين والآخر، وقد صنّفها الإعلام الإسرائيلي بالجبهة الثامنة، كان يدّعي بأنه يقاتل على سبع جبهات فأصبحت ثماني جبهات. هو يتشدّق ويعدّد من الجبهات ما يحلو له، أما الشعب الفلسطيني فإنه أيضاً يواجه العدوان السباعي.

.....

أما رسالة عبد الناصر وتداعياتها الفكرية للحرب، بحيث يقوم طوفان الأقصى بدوره في ميدان الفكر كما قام بدوره في ميدان الجهاد، فكانت مناقشتها بين الثلاثة: علاء ونائل ونضال. واقترح نضال على الراوي أن تختم الرواية بها، وكخاتمة أيضاً لسنة من العدوان. نعود لرسالة عبد الناصر بملخصها الذي قام به علاء:

- كشفت هذه المعركة عن حالة من التخلّف الفكري الذي تعيشه الأمة في زمن هزيمتها أمام المشروع الصهيوني أو المشروع الغربي في بلادنا، وحيث واقع الدول العربية على العموم هو واقع الاستعمار المباشر من خلال القواعد العسكرية والهيمنة على القرار السياسي والاقتصادي، ونحتاج لذلك نهضة فكرية قادرة على إنتاج مجتمعات ترفض التبعية والخضوع لأعدائها وتسعى لتحقيق حريتها وسيادتها وخلاصها.

- ثقافة المجتمعات العربية فيها ثغرات كثيرة أدت إلى خور هذه المجتمعات وتقاعسها أمام واجبها اتجاه قضيتها المركزية فلسطين (وليس فقط مع فلسطين وإنما ووقوفها مع ذاتها ونهضتها) وعدم القدرة على الانفلات من قبضة حكامها الذين يصادرون حريتها وخياراتها.

- بالتحديد الثقافة الدينية أيضاً لا تنتج ما هو متوقع من الدين أن ينتجه، فهناك دين ينتج ثورة كما هو النموذج اليمني واللبناني، وهناك دين ينتج كل شيء إلا الثورة كما هي الحال في دول العربية والإسلامية على العموم، لماذا هذا التباين الشاسع؟ وما هو المطلوب حتى تكون الثقافة الدينية منتجة لكل مقاصدها الشريفة. مصيبة كبرى من مصائب هذا الواقع العربي أن لا تحرّك هذه الثقافة الدينية وأن تكتفي بسقف الأنظمة التي قادت شعوبها من فشل إلى فشل.

- وحدة المساحات التي جسدها محور المقاومة: ينبغي أن تدرك الأمة حقيقة وحدتها وأن تشتيت جهدها من خلال العبث المذهبي بين سنة وشيعة ما هو إلا مظهر للسياسات الاستعمارية ولا بد من الحكمة أو ما عبّر عنه البعض بالذكاء السياقي في الاستثمار في وحدة الأمة والبحث عن المساحات المشتركة التي تجتمع عليها الأمة فتزداد قوة ومنعة بدل أن تزداد فرقة وهواناً واستثماراً لأعدائنا في فرقتنا.

- تحرير الخطاب سواء كان محلياً أو تصديره عالمياً، يجب أن يعاد ترتيب أولويات هذا الخطاب ولتعطى هذه القيم مكانها المناسب: الحرية، المقاومة، الكرامة، العدالة، السيادة والحقوق الثابتة والقيم الإنسانية والتي كشفت زيف القيم الإنسانية التي يدّعي الغرب تصديرها للبشرية، وإذا بأصحابها يدعمون الصهيونازية المتوحّشة بكل صلف وابتدال.

ومن التوصيات أن يعمل على كل محور من هذه المحاور من أهل الفكر والاختصاص لتحوّل إلى خطط وبرامج، تربية وبناء للذات المقاومة المناهضة للسياسات الاستعمارية، وحركة وسعي لتحقيق الذات (كأمة) حرّة ذات استقلال حقيقي وسيادة كاملة.

نضال من جانبه قدّم قراءته قراءة إيمانية بالمختصر المفيد السريع:

- لله الحكمة البالغة، وهو سبحانه بالغ أمره لا محالة، وله عاقبة الأمور، ومن سننه: إنه لا يفلح الظالمون، وهو يملي للظالم حتى إذا أخذ لم يفلته، ومن سنّته استدراج الظالمين لمصيرهم المحتوم: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين»، فأبشروا وأمّلوا فما عند الله هو الخير كله، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، بعد كل هذه التضحيات سجد الله لهم بالمرصاد وسنجدنا لنا بالنصر



والتمكين والرحمات طال الأمر أم قصر (إن الحكم إلا لله).

« هتف نائل: »

- ألا يوجد قصة في جعبتك بعد هذا الشوط الفكري، لا بد من ترطيب الأجواء بجمل روحك الأدبية:

- نعم لدي قصة فيها بعض الكوميديا السوداء.

- « سوداء وآل بيضاء، هات تنشوف».

- القصة بعنوان: قتلوا حماري ونيس.

وقفت على مكان دفنه، حتى إنه لم يحظ بقبر أو شاهد رغم ما قدم من أعمال عظيمة وجيليلة في هذه الحرب المدمرة، ذرفت عيناى وانشق قلبي وأنا أستذكر أيامى التي رافقتني بها، خادمًا أمينًا مطيعًا مخلصًا متحملاً مصاعب لا يعلمها إلا الله، حتى إنى سميت من عظمة أنسى به «ونيس»، ولا غرابة ألا يكون لمدفنه عنوان بارز؛ فكثير من البشر لم يحظوا بقبر في ظل هذه الحرب، فقدت آثارهم تحت الأنقاض أو ذُويت القنابل ذات الالفي رطل أجسادهم فتناثرت وذرتها رياح الصهيونازية المقيتة، فلا غرابة إذن ألا يحظى حماري «ونيس» بقبر.

لم يكن لي مجرد خادم يحمل متاعى ويساعدني في النزوح من مكان لآخر، صحيح أنه كان كلما اقترب القصف من رحالنا يسارع فيقف طائعا أمام العربة، نحمل ما تيسر ثم ينطلق بنا هائما على وجهه إلى حيث يريد، فهو أعرف منا بالطرق السهلة وكل الطرق تؤدي إلى ذات النتيجة، خيمة على قارعة الطريق.

وكان يسرّ جداً ويبتهج عندما نخرج سوياً للبحث عن الخشب والحطب، لم تكن العلاقة بينى وبينه علاقة سيد وعبد ولا احتلال ومحتل ولا علاقة مدير وموظف ولا حتى إنسان وحمار، بل نشأت بينى وبينه صداقة حميمة، أشعر بألمه ويشعر بألمى، أعذره ويعذرني خاصة عندما يشح الماء والطعام فأطوي ليلتي جائعا عطشا وهو كذلك، لا يلومني ولا ألومه ولا يعاتبني ولا أعاتبه، ولا أخاصمه ولا يخاصمني، ولا أغضب منه ولا يغضب منى ولا حتى أعبس في وجهه، وهو كذلك دائما يبش في وجهى ويسرّه لقائى وينقبض عندما أغادر وحدى وأتركه حارساً لخيمتى.

وكان أيضاً سبباً من أسباب رزقى؛ إذ أنقل للناس متاعهم مقابل مبلغ زهيد يسترعى وأستر منه عليه من طعام وشراب، وكان من يملك حماراً وعربة في أيام الحرب كمن يملك مرسيديس في غيرها من أيام. وكم من مرة تعرضنا للمخاطر فننجو معاً، كنت أقول في نفسى، مصيري مرتبط بمصير صديقى «ونيس» فإما أن نموت معاً أو نكمل مشوار الحياة معاً.

تعبني جداً نخوته وشهامته واستعداده التام طواعية أن يربط مصيره بمصيري، رغم أنهم إن أرادوا بنا القتل فحتماً يستهدفونى ويتركون الحمار، فلا مصلحة لهم بقتل الحمار بينما الإنسان الغزى



الغرفة الزهراء

الفلسطيني الحرّ هو مرادهم ومحل استهداف لأحقادهم. أمّا أن يختاروا إغاطتي وزرع ألم دائم في قلبي بقتل حماري دوني فهذا أمر عجيب، لقد فعلوها إذ كانت تسليتهم ظهيرة يوم قائل وهو يسلطون نيران قناصهم على حماري.

لا بدّ وأنهم تناجوا: « لننظر إلى هذا الرجل كيف تصبح حياته دون حمار، هؤلاء الناس ولدوا مع الحمير من الرحم ذاتها، توأمين متماثلين، لنقتل أحدهما ونعذب الآخر بإبقائه دون قرينه، نقتل الحمار ونترك هذا الحيوان البشري لينقل الحطب على ظهره بدل ظهر الحمار، صوبوا رصاصهم على قلب حماري ليردوه قتيلاً مضرّجاً بدماؤه، انقلبت العربة ووقع الحطب وسارع حماري بلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يودّع هذه الحياة، أشاح بعينيه عنهم، لا يريد أن يلوّث قلبه الجميل بصورتهم، نظر إلي مشفقاً، مودعاً، متلوّعاً على فراقي، أسبل عينيه وهي تقول: « لا تحزن إنّ الله معكم أهل غزة الكرام فما وجدنا منكم إلا خيراً، بينما الشرّ والشرّ كله عند أعدائكم الذين لم يسلم من شرهم شيء في هذه الحياة.»

كنت أنظر في وجهه وأستغرب وأتساءل: لم اختار (علي شريعتي) عنواناً لكتابه المتخصّص في مقاومة السياسات الاستعمارية: « النباهة والاستحمار» أو أنه لم يك يتوقع أن تصل الحال العربية إلى ما وصلت إليه هذه الأيام، ها هو ذا حماري صاحب نخوة وشهامة لم يصلها الموقف العربي الرسمي وغير الرسمي، هل نقلوا إلينا المساعدات والحطب؟ هل تمكّنوا من أن يقدّموا لنا كما قدّم هذا الحمار؟ معذرة، ليس للعرب وإنما للحمار، معذرة أن سمى شريعتي حالة البلادة والتقايس والاستهبال والاستغباء والسير في ركب الأعداء والاستجابة المطلقة للسياسات الاستعمارية بالاستحمار!

ماذا فعل العرب ومن لفّ حولهم من دول الإسلام وعلوم الكلام، بعضهم يشجب ويستنكر ويصرّح، كلام ناري فيه كثير من فنون التمثيل والمظهرة والمسخرة والنفاق، دون أي فعل يصل إلى عُشر ما يفعل هذا الحمار العظيم، هذا الحمار يعمل بصمت دون شجب أو استنكار، لقد أصبح سيدي يا شريعتي، منهم من وجّه شجبه واستنكاره المعتاد هذه المرّة نحو المقاومة وفعالها العظيم بدل الاحتلال، لم يكتف بدور دون دور الحمار ولا بدور الحمار وإنما ذهب في حالة استحمارية عجيبة، يستحمر شعبه وهو مُستحمر لغيره، لمن ثبّته على عرشه ووضع ناطوراً على شعبه.

همس حماري بأدب جمّ وهو يقرأ أفكاره بذكاء فدّ:

- إنك صديقي تخطئ مثلهم، ها أنت تصف الحكام والشعوب التي لم تقم بدورها بأنها مستحمرّة، نحتّ لهم وصفاً من اسمي، ألا تتقي الله في معاشر الحمير أيها الحبيب؟ لولا علمي بأن ضميرك حيّ لتركك في غيبيّك تعمه ولا تبصر حقائق الأمور.

- معذرة صديقي، في عصر البلادة وفقدان الشعور الإنساني النبيل تختلط علينا المفاهيم.

- إنّي أحذرك صديقي أن تعود لهذا الوصف مرة ثانية، هل سمعت حماراً يشتق من اسمك ما يصلح شتيمة ومسبة، رغم أنكم تظلمون ولا نظلم، تجرمون ولا نجرم، بل ترتكبون المجازر والإبادة الجماعية



الغرفة الزهراء

كما يفعل هؤلاء الصهاينة، ومع هذا لم نرم أحدنا بوصف مشتق من اسمكم، أتدري لماذا؟

- لماذا يا سيدي؟

- لأننا نترفع عن أن نفعل فعلكم.

- لم أكن أعلم أنك حمار وفيلسوف، قل لي: فلماذا كرمنا الله وقال عنا: « ولقد كرمنا بني آدم »؟

- سمعتك ذات يوم وأنت تقراء: (ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات). ألا ترى هذا الإنسان المحتل وهو يفعل بكم ما يفعل قد انحط إلى أسفل سافلين؟ فقط من آمن وعمل صالحاً هو المكرم عند رب العالمين.

« انتفض قلبي وارتعشت كل أركاني وقلت منبهراً:»

- الله الله ، كل هذه الحكمة من حمار، أنت عالم أنت حكيم أنت فيلسوف.

- مرة أخرى تخطئ صديقي، أنا لا أخجل من أن الله خلقني حمار. على هذا الإنسان الذي يرتكب المجازر ويدمر الحياة أن يخجل، على البشرية الصامته على هذه الإبادة أن تخجل، على إخوانكم العرب والمسلمين المتفرجين على نزيف دماء نساءكم وأطفالكم أن يخجلوا، على الذين ألفوا المشهد ولم يحركوا ساكناً منذ أحد عشر شهراً من المجزرة أن يخجلوا، هؤلاء كلهم يوم القيامة سيقولون: ليتني كنت حماراً.

لقد تعلمت كثيراً من حماري، أصبحت أرى من خلاله مفارقات مذهلة، كم هو متفان ومُضحٍّ ومعطاء، كم هو يعطي دون من ولا أذى، لا يتفاخر ولا يزهو على غيره ولا يرى له فضلاً على أحد، لا يملك إعلاماً يقلب الحقائق ويزين الباطل ويسخف الحق، لا يتابع القنوات العربية ولا كذب العرب فالحقائق يراها بأم عينه، لا يحتاج إلى شاشات وإعلام كاذب، لا يستخدم ما يسميه البشر مواقع التواصل ولا يرى أن يذهب وقته سدى وهو يتابع التيك توك والفييس والواتس والانستغرام وأخواتها وهي تعرض التافهين وما أبدعوا في عالم التفاهة، الأمور عنده بيّنة وواضحة لا لبس فيها، لماذا؟ لأنه على الفطرة التي فطره الله عليها، حافظ على فطرته بينما بنوا البشر لوثوا فطرتهم، جحدوا وطغوا واستكبروا، قتلوا وسفكوا الدماء ودمروا الحياة وأفسدوا البر والبحر، استخدموا العقل الذي ميزهم الله به أبشع استخدام، أبدع عقلهم في صناعة أدوات الموت والقهر من طائرات ومسيرات ودبابات وبوارج وغواصات، الصواريخ والقنابل وكل الساحقات الماحقات، الحمير لم تفكر لحظة واحدة ولم يذهب خيالها أبداً إلى مثقال ذرة من هذا الإجرام.

وأنا أقف على ما حظيت به حماري (ونيس) من مكان دُفنت فيه، أستذكر روحك الجميلة ومكانتك العظيمة في هذه الحياة، هؤلاء الذين يلبسون البدلات ويقفون أمام الكاميرات ويطلقون أعظم الشعارات وهم غارقون في دماء الأبرياء أحسن منك حماري العزيز؟ لا والله ولو بشعرة من رموش عينيك الجميلتين، لا والله ولو بنبضة من نبضات قلبك العامر بمشاعر الأنقياء.



الغرفة الزهراء

أذكرك جيداً عندما كنا نغذّي السير نازحين هرباً من لهيب الصواريخ التي لاحقت النازحين وقصفت خيامهم البلاستيكية، تناثر المكان بين الشظايا ونيران الخيام وأشلاء الأبرياء، أطفال تطايرت رؤوسهم وتقطعت أجسادهم، لهيب الصواريخ ذات السبعة آلاف درجة مئوية وصلتنا ونحن هاربون، لم أعد أرى شيئاً من ضخامة الغبار، وقعت أرضاً عن العربة والدماء تنزف من ساقيّ غزيرة، غامت الحياة في عينيّ وغبت عن المشهد ما لا أعلم من الوقت، أفقت وإذا بحماري ونيس يقف جوارى، عاد الناس يتفقدون جرحاهم وقتلاهم، وجدوني وفي رفق من حياة، حملوني على العربة وطار بي حماري في طريق سدّه بنفسه، يعرف طريق المشفى من كثرة ما نقلنا إليه سابقاً.

نجوت وعدت إلى صديقي نتقاسم شظف الحياة من جديد، أنا الباقي من عائلتي لم يعد لي في الحياة سوى حماري ولم يعد لي أنس إلا بونيس، ما لهم اليوم يحلو لهم قتله، يتقنون فنّ زراعة الأثم، لم أكن أتوقّع بقية حياتي دونه، لبتني غادرت هذه الحياة معه، ولكنّها حكمة الله التي جعلت لكل نفس أجلاً.

هتف نائل:

- بالفعل غاب أديبنا وجاب.

- يا لها من قصة رائعة!

- أحسن ما سمعت.

- قصة من الآخر.

- رمزيتها عالية وسهلة وواضحة.

«رد عليهم نضال بامتنان عال، وهو يرى شيئاً من أثر أدبه الجميل:»

- لا تبالغوا إخواني، هي مجرد قصة عادية مما يفتح الله على قرائه.

توقف الراوي في سرديته عند هذا الحد وهتف:

أود أن أخبركم عن شهر أكتوبر الأسود على الاحتلال، في السابع من أكتوبر العام الماضي فاض الطوفان حيث خرت كل المعتقدات والمقولات الأمنية عن قوة الاحتلال تحت أقدام المجاهدين، وبدا أنه بالفعل كما قيل «أوهن من بيت العنكبوت»، سنة كاملة مضت وهم يحاولون أن يلبسوا خيوط العنكبوت فولاداً من قلوبهم القاسية ولم يفلحوا لغاية الآن، فقط كما أسلفت لكم أفلحوا بقتل الأطفال والنساء والتدمير، لا شك بأنهم أصابوا من المجاهدين والمجاهدين أصابوا منهم، ولكن ممّا يعظم صبر المجاهدين وناسهم اعتقادهم أن قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار، لذلك فإن صبرنا أعظم من صبرهم وجلدنا أقوى من جلدهم، وممّا لا شك فيه أنه لم يعل هبل، بل الله أعلى وأجل وهو وحده الذي يداول الأيام بين الناس.



الغرفة الزهراء

أما عن حصاد أكتوبر هذا العام فإنه يذكرهم بأكتوبر الماضي وسواده عليهم، بعد سنة لم يفلحوا بتغيير لون هذا الشهر الفضيل من السواد إلى البياض، شهر كامل في معركتهم البرية على لبنان والتي يسمونها مناورة، إن حققوا انتصاراً صارت أم المعارك، وإن لم يفلحوا كما هي الحال اليوم كان اسمها مناورة من السهل أن يتراجعوا وينزلوا عن الشجرة، معارك طاحنة على مدار شهر لاحتلال مجموعة قرى حدودية، حشدوا خمس فرق بألياتهم ودباباتهم العملاقة وطيرانهم المسير والعاذي، بقوا على الحافة الحدودية، كلما حاولوا التسلل تناوشتهم صواريخ حزب الله وقاذفاته من نوع «الكورنيت والماس والآربي جي»، وكانوا على مرمى حزب الله بأربع جهات، الخطوط الامامية والتحشيدات الخلفية وقواعد الانطلاق العسكرية وأهداف بعيدة المدى في العمق الصهيوني المحتل.

ظنوا في بداية الأمر أن الاغتيالات التي مكنتهم من قيادات وازنة في حزب الله وعلى رأسهم الأمين العام ستجعل الحزب ينهار، وإذا به يستعيد عافيته بسرعة ويديقهم الأمرين في الميدان، الطائرات العمودية المتخصصة عندهم في نقل القتلى والجرحى لا تتوقف، كل يوم يعترفون بسقوط عدة ضباط وجنود، لا يتحدثون عن الإصابات إلا المأماً، والأسماء التي تعلن أسماء يهودية، وهذا يعني أن أسماء المرتزقة والأسماء العربية من الذين يحاربون معهم لا يُذكرون، عشرات الدبابات بمن فيها دُمّرت، منها دبابة كانت تحمل قائد المنطقة الشمالية ونائبه، وهذا على فكرة كان من المتحمسين جداً لفتح حرب على لبنان، الحصاد آخر أكتوبر الأبيض علينا والأسود عليهم كبير جداً، مما دفعهم إلى أن يفكروا في إنهاء المناورة على الحدود اللبنانية. (صدّقناكم مناورة!).

وكان أيضاً للمقاومة الفلسطينية في غزة عمليات نوعية أوقعت في صفوفهم خسائر كثيرة دُمّرت كثيراً من الدبابات والجرافات، نصبوا لهم كمائن كثيرة وتفننوا في حرب العصابات، من قنص ورمي وتدمير، كل يوم يستمتع جمهور المقاومة بفيديوهات جديدة تصدرها المقاومة عن بطولاتها العظيمة وفدائيتها الفذة.

وأبى أكتوبر المجيد إلا أن يضرب ضربة عظيمة أذهلت الناس أجمعين، جمهور المقاومة والجمهور المعادي لها، وقف مشدوهاً مصدوماً مصعوقاً مذهولاً على خبر أوله نشوة للأعداء وزلزال للأصدقاء، وآخره ارتقاء وسموً دونه أي سموً للأصدقاء، وخزي وندامة وهوان ودمار على الأعداء. كان ذلك عندما أعلن عن استشهاد فارس الطوفان القائد الملهم يحيى السنوار.

ذهب الناس بين مصدق ومكذب حتى استقرّ الخبر أخيراً على خبر الشهادة والصورة التي استشهد عليها، تسربت رغم أنوفهم صورة البطولة بأبهى صورها لقائد مجاهد يرتقي مشتبكاً حتى الرمق الأخير. لم يكن مختبئاً في نفق كما روجوا كثيراً طيلة عام من العدوان، رغم أن هذا لا يعيبه كقائد أن يدير المعركة في مأمن نوعاً ما، من ماكينه الحرب الطاحنة براً وجواً وبحراً، وكان ضغطاً هائلاً عليه من قبل كل عناصر القيادة العسكرية والسياسية ألا يعرض حياته للخطر لأنه يمثل الروح العالية في المعركة والتي ينبغي لها ألا تمكن الأعداء من النيل منها، إلا أنه أصر على أن يشارك إخوانه القتال، وكان يقول: هل كان خالد

بن الوليد أو أبو عبيدة عامر الجراح وصلاح الدين وقطز وبيبرس يحاربون خلف الخطوط؟ يأبى إلا أن يكون مع المجاهدين، يتفقدهم ويشدّ على أزرهم ويرمي معهم جنباً إلى جنب، لم تكن هذه هي المرّة الوحيدة بل كانت مرّات كثيرة يجده المجاهدون مشتبكا من مسافة قصيرة جداً والأعداء يحيطون به من كلّ جانب، فيغطونه بالنيران الكثيفة ثم يُلزمونه بالانسحاب بعد فتح عدة جدران في بيوت متلاصقة يخرجون من خلالها إلى شارع خلفي، وهم يهمسون بأذنه: «معركتنا كرّ وفرّ، هذه طبيعة حرب العصابات، هكذا علمتنا شيخنا»، كان يجيد الكرّ ولا يجيد الفرّ - رحمه الله -.

هذه المرّة بعد تبادل كثيف لإطلاق النار بينه وبين قوّة راجلة ودبابة تحيط به، استشهد القائد (رافع سلامة) حيث كان يرافقه ولا يقلّ عنه بأساً وعشقا للشهادة، أصيب فارس الطوفان بذراعه اليسرى وأخذ ينزف دمًا ويشعر بالدوران، كانت آخر وجبة دسمة عبارة عن ثلاث تمرات تناولها قبل أسبوع، بعدها لم تعانق معدته طعاماً، هدير جرافة تضرب بحوافرها الأرض وصوت الزنانات تصخّ أذنيه بكلّ قوّة، الجسد تخور قواه أمام جحافل الروح، إطلاق النار نحو البيت الذي تداعى للسقوط وما يزال يترنح منذ زمن طويل، يتراجع شيئاً فشيئاً حتى توقّف أمام صمت الرّد ونفاد ذخيرته سوى من ثلاث قنابل، لبت هذا النزيف يتوقّف قليلاً، بحث عن شيء يربطه فلم يجد سوى سلك فشده على ذراعه بقوّة، فتح قنبلة وهو يسمع صوت أقدام تقترب، لجأ إلى أريكة واضجع عليها محاولاً التخصّي منهم، رماهم بواحدة وأتبعها بثانية وأبقى الثالثة، ولّوا مدبرين بمن أصيب منهم.

دقائق صعبة رأى فيها الشهيد شريط حياته مذ ولد لا جنأ في مخيم خانيونس للأجئين إلى أن تخرّج مدرّساً ثم التحق بكتائب عز الدين ليعمل الأعاجيب في جيش الاحتلال، ثم السجن المؤبد وثلاث وعشرين سنة من الصبر والعلم ومكابدة السجان، ثم رحلة الإعداد للطوفان ويوم الطوفان وحرب ضروس بعدها، كانت الرؤيا من بين الأنقاض وغبار المعركة وجبهة الجسد بما نزت من دماء وخارت القوى من جوع سبعة أيام، وكانت هناك الإرادة من أعماقه وحدها صابرة، ترسل أوامرها بقوّة لتفتح العينين وتنهض بقايا قليلة متهاككة مرهقة من قبض يد تمسك بأخر قنبلة.

أرسلوا طائرة مسيّرة، دخلت البيت وفتحت كاميراتها عليه، رماها بالقنبلة ثم عصا كانت بجواره ليتكأ عليها من إصابة قديمة في قدمه، وكان هذه اللعينة قد أرتهم المشهد بث مباشر سريع، زمجرت الدبابة وضخت نارها على البيت الذي خرّ سقفه وتطايرت جدرانها فوق القائد، لم يعلموا بأن هذه المعركة كانت مع الذي يبحثون عنه منذ سنة بكل ما يملكون من قوى استخبارية تجسّسية الكترونية جوية وأرضية وبشرية، وبما استعانوا من طائرات تجسّسية عملاقة بريطانية وأمريكية، لم يصلوا إليه حيث كانوا يظنون أنه مختبئ في أعماق الأرض، فوصل إليهم هو فوق الأرض مقبلاً غير مدبر، هكذا تحدّث جمهور المقاومة، سرّبوا الصورة الأخيرة ليضربوا الروح المعنوية للناس، فانقلب السحر على الساحر وتحول القائد الشهيد إلى مصدر مشرق لإلهام الثورة روحها العظيمة بأعلى تجلياتها في هذه المرحلة الحساسة، والتي كان الشهيد ملهماً لها في حياته، فإذا به ملهماً لها ولستقبلها في شهادته العزيزة هذه. بعض اليساريين قالوا إن السنوار أصبح جيفار جديداً للعالم كله وليس لفلسطين، وبعضهم قال إنه قد قطع



الغرفة الزهراء

شوطاً كبيراً عن حالة جيفارا المذهلة والمهمة، فكان السنوار أكثر إلهاماً.

وقع الخبر على الزنزانة الزهراء وقع صاعقة خلخلت أركانها وجعلتها كسفينة حطمت أركانها عاصفة شعواء، عبّروا عن حزنهم طويلاً بعد فترة طويلة من العصف القلبي الحميم، مزيجٌ من الذكريات والمواقف والأفكار وما سطر له التاريخ من أفعال وما ترك من بصمات على كل من التقاه في السجون. وكان لنضال هذا النعي الذي عقد به مقارنة بين شهيدنا وطارق بن زياد.

يحيى السنوار، وحرق لسفن!؟

كان لطارق بن زياد هذا الفعل أن يحرق سفن العبور إلى حيث يُصنع النصر، وحتى يقطع تعلق جنده بفرصة النجاة إذا تعدّر النصر ليصبح هذا الخيار غير وارد في الحساب.

لم يكن طارق بن زياد متهوراً ولم يكن جباناً يمضي للأمام وعيون قلبه للخلف، بل كان شجاعاً مقداماً، ولا شك بأنه أخذ للمعركة حساباتها ولا بد من أنه درس جبهة عدوه جيداً قبل أن يُقدم على هذا العبور، وجاء هذا الفعل أن يحرق السفن ليرتقي بجنده إلى مستوى الشجاعة التي تجود بها نفسه، وليسرل أيضاً رسالة حاسمة ساحقة لعدوه: أننا جئنا برجال يحبون الموت والشهادة، كما تحبّون الحياة والسعادة.

المرّة الأولى: التي حرق فيها يحيى السنوار سفنه عندما قرّر قراراً حاسماً لا رجعة فيه أن ينطلق مع المقاومة وأن يجعل كل حياته مرتبطة بها ارتباطاً كاملاً وعميقاً وقوياً، في حينها حرق سفن دنياه الواعدة المنكرة لمأساته ونكبته، أرادت له حياة اللجوء أن يتخرّج مدرّساً وأن تستوعبه وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في حضانها الدافئ وأن تقطعه عن موطنه الذي هجر منه بعد أن سيطرت عليها العصابات الصهيونية سنة ٨٤، أرادوا له أن يعيش المخيم بكل تفاصيله بعيداً عن مفتاح بيت أبيه الذي ما زال معلقاً في صدر البيت، وما زالت الحسرة تضرب أطنابها في صدر أبيه، هنا كان لا بد له من حرق السفن التي تقطعه عن حقه الذي يتلذذ بخيراته ذلك الغاصب المحتل، ثم إن هذا المحتل لم يكتف بما اغتصب سنة ٨٤، جاءه إلى المخيم ليجعل من حياته جحيماً لا يُطاق. حرق السفن وصار مجاهداً بامتياز يذيق هذا العدو شر ما اقترفت يدها، أصبحت كلفة الاحتلال عالية وكان للسنوار أن يؤسس لمقاومة جعلت من القطع جحيماً للاحتلال.

المرّة الثانية: عندما تم الالتفاف على الانتفاضة الفلسطينية وأجهزوا عليها بمفاوضات عبثية أمعنّت في ضياع الحقوق الفلسطينية، كان لا بد من حرق السفن والعمل على إنتاج بناء ثوري يعيد القضية إلى معادلتها الأبية، شعب محتل واحتلال ومقاومة، وكان له أن يقع في الأسر وأن يحمل المؤبد على عاتقه، ونجح هناك في بناء أكاديمية عسكرية أمنية تقيم الأسس التنظيمية الصحيحة والقوية، عندما تداعى الأسرى إلى انتظار الفرج بعد توقيع اتفاقية أو سلوا قال لهم الحديث الشريف: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة واستطاع أن يغرسها فليغرسها» واستثمر حبسته الطويلة وعلى مدار اثنتين وعشرين سنة أعظم استثمار، طور الحياة الاعتقالية في المجالات الثقافية والتربوية والأمنية والتنظيمية،



واشتغل في التأليف والترجمة والأدب، كتب الدراسات الهامة في المجالين السياسي والأمني وكتب في المجال الأدبي الرواية، وترجم كثيراً حتى أصبح خبيراً متخصصاً في المشهد الإسرائيلي بكل تفاصيله السياسة والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، وتراكيبه الحزبية والإثنية والعرقية وجذوره الأيدولوجية والفكرية، لقد فهمهم أكثر مما يفهمون أنفسهم، وكان بذلك في سجنه مرابطاً في مواقع الفكر والمعرفة والقدرة العالية على الاستفادة منها لنفسه ولبنى قومه.

المرّة الثالثة: بعد الإفراج عنه، كانت قد تراكمت سفن كثيرة تحتاج إلى الحرق حتى تستمرّ مسيرة مقاومة المحتلّ، هناك من تداعوا إلى رخاوة العمل السلطوي ورغد العيش، وهناك من طغت على أدمغتهم حسابات الاحتلال وقوته وجبروته وصعوبة مقارنته ومعادلات فنّ الممكن السياسيّة، بصورة أخرى تزيّنت لهم روح الهزيمة بذهلوات الأفهام السياسيّة التي تعي الواقع بواقعية غراماتيّة تقتضي مسابرة وتجنّيبه الصراع أو حصره وفق قواعد اشتباك ناعمة لا تسمن ولا تغني من جوع، وفي ذات القوت كان قطار التطبيع العربي يسير مسرعاً ويفتح أحضانه للمزيد من الدول العربيّة التي رضي الاحتلال عنها ورضيت عنه، وكان هنا أمام الشهيد خيار السلطة الزائفة وأن يتحوّل إلى شخصيّة براغماتيّة معتدلة بالمفهوم العربي الهابط، يحظى بالقبول والرضى والسفر والتنقّل في العواصم والفنادق مع خطاب ثوري ناعم تسمح به هذه المعادلات وتزيد من رصيد شعبيته حيث تطلب الأمر، الخيار الثاني هو حرق كل هذه السفن والمضي قدماً في مشروع التحرير والاشتباك مع هذا المحتلّ على أسوأ ما يراها في كوابيسه، اختار الخيار الآخر دون تردد، وأخذ بإعداد العدة الكاملة لإنجاح هذا الخيار.

وهنا وفي هذا المسار الذي اختاره لنا أن نتساءل: كيف ربّ له كل ما يلزم عسكرياً وأمنيّاً وتربويّاً؟ وكيف اشتغل على إنتاج إنسان المقاومة ولوجستيات المقاومة إعداداً وتجهيزاً واتقاناً وإبداعاً، هنا يكثّر الحديث لأنّ العمل كان كثيراً كمّاً ونوعاً، وما فاجأ به العالم يوم السابع، يوم أكمل حرق السفن وعبر عبوره العظيم ينبئ بحجم العمل الذي سبقه وينبئ بحقيقة القدرات العالية التي ضحّت جهدها والتي نرى فيها بصمات هذا القائد العظيم بكل وضوح.

ما أودّ القول بعد استشهاده باختصار شديد أن هذا القائد العظيم لم يكن بالإمكان أن يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد قرار حرق السفن، لقد حرقها وانتهى الأمر، وقد قطعت شوطاً كبيراً في حرب استنزاف طويلة وضعت دولة الاحتلال على محكّ البقاء أو الزوال، دفعت المقاومة والشعب الفلسطيني وكذلك محور المقاومة وبالذات اللبنانية مقاومةً وشعباً تضحيات جسيمة، ولا يمكن بعد استشهاد القادة أن تعود هذه السفن أو أن نلتفت إلى الوراء بل نزيد إصراراً، ولا ننسئ بأنّها وضعت الأمة أمام مسؤولياتها وجهاً لوجه، ولتحرّر الشعوب ممن يحول بينها وبين القيام بأقدس واجباتها. لا مناص إلا بالمضي قدماً إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، الحياة التي تسر الصديق وتكيد العدو، حياة النصر أو الشهادة على خطى شهدائنا العظام.

«علق علاء:»



الغرفة الزهراء

- أثلجت صدورنا سيدي نضال، لله درك ! كنتَ موفقاً بهذه المقارنة.

« وعلق نائل: »

- في مراحل تاريخية حساسة نحن بحاجة إلى أن نحرق السفن.

« وهتف نضال: »

- وقد حرقها السنوار، لقد فهم عدونا وكل المعسكر الذي تحشد معه الرسالة من حرق السفن، اعتبروها صراع بقاء لكيانهم الذي أقاموه كقاعدة عسكرية متقدمة لإبقاء المنطقة تحت نعالهم، بينما أمتنا لم تصلها الرسالة بعد، فهل تصلها بعد أن استشهد من أحرق السفن؟

« تابع نائل منفعلاً: »

- من هم تحت النعال لن يفهموها سيدي، أما الشعوب فقد آن لها أن تتحرر ممن هم تحت النعال. « تابع نائل »

« هتف علاء: »

- وستبقى بصمة السنوار عنواناً لتحريرنا وتحرير فلسطين وتحرير أمة قد طال عليها الأمد.

« هز نضال رأسه وهتف من أعماقه: »

- وهل هناك أوفي من السنوار فيما قطعه من عهد لتحرير من بقوا في السجون بعده، هل كنا مجرد أن نتخيل ما فعل من أجلنا؟

« هتف نائل: »

- رجال ارتووا حرية وكرامة وسيادة، تحرروا من عبادة الاحتلال وكل أشكال الخضوع والاستحواذ.

« وعقب علاء مترثماً: »

- تذكري دائماً سيدي نائل بكتاب علي شريعتي «النباهة والاستحمار».

« فترنم نائل: »

- من هناك كانت البداية، أما اليوم فإننا صرنا في زمن الطوفان الذي يُبدد ليل الطغيان.

« وهتف الراوي: »

- يقيننا بالله كبير وهو على كل شيء قدير، لئنهُ روايتنا مع نهاية أكتوبر الأسود عليهم، والأبيض علينا.

الغرفة الزهراء

هنا استدرك نضال:

- قبل أن تُنهي سيدي الراوي، وبعد تردد طويل دام قرابة الشهر، هل أحدثكم عن رؤيا تكزرت معي كثيراً؟ أم أبقيتها طي السر والكتمان، حسمت أمري أخيراً أن أحدثكم بها من باب البشري والأمل.

هتف نائل:

- سامحك الله، ما دام فيها البشري فلم تبخل علينا بها؟ أم أخذت بقول يعقوب عليه السلام: (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً)؟

علاء رماه بعتابه:

- هذه لن نغضرها لك إلا إذا كان فيها فرج. هات ما عندك وأسرع.

« تهادى نضال يميناً ويساراً على عادته وانطلق لسانه بجميل ما رأى: »

رأيت في يوم مشمس غيوماً تمطر بغزارة فينبت هذا المطر بشكل سريع نخلاً وزيتوناً، كان هذا في الضفة وغزة ومصر، ورأيت مسرحية حاشدة على خشبة مسرح يلتف حولها مئات من رجال المقاومة بزيهم وعتادهم العسكري وحولهم جماهير غفيرة لا نهاية لها، وكأنه حفل تخريج جامعي ولكن الخريجين هم الأسرى الإسرائيليون، جاءوا بهم بسيارات المقاومة «التندر»، سلموهم شهاداتهم على منصة عالية ثم استلمهم رجال من الصليب الأحمر وانطلقوا بهم والجماهير تهتف للمقاومة. مسرحية مكتملة الأركان رأيتها في عدة ليال كل مرة تجري عليها بعض الإضافات: أقول في نفسي: معقول؟ ما هذا الإنتاج المسرحي المذهل في غزة؟ وكيف يكون هذا في زمن هذه الحرب المدمرة؟

أنى لهذا المسرح أن ينصب بسرعة مذهلة وصورة متقنة وظروف مستحيلة وإمكانات معدومة، ويأتي بكل هذه الهندسة لخشبة العرض بكل التفاصيل المناسبة للنص وأبعاده المباشرة والرمزية واختيار الخلفية المناسبة والصور المعبرة عن روح النص .. كيف قام كل بدوره من مئات الممثلين؟ وكان ممّا رأيت أسراهم وهو يلوّحون للجماهير المعادية لهم ويرسلون لهم تحياتهم بوجوه مشرقة وتفاعل عميق.. وكانت بمثابة مسرحية لا تقوى أية وكالة إعلامية على تجاوز عرضها على شاشاتها على مستوى العالم .. مسرحية بآلاف المسرحيات من حيث الإتقان والعرض وسعة الجمهور المتابع، حتى معسكر الأعداء لهذا المسرح كان مضطراً لحضور هذا العرض. فما رأيكم دام فضلكم؟

تهلّلت وجوه الشباب، هتف نائل:

- هذه لا تحتاج إلى تفسير، الغيوم والمطر هم أسرى يتحررون ولهم مستقبل في إعادة إنتاج القضية الفلسطينية من جديد وستثمر جهودهم خيراً وقيراً.

تابع علاء:



الغرفة الزهراء

- والمشهد المسرحي رمز لطريقة تحرير الأسرى في صفقة تبادل مشرفة بإذن الله.

« سأل سائد: »

- وهل ظروف هذه الحرب المدمرة وبعد هذا الوقت الطويل ستسمح لرجال المقاومة أن يظهرُوا بلباسهم العسكري وبهذه الطريقة المبهرة؟ أرى أنّ عقلك الباطني قد رسم هذا المشهد من بناته المتفائلة دوماً، هذا مستحيل بعد كل هذه الحرب الدمّرة. «اسمع لي، لقد سرحت غزالتك بعيداً بعيداً سيدي نضال»

« هتف نائل مستبشراً: »

- خبرتي الطويلة بأحلام سيدي نضال أنّها لا تخطئ أبداً. وما ذلك على الله بعزيز.

- أسأل الله أن تكون قريبة.

- يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

سأل علاء مازحاً:

- هل رأيتني أغتسل بذاك المطر؟

- أنت المطر نفسه. «أجابه نائل»

- وما حكاية مصر؟

- كأنّ بعض محرري الصفقة سيكون خروجهم مشروطاً بالإبعاد.

- والله أعلم.

ملاحظة الراوي:

(بعد أربعة شهور تحققت هذه الرؤية بصفقة تبادل عظيمة بعد أن أجبرت المقاومة الاحتلال على وقف إطلاق النار، أطلقت سراح المؤبدات الذين طال عليهم ليل السجن من فم الموت المحقق، أراد لهم المحتل الموت في السجن وأرادت لهم المقاومة أن يُحرروا فتحرروا.

تحققت إرادة المقاومة بعرض وطني عظيم حلق فيه عالياً المُحرر والمُحرر، وهذه تحتاج إلى رواية جديدة من عزة وروعة تجلياتها وما حوته من تفاصيل عظيمة، كيف وصلت المقاومة إلى هذه اللحظة؟ ماذا فعلت وبماذا ضحّت وكيف أبدعت؟ كيف جعلت من المستحيل ممكناً في ظروف معقدة ومختلفة في موازين القوة ببون شاسع كبير كان أحد طرفيه كل قوى الشر في العالم أجمع، والطرف الثاني مقاومة محاصرة لا سند لها ولا ظهر إلا ما ذكرنا سالفاً، لا شك بأن قصة هذه الصفقة العظيمة، المبهرة والعزيرة والمجيدة كمن يستخلص فريسة من أنياب وحش مفترس أو كمن يُخرج من التقمه حوت من ظلماته الثلاث. لقد

الغرفة الزهراء

أرت العالم كيف تنتزع الحرية من أكثر الناس حقداً وعنصرية وسادية).

سنة ونيف من زمن هذه الحرب الضروس، كانت وستبقى غزّة بمثابة الخميرة التي يختمر بها تحرير الأُمّة، وعادت فلسطين إلى أصلها القضية المركزية للأُمّة، منها وبها تتحرّر، وكما قال الشاعر تميم البرغوثي مقولته القويّة:

(تحرير فلسطين كل فلسطين مُمكن وقد بدأ)

وسأضيف عليها: وتحرير الأُمّة أيضاً ممكن وقد بدأ.

طوفان الوعي الذي أنتجته غزّة لن يتوقف. تحرير الأُمّة يحرّر فلسطين وتحرير فلسطين يحرّر الأُمّة.

وجيل الطوفان لن يتوقف إلا بالتحرير الكامل والشامل للأُمّة وفلسطين ولن يتم ذلك إلا كما فعل السّنوار بحرق سفن الأوهام وكل أشكال الهزيمة والخذلان .

ملاحظة : أبطال الرواية الاربعة علاء البازيان ونائل البرغوثي ونضال زلوم وعبد الناصر عيسى تم تحريرهم في صفقة التبادل التي عقدت بين المقاومة والاحتلال يوم (٢٧-٢-٢٠٢٥).

